الدكتور بدوي طبانه

مُعلّقات العَرب

دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد القاهرة

معلقات العرب

دراسة نقدية تاريخية فى عيون الشعر الجاهلى

تأليف

دكتور بدوى طبانه

أستاذ النقد الأدبي المساعد

كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

الطبعة الأولى

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م

مطبعة الرسالة
٣ شارع حمّوده المقاول - عابدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه دراسة جديدة فى « معلقات العرب » وهى تلك القصائد الطوال المأثورة عن أعلام الشعراء فى العصر الجاهلى .

وللشعر الجاهلى مكانته المرموقة بين المأثور من أدب العرب طوال حياتهم التاريخية منذ ذلك الزمن البعيد الذى عاشوا فيه فى حدود جزيرتهم أو أطرافها لا يتجاوزونها إلا لماماً ، إلى العصور التى انتشروا فيها فى الأرض حاملين أضواء الإسلام الذى حملوا مشاعله إلى مختلف البقاع ، وتقاليد العروبة التى ربوا فى ظلالها ، والتى ورثوها عن أسلافهم الأمجاد .

وكأنما ورث العرب طبيعة الحرص على هذا التراث الأدبى ، حتى أصبحت تجرى فى دمائهم وتتنقل فى أصلابهم ، فلم يفقدوها فى عصر من عصورهم ، أو فى مصر أمصارهم ، فما من عصر من عصور التاريخ الطويلة التى عاشت فيها الأمة العربية إلا وقد برزت العناية فيه بالشعر الجاهلى بروزاً واضحاً ، على الرغم من الأحداث التى كانت تستهدف لها هذه الأمة ، فتفرق صفوفها ، وتعبث بوحدتها ، وتعود بها القهقرى فى ميادين السياسة والاجتماع ، وميادين العلم والمعرفة ، حتى صارت أوطانهم مطمعا للغزاة الذين كانوا ينتهزون فرص الضعف فيستغلونها ، ومواطن النقص فى صفوفهم فيعملون على اقتحامها .

ولم تستطع تلك الأحداث الكثيرة والخطوب المبيرة أن تغشى على ذلك التراث الأدبى الحافل ، ولا أن تنسى العرب تعهد هذا الأدب بالرواية والحفظ

والمدارسة ؛ لأنهم وجدوا هذا الأدب ركنا من أركان حضارتهم الفنية ، وثقافتهم الأدبية .

ولا يزال الشعر الجاهلى يحظى بهذه المنزلة فى زماننا ، فى جميع البلاد الناطقة بالضاد ، وغيرها من البلاد التى تعنى بتاريخ هذه الأمة ، ودراسة حضارتها ومقوماتها، سواء أكانت تلك الدراسة تستهدف المعرفة المجردة ، والبحث الذى يراد به استتمام حلقات المعرفة بالشعوب ، والحضارة الإنسانية ، أم كانت ترمى إلى تحقيق غرض مادى من أغراض السيادة والاستغلال .

ذلك أن الشعر الجاهلى — وهو أبرز فنون الأدب العربى — يعد أهم مصدر من المصادر التى يستمد منها الباحثون فى تاريخ هذه الأمة وحضارتها ، ولذلك عنيت الكليات الجامعية ، ومعاهد التعليم العالى فى الحواضر العربية وغيرها بدراسة هذا الأدب ، وأصبحت دراسته تقليداً فى مدارس التعليم العام ، تشغل مكانا ملحوظا بين مناهج تاريخ الأدب .

وكان من أسباب تلك العناية أيضاً أن النظام الذى سلكه أولئك الشعراء الأولون فى نظم ذلك الشعر ، ظل هو الطراز الذى تتطلع إليه أنظار الشعراء فى العصور التالية ، وظل هو النظام المتبع والطراز المحتذى فى التعبير الشعرى عند أمة العرب منذ أقدم العصور إلى الوقت الذى نعيش فيه ، ولم يستطع الشعراء مع تباعد الزمن واختلاف البيئات أن يخرجوا على تلك النظم والتقاليد التى سنها الشعراء الأولون فى ذلك الزمن البعيد . فأوزان الشعر لا تزال هى تلك الأوزان القديمة التى نظم الجاهليون شعرهم عليها ، ونظام القافية الموحّدة لا يزال كما هو ، إذا استثنينا بعض محاولات للتخفف من قيود تلك الوحدة التى تكلف للمشتغلين بصناعة الشعر ثقافة لغوية، ومعرفة بعدد كبير من مفردات اللغة ومترادفاتها يصلح لاختيار ما يلائم المعانى ، وما يلائم حروف القافية المختارة . وإذا استثنينا محاولات

أخرى للتخلص من هذه القافية أصلا ، وللتخفف من قيود الوزن ، فيما يسمّى بالشعر المرسل أو الشعر الحر أو الشعر المنثور . وإن كانت تلك المحاولات لم تستطع أن تطغى على التقاليد الأصيلة فى بناء القصيدة ، تلك التقاليد التى سنها الأولون ، وجرى عليها الشعراء فى العصور التالية التى ازدهر فيها الشعر والأدب .

ولكل هذا عظمت العناية بالشعر الجاهلى فى أيامنا ، كما عظمت فى العصور السابقة ، بعد الإحساس بالصلة الوثيقة التى تصل حلقات هذا الشعر بعضها ببعض ، وأن على دراس الأدب الحديث أن يقف على تلك التقاليد ، حتى يستطيع أن يحدّد محاولات التجديد ، ويعرف مجالات التقليد .

ولقد كانت « المعلقات » هى الصورة الأخيرة التى انتهت إليها تجارب الجاهليين فى التعبير الشعرى ، ولذلك فاقت شهرتها شهرة ما سواها من الشعر الجاهلى ، بل الشعر العربى على الإطلاق ، وأصبح لأصحابها من الذكر فى تاريخ الأدب العربى مالم يظفر به غيرهم من الشهرة وذيوع الصيت .

ومن الممكن اعتبار تلك الصورة التى وصلت بها إلينا المعلقات الصورة الكاملة للشعر العربى ، بما اجتمع لها من حسن الوزن ، وجودة القافية ، وقوة المعانى ، وجزالة الألفاظ ، ومتانة الصياغة . وكانت تلك الصفات هى السبب فى أن ينظر الشعراء العرب دائما إلى تلك الصورة المثالية التى رأوها فى المعلقات ، وأن يحاولوا محاكاتها فى تعبيرهم الشعرى عن عواطفهم وآلامهم وآمالهم ووصف مجتمعاتهم ، كما عبرت تلك المعلقات أقوى تعبير عن أمانى النفس وعواطفها وانفعالاتها ، وكانت أصدق صورة للمجتمع الذى عبرّت عنه فى ذلك الشعر القوى الرائع ؛ كما كانت مجتمعاً لألفاظ اللغة العربية ، وأساليب التعبير بها .

وبهذه النظرة نظر إليها علماء اللغة وعلماء الأدب الذين اتخذوا منها مواطن

الاستشهاد على صحة اللفظ وصحة الأسلوب ، ومقياساً من مقاييس التشريع اللغوى وكانوا على حق فيما ذهبوا إليه ، إذا كانت صحة ذلك الشعر مما لا يقبل الجدل ، لصدوره عن أصحاب اللغة الأصليين ، الذين وضعوا ألفاظها ، واصطلحوا على مفهوماتها فى الاستعمال ، ودلالاتها إن هى ركبت ، ووضع بعضها إلى جوار بعض ، واختلاف تلك المفاهيم إذا تغير الوضع ، أو اختلاف الضبط . ولم يكن لأولئك الذين جاءوا من بعدهم أن يغيروا عليهم ما وضعوا وما ارتضوا من تلك الدلالات أو تلك الاستعمالات ، وهم الذين أخذوا تلك اللغة عنهم بالتلقى والتلقين .

وكذلك نظر نقاد الأدب إلى هذه المعلقات ، لأنهم إنما يضعون مقاييسهم وفقاً لمجموعة التقاليد التى سنّها الأدباء ، و ينظرون إلى الظواهر المشتركة والخصائص الفنية ، ليقيسوا ما ينشأ فى عصورهم بما كان قبلهم ، ومعنى ذلك أنهم لا يبتدعون جديداً فى تلك المقاييس ، وإنما يستكشفون من طبيعة التراث الأدبى تلك المقاييس بما يجمعون منه من أسباب الجمال أو القوة أو الوضوح . وقد رأوا الإجماع ينعقد على توافر تلك الأسباب فى شعر المعلقات ، باعتراف البيئة التى أنشدت فيها ، واعتراف الخبراء بعميق تأثيرها فى نفوس الذين عاصروا قائليها ، ورأوا بأنفسهم التجارب التى عبرت عنها تلك المعلقات .

و يبدو أن هذا التقديس — و إن كانت له أسبابه الوجيهة — كان خطراً على الشعر العربى فى عصوره كلها . ذلك لأن اعتراف العلماء والنقاد ، بل واعتراف الشعراء أنفسهم ، بعظمة تلك المعلقات ، وجودة الفن الشعرى فيها ، كان هو الذى دعا الشعراء فى سائر العصور إلى محاكاتها ، والأخذ بنظامها فى طريقة النظم ، وفى تعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة ، بل وفى بدء قصائدهم بوصف الدمن والأطلال ، وجوب الفلوات على ظهور الإبل والمطايا ، وغير ذلك مما كان حقيقة واقعة بالنسبة للجاهليين فى بداوتهم ، وكان كذباً وتدليساً بالنسبة لغيرهم من الشعراء الذين سكنوا الحواضر العامرة ، وعاشوا فى الأمصار التى تعج

بصنوف الحياة وألوان الحضارة . ومن هنا فقد كثير من هذا الشعر سمات الأصالة، وبدا تعبيراً عن عواطف مصطنعة ، وتجارب كاذبة ، وفقد تبعا لذلك تأثيره فى نفوس الأفراد والجماعات ممن يسمعونه أو يقرءونه ، إلا بالقدر الذى يسترجعون به ذكريات الشعر القديم ، وذكريات الأسلاف الذين عبروا بهذا الشعر ، أو عبّر عنهم ذلك الشعر .

وأيًّا ما كان الأمر فإن هذه المعلقات قد حظيت بتقدير علماء العرب ونقادهم، بما تعهدوها به من الحفظ والرواية، وبما تولوه من شرح الغامض من مفرداتها وتراكيبها.

وقد عهد إلىّ قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم القيام بإلقاء بعض المحاضرات فى موضوع من موضوعات الأدب الجاهلى ، فاخترت « المعلقات » موضوعاً لتلك المحاضرات ، التى كانت خلاصتها هذا البحث الذى أنشره اليوم فى هذا الكتاب .

وقد نظمت البحث فى المعلقات فى أربعة فصول :

ففى الفصل الأول شرحت مدلول لفظ « المعلقات » الذى أصبح مصطلحاً من المصطلحات الأدبية ، وذكرت أسماءها المختلفة التى عرفت بها فى العصور ، وقد عنيت فى هذا الفصل بتوثيق المعلقات، واستعرضت الآراء التى دارت حولها، وفندت الأقوال التى تشكك فى صحة ثبوتها ، أو فى نسبتها إلى أصحابها ، بما اطمأننت إليه من الحجج والأسانيد .

وفى الفصل الثانى عرضت لأصحاب المعلقات ، وذكرت تاريخ حياتهم ومنزلتهم بين الجاهليين ، وموضوع كل معلقة ، وأغراضها ، وأهم خصائصها ، وأتبعت ذلك بالنصوص الكاملة لكل معلقة ، معتمداً على أصح الروايات ،حتى لا يضطر القارىء إلى التماس تلك النصوص فى مصادر أخرى قد لا تتيسر له . واقتصرت من هذه المعلقات على السبع التى اتفق عليها معظم الرواة ، وصرفت

النظر عن القصائد التى كانت موضع خلاف بين الرواة فى اعتبارها من المعلقات .

وخصصت الفصل الثالث لدراسة المجتمع العربى والحياة العربية فى شتى مظاهرها ، كما صورتها المعلقات ، وفى هذا الفصل ذكرت ما فى المعلقات من أسماء المواضع والجبال والرياح والسحاب والمطر والمياه والنبات والحيوان ، وأيام العرب وحياة الحرب والسلام ، وأدوات القتال ، ومنزلة المرأة عندهم ، ومظاهر الحضارة فى الحياة الجاهلية ...

وكل ذلك استخرجته من نصوص المعلقات نفسها ، ولم ألجأ إلى مصدر آخر سواها .

وفى الفصل الرابع درست الفن الشعرى فى المعلقات ، وعرضت فيه لنظام المعلقات وأوزانها وقوافيها ، وألفاظها وأساليبها ، ومعانيها وأخيلتها ...

وقد حرصت على أن تكون هذه الدراسة دراسة موضوعية ، تعتمد على النص وحده ، وتأخذ منه ما يستطاع أخذه فى غير تعمل ولا إسراف فى التأويل ، أو تحميل للألفاظ ما فوق طاقتها من الاحتمال ؛ ولذلك لم أجاوز شعر المعلقات إلى غيره من المأثور من الشعر الجاهلى ، حتى تكون دراسة موضوعية عميقة متخصصة. وقد استعنت ببعض شروح المعلقات وفى مقدمتها كتاب «نهاية الأرب من شرح معلقات العرب» للنحاس ، وكتاب « شرح القصائد العشر» للتبريزى.

وأرجو بعد ذلك أن أكون قد وفقت إلى خدمة هذا اللون من ألوان الأدب الذى اعتز به العرب دائما ، على درجة قريبة من الكمال .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؟

مصر الجديدة { ربيع الأول ١٣٧٨ هـ
أكتوبر ١٩٥٨ م

بدوى أحمد طبانه

الفصل الأول

المعلقات

— ١ —

يعبر الدارس للأدب العربي والمتتبع لمراحل تطوّره ، بمجموعة من المصطلحات التي كان لها بأصل وضعها اللغويّ دلالاتها الخاصة ، وكانت — في هذا الأصل اللغوي — صفات صالحة لأن يوصف بها كل شيء اجتمع فيه ما يجعله صالحاً للوصف بها .

ولكن تلك الحقائق اللغوية في دلالة تلك الألفاظ على معانيها توارت في عرف هذا الأدب وفي عرف دارسيه ، وأصبح لها مدلولات خاصة عندهم ، ومفاهيم محدّدة ، لا يكادون يقصدون سواها عند إطلاقها ، ودخلت بسبب هذا الاستعمال في باب « الحقيقة العرفية » ؛ وأصبحت مصطلحات تدل على معانٍ خاصة معروفة عند دارسي هذا الأدب وعند مؤرخيه .

وقد أصبحت تلك المصطلحات تطلق عندهم على مجموعات من الأعمال الأدبية ، تصلها روابط من الوحدة في أغراضها أو أفكارها أو أسلوب تأليفها . فأنت تجد في هذه المجموعات ما أطلقوا عليه أمثال مصطلحات « الحوليات » و « الاعتذاريات » و « النقائض » و « الهاشميات » و « السّيفيات » ... وأشباه هذه الألقاب والمصطلحات مماله معنى خاص في الأدب العربي وتاريخه .

ومن أقدم هذه المصطلحات التي عرفها تاريخ الأدب العربي لفظ (المعلقات)

الذى كان فى الأصل اللغوى وصفاً صالحا لكل شىء يعلّق ، ثم أخذ اللفظ طريقه إلى الأدب ، وأصبح يطلق على مجموعة معروفة من أقدم القصائد التى أثرت عن فحول الشعر العربى ، فى العصر السابق لعصر الإسلام ، الذى يعرف فى تاريخ الأدب العربى بالعصر الجاهلى ..

وأصحاب هذه (المعلقات) عند بعض الباحثين سبعة من الفحول المقدّمين ، وهم كما أحصاهم ابن عبد ربّه ، صاحب « العقد الفريد » [١] :

(١) امرؤ القيس ، ومعلّقته قصيدته التى أولها :

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فحَوْمَلِ

(٢) زُهير بن أبى سُلمَى ، ومعلقته قصيدته التى أولها :

أَمِنْ أُمِّ أوفَى دِمنةٌ لم تكلَّمِ بحومانةِ الدَّرَّاجِ فالمتثلَّمِ

(٣) طَرَفَةُ بن العبد ، ومعلّقته قصيدته التى أولها :

لِخَوْلَةَ أطلالٌ ببرقةِ ثَهْمَدِ تلوحُ كباقِي الوشْمِ فى ظاهرِ اليدِ

(٤) عنترة بن شدّاد العبسىّ ، ومعلّقته قصيدته التى أولها :

هل غادر الشعراء من مُتردَّمِ أمْ هلْ عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ [٢]

(٥) عمرو بن كلثوم ، ومعلّقته قصيدته التى أولها :

---

(١) العقد الفريد ٩٨/٣ (المطبعة الأزهرية المصرية — القاهرة ١٣٢١ هـ)

(٢) الذى ذكره صاحب العقد أن معلقة عنترة هى قصيدته « يادارعبلة . . » يشير إلى بيته :

يادار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

وهو ثانى أبيات المعلقة ، أما مطلعها فالمشهور ماذكرته . ولعل وهم صاحب العقد يرجع إلى مافى هذا البيت من التصريع .

ألا هُبِّى بصَحنِك فاصْبَحِينا ولا تُبقى خمورَ الأنْدَرِينا

(٦) لبيد بن ربيعة العامرى ، ومعلقته قصيدته التى أولها :

عفَت الديارُ محلُّها فمُقامُها بمِنًى تأبَّد غَوْلُها فرِجامُها

(٧) الحارث بن حِلِّزة ، ومعلقته قصيدته التى أولها :

آذنَتْنا ببينها أسماء رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواء

و« الزوزنى » شارح المعلقات يوافق ماذكره ابن عبدربه فى المعلقات وأصحابها وعددها على النحو السالف .

أما أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، صاحب « جمهرة أشعار العرب » فإنه يجعل أصحاب المعلقات ثمانية فحول ، يسقط من هؤلاء السبعة الحارث ابن حلزة ، ويضيف النابغة الذبيانى ، ويجعل معلَّقته قصيدته التى أولها[1] :

عُوجُوا فحيُّوا لنُعْمٍ دمنة الدّارِ ماذا تحيُّونَ من نُؤْيٍ وأحجارِ

كما يضيف الأعشى ، ويجعل معلَّقته قصيدته التى أولها[2] :

ما بكاء الكبير بالأطلالِ وسُؤالى وما تردُّ سُؤَالى

أما سائر المعلقات ، وهى الستّ الباقية ، فإنه يشارك فيها غيره من الشراح والرواة ، فى أصحابها ومطالعها على النحو الذى سبق .

ويضيف أبو زكريا التبريزى إلى هؤلاء التسعة عبيد بن الأبرص ، وملعقته قصيدته التى أولها :

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٧٧ (المطبعة الرحمانية — القاهرة ١٩٢٦ م)

(٢) المصدر السابق ٨٧٠

أقفر من أهـــله ملحوبُ فالقُطبــيــاتُ فالذَّنُوبُ

وذكر أبو جعفر النحاس (٣٣٨ هـ) وهو من شراح المعلقات أنّها سَبع، وأنّ بعضهم أضاف إليها قصيدتى النابغة والأعشى، وإن لم يعدهما من المعلقات.

أما ابن خلدون، فلا يبدو فى كلامه أثر الجزم والتثبت من أصحاب المعلقات، بل يختار من مجموع الأقوال السالفة أقوالا يلفقها، ويضيف إليهم اسما ينفرد بذكره، فى قوله: «... كما فعل امرؤ القيس بن حُجْر، والنابغة الذبيانى، وزهير بن أبى سلمى، وعنترة بن شداد، وطرفة بن العبد، وعلقمة بن عبدة، والأعشى».

والناظر فى هؤلاء يجدهم سبعة، ويجد أن ابن خلدون أسقط من حسابهم شاعرين انعقد إجماع الرواة على عدّهما من أصحاب المعلقات، وهما: عمرو بن كلثوم، ولبيد بن ربيعة.

كما يجده قد زادهم شاعراً، لم يذكره غيره ـ فيما نعلم ـ بين أصحاب المعلقات وهو علقمة بن عبدة؛ ولم يذكر قصيدته التى عُدَّ بها من أصحاب المعلقات.

ودلالة فقد التثبت عنده فى إحصاء المعلقات، أنه بعد أن أحصى أولئك السبعة الذين اختارهم، عطف عليهم بقوله[١]. «وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع». فكيف يكونون سبعة؟ ويحصيهم سبعة؟ ثم يشير إلى غيرهم من السبعة؟!

* * *

على أن هذا الاضطراب الذى يبدو من اختلافهم فى المعلقات وفى عددها

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٨١ (طبعة التجارية — القاهرة)

وفى أصحابها أو إحصائهم ، لا يهولنا ، فإنما منشؤه فى الواقع هو الاعتماد على الروايات الشفوية ، ووعيها يعتمد أولا وأخيراً على ملكة الحفظ . والرواة أو جلهم يدورون فى فلك العدد ، ومن شذ عنه منهم شيء ، فقد يجد من اليسير عليه أن يجد له بديلا ؛ ولا سيما إذا كان ذلك البديل الذى وضع موضع ماشذ عن الذكر مشهوراً متداولا ، يجرى على ألسنة الرواة ، ويحملونه فى متخيرهم ، وله فى النفوس مكانة مرموقة ، مثل مكانة المتفق عليه أو مايقرب منها ، بما فيه من الصفات والخصائص ، التى تجعل مجال الخلاف بينهما ضيقا محدوداً .

وربما يكون بعض هذه القصائد موضوعا تحت ألقاب أو مصطلحات أخرى عند بعض العلماء ، وهذه الألقاب والمصطلحات تدل على الجودة ، ومن أمثلة ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص ، التى عدّها بعضهم من المعلقات ، فقد ذكرها أبو زيد القرشى صاحب الجمهرة تحت لقب « المجمهرات » وتلك « المجمهرات » تلى فى ترتيب ذكرها « المعلّقات » عنده .

والتسليم بجواز مثل هذا التصرف فى تلك الحدود المشار إليها ، بسبب ما يعترى الذاكرة من الغفلة والنسيان ، لا يفضى حتماً إلى إنكار هذه المعلقات أو رفضها جملة . أو رفض ما اتفق عليه منها ، كما سيأتى بيان ذلك تفصيلا .

— ١ —

ولم تكن كلمة (المعلّقات) وحدها هى التى أطلقت على تلك القصائد المشهورة ، بل إن لها ألقابا أخرى تدل عليها ، وتشارك فى عرف الأدب لفظ (المعلقات) فى مدلولها الأدبى ؛ وإن كانت أقل منها ذيوعا وجريانا على الألسنة .

فقد أطلق عليها بعض العلماء لفظ (السّبع الطِّوال) . ذكر ابن خلكان

في ترجمة حمّاد الراوية ما نصه : كان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ، وهو الذي جمع (السَّبع الطِّوال) ، فيما ذكره أبو جعفر بن النحاس[١] وعنه نقل ياقوت أيضا قوله : إن حماداً هو الذي جمع (السبع الطوال)[٢]. وفي جمهرة أشعار العرب يروي أبو زيد القرشي عن المفضّل أن امرأ القيس وزهيراً والنابغة والأعشى ولبيداً وعمراً وطرفة ، أصحاب (السبع الطوال)[٣]. ووصف ابنُ قتيبة طرفة بن العبد بأنه « أجودهم طويلة »[٤]. ونقل ابن سلام مقالة أصحاب الأعشى عنه : هو أكثرهم عروضاً ، وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة[٥].

وهذه التسمية وصف لتلك القصائد بأظهر صفاتها وهو الطول ، وهاك عدد أبيات السبع المشهورة كما وردت في شرح المعلّقات السبع للزّوْزَني :

(١) معلّقة امرىء القيس ، وعدة أبياتها ٨١ بيتا .

(٢) معلّقة طرَفَة ، وعدد أبياتها ١٠٣ .

(٣) معلّقة زُهَيْر ، وعدد أبياتها ٦٢ .

(٤) معلّقة لَبيد ، وعدد أبياتها ٨٨ .

(٥) معلّقة عمرو بن كُلْثوم ، وعدد أبياتها ١٠٣ .

(٦) معلّقة عَنْترة ، وعدد أبياتها ٧٥ .

(٧) معلّقة الحارث بن حِلِّزَة ، وعدد أبياتها ٨٢ .

---

(١) وفيات الأعيان ٥/١٢٠ (طبعة الحلبي — القاهرة)

(٢) معجم الأدباء ١٠ /٢٢٦ (طبعة دار المأمون — القاهرة)

(٣) جمهرة أشعار العرب ٤٥

(٤) الشعر والشعراء ١/١٣٧ (طبعة دار إحياء الكتب العربية — القاهرة ١٣٦٤ هـ)

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٣٠ (طبعة السعادة — القاهرة)

ولا شك أن هذه الأعداد تسترعى النظر ، وتجعل تلك القصائد جديرة بتلك التسمية ، وتدلّ على خاصة من خصائصها أو خصائص قائليها ، ألا وهى «طول النفس» التى يمتاز بها عدد قليل من فحول الشعر فى سائر بيئاته ، ومختلف عصوره . وتدل على قدرتهم الفريدة على هذا الفن الشعرى ، وتمكنهم من زمام القوافى ، يصرّفونها حيث يشاءون .

ويقال إن تسمية هذه القصائد (السبع الطوال) من فعل حمّاد الراوية ، وأنه نقلها من الحديث النبوى الشريف : « أُعطِيتُ مكانَ التوراة السبعَ الطوال » وهى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . واختلفوا فى السابعة أنها يونس ، أو يوسف ، أو الكهف[(١)] .

وقد تسمى تلك القصائد (المذْهبات) إشارة إلى أنها كتبت بماء الذهب وقد ذكر ابن رشيق سبب هذه التسمية فى قوله : وكانت المعلّقات تسمى (المذهبات) وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت فى القَبَاطىّ[(٢)] بماء الذهب ، وعلّقت على الكعبة ، فلذلك يقال : مُذْهَبة فلان ، إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء ..[(٣)]

وقريب من ذلك قول ابن عبدربه « ..حتى لقد بلغ من كلف العرب به (الشعر) وتفضيلها له ، أن عمدت إلى سبع قصائد خيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطىّ المدرجة ، وعلقتها فى أستار الكعبة ، فمنه يقال مذهبه امرىء القيس ، ومذهبه زهير . والمذهبات سبع . »[(٤)]

---

(١) انظر تاريخ آداب العرب للرافعى ٣/١٨٩ (مطبعة الاستقامة — القاهرة ١٩٤٠م)

(٢) القباطى : بفتح القاف وضمها جمع قبطية بضم القاف ثياب من الكتان تنسب الى أهل مصر القبط بكسر القاف ، وضمها فى النسبة على غير قياس .

(٣) العمدة ١/ ٦١ (مطبعة السعادة — القاهرة ١٩٠٧ م)

(٤) العقد الفريد ٣ / ٩٨

وقال ابن قتيبة فى عنترة : فكان أول ما قال قصيدة :

* هل غادر الشعراء من متردَّم *

وهى أجود شعره ، وكانوا يسمونها (المُذْهَبَة)(١)

وقال البغدادى صاحب « خزانة الأدب » فى قول عنترة :

وكأنّ رُبّاً أو كُحَيْلاً مُعْقَداً حَشَّ الوَقُودُ بِهِ جوانِبَ قُمْقُمِ
ينباعُ من ذِفْرَى غضوب جَسْرةٍ زَيَّافةٍ مثل الفَنِيقِ المُكْدَمِ(٢)

هذان البيتان من معلقة عنترة ، وهى من أجود شعره ، وكانت العرب تسميها (المُذْهَبَة) بصيغة اسم المفعول ـ من الإذهاب أو التذهيب ـ وهما بمعنى التمويه والتطلية بالذهب(٣)

وهذا كلام صريح فى أن (المعلَّقات) هى (المُذْهَبات) ذكر العلماء فى بعضه علة هذه التسمية .

ولكن لفظ (المذهَبات) يطلقه أبو زيد القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب على مجموعة أخرى من القصائد ، أو ينقل هذا الإطلاق عن المفضّل الضّبيّ . قال : وأما المذهبات فللأوس والخزرج خاصة ، وهنّ : لحسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة

(١) الشعر والشعراء ١/ ٢٠٦ (دار إحياء الكتب العربية — القاهرة ١٣٦٤ هـ)

(٢) الرب : ما بقى من عصارة التمر ، والكحيل : القطران ، ومعقداً : أوقد تحته حتى انعقد ، وحش : احتش بمعنى اتقد ، والوقود : الحطب ، والقمقم : القدر الصغير ، ينباع : ينبع ، والذفرى العظم الناتىء خلف الأذن ، والغضوب : الناقة العبوس ، والجسرة الماضية فى سيرها ، الزيافة : المسرعة المتبخترة فى سيرها ، والفنيق الفحل ، والمكدم : المعضض والكدم العض

(٣) خزانة الأدب ١ /٨٧ (طبعة دار العصور — القاهرة)

بن الجلاح ، وأبى قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرئ القيس[1] ..

وليس واحد من هؤلاء صاحب معلقة ، بل إن جميع هؤلاء الذين ذكرهم القرشى فى أصحاب المذهبات من طبقة أخرى ، أو من جيل آخر ، يختلف عن السابقين .

ولكن ذلك لاينفى أن « المذهبات » هى « المعلقات » . ومن المحتمل جداً أن يكون الذين سماهم صاحب الجمهرة « أصحاب المذهبات » قد بنيت تسميتهم بذلك على أساس التشبيه بأصحاب المعلقات أو المذهبات المقدمين فى الإجادة ، أو الإبداع ، أو تشابه الأغراض ، وطريقة النظم .

ومن الأسماء التى سميت بها تلك القصائد (السموط) قال صاحب الجمهرة فى تقديم أصحاب المعلقات : والقول عندنا ما قال أبو عبيدة : امرؤ القيس ، ثم زهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو ، وطرفة . وقال المفضل : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب (السُّموط) فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة[2] وقد روى عنه ذلك القول ابن رشيق ، ولكنها فى روايته (السِّمْط) مكان (السُّموط)[3] وكذلك هى فى كتاب المزهر للسيوطى[4]

وأصل التسمية بالسمط أو السموط عن حماد الراوية ، ففى بعض أخباره قال : كانت العرب تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوا منها كان مقبولا ، ومارَدّوا منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة ، فأنشدهم :

* هل ما علمتَ وما استُودعتَ مكتومُ *

(١) جهرة اشعار العرب ٤٥

(٢) جهرة أشعار العرب ٤٥

(٣) انظر كتاب العمدة ١/٦١

(٤) المزهر للسيوطى ٢ / ٢٩٧ (طبعة صبيح — القاهرة)

فقالوا : هذه « سِمْط » الدهر ، ثم عاد عليهم فى العام المقبل ، فأنشدهم :

* طحابك قلبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ *

فقالوا : هاتان « سمطا » الدهر . والسِّمْط عندهم خيط النظم ، والخيط مادام فيه الخرز فهو سِمْط ، وإلا فهو سِلْك ، والسِّمط أيضا القلادة . والأمر فى التسمية قائم على التشبيه .

ومن أسمائها (المشهورات) أو (القصائد المشهورة) وصاحب التسمية الأولى هو حمّاد ، روى ذلك أبو جعفر النحاس فى قوله : إن حمّادا الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه السبع وحضّهم عليها ، وقال لهم : هذه هى « المشهورات » فسميت « القصائد المشهورة » . كما سيأتى .

ونخلص من هذا بأنّ أهم الألقاب التى وضعت للدلالة على هذه المجموعة الخاصة من الشعر القديم هى :

(١) المعلّقات ـ وسيأتى القول مفصلا فى هذه التسمية .

(٢) السبع الطوال ، وقد تسمّى المطوّلات .

(٣) المذْهَبَاتَ : لكتابتها بالذهب أو بمائه .

(٤) السُّموط ، وقد تسمّى السِّمْط .

(٥) المشهورات ؛ وتسمى القصائد المشهورة .

(٦) وقد انفرد الباقلانى صاحب إعجاز القرآن بتسميتها (السبعيّات)[1]

(٧) كما انفرد ابن الأنبارى فى شرحه لها بتسميتها (السبع الجاهليات)[2]

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ١٣٠ (طبعة السلفية — القاهرة ١٣٤٩ هـ)

(٢) شرح ابن الأنبارى ٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ز ١٩٩٠٧)

أما تسمية هذه القصائد بالمعلقات ، وهو أشهر أسمائها ، فإن سببه عند أكثر الباحثين ، هو تعليقها على الكعبة .

قال ابن الكلبي (٢٠٤ هـ) : أولُ شعر علّق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، علّق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم ، حتى نظر إليه ، ثم أُحْدِر ، فعلّقت الشعراء ذلك بعده . وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدُّوا من علّق شعره سبعة نفر ؛ إلا أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم ، وأثبت مكانه أربعة .

وقال ابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) : كان الشعر ديوان خاصة العرب ، والمنظوم من كلامها ، والمقيِّد لأيامها ، والشاهد على حكامها ، حتى لقد بلغ من كلف العرب به ، وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد خيّرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة ، فمنه يقال : مُذْهَبة امرىء القيس ، ومُذْهَبة زهير ، والمذْهَبات سبع ؛ وقد يقال لها (المعلقات) . قال بعض المحدثين قصيدة له ، ويشبهها ببعض هذه القصائد بقوله :

برزتْ تَذْكَرُ في الحسْنِ من الشّعرِ المعلّقْ كلُّ حَرْفٍ نادرٍ منها له وَجْهٌ مُعَشَّقْ

والمعلقات لامرىء القيس « قفا نَبْك » ولزهير « أمِنْ أمّ أوفى » ولطرفة « لخولة أطلال » ولعنترة « يادار عبلة » ولعمرو بن كلثوم « ألا هُبِّي » وللبيد « عفَتْ الديار » وللحارث بن حلِّزة « آذَنتنا بِبَيْنِها أسماء »(١) .

---

(١) العقد الفريد ٣/٩٨

وقال ابن رشيق (٤٦٣ هـ) : وكانت المعلقات تسمّى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت فى القباطىّ بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة لشاعر يقول : علّقوا لنا هذه ، لتكون فى خزانته(١) .

وقال ابن خلدون (٨٠٨ هـ) : اعلم أن الشعر كان ديوانا للعرب ، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم ، وكان رؤساء العرب منافسين فيه ، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده ، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله ، حتى انتهوا إلى المناغاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم و بيت إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس بن حجر ، والنابغة الذبيانى ، وزهير ابن أبى سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، وغيرهم من أصحاب المعلّقات السبع . فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه فى مضر ، على ما قيل فى سبب تسميتها بالمعلقات(٢) .

وقال البغدادى (١٠٩٣ هـ) فى خزانة الأدب : ومعنى (المعلقة) أن العرب كانت فى الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر فى أقصى الأرض ، فلا يعبأ به ، ولا ينشده أحد ، حتى يأتى مكة فى موسم الحج ، فيعرضه على أندية قريش ، فإن استحسنوه رُوِىَ وكان فخراً لقائله ، وعلّق على ركن من أركان الكعبة ، حتى ينظر إليه ، و إن لم يستحسنوه طُرح ولم يُعبأ به .

قال : وأول من علّق شعره فى الكعبه امرؤ القيس ، و بعده علّقت

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/٦١
(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٨١

الشعراء . وعدد من علّق شعره سبعة : ثانيهم طرفة بن العبد ، ثالثهم زهير بن أبى سُلمى ، رابعهم لبيد بن ربيعة ، خامسهم عنترة ، سادسهم الحارث بن حِلزّة ، سابعهم عمرو بن كلثوم التغلبى . هذا هو المشهور .

قال : وقد طرح عبد الملك بن مروان شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة .

قال : ورُوِىَ أن بعض أمراء بنى أمية أمر من اختار له سبعة أشعار ، فسماها (المعلقات)[1] .

ونكتفى بهذه النصوص ، التى تتفق فى المضمون ، وإن اختلفت عباراتها . وخلاصتها أن هذه القصائد المشهورة سميت (المعلقات) بسبب تعليقها على الكعبة ، بعد كتابتها بماء الذهب فى القباطىّ المدرجة ، وهى ثياب إلى الرقة والدقة والبياض ، كانت تتخذ بمصر من الكتان ، ومعنى المدرجة المطوية .

ولا نجد من الأسباب الظاهرة أو الخفيَّة ما يدعو إلى الشك فى صدق هذه الروايات ، ولا نرى سبباً معقولاً يدعو إلى نفى هذه المعلقات ، أو تكذيب هذه الروايات التى توارد عليها الرواة فى مختلف العصور .

— ٤ —

نعم ذكر أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس النحوىّ (٣٣٨ هـ) أنهم اختلفوا فى جمع هذه القصائد السبع ، وقال : وقيل إن العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ، ويتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علّقوها وأثبتوها

(١) خزانة الأدب للبغدادى ١/٨٩

فى خزائنى . فأما قول من قال إنها علِّقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصلح ماقيل فى هذا أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم : هذه هى « المشهورات » فسميت « القصائد المشهورة »[1].

ونقل عن أبى جعفر بعض الرواة ، ومنهم أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى (٥٧٧ هـ) صاحب نزهة الألباء ، فإنه قال فى ترجمة حماد : وأما حماد الراوية فإنه كان من أهل الكوفة مشهوراً برواية الأشعار والأخبار ، وهو الذى جمع السبع الطوال ، هكذا ذكره أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة[2].

ومثل ذلك مانقله ياقوت (٦٢٦ هـ) وذكر أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس أن حماداً هو الذى جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلَّقة على الكعبة[3].

وقد أخذ بعض الباحثين من المعاصرين بفكرة الشك التى تبدو فى كلمة أبى جعفر النحاس « أما قول من قال إنها علقت على الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » فراحوا يرددونها فى كتبهم ، ومنهم معتدلون ، وقف شكهم عند خبر تعليقها ، ووجدوا فى كلمة أبى جعفر ما يؤيدهم فى إنكار خبر التعليق وحده مع التسليم بصحة هذه القصائد جملة ، والتسليم أيضاً بتسميتها المشهورة « المعلقات » مع محاولة اختراع سبب آخر لإطلاق هذا الاسم أو اللقب عليها .

ومن هؤلاء الذين وصفناهم بالاعتدال فى الشك مصطفى صادق الرافعى الذى

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ١ /٠ ٩ (مطبعة الهلال — القاهرة ١٩٣٦م)

(٢) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ٤٤ (القاهرة ١٢٩٤ هـ)

(٣) معجم الأدباء ١٠ /٢٦٦

يقول : « وأما خبر الكتابة بالذهب أو بمائه ، والتعليق على الكعبة ، ففي روايته نظر . وعندي أنه من الأخبار الموضوعة التي خفي أصلها ، حتى وثق بها المتأخرون ، وإنما استدرجهم إلى ذلك أن هذه القصائد تكاد تكون الصفحة المذهبة من ديوان الجاهلية ؛ وأن العرب قوم لم يصحّ من أديانهم إلا دين الفصاحة ، وهو الذي دانوا به أجمعين ، فلو أنهم فعلوا ذلك لكانوا قد أتوا بشيء غير نكير .

ويذهب إلى أن خبر التعليق من الأخبار الموضوعة ، وأن طرح عبد الملك لشعر أربعة من أصحاب المعلقات وإثبات شعر أربعة آخرين مكانهم من الأخبار الموضوعة أيضاً ، خصوصاً وقد أغفله أبو زيد بن أبي الخطاب القرشي صاحب جمهرة العرب (١٧٠ ﻫ) . وقد أغفل ابن قتيبة صاحب الشعر والشعراء (٢٧٦ ﻫ) رواية ابن الكلبي بجملتها .

قال : ولم نر أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق ، ولا سمّى تلك القصائد بهذا الاسم ، كالجاحظ ، والمبرد ، وصاحب الجمهرة ، وصاحب الأغاني ، مع أنّ جميعهم أوردوا في كتبهم نتفاً وأبياتاً منها : وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغاني (٣٥٦ ﻫ) أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً بسوق عكاظ ، وقام بها في موسم مكة ، فلو كان خبر التعليق صحيحا لما ضرّه أن يقول : فكتبتها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة ..

ويخلص من ذلك وغيره إلى أن حماداً هو أول من اختار السبع الطوال ، وشهرها في الناس ، وقد ذكر ذلك قبله أبو جعفر النحاس ، وأن ابن الكلبي

وهو الذى ذكر خبر تعليقها على الكعبة ، وهو قد علل ذلك بأن العرب ينظرونها فى الموسم ، ثم يعزلونها أو يسقونها ، وأنّ من عدا ابن الكلبى ممّن هم أوثق فى رواية الشعر وأخباره ، لم يذكروا من ذلك شيئاً ، بل جملة كلامهم ترمى إلى أن القصائد لم تخرج عن سبيل ما يختار من الشعر ، وأن المتأخرين هم الذين بنوا على خبر التعليق ما ذكروه من أمر الكتابة بالذهب أو بمائه فى الحرير أو فى القباطىّ ..

قال : وقد رأينا من ينكر أن هذه القصائد صحيحة النسبة إلى قائليها ، مرجّحا أنها منحولة وضعها مثل حماد الرواية ، أو خَلَف الأحمر ، وهو رأى فائل ، لأن الروايات قد تواردت على نسبتها ، وتجد أشياء منها فى كلام الصدر الأول ، وإنما تصحح الروايات بالمعارضة بينها ، فإذا اتفقت فلا سبيل إلى ذلك ، غير أنه مما لا شك فيه عندنا أن تلك القصائد لا تخلو من الزيادة وتمارض الألسنة ، قل ذلك أو كثر . أما أن تكون بجملتها مولّدة فدون هذا البناء نقض التاريخ (١) .

ويرجح المستشرق « تيودورنولدكى » أن (المعلقات) معناها (المنتخبات) وإنما سماها حماد الراوية بهذا الاسم تشبيها لها بالقلائد التى تعلّق بالنحور ، واستدل على ذلك بأن من أسمائها (السّموط) ومن معانى السموط القلائد . وشايعه على هذا الأستاذ « كليمان هيار » الفرنسى ، مؤرخ كتاب الأدب العربى بلغته (٢) . وهذا من غير شك وهم من نولدكى ومن شايعه يدل على قلة دراية بفهم النصوص ، فإن حماداً لم يسمها « المعلقات » وإنما قال لهم : هذه هى «المشهورات » فسميت : القصائد المشهورة .

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣ / ١٩٣

(٢) تاريخ الأدب العربى للزيات

وهناك فريق آخر من الباحثين كان نفى خبر التعليق على الكعبة أهون ما قالوا فى شعر المعلقات ، بل فى الشعر الجاهلى كله ، فإنهم تجاوزوا ذلك إلى إنكار هذا الشعر برمّته ، ورفضه جملة ، بل إلى الشك فى وجود من نسب إليهم هذا الشعر . وزعيم هؤلاء المنكرين الدكتور طه حسين وكتابه الذى سماه « فى الأدب الجاهلى » يقوم كله على هذا الإنكار الذى حاول به نقض الشعر الجاهلى جملة وتفصيلا ، بل هدم تاريخ العرب قبل الإسلام ، ووصف فى سبيل ذلك كل مأثور من القول ، وكل محمدة يتباهى بها العرب ، بالوضع والانتحال. وينتهى به البحث إلى أن أكثر هذا الشعر الذى يضاف إلى امرىء القيس ، شيخ الشعراء ، وزعيم أصحاب المعلقات ، ليس من امرئ القيس فى شىء ، وإنما هو محمول عليه حملا ، ومختلق عليه اختلاقاً ، حمل بعضه العرب أنفسهم ، وحمل بعضه الآخر الرواة الذين دوّنوا الشعر فى القرن الثانى للهجرة ، ثم يقول عن المعلقة :

« ولننظر فى المعلقة نفسها ، فلسنا نعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهران فى هذه القصيدة ؛ لا نحفل بقصة تعليق هذه القصائد السبع أو العشر على الكعبة أو فى الدفاتر ، فما نظن أن أنصار القديم يحفلون بهذه القصة التى نشأت فى عصر متأخر جدا ، والتى لا يثبتها شىء فى حياة العرب وعنايتهم بالآداب ... وهم بعد هذا يختلفون اختلافا كثيرا فى رواية القصيدة فى ألفاظها وفى ترتيبها ، ويضعون لفظا مكان لفظ ، وبيتاً مكان بيت . وليس هذا الاختلاف مقصوراً على هذه القصيدة ، وإنما يتناول الشعر الجاهلىّ كلّه . وهو اختلاف شنيع يكفى وحده لحملنا على الشك فى قيمة هذا الشعر [1] » .

---

(١) فى الأدب الجاهلى ٢١٤ (مطبعة فاروق — القاهرة ١٩٣٣ م)

ونعود إلى القول فى نفى خبر هذا التعليق ، وأقدم الأقوال فى ذلك فيما نعلم هو كلمة أبى جعفر النحاس[١] التى تتضمن عدة أمور .

(١) إثبات الاختلاف فى جمع القصائد السبع ، فى قوله « اختلفوا فى جمع هذه القصائد السبع » . وهى عبارة لا تفصح تماماً عن المقصود منها فى مجال التثبت والتحقيق ، فهل هو يقصد أن اختلافهم كان فى الجمع أو عدمه ؟ أم يقصد الاختلاف فيمن قام بهذه الجمع من العلماء أو الرواة ؟ أم فى الطريقة التى جمعت بها تلك القصائد ؟

ولو أخذنا بظاهر اللفظ لكان المراد أن اختلافهم كان منصبا على الجمع نفسه ، والمقابل لهذا الجمع هو عدم الجمع ، ومعناه أن تكون تلك القصائد موجودة أو مجموعة حين وصلت إلى العلماء والرواة ، فلم يكن لأحد منهم شىء من الفضل فى هذا الجمع ، بل وجدوها معروفة ومعروفا أصحابها على نحو ما ؛ ولم تكن هنالك حاجة إلى الجمع من جديد ؛ وإنما يكون مجال الحاجة أو مجال الجمع محصوراً فى تنسيق ما وجدوه مجموعاً ؛ إما باستبعاد بعض هذه القصائد التى كانت ثمانيا أو تسعاً أو عشراً ؛ وحصرها فى تلك السبع . أو إضافة قصيدة أو أخرى إلى السبع أو ما دونها صحت روايتها عند الذين قاموا بهذا الجمع .

وأنا أميل إلى هذا الرأى ، إذ به نشعر أننا لسنا فى حاجة إلى التأول ، أمام صريح النص وألفاظه ، وأعتقد أن أبا جعفر كان يعنى مايقول ، ويدقق فى اختيار اللفظ الذى يدل على ما يريد أن يقول ؛ حتى لا يوقع الدارسين بعده فى عمياء .

(٢) أن المسألة هنا ، كما هو واضح من العبارة ، مسألة جمع لا أكثر ، وهذا

---

(١) سبقت فى صفحة ٢٢ من هذا الكتاب

يقضي على كل شبهة ، بل لا يجد القارىء مجالاً للشبهة مطلقا ،فليس أمامنا ما يمكن أن يستدل منه على الوضع أو الانتحال أو الاختراع أو زيادة فى الناقص،أو حذف مما هو مأثور . وهذا يدل دلالة واضحة على التسليم المطلق بصحة ذلك المأثور .

(٣) نقله ماقيل من أن العرب كان أكثرهم يجتمع بسوق عكاظ ، ويتناشدون الأشعار . وهى حقيقة معروفة من عادات العرب وتقاليدهم ، ولم ينكر ذلك واحد من المؤرخين ، أو من أخذ عنهم تاريخ العرب فى الجاهلية .[١] والاحتكام إلى النابغة أمر معروف ، وقصته مع الأعشى وحسّان والخنساء مشهورة .

والذى يستفاد من ذلك أن هذه القصائد كانت من جملة ما أنشد فى عكاظ ، وفى هذا يتفق أبو جعفر النحاس مع ابن خلدون وغيره فى رواية هذا التقليد عن عرب الجاهلية .

(٤) ماروواه من أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : علّقوها وأثبتوها فى خزائنى .

ولم يذكر من هو هـــذا الملك حتى يمكن تتبّع تاريخه ، وتحقيق

---

(١) قال ياقوت فى (عكاظ) هو نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، كانت تقام سوق للعرب بموضع منه يقال له « الأثيداء » ، وبه كانت الفجار . وهناك صخور يطوفون بها ويحجون إليها ، وكانت للعرب أسواق تقام بمواضع حول مكة ، فعكاظ بين نخلة والطائف ، وذو المجاز خلف عرفة ، ومجنة بمر الظهران . ولم يكن فيها أعظم من عكاظ ، وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذى القعدة ، ثم تنتقل إلى سوق ذى المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج (مراصد الاطلاع ٢ / ٩٥٣) وقال الفيروزابادى . عكظه يعكظه حبسه وعركه وقهره ورد عليه فخره . وعكاظ كغراب سوق بصحراء بين نخلة والطائف كانت تقام هلال ذى القعدة وتستمر عشرين يوما ، تجتمع قبائل العرب، فيتعا كظون، أى يتفاخرون ويتناشدون (القاموس المحيط ٢ /٣٩٦)

هذا الاستحسان ، ومعرفة ما استحسن ، وما اشتملت عليه خزائنه .

وما أعرف من ملوك العرب القدماء من كان عنده شيء من ذلك إلا النُّعمان بن المنذر ، قال ابن سلام الجمحى (٢٣٢ هـ) فى طبقات الشعراء : وقد كان عند النعمان بن المنذر منه « من الشعر » ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح فيه هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو ماصار منه[1] .

ولكن النعمان بن المنذر كان من ملوك الحيرة ؛ فهل كان حريصاً على حضور هذه المواسم فى عكاظ لا يفوته موسم منها ؟ ذلك ما نشك فيه . أو نقول إن النابغة الذبيانى المحكَّم فى عكاظ ، وكان أثيراً عند النعمان ، هو الذى كان ينقل إليه ما يستحسن فيأمر بتعليقه فى خزائنه ؟ نشك فى ذلك أيضاً ، لأنه لم يثبت أن النابغة أنشد هذه المعلقات أو أكثرها ، ولم تعرف صلة بينه وبين أصحابها ؛ ولم يسمع أنه أنشد هذه المعلقات أو استمع إلى أصحابها ، اللهم إلا ماروى من قصة تحكيمه بين الأعشى والخنساء وحسّان بن ثابت .

وكل ما يمكن أن يقال إن مثل هذا الملك العربى ، الذى كان يقدر الشعر وأصحابه حق قدرهم ، كان حريصاً على أن ينقل إليه ما أنشد وما ينشد فى هذه المواسم ، فإذا استحسن منه شيئاً أمر بتعليقه فى خزائنه ، إلى جوار ما مُدح فيه هو وأهل بيته .

حتى هذا لا يمكن أن يتعارض مطلقا هو وما روى من كتابتها بالذهب أو بمائه وتعليقها على الكعبة ، فقد يكون تعليقها فى خزائنه تقليداً لمتبع من تعليقها على الكعبة . والروايات يتمم بعضها بعضاً ، كما يصحح بعضُها بعضاً . وعلى هذا يكون قول ابن سلام: « فصار ذلك إلى بنى مروان أو ما صار منه »

---

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢٣ (طبعة دار المعارف — القاهرة ١٩٥٢م) .

حتما وموضحاً لما قال ابن الكلبي إن عبد الملك بن مروان « طرح شعر أربعة منهم ، وأثبت مكانه أربعة »

ومن البيِّن أن الكلام هنا يتصل بشعر مجموع كائن ، انتقل من ملك إلى ملك ، أو من مالك إلى مالك ، حتى آل إلى عبد الملك بن مروان فى رواية ابن الكلبي ، أو بنى مروان على التعميم فى رواية ابن سلاّم .

وهذا شىء آخر ، أو كلام عن شعر آخر ، يخالف مارواه البغدادى صاحب خزانة الأدب من أنه روى أن بعض أمراء بنى أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسماها « المعلقات » [1] ..

ذلك أن هذه المعلقات كما يتضح من هذا النص، معلَّقات جديدة، أو مختارات جديدة ، تخالف تلك المعلّقات المشهورة المأثورة التى اصطلح على تسميتها بهذا الاسم . وقد نقل الرافعى [2] رواية أخرى عن غير الخزانة : أنه سمّاها « المعلقات الثوانى » وهذه التسمية وحدها حجة قاطعة ، وعبارة مفسّرة ، كفيلة بأن تدحض كل شبهة ، وتقضى على كل شك فى نفس من يزعمون أن هذه « المعلقات الثوانى » هى « المعلقات السبع » .

وعلى هذا يكون أمير بنى مروان قد استعار لمختاراته التى اختارها له أحد رواة الشعر لفظ (المعلقات) أو (المعلقات الثوانى) تشبيها لها فى الجودة أو أو الأسلوب أو التصرف الفنِّى بالمعلقات السبع .

وليس من الغرابة فى شىء أن يختار أى باحث اللقب الذى يروقه ليكون

---

(١) خزانه الأدب للبغدادى ١/٨٨

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣ /١٨٧

علماً على ما يكتب أو يؤلف أو يختار . وقد اختير كثير من الألقاب الكثير من المجموعات المختارة. ومن ذلك ما روى أبو زيد عن المفضل قال : قد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعد هنّ — يعني المعلقات أو السُّموط — سبعاً ماهنّ بدونهنّ ، ولقد تلا أصحابُهنّ أصحاب الأوائل ، فما قصّروا ، وهن (المجمهرات) لعبيد بن الأبرص ، وعنترة بن عمرو ، وعديّ بن زيد ، وبشر ابن أبي خازم ، وأميّة بن أبي الصّلْت ، وخداش بن زهير ، والنمر ابن تَوْلَب .

وأما (منتقيات العرب) فهنّ للمسيَّب بن عَلَس ، والمرقّش ، والمتلمس ، وعروة بن الورد ، والمهلهل بن ربيعة ، ودريد بن الصّمّة ، والمتنخّل ابن عويمر .

وأما (المُذَهَبات) فللأوس والخزرج خاصة ، وهنّ لحسّان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة ابن الجلاح ، وأبي قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرئ القيس .

و (عيون المراثي) سبع : لأبي ذؤيب الهذلي ، وعلقمة بن ذي جدن الحميري ، ومحمد بن كعب الغنوي ، والأعشى الباهلي ، وأبي زبيد الطائي ، ومالك بن الريب النهشلي ، ومتمم بن نويرة اليربوعي .

وأما (مشوبات العرب) وهنّ اللاتي شابهنّ الكفر والإسلام : فللنابغة بني جعدة ، وكعب بن زهير ، والقطاميّ ، والحطيئة ، والشماخ ، وعمرو ابن أحمر ، وابن مقبل .

وأما (الملحمات السبع) فهن : للفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، وعبيد الراعي ، وذي الرّمة ، والكميت بن زيد ، والطرِمّاح بن حكيم .

فهذه التسعة والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ، ونفس شعر كل رجل منهم[1] .

(٥) وتأتى بعد ذلك عبارة أبى جعفر النحاس التى يقول فيها : فأما قول من قال إنها علّقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة .

وهذه العبارة تستدعى وقفه طويلة عندها ، لأن فيها خبر النفى الذى تشبَّث به الطاعنون على خبر التعليق . ونحنُ نسأل أبا جعفر : إذا كان تعليق تلك القصائد على الكعبة لا يعرفه أحدٌ من الرواة فمن ذا الذى قاله له ؟ أو من ذا الذى اخترعه ؟

ولا يخلو الأمر من أحد ثلاثة افتراضات : إما أن يكون القائل بالتعليق المذكور رجلاً من الرواة الذين لا يثق أبو جعفر بروايتهم ، ولا يؤمن بنقلهم؛ ومن ثمّ لا يكون عنده أهلا للرواية لما عرف عنه من الكذب أو التلفيق أو الوضع ، ولا يكون صالحاً بسبب ما عرف به لأن يؤخذ عنه قول ، أو يروى له رأى .

وإما أن يكون الذى قال بذلك التعليق رجلا من عامة الناس الذين لا يعدون من أهل الرواية .

وإما أن يكون القول بالتعليق فكره شائعة بين أوساط الناس ، ولكنها لم تثبت فى مجال التحقيق عند أبى جعفر النحاس .

وفى كلٍّ قول !

فإذا كان القائل بالتعليق رجلا من الرواة غير أولى الثقة ، فقد يكون

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ٤٥

ذلك رأياً شخصيًّا لأبى جعفر ، وليس ما يمنع من أنْ يعدّه غيره ؛ وكان عليه أن يذكر اسم هذا الراوية حتى نستطيع أن نعرف رأى غيره فيه .

وإذا كان الذى انفرد بهذا القول رجلاً من عامة الناس فأحرى بأبى جعفر وغيره ألا يأبهوا بمثل قوله فى معرض التأييد أو معرض التفنيد .

وإذا كان القول بالتعليق فكرة شاعت فى أوساط الناس ، وهذا ما نرجح أن أبا جعفر يقصده ويعنيه ، فلابد لهذه الفكرة من أصل ، ولن يكون هذا الأصل سوى الرواية ، وكان على أبى جعـــفر أن يبحث عن هذا الراوية الذى ذاعت روايته فى الناس ويبحث عن الأسانيد التى اعتمدها فى روايته هذا الرأى الذى أخـذ به عامة الناس .

لقد ذكر خبر التعليق على الكعبة رواة مختلفون منهم من هو أقدم عهداً من أبى جعفر النحاس كابن الكلبى (٢٠٤ هـ) ومنهم من يعد معاصراً له كابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) الذى توفى قبل أبى جعفر (٣٣٨ هـ) بعشر سنوات ، ومنهم من كان بعده كابن رشيق صاحب العمدة ، وابن خلدون صاحب المقدمة ، والبغدادى صاحب الخزانة .

وأكثر هؤلاء ممن عرفوا بالرواية ، واشتهروا بتحقيقها وتمحيصها والفحص عن صحة كل خبر مما يكتبون .

وإذا كان أبو جعفر يقول : إن قول من قال بتعليقها لايعرفه أحدٌ من الرواة فإن ابن رشيق الذى عرفناه ثقة صدوقاً ، يقول فى أمر التعليق على الكعبة « ذكر ذلك غير واحد من العلماء[1] » .

ونحن برغم هـــذا التعارض الذى أثبتناه فى عبارة أبى جعفر ، لا نتهمه فيما يقول بالهــوى أو محاولة الغض من شأن الذين نفى مقالتهم ، أو الرغبة فى

---

(١) العمدة ١/٦١ .

الانفراد بالرأى الذى يعرف به ويذكر به فى الناس . ولكنّ فى وسعنا أن نصدقه فيما قال ، ونقول إنه لم يعرف أو لم يلق من الرواة من حدثه بحديث التعليق ولكنّ غيره عرف ، ولقى أكثر من واحد أخبره بخبر التعليق ، ومَنْ عرف حجة على مَنْ لم يعرف . ولا سيما إذا كان ذلك فى أمر مرجعه إلى السّماع والرواية الشفوية عن الرواة والعلماء . وفى ذلك يقول المستشرق « تيودور نولدكى » فى مقام الإعجاب برواية العرب وقوة حافظتهم : إن الشعر العربى نقل بواسطة الرواية الشفوية والتواتر السماعى ، ولا غرابة فى هذا بالنسبة للمقطوعات والقصائد القصيرة ، أما المطولات فقد كان من التوفيق فى حفظها وتداولها وجود فريق من الرجال اختصوا بالحفظ ، فوعوا أشعار شاعر واحد أو جملة شعراء ، كما كان للشعراء أنفسهم رواة يروون أشعارهم ، فكان لكل شاعر راويته ، وقد يكون ابنه أو ربيبه أو نسيبه أو حبيبه . « والسبع الطوال خالية بالتأكيد من التزييف والتزوير ، فلا يشك فى صحتها . وقد تنشأ بعض الاختلافات اللفظية عن اختلاف بعض قواعد النحو فى النطق والقراءة بحسب آراء العلماء الذين وضعُوها ولقنوها ، والناظر فى مجموع هذا الشعر البدوى بعين الانتقاد يمكنه استخراج صورة شعرية كاملة من حياة هذا الشعب العربى فى بداوته .

« وقد يسأل الناقد نفسه : كيف وقع الاختيار على المطوّلات دون سواها من مئات بل ألوف القصائد التى قالها الشعراء وحفظها الرواة ، والرد على ذلك أن الانتخاب يرجع إلى سعة الشهرة التى تمتع بها أمثال امرئ القيس وزهير وطرفة ، كما أن قصيدة مفردة لشاعر مثل عمرو بن كلثوم حازت سمعتها لأسباب خاصة أدت إلى سرعة انتشارها [1] .

---

(١) نقلا عن (الشهاب الراصد) لمحمد لطفى جمعة ٣٠٠ (مطبعة المقتطف والمقطم — القاهرة ١٩٢٦ م) .

٦ — ثم قول أبى جعفر : وأصلح ما قيل فى هذا أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم : هذه هى المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة .

ولست أرى أن هذا التعقيب فى محله ، وأقصد حكمه بصلاحية هذا الرأى ، فإن جمع حماد الراوية لتلك القصائد شىء آخر ، غير القول بالتعليق على الكعبة ، الذى سيق الكلام من أجله . فإن حماداً — كما يقرر أبو جعفر نفسه — قال للناس : هذه هى « المشهورات » ، ولو كان قد قال لهم : هذه هى « المعلقات » لكان التعقيب فى محله ، ولكان أصح رأى أو أصلحه من وجهة نظر أبى جعفر ، ولكنه قال اسماً بعيداً كل البعد عن المعنى الذى حاول أبو جعفر أن ينفيه .

ثم متى رأى حماد زهد الناس فى الشعر ؟ لقد كانت ولادته فى سنه خمس وتسعين وتوفى سنة خمس وخمسين ومائة[1] . وفى هذه المدة لم ينقطع تيار الشعر العربى عن التدفق ، وأقبل الرواة على رواية الشعر ، وأكب الكاتبون على تدوينه ، والعلماء على نقده وإحصاء المآخذ عليه ؛ فالفترة التى عاصرها حماد تعد من أخصب فترات التاريخ العربى بالشعر والشعراء والرواة والمدونين والنقاد ؛ ولا يكون شىء من هذا فى زمن زهد الناس فيه فى الشعر !

إن الشاعر لايقول إلا إذا وجد مايقول ، ووجد من يقول له ، ومن يعى قوله ويقدره حق قدره ، ويوازن قوله بالمأثور من أقوال من قبله ، ومن عاصره ليشهد له بالإجادة أو التقصير . والراوية لا يروى إلا إذا وجد الراغبين فى روايته . والناقد لا ينقد إلا إذا أحس حاجة الذين يروى لهم إلى معرفة ماعنده .

(١) معجم الأدباء ١٠ / ٢٦٦

وقد كان الأمر كذلك فى هذه البيئة ، وفى هذا الزمان ، اللذين عاش فيهما حمّاد الراوية ، ولقد كان شأن حماد شأن غيره من الرواة الذى عاشوا فى خصب بما يدّر عليهم فنّ الرواية الذى كانوا ممتعين به ، من صلات الخلفاء والسراة الراغبين فى هذا الفن الجميل ، والقادرين على تقديره ، وتمييز القيم الفنية الصحيحة فيه .

وليس فى شىء من النصوص التى استشهدنا بها فيما سبق ، ما يمكن أن يؤخذ منه الحط من شأن حماد ؟ أو الغضّ من رواياته ، أورميه بالكذب أوالوضع أو الانتحال ، بل إن المدائنى يقول : إنه كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بنى أمية تقدّمه وتؤثره وتستزيره ، فيفد عليهم و يسألونه عن أيام العرب وعلومها ، و يجزلون صلته .

وقال الهيثم بن عدىّ : قال الوليد بن يزيد لحماد الراوية : بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعتَ به ، ثم أروى لأكثر منهم ممّن أعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشَد شعراً لقديم ولا محدَث إلا ميّزتُ القديمِ منه من المحدَث . فقال : إنّ هذا لعلم وأبيك كبير ، فكم مقدار ما تحفظ ؟ قال كثيراً .

وقال الهيثم بن عدىّ : ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حمّاد[1] . .

نظن بعد كل هذا أن رجلاً يوصف بهذه الصفات ، و يرسل فى طلبه من أقصى الأرض ليُسأل عن شعر ، أو يستفتى فى شاعر ، لابد أن يكون بعيداً عن شبهات الوضع والكذب والانتحال .

وعلينا أن نقرأ بحذر ماقال بعض الرواة فى حقّ هذا الرجل الذى فاقهم علماً ورواية لكلام العرب ودراية به ، ومن ذلك ماقال ابن سلام : كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر

---

(١) معجم الأدباء ٢٥٩/١٠ .

الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد فى الأشعار[١] . وقال الأصمعى : كان حماد أعلم الناس إذا نصح ، يعـــنى إذا لم يزد وينقص فى الأشعار والأخبار ؛ فإنه يقول الشعر ، وينحله شعراء العرب . وقال المفضل الضبى : قد سلّط على الشعر من حمـاد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى رواية أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولـكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ، ويدخله فى شعره ، ويحمل ذلك عنـه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك[٢] .

قلت : إن أمثال هذه الأقوال ينبغى أن تقرأ على حذر ، وألا تؤخذ على علاّتها ؛ فإن المعاصرة حجاب يحول فى كثير من الأحيان دون تقدير المعاصرين ، والتنافس بين أولئك الرواة أمام الخلفاء والسراة ، لا يجعل المنافس يشهد لمنافسه بالحقّ كله ، ولاسيما إذا كان الذى يوجد عند المنافس دون ما عند غيره من رجال فنّه .

ولم يكن حماد أول راوية جمع شعر العرب فقد سبقه كثيرٌ من الرواة ، وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه . فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم منه أكثره[٣] .

قال ابن سلام : ثم كانت الرواة بعد فزادوا فى الأشعار ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدّون[٤] .

(١) طبقات فحول الشعراء ٤١ .
(٢) معجم الأدباء ١٠/٦٦٢ .
(٣) طبقات فحول الشعراء ٢٢
(٤) طبقات فحول الشعراء ٤٠ .

ومع هذا لم يستطع واحد ممن يعدون أنفسهم عدولا ، أو يعدهم الناس عدولا ، أن يضع أيدينا على زيادة فى المعلقات أو بعضها ؛ ادّعاها حماد أو غيره ، وقام الدليل الثابت على افتعالها أو زيادتها ، أو النقص الذى تعمده من الأصل.

لقد كان هنالك رواة آخرون ، لعله لم يقل فيهم شىء مما قيل فى حمّاد ، من أمثال أبى عمرو بن العلاء الذى يقول فيه يونس بن حبيب : لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شىء واحد كان ينبغى لقول أبى عمرو بن العلاء فى العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحدٌ إلا وأنت آخذ من قوله وتارك[1]. ومن أمثال خلف ابن حيان أبى محرز الأحمر ، الذى يقول فيه ابن سلام : أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لسانا ، لانبالى إذا أخذنا عنه خبراً ، أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه . قال ابن سلام : وكان أبو عبيدة والأصمعى من أهل العلم ، وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضّل بن محمد الضَّبِّى الكوفى ، ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين ، فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدناه له من حجة ، وما قال فيه العلماء[2] .

أفما كان لواحد من هؤلاء الثقاة أن يدلّنا على موضع واحد فى المعلقات حصل فيه التعديل بالزيادة أو النقصان ؟ وما كان ينبغى لواحد من أولئك العدول أن يسكت على ضلال يراه ، ولاسيما إذا كان ذلك الضلال متصلا بتراث هذه الأمة التى يروون أدبها و ينقلون أخبارها ؟

إن الذى نعتقده ، بعد كل هذا ، أن حمّاداً هو جامع المعلقات بالمعنى الذى أوضحناه آنفا ، وفى الحدود التى فصّلناها ، وأننا لم نقرأ طعناً صريحا أو غير صريح فى روايته للمعلّقات بزيادة عليها أو نقصان منها . .

---

(١) راجع طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١٥ (٢) ص ٢١ .

وعلى هذا تكون تلك المعلقات قد وصلت إلينا سليمة فى مجموعها . ولا يؤثر فى تلك السلامة الاختلاف اليسير فى ألفاظ قليلة منها ، أو ترتيب الأبيات فى القصائد الذى قد يختلف نادراً بين الرواة المختلفين . وذلك الاختلاف طبيعى — كما أسلفنا — فى أمر مرجعه كله إلى السماع .

— ٥ —

وقد حاول بعض المعاصرين من باحثى المستشرقين ومقلديهم من العرب الاستعانة ببعض الأدلة النظرية يؤيدون بها حجتهم فى نفى تعليق تلك القصائد على الكعبة ؛ وفى أولئك يقول جرجى زيدان : وإنما استأنف إنكار ذلك بعض المستشرقين من الإفرنج ، ووافقهم بعض كتابنا رغبة فى الجديد من كل شيء [١] . .

ومن الأدلة التى استندوا إليها فى نفى التعليق :

(١) أن العرب كانوا أمة أمِّية يندر فيها القارئون والكاتبون ، وقد بنوا ذلك على وصف العرب قبل الإسلام بالجاهلية ، وتسميتهم عصرهم السابق للإسلام بالعصر الجاهلى ، ذاهبين إلى اشتقاق ذلك من الجهل الذى هو ضد العلم ، وليس هذا سر التسمية ، وإنما السبب « هو السفاهة المؤدية إلى الهمجية ، وانتشار الضلالة ، وعبادة الأوثان ، والإسراف فى القتل ، واستباحة الزنا والخمر ، وانتهاء ذلك كله إلى تأريث العداوة ، وقيام الحروب ، وتفرق القبائل [٢] . .

وقد ثبت أنه كان فى العرب من كانوا يكتبون ، وليس ذلك إلى حد الندرة كما يزعم الزاعمون ، وكيف يمكن أن يكون العرب أمة من الأميين مع أن الحروف المكتوبة بها النقوش العربية الجنوبية قد تكون هى الحروف

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٩١ .
(٢) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ٦ (مطبعة العلوم — القاهرة ١٩٣٢م) .

الأصلية التي بنيت عليها الهجائية الفينيقية ، فهى لذلك أم الـكتابات الهجائية فى هذا العالم [١] .

وإذا استبعدنا ما قال به رواة المعلقات أو مؤرخوها عن كتابتها بهذه الدعوى — دعوى أمية العرب وعدم معرفتها القراءة والـكتابة — فإن هناك أدلة أخرى ، وباحثين مدققين ، أثبتوا معرفتهم القراءة والكتابة ، وإذا ثبتت الـكتابة فى غير المعلقات ، فثبوتها فى المعلقات أحرى . ومن هذه الأدلة أن العرب كانوا يكتبون عهودهم ومواثيقهم وما يعطون من أمان ، ومن ذلك ما قال الحارث ابن حِلزة ، وهو أحد أصحاب المعلقات ، فى شأن بكر وتغلب :

واذكروا حِلْفَ ذى المجاز وما قُـ ... ـدِّم فيـه العهودُ والـكـفَلاء

حذرَ الجوْرِ والتعدِّى وهلْ ينْـ ... ـقضُ ما فى المهارقِ الأهواء ؟

يقول : إذا كانت أهواؤكم زيّنت لـكم الغدر والخيانة بعد ماتعاقدنا على الـكف عن القتال ، فـكيف تصنعون بما هو مكتوب فى الصحف عليكم من المواثيق [٢] . قال الجاحظ : والمهارق ليس يرادبها الصحف والـكتب ، ولا يقال للـكتب مهارق حتى تـكون كتب دين ، أو كتب عهود وميثاق وأمان [٣] .

والحديث فى ذلك يطول ، وليس ذلك المجال مجال بحثه ، ففى ذلك بحوث طويلة لا ينقصها التحقيق أو التدقيق ، وفيها من الأدلة النظرية ما تؤكدها الأدلة المادية [٤]

---

(١) تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث ١٩٤ نقلا عن :
The B[illegible]ckground of Islam, p. 10.

(٢) نهاية الأرب من شرح معلقات العرب للنعسانى ١٨٨ (مطبعة السعادة — القاهرة ١٩٠٦ م) .

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ١/٣٥ — طبعة الساسى (المطبعة الحميدية — القاهرة ١٣٢٣ هـ) .

(٤) من ذلك على سبيل المثال الفصل الأول من الباب الثانى « اعتماد حركة إحياء القديم =

ولكنا نجتزئ ببعض الإشارات التي تثبت وقائع مادية لم ينظر إليها الذين تشبثوا بالإنكار معتمدين على دعوى جهل العرب القراءة والكتابة؛ فنقول لهم: ألم تقرءوا ما كان من أمر قريش، في حربها النبي والمسلمين، لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً (الحبشة) أصابوا به أمناً وقراراً، وأن النجاشيّ قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عُمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب، على ألاّ يُنكحوا إليهم، ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم. فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة، توكيداً على أنفسهم.

ولم يفت رواة هذا الأثر — وكأنهم يتنبئون بما يكون في آخر الزمان من جحود وإنكار — أن ينصوا على اسم كاتب هذه الصحيفة، فقالوا: وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشلّ بعض أصابعه (١)..

ولست أعتقد أن واحداً من أولئك المنكرين كتابة العرب يستطيع أن يجحد تاريخ السيرة النبوية ورواياتها التي استفاضت بها كتب التاريخ، وتواترت بها الأخبار، وتوارد عليها الرواة، الذين بلغ بهم التمحيص والتدقيق درجة لم يجتزئوا

= على أصول مكتوبة» من كتاب تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري صفحة ١٩٢ وما بعدها (طبعة دار الكتب المصرية — ١٩٥٠ م).

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، لعبد السلام هارون ١٠٥/١ (مطبعة سعد مصر — القاهرة ١٩٥٥ م).

معها بالأخبار الخطيرة والأحداث الجسام يروونها ويتناقلونها ، بل حرصوا حرصاً على رواية التفصيلات التى تتناول كبار الأحداث وما دونها وفى هـذه السيرة النبوية كثير من كتب النبى صلى الله عليه وسلم التى بعثها إلى الملوك والرؤساء والجماعات بنصوصها وكتابها ، وفيها كثير من عهود النبى ومواثيقه التى قطعها الرسول صلوات الله عليه على نفسه ومن معه من المسلمين ، وفيها كثير من وثائق الصلح والمهادنة بينهم وبين غيرهم من المخالفين أو المجاور بين من قريش وغيرهم .. وصلح الحديبية بوقائعه وأحداثه مشهور معروف ، ويعنينا منه فى هذا المقام أن قريشاً بعثت سهيل بن عمرو أخا بنى عامر بن لؤى إلى النبى ، وقالوا له : ائت محمداً فصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عامه هذا ، فو الله لاتحدّث العرب عنّا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . وجاء سهيل فلما رآه النبى مقبلا قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هـذا الرجل . فلما انتهى إلى النبى تكلم فأطال ، ثم جرى بينهما الصلح ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر فأتى أبا بكر فقال : أليس برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنيّة فى ديننا ؟ فطمأنه ثم ذهب إلى النبى فقال له نحواً مما قال عمر ، فقال النبى : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى !

ودعا رسول الله علىّ بن أبى طالب ، فقال : اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سهيل : لا أعرف هـذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهمّ » . فأمره الرسول بموافقته . ثم قال اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال النبى : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس

عشر سنين يأمنُ فيهنّ الناس ، ويكفّ بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة[1] ، وأنه لا إسلال ولا إغلال[2] . وأنه من أحبّ أن يدخل فى عهد محمد وعقده دخل فيه ، وأنه من أحبّ أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه »[3] .

والذى لا شك فيه أن تاريخ البعثة النبوية هو الحلقة التالية للجاهلية فى تاريخ العرب ، وأن الكتابة فى صدر الإسلام لم يتعلمها العرب فى يوم وليلة أو شهر أو شهرين ، ولكنها معرفة متتابعة متسلسلة لا ينكرها باحث منصف .

ولا أريد بهذا القول أن أثبت أن العرب فى مجموعهم كانوا أمة كاتبة ، فإن ذلك محال ، بل شأن العرب فى ذلك شأن غيرهم من الأمم التى يوجد فيها الكاتبون وغير الكاتبين ، ولا تزال هذه الظاهرة ظاهرة حتى فى عصر الحضارة الذى نعيش فيه ؛ ففى مصر وسائر البلاد العربية والمواطن الإسلامية وغيرها ملايين لا تحصى من الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، على الرغم من تقدم وسائل العلم وأسباب المعرفة ، ولا توصف هذه الأمم بالأمّية الجامعة ، كما يراد وصف العرب بذلك فى حياتهم الجاهلية قبل الإسلام ولكن الإنصاف الذى تقتضيه هذه الأدلة وعشرات من أمثالها ، يدعونا إلى القول بأنه كان فى العرب من يكتب ، كما كان فيهم من لا يكتب ، مع الاعتراف الطبيعى بكثرة الذين كانوا يجهلون القراءة والكتابة منهم . وعلى هذا لا يمكن أن يبنى الطعن فى كتابة المعلقات على جهل العرب بفن الخط أو الكتابة ؛ ولا شك أنّ التأنق فى كتابة أمثال هذه الروائع المعدودة عندهم على الحرير أو القباطى بالذهب شىء لا يحكم

(١) أى صدوراً منطوية على ما فيها لا تبدو منها عداوة .

(٢) خيانة .

(٣) تاريخ الفتح الإسلامى لمحمد فخر الدين ١٣٥ (مطبعة الطلبة — القاهرة ١٩٣٢ م)

العقـــل باستحالته ولا تمنع العادة حصوله ؟ فإن لذلك الشعر المختار منزلته ، وللكعبة محلها من الاحترام ، وهـذان السببان يقتضيان ما يستطاع من التأنق والإبداع حتى تجتمع الأسباب التى تدعو إلى الإعجاب بكتابتها وتذهيبها وما تكتب عليه ، كما اجتمعت أسباب الإعجاب بالفن الشعرى التى برزت فى تلك القصائد .

وقد أورد صديقنا الدكتور أحمد الحوفى فى كلمته الموجزة التى كتبها عن المعلقات فى كتابه « الحيـــاة العربية من الشعر الجاهلى » تساؤل الأستاذ نيكلسون الذى يقـول فيه : هل من المعقول أن يقبل أبناء الصحراء الأبيّون أن يقـدموا ثمرات قرائحهم التى تشيد بشرف قبائلهم — وهم جدّ حريصين عليه — ليحكم فيها محـكمون من قبائل أخرى ؟ أو يقبلوا عن طيب خاطر حكم طائفة من الرجال من القبائل المجاورة لمكة من الصعب أن يحكموا حكما عادلا فى مصلحة منافسيهم من قبائل أخرى[1] ؟

ولست أدرى موضع هذا الكلام فى الحديث عن المعلقات أو نفى تعليقها أو إثباته، وقد استشهد به المؤلف فى مقام نفى تعليق تلك القصائد على الكعبة مستظهراً به على ذلك النفى . وأنا لا أرى فى ذلك النّص شيئاً من الحديث عن المعلقات، ولا إشارة إلى القول بتعليقها بالتأييد أو بالتفنيد ، وإنما هو كلامٌ فى التحكيم ، أو الاحتكام إلى الفحول ، طلباً لرأيهم فى الشعر أو فى صاحبه ؛ فى الأسواق أو ماشا كلها ، واستبعاد نيكلسون ينصب على هذا الاحتكام بما ذكر من الأسباب ، ولا يستحق هذا القول تعقيباً عليه منا ، لأنه يتصل بكلام آخر ، وبموضوع يخالف ما نحن

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ١٤٩ (مطبعة نهضة مصر — القاهرة ١٩٥٢م)

بصدده من البحث فى المعلقات . اللهم إذا كان الاحتكام متصلا بإحدى القصائد المعلقات؛ وهذا ما لم يذكره أحد من الرواة فيما نعلم ؛ ولو كان الأمر كذلك جدلاً ، لكان البحث خاصاً بصحة القصيدة أو القصائد ، وهذا شىء لم يحاول الدكتور الحوفى أن ينفيه أو يثبته، فكانت هذه بالعبارة عبارة نيكلسون أشبه بالكلام المقحم فى غير موضعه ؛ لأنه كما أسلفنا كان بصدد الحديث عن المعلقات ، ونفى خبر تعليقها على الكعبة ، منضماً إلى جماعة المنكرين .

فلننظر بعد ذلك فى غير هذه الحجة من الحجج التى تذرع بها أولئك المنكرون .

ومن هذه الحجج أن الذين نقلوا تعليق هذه القصائد على الكعبة لم يذكروا تفصيلا شافياً عن كيفية تعليقها ، ولا عن الذين كتبوها ، والذين أمروا بتعليقها من الملوك والأشراف والقضاة[1] . وهى أيضاً حجة واهية لا تنهض دليلاً مقنعاً على النفى ، لأن كيفيــة التعليق ، وذكر أسماء الكاتبين ، وأسماء الملوك أو الأشراف أو المحكمين ، أمور لا يتعلّق الغرض بها ، كما يقول البلاغيون ، وإنما يتعلق الغرض بهذه القصائد وعظم شأنها ، وخطورة منزلتها فى الشعر الجاهلى ، ومفاخر الذين أنشدوها ، والقبائل التى ينتسبون إليها ؛ وكما أن الإغفال ليس دليلاً على الحصول ، فهو كذلك لا ينهض دليلاً على المنع ، فالحجتان متقاومتان فى السلب والإيجاب ، لا تهدم إحداهما الأخرى . على أننا وجدنا فيما كتب المحققون ما يشير إلى شىء من هذا ، فى كلمة ابن خلدون التى سبقت ، وأعنى بها قوله : إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها (بالكعبة) من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه فى مضر[2] .

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٢٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٨١ وانظر صفحة ٢٠ من هذا الكتاب .

ومعنى ذلك أن الذين قاموا بتعليق القصائد هم أولئك الذين كانوا يتعصبون للشعراء ، والذين كان لهم منزلة فى نفوس أولئك الذين كانوا يعنون بأمر الكعبة والبيت الحرام ، من قريش ومن يوالونهم من الذين كانوا يقدرون هذا الفن الشعرى ، وكانو حراصاً على صونه من عبث الرواة ، وتضييع الأحداث ، وسطوة الزمان ، غيرة عليها أو على قائليها .

وقالوا : إن الكعبة هدمتها قريش بسبب سيل أصابهم فهدمها ، أو نار أحرقتها ، أو لأنهم أرادوا رفعها وتسقيفها ، وإنما كانت رضما[1] فوق القامة فنقضوها ، وجددوا بناءها وسقفوها ، ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود موضعه ، وكان إذ ذاك ابن خمس وعشرين سنة ؛ ولم يذكر رواة خبر الهدم والبناء شيئاً عن المعلقات .

قلت : لم أقرأ فى كتب السيرة أو أخبار مكة شيئاً مما عثر عليه فيها عند هدم الكعبة وبنائها عن المعلقات أو غيرها من المخلفات؛ فإذا لم يذكر المؤرخون شيئاً عن عثورهم على المعلقات ؛ فإنهم لم يذكروا شيئاً عن غيرها ، وليس عدم ذكرهم لهذه الآثار بمانع من وجودها .

ولنعد النظر فى الأخبار التى اتصلت بهدم الكعبة وبنائها . قال الحافظ الفاسى ، صاحب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » فى ذلك :

« وهو صلّى الله عليه وسلم الذى وضع الحجر الأسود موضعه من الكعبة حين اختلفت قريش فى ذلك ، وكان سبب بنائهم لها لوهنها من الحريق الذى أصابها حين جمرت ، والسيل العظيم الذى دخلها وصدع جدرانها ، بعد توهنها بالحريق ، وجعلوا ارتفاعها من خارجها من أعلاها إلى الأرض ثمانية عشر ذراعاً منها تسعة أذرع زائدة على طولها حين عمرها الخليل عليه السلام ، واقتصروا من عرضها أذرعاً جعلوها فى الحجر لقصر النفقة الحلال التى أعدوها لعمارة الكعبة

---

(١) الرضم : أن تنضد الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط .

عن إدخال ذلك فيها ، ورفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ، ويمنعوا من شاءوا ، وكبسوها بالحجارة ، وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين[1] .. فالسبب فى هدم الكعبة ذلك الوهن الذى أصاب بناءها من الحريق الذى أصابها ، والسيل العظيم الذى دخلها وصدع جدرانها ، بعد توهنها بالحريق .. وأعتقد أن فى ذلك السبب الذى أجمع عليه المؤرخون وكتاب السيرة حجة مقنعة ودليلا كافياً على أن هذه الآثار التى كانت معلقة على جـدران الكعبة ، أو موصولة بأستارها ، قد أتى عليها الحريق ؛ فإنّ حريقاً يوهن البناء ، وسيلا يجعل أركانها تتداعى ، من المعقول جداً ألا يبقى ولا يذر شيئاً من تلك العروض العالقة بذلك البناء ، بله نسيجاً من الحرير أو الكتان يحرقه أدنى لهب ، وتأتى إليه أضعف نار .

ألم يفكّر واحد من أولئك المنكرين ، والمتذرعين بمثل هـذه الحجة الواهية ، فى شىء من هذا ، حتى يكون تفكيرهم تفكيراً منطقياً علمياً ؟ وحتى لا يقال إنهم يقلّدون فى تفكيرهم ، أو أنهم ينكرون لمجرد الإنكار ؟ ! وقالوا : إنه ما كان للعرب الذين يوقرون هذه البنيّة أن يدنّسوها بمثل مجون امرىء القيس ولا فسوق طرفة .. !

وكأنى بأولئك المتذرعين بهذه الحجة يقيسون العرب فى جاهليتهم بالعرب أو بالمسلمين وقد طهّروا الكعبة ، وقصدوها حجاجاً تائبين عابدين ، لارفث ولا فسوق ولا جدال ، وإنما رجال يحبون أن يتطهّروا فى بيت شريف وفى مقام كريم ، ونسوا الهوة العميقة التى تفصل بين الجاهلية والإسلام ، وبين عادات العرب فى الجاهلية وتقاليدها ، وعادات الإسلام وتقاليده، وكأنهم يصفون الأولين بالورع والتقوى إلى درجة التحرج والتأثم من قراءة مثل مجون امرىء

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١/٩٥ (دار إحياء الكتب العربية ــ القاهرة ١٩٥٦م)

القيس أو فسوق طرفة، فى شعر كتب بالذهب وعلق بالكعبة ، وكأن مجون امرىء القيس أو فسوق طرفة أشدّ خطراً وأعظم فتكا بأخلاقهم ومثلهم العليا من عبادة الأوثان والسجود للأصنام ، وقد روى أنه كان من أولئك المتحرجين المتأثمين فى زعم المنكرين من صفع إلهه ، لأنه حال بينه وبين ما كان يريد من موافقته على الأخذ بثأره .

على أن كثيراً من المسلمين ، ومن الذين لم يعرف عنهم مأثم ، ولم يطعن فى صحة دينهم ، كانوا لا يتأثمون من رواية الشعر الماجن الخليع ، بل وقرضه فى بيوت الله ، ولم يطعن ذلك فى دينهم وورعهم ، وهل تقاس كعبة الشرك والأصنام فى ظلمات الجاهلية بمساجد العبادة والتوحيد فى نور الإسلام ؟

وقد قيل لابن سيرين : إن قوماً يرون أن إنشاد الشعر ينقض الوضوء ، فقال :

نُبِّئْتُ أن فتاةً كنتُ أخطبها عُرقوبُها مثلُ شهر الصوم فى الطول

ثم قال : الله أكبر ، ودخل فى الصلاة .(١)

ورواية ابن رشيق فى هذا ، أن ابن سيرين قال : الشعر كلام عقد بالقوافى ، فما حَسُن فى الكلام حَسُن فى الشعر ، وكذلك ما قبح منه .. وسئل فى المسجد عن رواية الشعر فى شهر رمضان ، وقد قال قوم إنها تنقض الوضوء ، فقال :

نُبِّئْتُ أن فتاةً كنتُ أخطبُها عُرقوبُها مثل شهر الصّوم فى الطُّولِ

ثم قام فأمَّ الناس . وقيل بل أنشد :

---

(١) جمع الجواهر لأبى إسحق الحصرى القيروانى ٣٩ (دار إحياء الكتب العربية — القاهرة ١٩٥٣ م)

لقد أصبحتْ عرسُ الفرزدق ناشزاً ولو رضيتْ رُمْحُ استِه لاستقرّتِ

... وسئل ابن عباس : هل الشعر من رَفَثِ القول ؟ فأنشد :

وهُنَّ يمشينَ بنا هَميسَا إنْ تَصْدُقُ الطيرُ ... ...

وقال : إنما الرّفث عند النّساء ، ثم أحرم للصلاة[1] .. وسئل ابن سيرين عن ذلك مرة أخرى ، وقد استفتح الصلاة ، فأنشد للأعشى :

وتسخُنُ ليلةَ لا يستطيعُ نُباحاً بها الـكلبُ إلا هَرِيرَا

وتبردُ بردَ رداء العـــروس بالصيف رقرقْتَ فيه العَبيرَا

ثم كبّر وصلّى . وقال جرير بن حازم : كنت فى مسجد الجهاضم فقرضتُ بيت شعر ، فقالوا : ما نراك إلا قد أحدثت فتوضّأ ، فذعرنى قولهم ، فأتيت ابن سيرين ، وقد قام إلى الصلاة ، فقلت : رويدك يا أبا بكر ! فقال مَهْيَم[2] ؟ فعرّفته ، فقال : هلاّ رددت عليهم :

ديارٌ لرمـــلةَ إذ عيشُنا بها عيشة الأنعم الأفضلِ

وإذ وُدُّها فارغٌ للصديـ ـق لم تتغيرْ ولم تبدلِ

كأن الثلوجَ وماء السّحا ب والقرقَفيةَ[3] بالفُلفُلِ

وماء القرنفلِ والزنجبيـ ـل شيب به ثمرُ السُّنبلِ[4]

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/١١

(٢) كلمة استفهام ، أى ماحالك؟ وما شأنك ؟

(٣) القرقف : الخمر يرعد منها صاحبها .

(٤) السنبل : نبات طيب الرائحة ، ويسمى سنبل العصافير ، وأجوده السورى وأضعفه الهندى .

يُصبُّ على برد أنيابها قبيْلَ الصباح ولم ينجلِ

ثم قال : الله أكبر ! وقيل لابن سيرين : أنشد القذع من الشِعْر وأصلي ؟ فقال :

وأنتَ لو باكرْتَ مشمولةً صفراء مثل الفرس الأشقر

رُحْتَ وفي رجليك ما فيهما وقد بدَاهَنْكَ[1] من المئزر[2]

تلك آراء صريحة ، وروايات صحيحة ؛ عن عالمين كبيرين أحدهما ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يلقب بحبر هذه الأمة ، أنشد هذا الشعر وفيه ما فيه من وصف ومجون في بيوت الله ، والمسلمون أشد إعظاماً لها من الجاهليين لكعبتهم . وقد كان لعبد الله بن عباس مجالس في مسجد رسول الله يسمع فيها شعر عمر بن أبي ربيعة في دبيبه وغزله ، وما كان له مع إسلامه وقرابته من صاحب هذه الروضة المباركة ، أن يسمع بمثل ذلك في هذا المكان ، لولا أن استجادة العرب للشعر لم تكن تتوقف على شرف معناه كما يزعم أصحاب هذه الشبهة الواهية[3] .

وفي كتاب ابن المعتز إلى أبي بكر ابن الأنباري جواباً عن كتابه إليه الذي قال فيه : جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بن هانئ ، والشعر الذي قاله في المجون ، وهو يؤمّ قوماً في صلاة ... فكان حقّ شعر هذا الخليع ألا يتلقاه الناس بألسنتهم ، ولا يدوِّنونه في كتبهم ، ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم

---

(١) الهن : اسم لما يستقبح ذكره

(٢) جمع الجواهر للحصرى القيرواني ٤٠

(٣) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ١٢٣

لأن ذوى الأقدار والأسنان يجلّون عن روايته ، والأحداث يغشون بحفظه ، ولا ينشد فى المساجد ، ولا يتحمل بذكره فى المشاهد . .

فكان مما كتب ابن المعتز إليه : ولم يؤسّس الشعر بانيه على أن يكون المبرّز فى ميدانه من اقتصر على الصدق ، ولم يغوَ بصبوة ، ولم يرخِّص فى هفوة ولم ينطق بكذبة ، ولم يغرق فى ذم ، ولم يتجاوز فى مدح ، ولم يزوِّر الباطل ويكسبه معارض الحق . ولو سلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وعدىّ بن زيد العبادى ، إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ فى أشعارهما من امرئ القيس والنابغة . . . وهل يتناشد الناس أشعار امرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة وبشار وأبى نواس على تعيهرهم ، ومهاجاة جرير والفرزدق إلا على ملأ الناس ، وفى حَلَق المساجد ؟ وهل يروى ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم[1] . . .

وأظننا بهذا القدر من الموازنة بين احترام عرب الجاهلية للكعبة واحترام المسلمين لمساجدهم ، قد أبطلنا تلك الحجة من حجج المنكرين تعليق المعلقات على الكعبة .

* * *

وقد روى أن بعض شيوخ الأدب الذين يصح التعويل على آرائهم فى هذا الموضوع يرى أن السبب فى تسمية هذه القصائد بالمعلقات أن العرب لم تكن

---

(١) جمع الجواهر ٤٢

تكتب فى دفاف ، وأنها لم تكتب قبل القرآن كتاباً مدفقاً[٢] ، و إنما كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد ، يوصل بعضها ببعض ، ثم تطوى على عود أو خشبة ، وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة ، بعيدة عن الأرض حرصا عليها من قرض فأرة أو عُث أو نحو ذلك من دواب الأرض قال : وذلك تأويل قوله تعالى « يومَ نَطْوى السّماء كطىِّ السِّجلِّ للكُتُب » إذ يظهر أن السجلّ ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذى كان يعلق الكتب أو يطويها ، لعله كان يستعمل مثل هذا العود فى طى الكتاب وتعليقه[١]

وموقفنا من هذا الرأى لا يخالف موقفنا من غيره من الآراء السّابقة ، التى لا تخرج فى حقيقتها عن افتراضات وظنون ، والظن لايغنى من الحق شيئاً .

بل ربما كان هذا الرأى يحمل أسباب الشك فيه ، والنفى فيه يتعلق بنفى التعليق على الكعبة بالذات لايعدوه إلى نفى الكتابة أو نفى التعليق ، أى تعليق . وقوله : إن العرب لم تكتب قبل القرآن كتابا مدفّقا ، لعلّه قول جديد ، لم نعرف قائله ، لأن بحثنا الطويل فى أمر المعلقات ، ومحاولة استقصائنا لما كتب فيها بالنفى أو بالإثبات ، لم يصل بنا إلى هذا القول ، ولم نجد واحداً من الرواة ذهب إلى أن المعلقات كتبت فى كتاب مدفّف أو زعم ذلك ، حتى يكون ذلك موضع تعليق أو تعرّض لنفيه أو إثباته ، ونحن مع ذلك نؤيد ما ذهب إليه صاحب الرأى من أن العرب لم تكتب كتابا مدفّقا ، ولم نعرف كتابا مدفقا قبل

---

(٢) دفتا المصحف : ضمامتاه

(٣) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٢٣ ولعل صاحب هذا القول هو المرحوم الأستاذ أحمد الإسكندرى .

المصحف ، وذلك أن أهم خصائص الكتاب الواحد الوحدة بين عناصره وأجزائه ، ولا يكون ذلك إلا فى عصور الحضارة .

وقول صاحب الرأى : إن العرب كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ، ثم تطوى على عود أو خشبة » وهذا القول لا يتعارض مطلقاً مع ماروى عن المعلقات ، فإن الذى قيل هو أنها كتبت على الحرير أو القباطىّ المدرجة ، وهى نسيج من الكتان من صنع مصر وليس فى هذا القول أى خلاف لذلك الرأى ، بل إن قوله ثم تطوى على عود أو خشبة ، يتفق مع آراء الرواة فى وصف القباطىّ بالمدرجة .

وذهاب صاحب الرأى إلى أن تعليقها كان فى جدار الرّواق أو الخيمة ، بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرض فأرة أو عث أو نحو ذلك من دواب الأرض ، لا نجد مانعاً من قبوله ولكن يبقى بعد ذلك سؤال ، وهو فكيف عرفت العرب أمرها ؟ وكيف تعلقت الرواة بحفظها ؟ ذلك بأن الخيمة أو الرواق مهما يقل فى أمرهما ، فلهما حرمة الخصوصية عند صاحب الخيمة أو الرواق ، أو عشيرته الأدنين . اللهم إلا أن يقال إن كل رواية كان لا يروى إلا لشاعر واحد أو قبيلة واحدة ، ومن مجموع روايات الرّواة اجتمع هذا التراث الفنى من الشعر الجاهلى ؛ وهذا القول لا يخلو من شك ، وأنَّى لنا التسليم بأن أولئك الرواة لم يكونوا يروون إلا ماعلّق بجدر الخيام أو الأروقة فى منازل رؤساء العرب ؟ لاشك أنهم سيروون كل ما يحلولهم من شعر القبيلة ، ولن تقتصر الرواية على ذلك الشعر المعلَّق .

وأيسر من هذه الافتراضات التى لاتخلو من ضعف ، التسليم بصحة الروايات التى تقول بكتابتها وتعليقها على الكعبة ؛ مالم تقم الأدلة القاطعة على نفيها أو تكذيبها ؛ وقد فصلنا القول فى أسباب الشك فى الكلمات السابقة ، مما نعتقد

أن فيه الكفاية على إثبات عدم جدِّيتها ؛ وأنها لا تنهض بنقض الروايات التى سارت فى الزمن ، ورضيها الثقاة المحققون من العلماء .

وليس تعليق الآثار النفيسة التى يحرص عليها على جدران الأماكن ذات القداسة والإجلال بدعاً من العمل ، فان الأمم قديمها وحديثها تعوّدت أن تصون نفائسها فى مثل تلك المقدسات . والأفراد من أولى الحول والطول اعتادوا أن يتقربوا إليها بما يقدمونه إليها من الألطاف والهدايا والتحف التى يؤثرونها بها على وارثيهم وبيوتهم ، لأنهم يرون وارثيهم عرضة للتضييع ، وبيوتهم هدفاً لسهام الزمان ، أما الأماكن المقدسة فإن فى تقديس الناس لها وعنايتهم الدائمة بها ما يجعل هذه النفائس فى مأمن من عاديات الأحداث ، وتقلبات الزمان ؛ وقد يلتمسون بذلك الزلفى والمثوبة ؛ وبذلك جرت العادة فى الجاهلية ، وبقيت فى الإسلام ، وكانت فى غير العرب ، كما كانت فى العرب ، وعند غير المسلمين . قال المسعودى فى أخبار الفرس: وكانت الفرس تهدى إلى الكعبة أموالاً فى صدر الزمان وجواهر ، وقد كان ساسان ابن بابك أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فدفن فى زمزم . ولما فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه مدائن كسرى كان مما بعث إليه هلالان ، فبعث بهما فعلقهما فى الكعبة . وبعث عبد الملك بن مروان بالشمسيتين وقدحين من قوارير . وبعث الوليد بن عبد الملك بقدحين . وبعث الوليد بن يزيد بالسرير والكرسى وهلالين . وبعث أبو العباس السفاح بالصفحة الخضراء . وبعث أبو جعفر المنصور بالقارورة الفرعونية . وبعث المأمون بالياقوتة التى تعلّق كل سنة فى وجه الكعبة فى الموسم بسلسلة من ذهب . وبعث المتوكل بشمسية عملتها من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت . . . الخ [1]

وأنت إذا زرت مسجداً من المساجد المأهولة أو معبداً أومزاراً من المزارات التى لها

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١/ ١١٦

شأن فى نظر الناس فى أيامنا ألفيت الدليل ماثلا ، سترى خير آيات الفن والصناعة وقد زينت جدرانها ، وترى الرسوم والتصاوير والشعر والخط والفرش والتماثيل التى تقدم بها أصحابها فى هذه العصور التى تسمى عصور النور والحضارة ، والماضى أشبه بالحاضر من الماء بالماء .

لقد سبق أن قريشاً كتبوا صحيفتهم التى تعاهدوا فيها على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطّلب على ألاينكحوا إليهم ، ولاينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولايبتاعوا منهم ؛ ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ، ويستخلص من هذا أن الكعبة كانت مكاناً لمثل هذه المواثيق التى يدعى إلى احترامها ، ولم تكن مقصورة على العبادة والنسك ، كما يظن بعض المعاصرين . ويذكر التاريخ الذى لايشك فيه أولئك المنكرون أن الرشيد حج ومعه الأمين والمأمون وقواده ووزراؤه وقضاته ، وهناك كتب المأمون كتابين أشهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيها ، أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه ، والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة ، والشروط للمأمون على الأمين ، وجعل الكتابين فى البيت الحرام ، فعلقا فى أستار الكعبة ، ليزداد العهد بذلك نفاذاً وهيبة ، وليزداد الناس له إذعانا وتسليما . فأية غرابة فى أن يتقدم فحول شعراء العرب أو أولياؤهم أو المعجبون بهم وبفنهم بهذه الآيات من الإبداع لتصان فى هذا المقام الكبير ، وليقرأها الزائر والحاج والطائف ، فيذيعوا من أمرها فى أحياء العرب ما اشتهى أصحابها من المجد وذيوع الصيت إذا رجعوا إلى قومهم ؟ وهم أمة ليس لها من التدين إلا هذا الفنّ الذى هاموا به وسحروا ، حتى كانت الفصاحة والتباهى بالبيان أصدق أديانهم ؛ وكانوا أشد إخلاصا لها من إخلاصهم لآلهتهم وأصنامهم . أما كيف علقت تلك القصائد ؟ ومتى علقت ؟ وكم ظلت معلقة ؟

فهى تفصيلات لايجدى الحرص على معرفتها من خبر مأثور ، أومنطق يوجب التسليم . وليس مايمنع من تعليقها أعواما أو عاما من الموسم إلى الموسم ، أوأيام الموسم وحدها دون أيام العام ، أو تعليق إحداها حتى يتحقق الغرض من تعليقها ، ثم ترفع ليعلق مكانها أخرى ، وهكذا .

وقد كان لهذا الأمر نظائر فى أدب الإغريق ، فإن القصيدة التى قالها (بندار) زعيم الشعر الغنائى يمدح بها (دياجوراس) قد كتبوها بالذهب على جدران معبد أثينا فى لنوس[1]

* * *

نستطيع بعد ذلك أن نوضح بعض معالم هذا الفصل فى النقاط الآتية :

(١) أن هذه القصائد (المعلقات) كانت آية للفنّ الشعرى عند عرب الجاهلية ، وكان أصحابها هم المقدّمين عنـدهم ، وقد بقيت لهم ولقصائدهم تلك المنزلة فى نفوس العرب منذ عصر الإسلام حتى يومنا هذا ، وكان فى هذه القصائد مادة تواتر علماء الدين وعلماء الـكلام والمؤرخون والرواة والنحاة واللغويون والبلاغيون على الانتفاع بها فى دراساتهم القرآنية والنحوية واللغوية والبلاغية ، واتخذوها مصدراً للفحص عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، ولا يمكن عقلا وعادة أن تـكون هذه العناية بأثر من الآثار التى يشك فيها ؛ وليس من المسلّم به أن تجتمع هذه الأجيال على ضلالة ؛ أو زيف من التاريخ .

(٢) إنّ القول بكتابة هذه القصائد وتعليقها على الـكعبة ، أمر رواه الثقاة

---

(١) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٣٤ (مطبعة الرسالة — القاهرة ١٩٥٥م) .

المحققون فى مختلف العصور العربية ، وأخذ به الباحثون الذين لم يجدوا مايدفعه من الأدلة العلمية أو العقلية .

(٣) وأنّ أباجعفر النحاس هو وحده الذى انفرد بالشك فى تعليق هذه القصائد على الكعبة من بين القدماء ، وقد فصّلنا القول فى رأيه ، وأبنّا عما فيه من آثار التهافت ، وأنه إذا كان قد قال : أما تعليق هذه القصائد على الكعبة فلايعرفه أحد من الرواة ؛ فإن غيره من الذين عرفوا بالتحقيق والتمحيص قال : ذكر ذلك غير واحد من العلماء !

(٤) وأنه كان فى العرب الكاتبون ؛ وأن القول بأمية العرب المطلقة قول قائل ، لايثبت أمام الأدلة القاطعة والأخبار الصحيحة التى لم يشك أحدٌ فيها مما فصلناه فى موضعه ، ويتصل بهذا قولهم إن الشعر العربى لم يدوّن إلا أواخر عصر بنى أمية أو أوائل العصر العباسى ، وهوزعم باطل ؛ فقد ثبت أن العرب فى الجاهلية وفى وقت قريب منها كانت تكتب شعرها ، وليس مايمنع ذلك من المعرفة أو العادات والتقاليد . وقد روى صاحب الأغانى أن عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهمى وضِرار بن الخطاب الفهرى أنشدا حسان بن ثابت شعراً حتى فاروصار كالمرجل غضبا ، فشكاهما حسان إلى عمر ، فقال عمر لمن حضره : إنى كنت قد نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً ، دفعاً للتضاغن عنكم وبثّ القبيح فيما بينكم . فأما إذ أبوا فاكتبوه ، واحتفظوا به . فدوّنوا ذلك عندهم . قال خلاد بن محمد : فأدركته والله ، وإن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه [١] . ومعنى ذلك أن التدوين مخافة الدثور كان تقليداً عرفه المسلمون كما عرفه عرب الجاهلية ، وكما تعرفه كل أمة تحرص على بقاء ماتخشى سطوة الأيام عليه .

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٤ / ١٤١

(ه) وأن الحجج التى تذرع بها المنكرون لنفى التعليق ، حجج ظنية لاتقوى على هدم المأثور ، ولاتلبث أن تتبدّد أمام البحث العلمى النزيه والتفكير المستقيم .

* * *

و بعد : فقد طالما فتن بعض الباحثين من الشباب بكثير من الدعاوى التى يروّجها أعداء هذه الأمة باسم التجديد فى البحث ، بما يلقون إليهم من الشكوك والأباطيل حول هذا التراث الأدبى وغيره من خصائص العروبة قديماً وحديثاً ، ليفقدوهم الثقة بماضى أسلافهم ، وليخدعوهم عن الحقائق الماثلة من تراثهم ومقوماتهم فى الفن والمعرفة ، وأصبح بعض المحدثين ممن غرّهم السّراب يجرون فى خدمة تلك الآراء المبتسرة التى تهدف إلى هدم كل رأى صالح ، ورفض كل مأثور من الأخبار الصحيحة عن أدب هذه الأمة وأخلاقها وتقاليدها ، و يرفضون الاعتراف بجهودهم فى العلم و التفكير .

وقد آن للشباب أن يفتح عينيه ليميز الخبيث من الطيب و يتدبر ما يلقى إليه غير مخدوع بالتضليل ، ولا مفتونٍ بالآراء المتهافتة ، والدعاوى الباطلة التى تعمل على ثل مجد أمته وتراثها فى الأدب وشتى فنون المعرفة التى يعترف لهم بالأصالة فيها المنصفون من رجال الفكر فى العالم ، ومن لا تشوب آراءهم شوائب التعصب والهوى . وأما غيرهم من المبطلين فقد أضلّهم الهوى أو أعماهم الجهل : إن وجدوا منقصة عند العرب تعلقوا بها وأذاعوها ، وزعموا أن النقص شيمتهم ، والخلط طبيعتهم ؛ و إن رأوا عندهم فضيلة فى خلق أو علم أو تفكير ، نسبوها إلى غيرهم ، وعدوهم عيالا عليهم فى تلك الفضيلة ؛ فإن لم يستطيعوا أحاطوها بسياج من الشك لايهتدى الباحث إلى رؤية ما وراءه إلا بالفكر الثاقب والتأمل الطويل .

الفصل الثاني

شعراء المعلقات

المشهور عند الرواة أن المعلقات سبع وأن أصحابها هم : امرؤ القيس بن حُجْر ، وطرَفة بن العبد البكرى ، وزهير بن أبى سُلْمى ، ولَبِيد بن ربيعة العامرى ، وعمرو بن كلثوم التغلبىّ ، وعنترة بن شداد العبسىّ ، والحارث بن حِلِّزة اليشكرى . وكلهم جاهليون ، عاشوا فى الجاهلية ، وماتوا قبل البعثة النبوية ؛ ما عدا لبيد بن ربيعة الذى عاش فى الجاهلية وصدر الإسلام ، ومات فى أواخر خلافة معاوية بالكوفة .

وعند أبى زيد القرشى أن أصحاب المعلقات هم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة الذبيانى ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة بن العبد ، وعنترة ابن شداد . فهؤلاء ثمانية ، هكذا ذكرهم فى جمهرة أشعار العرب . وعلى هذا يكون قد حذف من المشهورين واحداً هو الحارث بن حلزة ، وأضاف إلى الستة الباقين شاعرين هما : النابغة الذبيانى والأعشى .

أما أبو زكريا التبريزى فإن أصل تلك القصائد عنده سبع ، وأصحابها هم : امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبى سلمى ، ولبيد بن ربيعة ، وعنترة العبسى ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة . وهم المشهورون عند الرواة .

ولكنه أضاف إلى هذه السبع ، قصيدة النابغة الذبيانى التى مطلعها :

يا دار مَيَّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ أقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأبَدِ

وقصيدة الأعشى أبى بصير ، التى أولها :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إن الركبَ مرتحلُ وَهَلْ تُطيقُ وداعاً أيُّها الرَّجُلُ

وقصيدة عبيد بن الأبرص ، التى أولها :

أقفر من أهـــله ملحوبُ فالقُطبيَّـــات فالذَّنوبُ

ومفهوم كلامه أن قصيدتى النابغة والأعشى ، قد زادهما أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل ، وأنه — أى التبريزى — هو الذى أضاف قصيدة عبيد بن الأبرص لتكون تمام العشر . ونص كلامه فى خطبة كتابه (شرح القصائد العشر) : سألتنى ، أدام الله توفيقك ، أن ألخص لك شرح القصائد السبع ، مع القصيدتين اللتين أضافهما إليهما أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوى : قصيدة النابغة الذبيانى الدالية ، وقصيدة الأعشى اللامية — وقصيدة عبيد ابن الأبرص البائية تمام العشر[1] .

والذى يدل عليه هذا الكلام أنه يتفق مع جمهور الرواة فى السبع ، وأن قصيدتى الأعشى والنابغة أضافهما أبو جعفر ، وأنه أى التبريزى هو الذى أضاف قصيدة عبيد ، ولم ينقل عن أحد الرواة هذه الإضافة . ويؤكد موافقته للمشهور من كلام الرواة فى اعتبار المعلقات سبعاً ، أنه قال فى نهاية شرحه لمعلقة الحارث بن حلزة : هذه آخر القصائد السبع ، وما بعدها المزيد عليها[2] .

وابن خلدون يذكر أصحاب المعلقات سبعة هم : امرؤ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وعنترة ، وطرفة ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، ثم يقول : وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع[3] فهؤلاء قد علقت قصائدهم ، كما أن غيرهم (من أصحاب المعلقات السبع) قد علقت قصائدهم ؛ وهى عبارة يبدو فيها التناقض كما أسلفنا ، وكل ما يمكن أن يفهم من هذه العبارة ، ويحاول به إزالة التناقض الظاهر فيها ، أن من بين الذين ذكر أسماءهم مَنْ علِّقت له قصيدة ، وإن لم يذكره

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢ (المطبعة المنيرية — القاهرة ١٣٥٢ هـ) .

(٢) المصدر نفسه ٢٨٧ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٨١ . وانظر صفحة ١٢ من هذا الكتاب .

الرواة والمؤرخون بين أصحاب المعلقات ، ويكون المقصود بقوله (وغيرهم) من يتم السبعة الذين اتفق الرواة عليهم .

وليس فى مرجع مما بين أيدينا ما يدلّ على أن علقمة بن عبدة من أصحاب المعلقات ، ولم يذكر ابن خلدون من أخذ عنه القول ، ولم يذكر اسم قصيدته التى علّقت كذلك . ولا يمكن أن نأخذ بكلام ابن خلدون فيما يخالف ؛ ولكننا من غير شك لا يسعنا إلا الأخذ بكلامه فيما يوافق ، لأن هذا أمر مرجعه أولاً وأخيراً الرواية والأخذ عن العلماء ، وهو لم يذكر السند أو الراوى الذى أخذ عنه .

ومن هذا الذى سبق يتبين :

١ — أن المجمع على عدهم أصحاب المعلقات ستة من الشعراء هم :

(١) امرؤ القيس (٢) طرفة بن العبد (٣) زهير بن أبى سُلمى

(٤) لبيد بن ربيعة (٥) عمرو بن كلثوم (٦) عنترة بن شداد

٢ — وعند أكثر الرواة أن سابع هؤلاء هو الحارث بن حلزة ، ولم يغفله منهم — فيما نعلم — إلاّ صاحب جمهرة أشعار العرب .

٣ — أن أبا زيد القرشى ، أضاف إلى الستة السابقين المجمع عليهم النابغة الذبيانى ؛ وجعل معلقته القصيدة التى مطلعها :

عُوجُوا لْحيُّوا لُنُعْم دمنةَ الدارِ ماذا تَحيُّونَ مِنْ نُؤْىٍ وأحجارِ

وأضاف إليهم أيضاً الأعشى ، وجعل معلقته قصيدته التى أولها :

مابكاء الكبير بالأطلالِ وسُؤالِى وما تردُّ سؤالِى

٤ — وأن أبا جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوى يتفق مع أبى زيد فى عدِّ النابغة والأعشى من أصحاب المعلقات ، ولكنه يخالفه فى القصيدة

المعتبرة لكل منهما ، فمعلقة النابغة عنده هى قصيدته الدالية التى مطلعها :

يادارميّة بالعلياء فالسَّندِ أقوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأبدِ

ومعلقة الأعشى عنده ، هى قصيدته اللامية التى أولها :

ودِّع هُرَيْرَةَ إنّ الركب مرتحلُ وهل تطيقُ وَدَاعاً أيّها الرّجلُ

٥ — وأن أبا زكريا التبريزى أضاف إلى هؤلاء عبيد بن الأبرص ليكون تمام العشرة .

٦ — وذهب بعضهم إلى أن معلقة الأعشى هى قصيدته الدالية التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتى أولها :

ألم تغتمض عيناك ليلةَ أرْمَدَا وبتّ كما بات السليمُ مسهّدا

كما يضيف إلى المعلقات قصيدة النابغة « يادارميّ .. » ويسقط قصيدتى عنترة والحارث بن حلزة ، ويزيد « أقفر من أهله ملحوب .. » لعبيد بن الأبرص (١)

وأنا أستبعد أن تكون قصيدة الأعشى المذكورة من المعلقات بسبب ظروفها التاريخية كما سيأتى فى ترجمة الأعشى .

٧ — وأنّ ابن خلدون انفرد بعدّ علقمة بن عبدة من أصحاب المعلقات ، ولم يذكر القصيدة التى اعتبر بها واحداً منهم .

ويقتضى منهجنا فى هذه الدراسة أن نكتب عن كل واحد من أولئك الفحول المقدمين كلمة نعالج فيها التعريف بالشاعر و بيئته وفنّه الشعرى فى حدود ما يسمح به نطاق هذه الدراسة ؛ حتى يتحقق لها الجانب التاريخى إلى المنهج الفنى الذى ننشده .

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٠٠ .

امرؤ القيس

رأس الطبقة الأولى من فحول الجاهلية ، وهى عند ابن سلام أربعة شعراء : امرؤ القيس ، ونابغة بنى ذبيان ، وزهير بن أبى سلمى ، والأعشى ميمون ابن قيس(١) .

وهو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المرار بن عمرو . الكندىّ . وأمه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير ، أخت كليب ومهلهل ابنى ربيعة التغلبيين ، وكليب هو الذى تقول فيه العرب « أعزّ من كليب وائل » و بمقتله هاجت حرب بكروتغلب(٢) .

واسم امرئ القيس حُنْدُج ، والحندج الرملة الطيبة تنبت نباتا حسنا ، ومعنى « امرئ القيس » رجل الشدة . ويكنى أبا الحارث ، وأبا وهب . ويلقّب بالملك الضليل ، كما يلقب بذى القروح .

وهو من قبيلة كندة ، وكندة قبيلة يمنيّة ، كانت تسكن قبل الإسلام غربىّ حضرموت ، وكانت على اتصال بالحميريين .

وفى عهد حسّان بن تبع ملك حمير ، كان حُجر بن عمرو سيّد كندة فى حاشية حسان ، وقد فتح حسّان فتوحاً كثيرة فى جزيرة العرب . فولّى حُجْراً بعض قبائلها ، ودانت كلها لحجر الكندىّ ، كما دان حجر بالولاء لحمير ، ونزل حجر نجداً ، وكان اللخميون ملوك الحيرة قد بسطوا نفوذهم على تلك البلاد وخاصة بلاد بكر بن وائل ، فحارب حجر اللخميين ، وأزال نفوذهم .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٣ (دار المعارف — القاهرة ١٩٥٢ م)

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٦٢ .

وفى عهد الحارث بن عمرو بن حجر اتسع سلطان كندة ، واتصل الحارث بقباذ ملك الفرس ، فولاه الحيرة مكان اللخميين ، ونشر نفوذه وسط الجزيرة على كثير من قبائل العرب ، وفرق الملك فى أبنائه الأربعة ، فولى ابنه حجراً — أبا امرئ القيس — بنى أسد ، وابنه شرحبيل بكر بن وائل ، وابنه معد يكرب قبيلة قيس وكنانة ، وابنه سلمة قبيلتى تغلب والنمر بن قاسط . ولكن هذه السلطة لم تدم طويلا ، فقد عاد اللخميون إلى نفوذهم فى الحيرة وقربهم من ملك فارس ، ودسّوا الدسائس لأولاد الحارث ، فقتل سلمة وشرحبيل ، وتنكر بنو أسد لحجر ، ونبذوا طاعته ، وأمسكوا عن دفع الإتاوة له ، واستعان حجر بجند من ربيعة ، وأعمل فى أسد السيف ، واستباح أموالهم ، وحبس أشرافهم ، ثم رقّ لهم وأطلق سراحهم ، فحقدوا عليه واغتالوه . وقد جاء فى أخبار الرومان أن حُجرا هذا (Ogdros) وأخاه معد يكرب قاما ببعض غزوات على حدود المملكة البيزنطية فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وبموت حجر تضعضعت سلطة كندة (١) .

وروى ابن قتيبة أن حُجْراً — أبا امرىء القيس مُلِّك على بنى أسد ، فكان يأخذ منهم شيئاً معلوماً ، فامتنعوا منه ، فأخذ سَرَاتهم فقتلهم بالعِصىّ ، فسمّوا « عبيد العصا » وأسر منهم طائفة ، فيهم عبيد بن الأبرص ،. فقام بين يدى الملك فقال :

يا عينِ ما فابكى بنى أسد همُ أهلُ الندامَهْ
أهل القباب الحمر والـ نّعَم المؤبّل والمدامَهْ
مهلا أبيت اللعنَ مهلا إن فيما قلتَ آمَهْ

(١) المفصل فى تاريخ الأدب العربى ١ / ٥٠ (مطبعة مصر — القاهرة ١٩٣٤ م)

في كل واد بين يثـ ـرب والقصور إلى اليمامَهْ
تطريبُ عانٍ أو صيا حُ محرّقٍ وزُقاء[1] هامَهْ
أنت المليك عليهمُ وهم العبيد إلى القيـــامَهْ

فرحمهم الملك وعفا عنهم وردهم إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة ، تكهن كاهنهم عوف بن ربيعة الأسدى ، فقال : يا عباد ، قالوا لبيّك ربّنا ! فقال : والغلّاب غير المغلَّب ، في الإبل كأنها الرّبرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمه ينثعب ، وهو غداً أول من يُسلب ! قالو : من هو ربّنا ؟ قال : لولا تجيش نفس جاشية ، أنبأتكم أنه حُجر ضاحية ! فركبت بنو أسد كل صعب وذلول ، فما أشرق لهم الضحى حتى انتهوا إلى حجر ، فوجدوه نائماً فذبحوه ، وشدوا على هجائنه فاستاقوها[2] .

قال ابن قتيبة : إن حجرا لما ساءت سيرته ، جمعت له بنو أسد ، واستعان حُجر ببنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، فقال امرؤ القيس :

تميمُ بنُ مُرٍّ وأشياعُها وكندةُ حَولى جميعاً صُبُرْ

فبعث بنو أسد إلى بنى حنظلة نستكفها ، وتسألها ان تخلّى بينها و بين كندة ، فاعتزلت بنو حنظلة ، والتقت كندة وأسد ، فانهزمت كندة ، وقتل حجر ، وغنمت بنو أسد أموالهم ، وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص الأسدى :

هلاَّ سألت جموع كِنْـ ـدَةَ يومَ ولَّوْا هاربينا

وكان قاتل حجر هو علباء بن الحارث الأسدى ، وأفلت امرؤ القيس يومئذ ، وحلف لا يغسل رأسه ، ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره ببنى أسد[3] .

---

(١) المؤبلة الكثيرة المجتمعة ، الآمة العيب ، يثرب مدينة بحضرموت نزلتها كندة .
(٢) الشعر والشعراء ١ / ٥٤ .
(٣) الشعر والشعراء ١ / ٦٣ .

وقيل غير ذلك ، وأنهم أخذوه أسيراً فى حرب بينهم و بينه ، فوثب عليه ابن أخت علباء فطعنه ، ولم يجهز عليه ، فأوصى ودفع كتابه إلى رجل وأمره أن ينطلق إلى أولاده و يستقرئهم واحداً واحداً ، حتى يأتى امرأ القيس ، وكان أصغرهم ، فأيهم لم يجزع دفع إليه سلاحه وخيله ووصيته ، وكان بيّن فيها من قتله ، و كيف كان خبره ، فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه ، فأخذ التراب ووضعه على رأسه ، ثم استقراهم واحداً واحداً ، فكلهم فعل ذلك ، حتى أتى امرأ القيس ، فوجده مع نديم له يشرب الخمر و يلاعبه بالنرد ، فقال له : قتل حُجر ! فلم يلتفت إلى قوله ، وأمسك نديمُه ، فقال له امرؤ القيس : اضرب ، فضرب حتى إذا فرغ قال : ما كنت لأفسد عليك دستك ! ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله ، فأخبره ، فقال : الخمرُ علىّ والنساء حرام ، حتى أقتل من بنى أسد مائة ، وأجز نواصى مائة !

وكان امرؤ القيس طرده أبوه لماصنع فى الشعر بفاطمة ما صنع ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زمانا ، فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرّة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان فقال * قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * فلما بلغ ذلك حُجرا أباه ، دعا مولى له يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس ، وائتنى بعينيه ، فذبح جؤذراً فأتاه بعينيه ، فندم حجر على ذلك ، فقال: أبيت اللعن إنى لم أقتله . قال : فأتنى به ، فانطلق فإذا هو قد قال شعراً فى رأس جبل ، وهو قوله :

فلا تتركنّى يا ربيعُ لهذه — وكنتُ أرانى قبلها بك واثقا

فردّه إلى أبيه ، فنهاه عن قول الشعر ؛ ثم إنه قال :

* ألا انعمْ صباحاً أيها الطللُ البالى *

فبلغ ذلك أباه فطرده . وروى البغدادى فى خزانة الأدب أن السبب فى طرد أبيه إياه أنه كان يشبب بهر ، وهى أم الحويرث ، وكانت زوجة والده ؛ فلذلك كان طرده وهم بقتله من أجلها[1] فبلغه مقتل أبيه وهو بدمون ؛ فقال :

تطاول الليلُ علينا دَمُّونْ   دَمّونُ إنّا معشرٌ يمانونْ

و إننا لأهلنا محبُّونْ

ثم قال : ضيَّعنى صغيراً ، وحمّلنى دمه كبيراً ، لاصحوَ اليومَ ولاسُكر غداً اليومَ خمر ، وغداً أمر ! ثم قال :

خليلىّ ما فى اليوم مَصْحًى لشاربٍ   ولا فى غدٍ إذ كانَ ما كانَ مَشْرَبُ

ثم آلى لا يأكل لحما ولا يشرب خمراً حتى يثأر لأبيه ، فلما كان الليل لاح له برق فقال :

أرقتُ لبرقٍ بليل أهَلْ   يضىء سناهُ بأعلى الجبلْ

بقتل بنى أسدٍ ربَّهمْ   ألاَ كلُّ شىء سواه جللْ

وأتى امرؤ القيس إلى ذى جَدَن الحميرىّ فاستمدّه فأمدّه ، و بلغ الخبر بنى أسد ، فانتقلوا عن منازلهم ، فنزلوا على قوم من بنى كنانة بن خزيمة ، والكنانيون لا يعلمون بمسير امرئ القيس إليهم ، فطرقهم فى جند عظيم ، فأغار على الكنانيين ، وقتل منهم ، وهو يظن أنهم بنو أسد ، ثم تبين أنهم ليسوا منهم ، فقال :

ألا يالهفَ نفسى إثْر قومٍ   همُ كانوا الشِّفاء فلم يُصابُوا

وقاهم جَدُّهم ببنى أبيهمْ   و بالأشقَيْنَ ما كانَ العقابُ

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ١/٢٥٥

وأفلتهنّ عِلباء جريضاً[١] ولو أدركْنَهُ صَفِرَ الوِطابُ

ثم تبع بنى أسد فأدركهم ، وقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وقال :

قولا لدُودَانَ عبيد العصا ما غرَّكم بالأسدِ الباسلِ

قد قرَّت العينانِ من وائلٍ ومن بنى عَمْرٍو ومن كاهلِ

نطعنهُم سُلْكَى ومَخْلُوجَةً كرَّكَ لأْمَيْنِ على نابلِ

حَلَّتْ لى الخمرُ وكنتُ امرأً عن شربها فى شُغُلٍ شاغلِ

فاليومَ أشربْ غيرَ مستحقبٍ[٢] إثماً من اللهِ ولا واغلِ

ثم إن المنذر بن ماء السماء غزا كندة فأصاب منهم ، وأسر اثنى عشرفتى من ملوكهم ، فأمر بهم فقتلوا بمكان بين الحيرة والكوفة يقال له «جَفْر الأملاك» وكان امرؤ القيس يومئذ معهم ، فهرب حتى لجأ إلى سعد بن الضِّباب الإيادى ، سيد إياد ، فأجاره .

وكان ابن الكلبى يذكر أن أم سعد كانت عند حجر أبى امرىء القيس ، فتزوجها الضباب ، فولدت سعداً على فراشه ، واستشهد على ذلك قول امرىء القيس :

يفكّهنا سعدٌ وينعم بالنا ويغدو علينا بالجفانِ وبالجُزُرْ

ونعرفُ فيه من أبيه شمائلاً ومن خاله ومن يزيدَ ومن حُجُر

ثم تحوّل امرؤ القيس إلى جبلى طيء[٣] ، فنزل على قوم ، منهم عامر بن

---

(١) أفلتهن : يعنى الخيل التى كانت تطلبه فلم تدركه ، الجرض والجريض غصص الموت ، يريد أفلتهن مجهودا يكاد يقضى ، صفر خلا ، والوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن ، يريد أنه مات فلم تملأ وطابه ، أو بقى جسمه صفرا من حياته كما يخلوا الوطب من اللبن .

(٢) السلكى : الطعنة المستقيمة تلقاء الوجه ، المخلوجة : غير المستقيمة ، كرك لأمين مثنى لأم ، يقال سهم لأم أى عليه ريش لؤام يلاءم بعضه بعضاً ، والنابل : الرامى بالنبل يريد يذهب الطعن فيهم ويرجع كما ترد سهمين على رام رمى بهما .

(٣) هما جبلا أجأ وسلمى .

جُوَيْن الطائى ، ولم يزل يتنقل من قوم إلى قوم بجبلى طيء ، حتى سمت به نفسه إلى ملك الروم ، فأتى السَّمَوْأل بن عادياء اليهودى ملك تيماء ، وهى مدينة بين الشام والحجاز ، فاستودعه مائة درع وسلاحا كثيراً ، ثم سار ومعه عمرو بن قميئة ، أحد بنى قيس بن ثعلبة ، وكان من خدم أبيه ، فبكى ابن قميئة ، وقال له : غررت بنا ، فأنشا امرؤ القيس يقول :

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دُونه ... وأيْقَنَ أنا لاحقـان بقيصرَا

فقلت له : لا تبك عينك إنمـا ... نحاولُ مُلـكا أو نموتَ فنعذَرَا

وإنى أذين إن رجعت مملـكا ... بسير ترى منه الفُرانقَ أزْوَرَا

على ظهر عَادىّ تحارُ به القطا[1] ... إذا سافه العَوْد الدّيَافىّ جرجَرَا

و بلغ الحارث بن أبى شِمر الغسّانى ، وهو الحارث الأكبر ، ما خلّف امرؤ القيس عندالسّموءل ، فبعث إليه رجلا من أهل بيته ، يقال له الحارث بن مالك ، وأمره أن يأخذ منه سلاح امرىء القيس وودائعه ، فلما انتهى إلى حصن السموءل أغلقه دونه ، وكان للسموءل ابن خارج الحصن يتصيد ، فأخذه الحارث ، وقال للسموءل : إن أنت دفعت إلىّ السّلاح وإلاّ قتلته ، فأبى أن يدفع إليه ذلك ، وقال له : اقتل أسيرك فإنى لا أدفع إليك شيئا ، فقتله . وضربت العرب المثل بالسموءل فى الوفاء ، وقد ذكره الأعشى فى قصة له . .

وصار امرؤ القيس إلى ملك الروم ، فأكرمه ونادمه ، واستمده فوعده ذلك ، وفى هذه القصة يقول امرؤ القيس :

---

(١) الأذين . الزعيم والـكفيل ، الفرانق : سبع يصيح بين يدى الأسد كأنه ينذر الناس به ، ويقال إنه شبيه بابن آوى ، وأزور : مائل العنق ، العادى : الطريق القديم ، سافه : شمه ، الديافى : نسبة إلى الدياف ، وهى قرية بالشام تنسب إليها النجائب ، العود : الجمل المسن وفيه بقية . يقول : إذا ساف الجمل تربةهذا الطريقجرجر جزعاً من بعدهوقلةمائه.

ونادمتُ قيصر فى مُلكه   فأوْجَهنى وركبتُ البريدا
إذا ما ازدحمنا على سِكَّة   سبقتُ الفُرانق سبقا بعيدا

ثم بعث معه جيشاً فيهم أبناء ملوك الروم ، فلما فَصَل قيل لقيصر : إنك أمددْتَ بأبناء ملوك أرضك رجلا من العرب ، وهم أهل غدر ، فإذا استمكن مما أراد وقهر بهم عدوّه غزاك ! فبعث إليه قيصر رجلا من العرب كان معه يقال له الطماح بن قيس الأسدى ، وكان امرؤ القيس قتل أخاه ، فاندس حتى أتى بلاد الروم ، فأقام مستخفياً ، وكان قد اتصل ببعض أصحاب القيصر ، وألقى إليهم ماأوغر صدورهم على امرىء القيس ، وحمله القيصر إلى امرىء القيس حلة منسوجة بالذهب مسمومة ، وكتب إليه : إنى قد بعثت إليك بحلتى التى كنت ألبسها يوم الزينة ، ليُعرف فضل منزلتك عندى ، فإذا وصلت إليك فالبسها على اليمن والبركة ، واكتب إلىّ من كل منزل بخبرك . فلما وصلت إليه الحلة اشتد سروره بها ، ولبسها ، فأسرع فيه السمّ وتنفّط جلده . والعرب تدعوه ذا القروح لذلك ، ولقوله :

وُبدِّلتُ قرحاً دامياً بعد صحّة   فيالك نُعْمَى قد تحوّلن أبؤُسا

وقال الفرزدق :

وهبَ القصائدلى النوابغُ إذ مضَوْا   وأبو يزيدَ وذو القروح وجَرْوَلُ

أبو يزيد : هو المخبل السعدى ، وذو القروح :هو امرؤ القيس ، وجرول : هو الحطيئة .

ولما صار إلى مدينة بالروم تدعى أنقرة ثقل ، فأقام بها حتى مات ، وقبره هناك ، ورأى قبيل موته قبرا لامرأة من بنات ملوك الروم هلكت بأنقرة ، فسأل عن صاحبه ، فخبر بخبرها فقال :

أجارتنـــا إنّ المزارَ قريبُ وإنى مقيمٌ ما أقام عَسيبُ
أجارَتنا إنّا غريبان هـاهنا وكلّ غريب للغريب نَسيبُ

وعسيب : جبل هناك . ولما بلغ السموءل موت امرىء القيس دفعَ ما خلف عنده من السلاح وغيره إلى عصبته[1] .

وذكر صاحب كتاب « شعراء النصرانية » أن ذكر امرىء القيس جاء فى تواريخ الروم مثل نونوز و بركوب وغيرهما ، وهم يسمونه (قيساً) . وقد ذكروا أنه قبل وروده على القيصر يوستينيانس أرسل إليه وفداً يطلب منه النجدة عَلى بنى أسد ، وعلى المنذر ملك الحيرة ، وكان مع الوفد ابنه معاوية سيّره امرؤ القيس إلى قيصر ليبقى عنده كرهن ، فـكتب قيصر إلى النجاشى بأمره أن يجند الجنود و يسير إلى اليمن ، و يعيد الملك لصاحبه ؛ قال : ولعل هذ الوفد أرسله امرؤ القيس لما كان عند بنى طيىء وطال مكثه عندهم . ثم أخبر المؤرخون أن امرأ القيس لم يلبث أن سار بنفسه إلى قسطنطينية فرغبه قيصر ووعده . وقد ذكر نونوز المؤرخ أن يوستينيانس قلّده إمرة فلسطين ، إلا أنه لم يسع فى إصلاح أمره و إعادة ملـكه ، فضجر امرؤ القيس وعاد إلى بلده ، فتوفى فى طريقه . أصابه مرض كالجدرى فى الدرب كان سبب موته . قال : وذكر فى كتاب قديم مخطوط أن ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرىء القيس أمر أن ينحت له تمثال و ينصب على ضريحه ففعلوا . وكان تمثال امرىء القيس هناك إلى أيام المأمون ،وقد شاهده عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة[1] .

وذكر ابن قتيبة أن امرأ القيس كان فى زمن أنو شروان ملك العجم . قال لأنى وجدت الباعث فى طلب سلاحه الحارث بن أبى شمر الغسّانى ، وهو الحارث

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٩/١ .
(٢)لويس شيخو اليسوعى : شعراء النصرانية : ٣٥/١ (مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين — بيروت ١٨٩٠ م) .

الأكبر ، والحارث هو قاتل المنذر بن امرىء القيس الذى نصبه أنوشروان بالحيرة ووجدت بين أول ولاية أنوشروان و بين مولد النبى صلى الله عليه وسلم أربعين سنة(١) وكانت وفاة امرىء القيس فى نحو سنة ستين وخمسمائة الميلادية(٢) .

* * *

ذلك تاريخ امرىء القيس ، أو تلك قصة حياته ، قد يكون فيها بعض الثغرات التى أغفلها المؤرخون أو الرواة لعدم معرفتهم بها ، و نلاحظ أن مجال الاتفاق بين الروايات واسع ، وأن مجال الاختلاف ضيق ،و يأتى هذا الخلاف فى أمور ترجع إلى السماع أوتأتى عن الاجتهاد والاستنباط ، كاختلافهم فى سبب وقيعة القيصر به مما كان سبباً فى هلاك امرىء القيس ، فمنهم من يرجع ذلك إلى شعر هجاه به بعد أن رأى امرؤ القيس منه ما ينكر ، ومنهم من يرجع ذلك إلى أن امرأ القيس فتن ابنة القيصر ، فهامت به وهام بها ، وطبن الطماح لهما ، فوشى به إلى الملك ، فخرج امرؤالقيس متسرعا ، فبعث قيصر فى طلبه رسولا ، فأدركه دون أنقرة بيوم ، ومعه حلة مسمومة فلبسها فى يوم صائف .. و يروى ابن الكلبى فى ذلك أن الطماح قال لقيصر : إن امرأ القيس غوىّ عاهر ، و إنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك و يواصلها ، وهو قائل فى ذلك أشعاراً يشهرها فى العرب فيفضحها ويفضحك(٣) . كما يروى خلاف هذين السببين ، وأن الواشى قال لقيصر : إنك أمددت بأبناء ملوك أرضك رجلا من العرب ، وهم أهل غدْر ، فإذا استمكن مما أراد وقهر بهم عدوه غزاك(٤) . وفى هذه الأخبار أن امرأ القيس خرج من لدن القيصر راضياً يقود جيشاً من أبناء ملوك الروم ليعيد سلطانه و يأخذ

(١) الشعر والشعراء ١/٧٣ .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ١ /٩٢
(٣) شرح ديوان امرىء القيس للسندوبى ٢٣ (مطبعةالاستقامة — القاهرة ١٩٣٩م).
(٤) الشعر والشعراء١/٦٨ .

بثأره ، وفى بعضها أنه كتب إلى الغساسنة ملوك الشام من العرب ليعينوه بالسلاح والرجال ، وفى بعضها أن تلك الـكتابة كانت إلى النجاشى ملك الحبشة . وفى رواية أن القيصر ولّى امرأ القيس إمرة فلسطين . ومفهوم هذه الأخبار أن امرأ القيس قد ظفر بما كان يريد من عون القيصر ، على حين تأتى رواية أخرى تقول إن امرأ القيس خرج متسرعا خائفاً على نفسه من وشاية حسّاده ، وأنه مات بارتدائه حلة مسمومة غره بها رسول القيصر ، أو أصابه الجدرى ، أو غير ذلك من الأسباب التى أدت إلى هلاكه وموته غريباً فى أنقرة أو قريباً منها . وهذا كما يبدو اختلاف فى التفصيلات لا غير ، وأن فى هذه التفصيلات ما يمكن أن يكون مقبولا ، ومنها ما يستبعد . ولـكن الذى لا خلاف فيه عند الرواة ما كان من ملك كندة ، وفتك بنى أسد بحجر أبى امرىء القيس ، بتحريض ملوك الفرس أو ولاتهم على الحيرة ، وعبث امرىء القيس فى صباه وقبل مقتل أبيه ، واستنجاده بالقبائل لنصرته على الأخذ بثأره ، وأنه نجح فى بعض ذلك ، وأخفق فى الإجهاز عليهم ، وهو ما كان يشتهى ليبنى ملـكا لنفسه ، يصله بملك أبيه وأعمامه وجدّه ، وأن ذهابه إلى القيصر واستنجاده به أمر لم يشك فيه واحد من الرواة ، ولا يصح الشك فيه ، فإن رجلا من العرب كامرىء القيس لا بد أن يفطن إلى العداوة التقليدية بين الروم والفرس ، و بين المناذرة والغساسنة ، بدافع المنافسة التى أدت إلى وقائع حربية يعرفها المؤرخون ، و يعرفها العرب أيضاً ، ولا بد أن يتجه امرؤ القيس فى طلب العون إلى ملوك الروم وأشياعهم من الغساسنة ، لينال من أعدائه وأعدائهم ملوك الفرس وأتباعهم من المناذرة ملوك الحيرة .

والخلاصة أن هذه الأخبار فيها ما تضافرت الروايات عليه ، وفيها ما هو محل للخلاف ، ومجال الاتفاق كما أسلفنا أوسع من مجال الخلاف أو نقط الخلاف . ومن التعسف أن ترفض الروايات الصحيحة لأنه يوجد إلى جانبها روايات ضعيفة أو مختلف عليها . وإنما البحث الصحيح يفضى إلى قبول ما اتفق عليه ، والأخذ

من وجوه الخلاف بأقربها إلى الفهم ، وأقربها شبها بطبيعة الأشياء ، فأما أن ترفض الصحيح لأن بجانبه ما هو سقيم أو ما هو محل خلاف ، فليس من طبيعة البحث المستقيم ، وليس من الإنصاف فى شىء ، وإنما هى الرغبة فى الهدم لسبب أو لآخر من الأسباب التى لاتتصل بالبحث الحرّ ، ولا تمتّ إلى التحقيق بسبب من الأسباب .

فصاحب « الأدب الجاهلى » على مذهبه فى الشك أو الإنكار ، لا يقنع بمحاولة إثبات انتحال الأشعار ، وإنما يحاول على عهده فى الفترة التى ألف فيها كتابه إثبات انتحال الأخبار ، لينتهى إلى نفى الشعر والتاريخ جملة وتفصيلا ، فقصة السموءل مع امرىء القيس فى نظره منتحلة ، لأنه قرأ فى الأغانى أن أبا الفرج يشك فى نسبة إحدى القصائد إلى امرىء القيس ، ويتخذ من هذا الشك ذريعة لهدم القصة من أولها إلى آخرها ، بسبب قصيدة واحدة قيل إنها منحولة . والعجب من أن يذهب إلى أن القول بانتحال قصيدة واحدة يكفى لإثبات زيف قصة امرىء القيس مع السموءل ، بل يذهب إلى ما هو أكثر من ذلك ، مما يتجاوز حدود تلك القصة ، فيقول : ثم كانت هذه القصة المنتحلة سبباً فى انتحال قصة أخرى هى قصة ذهاب امرىء القيس إلى القسطنطينية وما يتصل بها من الأشعار . . . وإذا لم يكن بد من التماس الأدلة الفنية على انتحال هذا الشعر فقد نحب أن نعرف كيف زار امرؤ القيس بلاد الروم وخالط قيصر حتى دخل معه الحمام ، وفتن ابنته ، ورأى مظاهر الحضارة اليونانية فى قسطنطينية ، ولم يظهر لذلك أثر ما فى شعره ؟ لم يصف القصر ولم يذكره ، لم يصف كنيسة من كنائس قسطنطينية ، لم يصف هذه الفتاة الأمبراطورية التى فتنها ، لم يصف الروميات ، لم يصف شيئاً ما يمكن أن يكون رومياً حقاً . ثم يكفى أن تقرأ هذا الشعر لتحس فيه الضعف والاضطراب والجهل بالطريق إلى قسطنطينية .

ومهما يكن من شيء ، فإن السذاجة وحدها هي التي تعيننا على أن نتصور أن شاعراً عربياً قديماً قال هذا الشعر الذى يضاف إلى امرىء القيس فى رحلته إلى بلاد الروم وقفوله منها[1] .

وهى استنتاجات غريبة كما يبدو ، لأنها تخرج عن طبيعة الاستنتاج الذى ينبغى أن يبنى على مقدمات صحيحة موثوق بها ، لتكون أدلة منطقية فى بحث علمى لا أدلة خطابية فى مجال التأثير والتلاعب بالعواطف ، وأين الأدلة الفنية فى إثبات انتحال هذا الشعر ، أو انتحال هذه القصص ؟ الواقع أنه لا توجد فى هذا القول ولا فى أمثاله المبثوثة فى تضاعيف الكتاب وفى أكثر صفحاته أدلة يقينية عقلية أو مادية ، ولا توجد أدلة فنية أيضاً .

كيف زار القسطنطينية ؟ وكيف خالط القيصر ؟ وكيف فتن ابنته ؟ كان واجباً على الرواة والمؤرخين أن يصحبوا امرأ القيس فى غدواته وروحاته ، ليصفوا لنا هذه التفصيلات ، وكان على امرىء القيس أن يذيع ما أزمع عليه من السفر إلى القسطنطينية لاستنجاد القيصر ، حتى يتبعه الرواة ويدونوا كل صغيرة وكبيرة من أنباء هذه الرحلة ، التى يعرف أقل الناس ذكاء أنها رحلة تتسم بطابع السّرية ، حتى يتحقق ما ينشد لها من النجاح ؛ وأية غرابة فى أن تفتن ابنة القيصر بهذا السيد العربى ضيف أبيها وجاره ، ولعلها رأت فيه من صفات العرب التى لم ترها فى قومها ما أخذ بلبّها ، وهى تعلم أنه ملك وسليل ملوك ؟

كيف لا يصف امرؤ القيس مظاهر الحضارة اليونانية فى القسطنطينية ؟ كيف لا يصف قصر القيصر ؟ كيف لا يصف كنائس القسطنطينية ؟ كيف لا يصف الروميات ؟

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢١١

أسئلة عجيبة حقا ! وكأن امرأ القيس ذاهب فى رياضة أو سياحة إلى القسطنطينية ، ليستوحى شاعريته فى وصف مظاهر الحضارة اليونانية ، وفخامة الكنائس ، وفتنة الغوانى الروميات ، كما يفعل السراة من أولى الفراغ فى أيامنا .

لم يقل واحد من الرواة بهذا أو بشىء من هذا ، وإنما قالوا جميعا إن امرأ القيس رحل إلى القسطنطينية بعد أن أعوزه النصير فى بلاده ، وأنه ذهب يطلب النصرة على أعدائه الذين قتلوا أباه وضيعوا ملكه ، من أعداء أعدائه ، ولم يذهب لاهياً يطلب الأنس والمسرة والمتعة فى بلاد الروم ، بل ذهب يطلب العون بالرجال والسلاح والمال ليدرك ثأره ؟ فكيف يصف القصر وزينته ، ومظاهر الحضارة والمدنية فى بلاد الروم ، مما لا يجد له نظيراً فى أرض العرب ؟

بهذه النظرة الجادة ينبغى أن يكون النظر إلى تاريخ امرىء القيس أو تاريخ غيره من الجاهليين ليقبل منه ما يستحق القبول ، ويرفض ما ينكره العقل ويأباه المنطق . فإننا لا نطلب التسليم المطلق إلا بما يستقيم مع العادة ويطمئن إليه العقل . ونحن لا ننكر أنه حمل على امرىء القيس كثير من الأخبار وكثير من الأشعار ، ولكن تمييز ذلك لا يخفى على أهل النظر .

وعلى هذا لا يمكن أن يقبل قول يذهب فيه إلى أن امرأ القيس شخصية خيالية أو أسطورية صنعها مؤلفو الأساطير ليلهو بها الناس ، أو أبناء القبائل ليثبتوا لقبائلهم مجداً تليداً يباهون به معاصريهم ، فهذه أخبار العرب يرويها رواتهم ، وهذه روايات الأوربيين يذكرها مؤرخوهم فى تقارب واضح واتفاق كثير ، ثم تأتى الأخبار الصحاح عن الذين يعتد بكل حرف مما يقولون ، من الذين لا يعرفون اللغو ، ولا يؤمنون بالأساطير .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر امرأ القيس فيقول :

هو قائد الشعراء إلى النـار . وفى خبر آخر : معه لواء الشعراء إلى النار .

وقال ابن الـكلبى : أقبل قوم من اليمن يريدون النبى صلى الله عليه وسلم ، فضلّوا ووقعوا على غير ماء ، فمـكثوا ثلاثا لا يقدرون على الماء ، فجعل الرجل منهم يستذرى(١) بفىء السّمُر والطلح ، فبيناهم كذلك أقبل راكب على بعير ، فأنشد بعض القوم بيتين من شعر امرىء القيس . فقال الراكب : من يقول هذا الشعر ؟ قال : امرؤ القيس ، قال : والله ما كذب ، هذا ضارج(٢) عندكم وأشار لهم إليه ، فأتوه ، فإذا ماء غدق ، فشربوا منه وارتووا ، حتى بلغوا النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه ، وقالوا : أحيانا بيتان من شعر امرىء القيس . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ذاك رجل مذكور فى الدنيا شريف فيها ، منسِىٌّ فى الآخرة خامل فيها ، يجىء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار .

وذكره عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : سابق الشعراء ، خسف لهم عين الشعر(٣) . ولا حاجة بنا إلى الاسترسال فى ذكر امرىء القيس أو إثبات

---

(١) استذرى بالحائط أو بالشجر وتذرى : اكتن .

(٢) ضارج : ماء بأرض طيىء ذكره امرؤ القيس فى معلقته كما سيأتى ، وهو جبل أيضاً وفى هذين البيتين :

لما رأت أن الشريعة همها ... وأن البياض من فرائصها دام

تيممت العين التى عند ضارج ... يفىء عليها الظل عرمضها الطامى

والشريعة مشرعة الماء ، وهى مورد الشاربة ، والعرب لا تسميها شريعة حتى لا يكون انقطاع له ، والفرائص جمع فريصة وهى لحمة عند نغض الـكتف فى وسط الجنب ، وهما فريصتان ترتعدان عند الفزع ، والعرمض بفتح العين والميم الطحلب ، والضمير فى رأت للحمر ، يريد أن الحمر لما رأت شريعة الماء خافت على أنفسها من الرماة وأن تدمى فرائصها من سهامهم عدلت إلى ضارج لعدم الرماة على العين التى فيه والطامى المرتفع .

(٣) الشعر والشعراء ١/٧٦ . وفى حديث عمر أن العباس سأله عن الشعراء فقال : امرؤ القيس سابقهم ، خسف لهم عين الشعر ، فافتقر عن معان عور أصح بصرا . أى أنبطها لهم وأغزرها ، من قولهم خسف البئر ، إذا حفرها فى حجارة فنبعت بماء كثير ، يريد أنه ذلل لهم الطريق إليه ، وبصرهم بمعانيه ، وفنن أنواعه وقصده ، فاحتذى الشعراء على مثاله ، فاستعار العين لذلك .

أنه حقيقة تاريخية ؛ فإن المجال لايتسع لأكثر من ذلك من الأدلة القاطعة والأقوال الثابتة ؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب لايتحدثان عن خرافة أو أسطورة وإنما يتحدثان على رجـــــل يعرفانه كما يعرفه العرب ويحكمان عليه بشعره الذى رددته البوادى والحواضر .

* * *

وقد حظى شعر امرىء القيس فى سائر عصور العربية بما لم يحظ به شعر شاعر غيره ، وهذه كتب الأدب وكتب البلاغة وكتب النقد وكتب التاريخ تفيض بأخباره ، وتروى شعره ، وتتخذ من بلاغته شواهد وأمثالا يضعها البلاغيون أمام طالبى صناعة البلاغة والبيان ، ليجدوا فيها نماذج يرونها جديرة بالاحتذاء . وقد شغل به العرب فى الجاهلية ، كاشغل به المسلمون فى صدر الإسلام وبعده ، وشغل به الرواة والشعراء والنقاد فى كل عصر من عصور التاريخ، وفى عصرنا هذا عظمت العناية بشخصية امرىء القيس وتحقيق أخباره ونقد أشعاره ؛ وتجاوزت تلك العناية جمهور الدارسين من أبناء الأمة العربية إلى غيرهم من الأجانب والمستشرقين ، فى محاولاتهم لدرس التاريخ العربى والوقوف على مصادره ، وفهم العرب وحظهم من المعرفة والفن ، ودراسة لغتهم وألفاظها وطبيعة تراكيبها ، حتى لقد يكون من الممكن أن تملأ الدراسات التى كتبت عن امرىء القيس وحده مجلدات كثيرة ، تكون مرآة للحياة العربية والفن العربى منها بصفة خاصة .

*

والسبب فى هذه العناية الملحوظة أنهم رأوا شاعرية ناضجة مكتملة النضج فى ذلك العصر المبكر ؛ ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حادثة ، وإنما قصّدت القصائد وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم

ابن عبد مناف . . فمن قديم الشعر الصحيح قول العنبر بن عمرو بن تميم ، وكان جاور فى بهراء فرابه ريب فقال :

قد رابنى من دَلْوِىَ اضطرابُها والنأْىُ فى بهراء واغترابُها
إلاَّ تجىءْ ملأَى يجىء قُرابُها(١)

.. ومما يروى من قديم الشعر قول دويد بن زيد بن نهد حين حضره الموت :

اليومَ يُبنى لدُوَيد بيتُهُ لو كان للدهرِ بِلًى أبلَيْتُهُ
أو كان قرنى واحداً كفيْتُهُ يارُبَّ نهبٍ صالح طويتُهُ
ورُبَّ غَيْل حسَنٍ لوَيْتُهُ ومِعْصَمٍ مخضَّب ثنَيْتُهُ

وقال أيضا :

ألقى علىّ الدهرُ رجْلاً ويدَا
والدهر ما أصلح يوماً أفسدَا
يصلحه اليومَ ويفسدُه غدَا

... وأمثال هذا من الشعر القليل ، أو الأبيات القليلة التى تعبّر عن انفعال خاص ، ولاتتجاوز التعبير عن غيره من الانفعالات ، ولا تحاول تصوير العواطف فى غزارة واستطراد ، وانتقال من فكرة إلى فكرة ، ومن معنى إلى معنى ، كما وجدوا ذلك عند امرىء القيس . فإن معالم الشاعرية ، أو خصائص الفن الشعرى عند العرب قد ظهرت فى شعره المأثور ظهوراً واضحا ، والجهود التى بذلت فى سبيل استكمال تلك الخصائص قد بلغت أوجها ، وحققت أهدافها على يد ذلك الشاعر الكبير الذى وجدوا من شعره تراثا كافيا صالحاً للبحث والدرس ؛ وأن

---

(١) قرابها ما قارب قدر تمامها أو امتلائها .

تلك المعالم هام بها شعراء العرب ، واتخذوها إماماً لهم ، وهاديا يهتدون به فى التعبير الشعرى عن حياتهم وآلامهم وأمانيهم ، وغيرها من الأغراض التى يريدون العبارة عنها . وقد سبقت هذا الشعر أو ذلك الشاعر محاولات كثيرة ، وخطوات طويلة ، فى سبيل التدرج فى الفن الشعرى حتى بلغت هذا المبلغ الذى أعجب به العرب وتناشدوه ، وعلقوا بعضه على الكعبة .

فلا عجب أن يظفر هذا الشاعر بهذا الاهتمام فى بيئات الأدب المختلفة ؛ وأن تتعدد آراء الدارسين لفنه ، وأن يشهد له أكثرهم بالبراعة والحذق ؛ وفتح أبواب ذلك الفن ، ليلجه القادرون عليه ؛ ويكون من ثمراتهم تلك الثروة الأدبية الطائلة التى يزهو بها الأدب العربى بين الآداب العالمية .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يقول من فضل امرأ القيس : إنه أول من فتح الشعر واستوقف وبكى فى الدمن ، ووصف ما فيها . ثم قال « دع ذا » رغبة عن المنسبة ، فتبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا واللقوة[1] والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف .. وقال أبو عبيدة : امرؤ القيس أول من قيد الأوابد ، يعنى فى قوله فى وصف الفرس :

وقد اغتدى والطيرُ فى وُكُناتها ... بمنجرد قَيْدِ الأوابد هيكل

فتبعه الناس على ذلك . وقال الباقلانى فى إعجاز القرآن : قوله « قيد الأوابد » عندهم من البديع ومن الاستعارة ، ويرونه من الألفاظ الشريفة ، وعنى بذلك أنه إذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيداً لها ، وكانت بحال المقيد من جهة سرعة عدوه . وقد اقتدى به الناس ، واتبعه الشعراء ، فقيل : قيد النواظر ، وقيد

(١) اللقوة العقاب . الشعر والشعراء ١/٧٦ .

الألحاظ ، وقيد الكلام ، وقيد الحديث ، وقيد الرهان . قال ابن يعفر :

بمقلّص عتـــد جهير شدّه   قيـد الأوابد والرهان جواد

وقال أبو تمام :

لهـا منظر قيـدُ الأوابد لم يزلْ   يروح ويغدو فى خفارته الحبّ

وقال آخر :

ألحاظه قَيْدُ عيون الورَى   فليس طرْفٌ يتعـدّاهُ

وقال آخر :

* قيّد الحسن عليه الحدقان[(١)] *

وقال غيره : هو أول من شبه الثغر فى لونه بشوك السَّيال ، فقال :

منابتهُ مثـل السُّدُوسِ ولونُه   كشَوْك السّيَالِ وهْو عذبٌ يفيص[(٢)]

فاتبعه الناس ، وأول من قال « فعادَى عداء » فى بيته :

فعـادَى عِدَاء بين ثور ونعجة   دراكا فلم ينضحْ بماء فيُغْسَل

فاتبعه الناس . وأول من شبه الحمار « بمقـلاء الوليد » وهو عود القُلَة فى قوله :

فأصدرَها تعلو النجـاد عشيةً   أقَبُّ كمقلاء الوليدِ خميص[(٣)]

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ١/٣١٢ .

(٢) السدوس : النيلج الأسود ، والسيال : شجر سبط الأغصان عليه شوك أبيض ، أصوله مثل ثنايا العذارى ، يفيص : يقطر ويسيل أو يبرق .

(٣) المقلاء والقلة بضم القاف وفتح اللام مخففة : عودان يلعب بهما الصبيان ، فالمقلاة العود الكبير الذى يضرب به ، والقلة الخشبة الصغيرة التى تنصب ، وهى قدر ذراع ، والنجاد المرتفعات من الأرض ، والأقب الضامر ، والخميص الضامر البطن .

و « بكرٌ الأندرىّ » والـكرّ الحبل ، والأندرى الحبل الغليظ . وشبه الطَلَلَ « بوحى الزّبور فى العَسِيب » فى قوله :

لمن طللٌ أبصرتُه فشجـانِى كخطِّ الزّبورِ فى عَسيبٍ يمانى[(١)]

قال ابن سلام : فاحتجّ لامرئ القيس من يقدمه قال : ما قال مالم يقولوا ، ولـكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصىّ ، وقيّد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصل بين النسيب و بين المعنى[(٢)] .

وهذه الـكلمات خلاصة الأقوال فى تقديم امرئ القيس ، وهى من غير شك كلمات عاجلة ، لم تستوعب حسنات امرئ القيس كلها ، ولم تشمل كل نواحى إبداعه فى هذا الفنّ الجميل . وعلى من يحاول استخلاص تلك الحسنات ، واستخراج نواحى الإبداع عند شاعر كبير مثل امرئ القيس أن يقرأ شعره كله ، وأن يحصى حسنات الذين سبقوه والذين اتبعوه وأفادوا مما ابتدع ، ودون ذلك مالا يخفى من الصعوبات ، وأهمها فقد أكثر شعر الجاهلية ، ولا سيما شعر الذين سبقوا امرأ القيس . وفى ذلك يقول أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليـكم مما قالت العرب إلا أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[(٣)] . وامرؤ القيس نفسه يذكر أن غيره من الشعراء قد بكى الديار فى قوله :

عُوجَا على الطلَلِ المُحِيل لعلّنـا نبكى الديار كما بكى ابنُ حِذَام

قال ابن سلام : وهو رجل من طيئ لم يسمع شعره الذى بكى فيـه ،

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٨٣ .

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٤٦ .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢٣ .

ولا شعر غير هذا البيت ، الذى ذكره امرؤ القيس .

والناظر فى شعر امرئ القيس يجد خصائص الشعر العربى متمثلة فيما صحّ نقله من شعره ، ويرى فى شعره صورة لحياته المتقلبة بين اللهو والجد ، وصورة للمجتمع الذى عاش فيه .

وأعتقد أن نطاق هذه الدراسة المخصص للمعلقات لا يتسع للإفاضة فى تحليل شاعرية هذا الشاعر أو غيره من أصحابها ، ولعل شيئاً من ذلك يأتى فى الفصول التالية التى نعرض فيها لدراسة المعلقات جميعاً ، ونفصل فيها القول فى خصائصها الفنية ، ودلالتها الاجتماعية والتاريخية .

معلقة امرىء القيس :

أشهر المعلقات وأولها ؛ وأهم ما خلّف امرؤ القيس من الشعر ، وأصحّه رواية ، وفى استطاعة الدارس لشعر امرئ القيس أن يطمئن كل الاطمئنان إلى سلامة هذه القصيدة ، وأن يعتمد عليها فى استخلاص ما يريد من خصائص شعر الشاعر ، ودلالته على نفسه وفنّه وبيئته .

والذى يدعونا إلى الاطمئنان إلى صحة هذه القصيدة هو إجماع الرواة عليها ، وإن اختلفوا اختلافاً يسيراً فى بعض ألفاظها ، أو فى ترتيب قليل من أبياتها المتعاقبة . ويدعونا كذلك إلى الاطمئنان إلى صحتها كثرة الأبيات التى تمثلت الأجيال بها ، واتفاق أرباب الصناعات التى تتصل بهذا الفن على الاستشهاد بها فى صناعة النحو والإعراب ، واللغة والبيان ، من الثقاة الذين بنوا صرح الدراسات العربية ، ثم المتكلمون والباحثون فى إعجاز القرآن الكريم ، وما وازنوا بين آيات الكتاب ونصوص من هذه المعلّقة ؛ هى هذه النصوص التى بين أيدينا . وما كان أولئك جميعاً ليبنوا هذه الدراسات على أساطير أو حديث

خرافة ، وهم أهل جد ، لا يروون إلا ماصح عندهم ، ولا يقيمون دراساتهم إلا على ما وثقوا منه ، وكان لهم خصوم يتمنون لهم مثل هذه السقطة ليهدموا آراءهم بهدم الأسس التى بنيت عليها .

ثم ما فى هذه القصيدة من صور صادقة للعصر الذى نظمت فيه ، والبيئة التى قيلت فيها وتصويرها للحياة المادية التى تضطرب بها الحياة فى مثل البيئة التى عاش فيها امرؤ القيس .

ثم طبيعة الألفاظ والتراكيب التى تمثل التراكيب الأدبية التى استخدمها أولئك الجاهليون فى تعبيراتهم الأدبية فى ذلك الزمن البعيد ، وغير ذلك من الخصائص الفنية التى نعالجها فى الفصول التالية .

كل أولئك يدعونا إلى الاطمئنان إلى هذه القصيدة ، وقبولها كما هى ، دون شك فى صحتها ، أو طعن فى صدق رواتها .

ومن العسير على باحث منصف أن يكفر بهذه الآيات الشاهدة ، ليستمع إلى مقالة لا تعتمد إلا على الظن ، وتتصيد كلمة من هنا أو من هناك ، لتخلق منها حجة كالسّراب ، يظنه المخدوعون ماء حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئاً ، وتقف أمامهم الحقائق الماثلة ، والعقول الواعية ، والألسنة الصادقة ، والطبيعة المصدِّقة .

وقد ذكر الرواة السبب الذى من أجله نظم امرؤ القيس هذه القصيدة ، فقالوا إنه نظمها فى وصف واقعة جرت له مع حبيبته وابنة عمّه « عنيزة » بنت شرحبيل ، وكان قد حظر عليه لقاؤها ، ولعلهم منعوه منها لما عرفوا من رغبته فى الشعر ، وخشيتهم أن يجرى ذكرها فى أحياء العرب على ألسنة الرواة ؛ فيظن الناس بها الظنون ، أما هو فكان ينتهز الفرص لملاقاتها ، فاغتنم فرصة ظعن الحىّ ، وكانوا إذا ظعنوا مشى الرجال أولا ثم النساء ، فتخلف امرؤ القيس عن الرجال ، وتربص حتى ظعنت النساء ، وكان فى طريق الظاعنين غدير يسمى

« دارة جلجل » فى منازل كندة بنجد ، فسبقهن امرؤ القيس إلى ذلك الغدير ، وفيهن عنيزة ، فنزعن ثيابهن ونزلن فى الماء ، فبرز هو من مخبئه وجمع الثياب وجلس عليها ، وحلف أنه لا يعطى الواحدة منهن ثيابها إلا إذا خرجت من الغدير ورآها عارية ، فخاصمته زمنا طويلا من النهار ، فأبى إلا إبرار قسمه ، فخرجت إليه أوقحهن ، فرمى بثيابها إليها ، ثم تتابعن حتى بقيت عنيزة ، وأقسمت عليه ، فقال : يا ابنة الكرام لابدّ لك من أن تفعلى مثل ما فعلن ، خرجت إليه فرآها مقبلة ومدبرة ، فلما لبسن ثيابهن أخذن فى عذله ، وقلن ، قد جوّعتنا وأخرتنا عن الحىّ ، فقال لهن : لو عقرت راحلتى أتأكلن ؟ قلن . نعم ! فعقر راحلته ، وجمعت الإماء الحطب ، وجعلن يشوين اللحم إلى أن شبعن ، وكانت معه ركوة فيها خمر فسقاهن منها ، فلما ارتحلن قسمن أمتعته ، فبقى هو ، فقال لعنيزة : يا ابنة الكرام لابدّ لك من أن تحمليني ، وألحت عليها صواحبها أن تحمله على مقدم هودجها فحملته ، فجعل يدخل رأسه فى الهودج يقبلها و يشمها ، فلما كان قريباً من الحىّ نزل فأقام حتى إذا جنّه الليل أتى أهله ليلا . وذكر هذه القصة فى أثناء القصيدة[1] .

وإذا نظرنا فى هذه المعلقة لم نجد ما يمكن أن يكون متصلا بهذه القصة سوى تسعة أبيات من ستة وثمانين بيتا فى رواية صاحب جمهرة أشعار العرب ، وستة أبيات من واحد وثمانين بيتا فى رواية الزوزنى ، وتلك الأبيات فى رواية أبى زيد هى :

ألا ربّ يوم لى من البيض صالح ... ولا سيّما يوم بدارة جُلْجُلِ
ويومَ عقرْتُ للعذارَى مطيّتى ... فيا عجباً من كُورِهَا المتحمَّلِ

(١) انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى ، مطبعة حجازى — القاهرة ١٩٥٢ م) وشرح القصائد العشر للتبريزى ١٥ وانظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ٩٦/١ وتاريخ آداب العرب للرافعى ١٩٩/٣ .

فظلّ العذارَى يرتمين بلحمها ... وشحم كهدّابِ الدِّمقسِ المفتّلِ
تدار علينا بالسَّديفِ صحافهـا ... ويؤتى إلينـا بالعبيط المثمَّلِ
ويوم دخلتُ الخدرَ خدر عُنيزةٍ ... فقالت لك الويلاتُ إنك مُرْجلِي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً ... عقرْتَ بعيرى ياامرأ القيس فانزلِ
فقلتُ لها سيرى وأرخى زمامَهُ ... ولا تبعدينى من جَناكِ المُعَلَّلِ
دَعى البَكر لا تَرْثى له من رِدافنا ... وهـاتى أذيقينا جناةَ القَرَنْفُلِ
بثغر كمثـــل الأُقحوان منوَّرٍ ... نقىٍّ الثنايا أشنبٍ غير أثعَلِ (١)

ولا شك أن هذا المقدار لا يكفى لإثبات صحة هذا السبب ، أو جعله وحده علة نظم هذه القصيدة الكبيرة ، إذ لو كان هذا هو الغرض الرئيسى من نظمها لشغلت معالجته أكثر أبياتها ، ولكان هذا الغرض صالحاً ليكون مطلعاً للمعلقة ، إذ كان هو التجربة التى أثارت انفعال الشاعر ، وهى التى دفعته إلى التعبير عنها فى هذه القصيدة الطويلة ، ولذلك فنحن لا نطمئن إلى كون هذه القصة كانت سبب إنشادها ؛ فإنها تشتمل على أغراض أخرى ، منحها الشاعر من عنايته أكثر مما منح ذلك الغرض الذى قيل إنه أنشدها من أجله .

على أن هذه القصة فى حدّ ذاتها — وعلى الرغم من تعدد رواياتها — أشبه بعمل القصاص وفيها حبكة القصة أو الحبكة المسرحية كما يقال ، فإن نساء قبيلة يخرجن مجتمعات ، دون رجال يحرسونهنّ ، ثم يتخلفن النهار أو أكثره دون أن يفطن إلى ذلك رجالهنّ ، ودون أن يعودوا لاستطـــلاع خبرهنّ ، أمر لا يقابل بالتسليم المطلق . ثم كيف تخرج حرائر العرب من ذلك الغدير

(١) البيت الرابع والبيتان الثامن والتاسع لم ترد فى روايتى الزوزنى والتبريزى ولا فى شرح ديوان امرىء القيس للوزير أبى بكر عاصم بن أيوب ، وتابع السندوبى فى شرحه لديوان امرىء القيس رواية صاحب الجمهرة فى إضافة هذه الأبيات ، حتى لا يشذ عنه شىء مما ينسب إلى امرىء القيس .

عاريات أمام رجل عرفن عبثه ، وعرفن شعره ، ولو بقين الأيام والشهور ؟ وكيف بامرىء القيس يمتهن كرامة نساء قومه ؟ وكيف يستسيغ أن يخدش حياء ابنة عمّه ؟ اللهم إن هذا صنيع رجل لا مروءة له ، فى بيئة تعرف الحفاظ على حرمها ، وتبذل كل غال فى سبيل صيانة المرأة والذود عن كرامتها !

لقد وصف امرؤ القيس بأنه كان يتعهر فى شعره ، فلم لا يكون ما ذكره فى هذه الأبيات القليلة وفى بيتين بعدها من تعهّره المعروف فى شعره ؛ فبالغ هذه المبالغة الفاحشة ، أستغفر الله ، بل بالغ القصاص فى رواية هذه القصة على هذا النحو ، الذى يعد مخزاة لشعر امرىء القيس ، بل مخزاة لرجولته ومروءته ، وشممه وإبائه .

ثم أين وصف هذه القصة فى هذا الشعر ، وهى قصة مثيرة حقًّا ، أين ذكره للغدير ولنسائه العاريات ، وملابسهن التى جلس عليهما ، ثم أين وصف أجسادهن من شاعر عرف عنه أنه لا يتعفف عن ذكر السوءات ؟ ؟

لا شىء من ذلك فى هذه القصيدة ، إلا ذكره يوم دارة جلجل ، وعقره ناقته للعذارى ، وتراميهن بلحمها ؛ ولا حديث بعد ذلك لعرى أو استحمام أو ثياب أو خروج من الغدير على هذه الصورة الخيالية ، التى رآهن عليها مقبلات ومدبرات . ولعلك موافقى بعد ذلك على ماقدمت أن هذه القصة أشبه بعمل القصاص ، ولعلك تجد نظيراً بل نظائر كثيرة لهـا فى قصص « ألف ليلة وليلة » .

وعلى الرغم من كل هذا فإن فى هذه القصيدة نفسها أبياتا فيها من الخلاعة والتبذل والمجون والكشف فى القصة الشىء الكثير ، ولكنها لا تتصل بهذه الواقعة بالذات ، بل بوقائع أخرى ، وذكريات سابقة ماجنة لهذا الشاعر مع

عاشقات أخر ، أو فى وقائع غير تلك الواقعة التى ذكر الرواة أن امرأ القيس نظم هذه القصيدة من أجلها .

وهاك مجمل الأغراض التى اشتملت عليها معلقة امرىء القيس :

(١) وقوفه واستيقافه صاحبه أو صاحبيه عند أطلال أحبته الظاعنين ، التى لا تزال آثارها باقية ، على الرغم مما يختلف عليها من الرياح ، ولم تعف ذكريات الراحلين عنها من قلبه ، ثم وصفه بعض الآثار التى يخلفها رحيل البدو عن مضاربهم ، وما يحس من الوجد بفراقهم والبكاء لرحيلهم ، وما واساه رفاقه به ، وما يفعل البكاء من التسرية عنه والتخفيف من وجده ، ثم ما ذكّر به نفسه أو صاحبه بمـا كان يلقى من أم الحويرث وجارتها ، وبعض ما كان يعجبه منهما . وهذا مطلع القصيدة الذى استغرق تسعة أبيات من أولها (١ — ٩) .

(٢) وانتقل بعد ذلك إلى يوم دارة جلجل ، الذى قيل إنه سبب إنشاد المعلقة ، والناظر فيما ذكر فيه ذلك اليوم أن امرأ القيس لم يذكر شيئا عن الغدير ، أو ما كان من عبثه مع النساء فى ذلك اليوم على النحو الذى قيل فى القصة ، وإنما كل ما ذكر من أمر ذلك اليوم ، أو غيره من الأيام ، ما كان من عقره مطيته للعذارى اللائى لم يجدن طعاماً ، وتراميهن بلحمها وقطع سنامها ، وركوبه مع صاحبته مطيتها ، وما كان يجرى بينهما من حديث العذل والغزل والرقة والدلال ، وكل ذلك فى تسعة أبيات من المعلقة (١٠ — ١٨) .

(٣) ثم ذكّر صاحبته بشىء من مغامراته مع غيرها فى شعر ماجن ووصف مكشوف ، يبدو فيه وكأنه يتحدث إلى عاهرة من الساقطات ، لا إلى حرة من بنات أعمامه ، وذلك فى أبيات ثلاثة (١٩ — ٢١) .

(٤) ثم مناجاته صاحبته فاطمة فى نسيب عفّ ، وصف فيه دلالهـــا ، وما يفعل هجرها بقلبه ، ويبدو فى هذا النسيب أثر الحب الصادق ، وفعل

اللوعة وتبريح الصبابة ، فى خمسة أبيات (٢٢ — ٢٦) .

(٥) وأفاض فى وصف قصة من قصص مغامراته فى سبيل الوصول إلى محبوبته ، ووصف دبيبه إليهــــا ، وصور ما كان بينهما من حديث العتب والإشفاق ، ثم أخذ فى وصف محاسن جسدها وصفاً مادياً شبه فيه جسمها وأجزاءه تشبيهات مادية ، بما يجد فى بيئته من مظاهر الطبيعة الحية ، ومظاهر الطبيعة الجامدة أيضا . وقد استغرق وصف دبيبه ووصف خليلته جزءاً كبيراً من المعلقة يبلغ واحدا وعشرين بيتا (٢٧ — ٤٧) .

(٦) ثم وصف الليل وطوله وأهواله فى خمسة أبيات (٤٨ — ٥٢) .

(٧) ويلى ذلك أربعة أبيات فى وصف ما يكابد قاطع المفازة ، وما يسمع فيها من عواء الذئب ، وهذه الأبيات هى :

(٥٣) وقِرْبَةِ أقوام جعلتُ عصامَها ... على كاهل منّى ذَلولٍ مُرَحَّلِ

(٥٤) ووادٍ كجوف العَيْر قفرٍ قطعتُهُ ... به الذئبُ يعْوِى كالخليع المعيَّلِ

(٥٥) فقلتُ له لما عوَى إن شأننـا ... قليلُ الغنى إنْ كنتَ لمّا تموَّلِ

(٥٦) كلانا إذا ما نال شيئا أفاتَهُ ... ومن يحترثْ حَرْثى وحرثك يهْزِلِ

وقد ذكر هذه الأبيات أبو زيد القرشى من المعلقة فى هذا الموضع[١] كما ذكرها الزوزنى فى شرح المعلّقات السبع[٢] وذكرها التبريزى فى شرح القصائد العشر[٣] وتابعهم السندوبى فيما جمعه من شعر امرىء القيس[٤] ؛ ولم يذكر هذه

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٥٩ .

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزنى ٣٠ .

(٣) شرح القصائد العشر للتبريزى ٣٨ .

(٤) شرح ديوان امرىء القيس للسندوبى ١٣٢ .

الأبيات فى المعلقة الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب فى شرحه ديوان امرىء القيس[(١)] وقال البغدادى فى خزانة الأدب فى هذا البيت :

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل

هذا البيت من أبيات أربعة رواها الرواة لتأبط شرًّا ، منهم الأصمعى ، وأبو حنيفة الدينورى فى كتاب النبات ، وابن قتيبة فى أبيات المعانى . وخالفهم أبو سعيد السكّرى ، وزعم أنها لامرىء القيس ، ورواها فى معلقته المشهورة بعد قوله :

كأن الثريّا علقتْ فى مَصامِهـا بأمراس كتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

ثم أورد الأبيات الأربعة المذكورة ، وعلق صاحب الخزانة عليها بقوله : وهذا الشعر أشبه بكلام اللص والصعلوك ، لا بكلام الملوك[(٢)] .

وهو نقد خليق بالتدبّر والإعجاب ، إذ هو ينفذ إلى نفس الشاعر وطبيعة حياته ، وأثر ذلك فيما يصدر عنه من أعمال أدبية ، والشاعر المجيد هو الذى لا يصف إلا تجربته ، فإن الذى يحمل قربة الأقوام على كاهله فى تلك الموامى الموحشة التى لا يسمع فيها إلا عواء الذئب ، ولا يجد من الغذاء إلا ما يجد الذئب الطاوى ، لا يكون ملكا من الملوك فى سعته وخصبه ، وإنما يكون من اللصوص أو من قطاع الطريق ، الذين كان يطلق عليهم لقب « الصعاليك » وتوصف حياتهم وأعمالهم بالصعلكة . ولعل هذا الشعر فى فحولته وجزالته وفى وزنه وقافيته هو الذى أوقع أبا سعيد السكرى أو غيره من الرواة فى ذلك الوهم ، فزعموا أن الأبيات الأربعة من معلقة امرىء القيس . وما هى منها إلا فى الوزن والقافية .

---

(١) شرح ديوان امرىء القيس للوزير أبى بكر عاصم بن أيوب (مطبعة التقدم العلمية — القاهرة ١٣٢٣ هـ) .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ١/ ٣٩ .

(٨) ثم يلى ذلك ثمانية عشر بيتا (٥٧ — ٧٤) ذكر فيها غدواته للصيد على ظهر حصانه ، الذى وصف جسمه وسرعة سيره وصفاً بارعاً ، فتن به الشعراء والرواة والنقـــاد ، الذين يعدون هذا الوصف من عيون الأوصاف الشعرية فى الأدب العربى ، ثم يتبع ذلك بوصف أسراب البقر الوحشية فى سرعة فرارها ومطاردة حصانه لها ؛ فى تصوير فنى أخاذ ، وفى مبالغات ساحرة هام بها النقاد وعلماء البلاغة والبيان .

(٩) وآخر أغراض المعلقة اثنا عشر بيتا (٧٥ — ٨٦) وصف فيها البرق والمطر بمنظرهما الساحر فى تلك البادية ، ووصف مجلسه وأصحابه فى مشاهدة تلك الطبيعة ، ومراقبة سقوط المطر على الوهاد وعلى سفوح الجبال ، ووصف الطيور وهى المكاكىّ من شدة سرورهن بصفاء السماء بعد المطر الذى غرقت فى أقاصيه السباع ، كأنما شربن رحيقاً مفلفلا .

ويتضح من ذلك أن هذه المعلقة قد تعددت أغراضها بين وقوف واستيقاف وبكاء على الأطلال ، وذكر لعدد من النساء ، ووصفهن ، ومغامراته فى سبيل الوصول إليهن ، وذكر الخلوة بهن ، ووصف الليل والبادية ، والحصان ، والصيد والبرق ، والمطر .

وتلتقى تلك الأغراض فى أنها تعالج فى مجموعها لونا أو ألوانا من الحياة التى كان يحياها بعض المترفين من أبناء العرب فى الجاهلية ، من الذين كان لايشغلهم العيش والكد فى طلبه فى رعى أو تجارة ، بل جلّ حياتهم للّهو والعبث وتزجية أوقات الفراغ فى طلب الصيد ، وتفجر ينابيع الشاعرية عند الذين أوتوا حظا منها ، بوصف الليل الذى كانوا يجدون فيه ألم الوحدة ، أو يستشعرون لذعة الفراق ، ووصف الراحلة التى كانت تعينهم على بعض ما يطلبون من المتعة أو الرحلة ، ومشاهد الطبيعة التى كانت تفتنهم لقلة ما يرونها فى مواطنهم وديارهم .

وليست قصيدة امرىء القيس وحدها من بين الشعر الجاهلى هى مظهر هذا اللون من الحياة ، بل إن أكثر الشعر الجاهلى ، ماعلق منه وما لم يعلق ، زاخر بأمثال هذه الفنون التى اشتملت عليها معلقة امرىء القيس .

وعلى هذا فإن تلك الأغراض ، وإن بدا تعدّدها ، تدور حول هذه الحياة ، وعبقرية الشاعر تساير نظراته المتنقلة ، وحياته المتقلبة ، وخواطره المتتابعة ، فالأطلال تذكره بالذين كانوا يعمرونها ثم ظعنوا عنها ، وهذا يذكر بنسائهم أو فتياتهم ، ومن يشبههن ممن علق القلب بهن ، ومثل ذلك يستدعى التمدح بما قد يراه الشاعر مظهر فخر له من الفروسية أو نحوها ، وبالحصان وبأسراب البقر الوحشية ، وبتلك المناظر البرّية التى هى مرتع لهوهم وصيدهم وحلّهم ومرتحلهم. ولست أريد فى هذا المقام أن أثبت أصالة تلك القصيدة أو صحة نسبتها إلى امرىء القيس بالأدلة العلمية التى تخضع للمنطق وأحكامه ، وأهم هذه الأدلة فى نظرى طبيعتها وصدق دلالتها على البيئة التى قيلت فيها ، وعلى نفسية صاحبها فإن للبيئة ومظاهرها فى شعر المعلقات ، موضوعاً آخر فى هذه الدراسة ؛ وأعتقد أن خير الأسباب لإثبات ذلك أو نفيه ، الرجوع إلى الطبيعة فإن ساير الشعر أو غيره من الفنون تلك الطبيعة فلا مجال لإنكاره .

ومعنى الطبيعة الذى أقصده هنا أوسع معنى ، ولا يقتصر على مشاهدها أوكوائنها ، فتلك ناحية لايقل عنها فى الأهمية البحث فى طبيعة اللغة التى استعملت فى هذا الفن التعبيرى ، وهل هى تلك اللغة الأدبية السائدة فى الأعمال الأدبية الممتازة ؟ ثم طبيعة الحياة التى عاشها أصحاب هذا الفن ، وطبيعة النفس التى صدر عنها ، وطبيعة التجارب التى عبّر عنها ، والأحداث التى لعبت دورها فى حياة أصحاب الفن ، أو الذين كان فنهم مرآة تنعكس على سطحها صورة تلك الأحداث ..

وإذا كان موضع دراسة تلك الطبيعة لم يأت بعد ؛ فإننا نسرع إلى تسجيل

ما استخلصناه من هذه الدراسة ، وهى أنه لا منافاة مطلقاً بين هذا الفن الذى نجده فى هذه المعلقة ، والطبيعة التى أملت ما فيها من نظم وأسلوب وفكرة ومعنى ومضمون .

وفى هذا اليقين ما يبدد كل شبهة بدت فى كلام الغير ، ويُنكر كل طعن فى صدق هذا التراث أولا ، وهذه المعلقة بالذات ثانياً .

ولا أعرف من أنكرها من أدباء العرب غير الدكتور طه حسين الذى يقول عن معلقة امرىء القيس : لسنا نعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهران فى هذه القصيدة . . . ولكننا نلاحظ أن القدماء أنفسهم يشكون فى بعض هذه القصيدة .. وهم بعد هذا يختلفون اختلافاً كثيراً فى رواية القصيدة : فى ألفاظها وترتيبها ، ويضعون لفظا مكان لفظ ، وبيتاً مكان بيت . وليس هذا الاختلاف مقصورا على هذه القصيدة ، وإنما يتناول الشعر الجاهلى كله ، وهو اختلاف شنيع يكفى وحده لحملنا على الشك فى قيمة هذا الشعر .

« وهو اختلاف قد أعطى للمستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربى ، فخيل إليهم أنه غير منسق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها فى القصيدة ، وأن الشخصية الشعرية لا وجود لها فى القصيدة أيضاً ، وأنك تستطيع أن تقدم وتؤخر ، وأن تضيف إلى الشاعر شعر غيره دون أن تجد فى ذلك حرجاً أو جناحا ، ما دمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية .

« وقد يكون هذا صحيحا فى الشعر الجاهلى ، لأن كثرة هذا الشعر منتحلة مصطنعة . فأما الشعر الإسلامى الذى صحت نسبته لقائليه ، فأنا أتحدى أى ناقد أن يعبث به أقل عبث دون أن يفسده . وأنا أزعم أن وحدة القصيدة فيه بينة ، وأن شخصية الشاعر فيه ليست أقل ظهوراً منها فى أى شعر أجنبى . إنما جاء هذا الخطأ من اتخاذ هذا الشعر الجاهلى نموذجاً للشعر العربى مع أن هذا الشعر

الجاهلي لا يمثل شيئاً ، ولا يصلح إلا نموذجاً لعبث القصاص وتكلف الرواة . ونظن أن أنصار القديم لا يخالفون في أن هذين البيتين قلقان في القصيدة ، وهما :

وليل كموج البحر أرخى سُدوله ... عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصُلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل

فقد وضع هذان البيتان للدخول على البيت الذي يليهما ، وهو :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وهذان البيتان أشبه بتكلف المشطر والمخمس منهما بأي شيء آخر[1] .

فأي تعليق على هذه الأحكام الجريئة التي تترادف سريعة ؟ وكأنها أحكام مسلّمة في نظر قائلها الذي يظن أن في استطاعته أن يقود قارئيه إلى التسليم المطلق . في حين أن هذه الأحكام جميعا يعوزها الدليل والبرهان ، ولا دليل ولا برهان ! بل إن الدليل ينقض هذه الدعاوى من أساسها ..

فإذا كانت الحجة ما ذهب إليه بعضهم — كما يقرر الدكتور طه — من الشك في صحة هذين البيتين :

ترى بعرَ الآرام في عرصاتها ... وقيعانها كأنه حبُّ فُلفل
كأني غداة البين يوم تحملوا ... لدى سَمُرات الحيّ ناقف حنظل

فقد قال التبريزي بعد البيت الأول منهما : هذا البيت وما بعده مما يزاد في هذه القصيدة . ثم روى قول الأصمعي : والأعراب ترويهما[2] .

وعلى هذا ينبغي أن يكون الفهم ، وأن ينصرف الشك أو الإنكار إلى خبر زيادتهما ، لا إلى وجودهما ، ومنزلة الأصمعي بين الثقاة من الرواة لا تحتاج

---

(١) في الأدب الجاهلي ٢١٥ .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ٧ .

إلى بيان ، وقول الأصمعى إن الأعراب ترويهما ، لا يحتاج فوقه إلى دليل على صحتهما ؛ فإذا كان الأعراب يروونهما بالنقل والسماع عن أهل البادية ففى ذلك الحجة وفصل الخطاب .

أما الأبيات الأربعة «وقربة أقوام ... الأبيات» فقد أسلفنا القول فيها ، وهى أبيات أربعة مجموعة متوالية ، تنبه إليها الرواة ، وفطنوا إلى أنها حشرت فى القصيدة حشراً وأقحمت عليها إقحاماً ، وأيّد بعضهم هذا الرأى بنقد معجب فى قولهم إن هذه الأبيات أشبه بكلام قطاع الطرق من الصعاليك منها بكلام الملوك أو أبناء الملوك ، وقد عرفوا أن صاحب هذه الأبيات هو « تأبط شرًّا » فلم يبق للجاجة موضع .

وهذا كل ما فى القصيدة من الوهم الذى بان واتضح ، ولم يبق وراء ذلك إلا خلافات لفظية لا تكاد تذكر ولا يقام لها وزن ، لأنها لا تتجاوز ألفاظاً معدودة ، أو حروفاً قليلة . إذن ليس هذا الاختلاف شنيعاً كما يرى الدكتور طه ، وعلى هذا فقد بطل ما يرى الدكتور طه أنه يكفى لحمله على الشك فى قيمة هذا الشعر .

وأعجب من هذا ذهابه إلى أن «هذا الاختلاف قد أعطى المستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربى ، فخيل إليهم أنه غير منسق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها فى القصيدة، وأن الشخصية الشعرية لا وجود لها فى القصيدة أيضاً ، وأنك تستطيع أن تقدم وتؤخر ، وأن تضيف إلى الشاعر شعر غيره دون أن تجد فى ذلك حرجاً أو جناحاً ما دمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية » .

إن هذا الاختلاف الضئيل فى الواقع ، والشنيع فى نظر الدكتور طه ، لم يعط للمستشرقين صورة سيئة كاذبة عن الشعر العربى كما يقول ، وبين أيدينا ما كتب أحد كبار المستشرقين الذين تصدوا لتاريخ أدبنا العربى ، وهو الأستاذ

نيكلسون الذى يقول فى صفحه ١٠٥ من كتابه عن معلقة امرىء القيس : أما معلقة امرئ القيس ، فقد تسابق النقاد الأوربيون إلى التغنِّى بجمال تعبيرها ، والتحدّث بفاخر تصويرها ، وحلاوة تدفق أبياتها ، وسحر تمثيلها المنوّع . ومما زاد إعجابهم بها ذلك الشعور بأفراح الحياة ، وتمجيد الشباب الذى أوحى إلى الشاعر معانيها الخلابة ، ومبانيها البالغة أعلى درجات الفصاحة[1] .

فهذا عالم كبير لا يذكر رأيه فى الإعجاب بهذه المعلقة فحسب ، ولكنه يؤكد أن النقاد الأوربيين يتغنون بما يجدون فيها من الخصائص الفنية التى ذكرها . ويقول الأستاذ أرنست رينان فى صفحة ٣٦٠ من كتاب تاريخ اللغات السامية عن الخلافات اللفظية التى وصفها الدكتور طه بأنها شنيعة ، مانصه : « إن الخلافات اللفظية الطفيفة فى رواية الشعر الجاهلى نشأت عن ضعف الذاكرة ، ولكنها لا تمس جوهر الفكرة . وهذه الخلافات قد تكون ضمانا لصحة الرواية التى تلقاها الرواة[2] . واعتقد أن فى هذين النصين الكفاية للدلالة على حظ هذه المعلقة وغيرها من التقدير فى نظر المستشرقين ، كما كان لها من الحظ عند رواة العرب وعلمائهم ونقادهم .

أما قوله : إنك تستطيع أن تقدم أو تؤخر ، وأن تضيف إلى الشاعر شعر غيره دون أن تجد فى ذلك حرجاً أو جناحاً ، مادمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية» . فإن الكلام عن التقديم والتأخير لا يحكم العقل باستحالته بالنسبة إلى شعر الجاهليين والإسلاميين والعباسيين ، بل والمعاصرين ، على السواء ، وليس ذلك فى الشعر فقط ، بل هو ممكن فى سائر الفنون الأدبية ، لكل من يريد التزييف والخداع ، وكان فى استطاعته هذا التزييف أو التضليل ، وذلك بأن يتقمص روح

(١) نقلا عن كتاب (الشهاب الراصد) ٢٩٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٢ .

هذا الأديب أو ذاك ، و ينسج على منواله ، فى الأسلوب والأفكار ، أما الوزن والقافية فهما أيسر الأشياء عنـــد من يملك غيرهما من آلات الحذق الفنى فى الأدب .

ولا شك فى أن القادرين على مثل هذا التضليل لا يحصى عددهم من الشعراء المجيدين والنثار المبرزين فى سائر عصور الأدب . وأعتقد أن الذين يسعهم بذل هذا العناء ليقدموه إلى غيرهم ثمرة ناضجة ، كان أولى بهم أن يجعلوه لأنفسهم ، ليعرفوا به بين الناس ، وليبلغوا به من المنزلة فى عالم الأدب ، ما بلغ أولئك الفحول فى مختلف البيئات من المجد وذيوع الصيت .

والمسألة أولاً وأخيراً لا تعدو مسألة الضمير ، بل هى مشكلة الضمير . وهذا أمر لا تستطيع البشرية أن تحكم عليه إلا بالدليل الواضح ، لا بالفروض والظنون .

ولست أدرى كيف ظنّ الدكتور أن أنصار القديم لا يخالفون فى أن هذين البيتين « وليل كموج البحر ... البيتين » قلقان فى القصيدة وأنهما وضعا للدخول على البيت الذى يليهما ؛ وهو « ألا أيها الليل . . . البيت » وهو قول لم ينسبه الدكتور إلى أحد من القدامى أو المحدثين من الرواة أو العلماء ، فهو رأيه الخاص إذن ، وأنَّى له أن أنصار القديم ، بل وأنصار الجديد أيضا ، لا يخالفون فى قلق هذين البيتين ؟

ولا نجد من الأسباب المادية أو الأسباب الفنية دليلاً على هذا القلق المزعوم ؛ بل العكس هو الصحيح ، والإجماع منعقد على الإعجاب بهما وبما يليهما من الأبيات الخمسة التى وصف فيها امرؤ القيس الليل ، وبرمه به ، وضجره منه . ولم أسمع ولم أقرأ غير ذلك الإعجاب من أنصار القديم وأنصار الحديث أيضا .

حقًّا لقد ذكر بعض نقاد الأدب العربى أن افتقار البيت من الشعر إلى ما يليه

من الأبيات عيب من عيوب الشعر سماه قدامة بن جعفر « المبتور » وسماه غيره « التضمين » ، وذلك موجود فى هذه الأبيات ، فإن مقول القول فى البيت الثانى من الأبيات الثلاثة يأتى فى البيت الثالث منها . ولكنه مقياس لا يعتد به عند الباحثين عن وحدة القصيدة أو الذين يعنيهم أمر هذه الوحدة ، والدكتور طه ينشد هذا المقياس فى هذه القصيدة أو غيرها من الشعر الجاهلى فلا يجده ، كما يقول فى كلماته السابقة .

ثم يقول : فإذا فرغنا من هذا الشعر الذى لا نكاد نختلف فى أنه دخيل فى القصيدة ، فقد نستطيع أن نرد القصيدة إلى أجزائها الأولى : وهذه الأجزاء هى أولا وقوف الشاعر على الدار وما يتصل بذلك من بكاء وإعوال ، ثم ذكره أيام لهوه مع العذارى ، ثم عتابه لصاحبته وما يتصل بذلك من وصف خليلته ، ثم ذكر الليل ، والاستطراد منه إلى الصيد ، وما يتوسل به إلى الصيد من وصف الفرس ، ثم ذكر البرق ، وما يتبعه من السيل (ص ٢١٥) .

فهل نفهم من هذا الكلام أن صاحبه قد استبعد من هذه المعلقة ، ماشك فيه ، أو ما نقل الشك فيه عن غيره ، ثم سلم بما بقى بعد ذلك ، وهو كثير ، بل أكثر من الكثير ؟ فإن مجموع الأبيات التى تناولتها الكلمات السابقة ثمانية أبيات من مجموع القصيدة الذى يبلغ ستة وثمانين بيتا فى رواية أبى زيد فى الجمهرة ، ويكون ماسلم له من القصيدة ثمانية وسبعين بيتا ، وحينئذ يكون مجال الخلاف ضيقا ، إذ أن دائرته بيننا وبينه لا تتجاوز أربعة أبيات ، منها البيتان :

ترى بعر الآرام فى عرصاتهـــا وقيعانهـــا كأنه حب فلفل

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وقد نسب الشك فيهما إلى بعض القدماء ، والبيتان :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... علىّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطّى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وهما البيتان اللذان يرى أنهما قلقان ، وأنهما وضعا للدخول على البيت الذى يليهما . أما الأبيات الأربعة « وقربة أقوام . . . » فقد عُرف أنها لتأبط شرا وليست لامرىء القيس ؛ وقد تنبه لذلك العلماء والرواة من قديم ونبهوا إليه ؛ فلا محل للخلاف فيها ؛ ونوافق نحن على استبعادها من المعلقة . وبذلك ينحصر الخلاف فى الأبيات الأربعة ، وهو خلاف ضئيل كما قدمنا .

ليت الأمر كان كذلك ؛ إذن لحسم الخلاف ولكن الدكتور يسرع إلى نقضه بعد أن فهم من كلامه الإبقاء على ما يطمأن إليه ، ويرضى عنه ، وهو الباقى من القصيدة الذى تناول الأغراض التى ذكرها — بقوله : ولنسرع القول بأن وصف اللهو مع العذارى ، وما فيه من فحش ، أشبه بأن يكون من انتحال الفرزدق منه بأن يكون جاهليا . فالرواة يحدثوننا أن الفرزدق خرج فى يوم مطير إلى ضاحية البصرة ، فاتبع آثاراً حتى انتهى إلى غدير ، وإذا فيه نساء يستحممن ، فقال : ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ، وولى منصرفا ، فصاح النساء به : ياصاحب البغلة ، فعاد إليهن ، فسألنه ، وعزمن عليه ليحدثهن حديث دارة جلجل ، فقصّ عليهن قصة امرىء القيس ، وأنشدهن قوله :

ألا ربّ يوم لك منهنّ صالح ... ولا سيما يوم بدارة جلجل

قال : والذين يقرءون شعر الفرزدق ويلاحظون فحشه وغلظته ، وأنه قد ليم على هذا الفحش وعلى هذه الغلظة ، لا يجدون مشقة فى أن يضيفوا إليه هذه الأبيات ، فهى بشعره أشبه . وكثيراً ما كان القدماء يتحدثون بمثل هذه الأحاديث يضيفونها إلى القدماء ، وهم ينتحلونها من عند أنفسهم . ومهما يكن من شىء

فلغة هذه الأبيات كلغة القصيدة كلها عدنانية قرشية ، يمكن أن تصدر عن شاعر إسلامى اتخذ لغة القرآن لغة أدبية[1].

فقد نقض هذا القول ماسلف ، وظهر منه أن الكلام السابق لم ينه الخلاف ، ولم يصل بنا إلى نقطة نلتقى عندها . ومحاولة إثبات انتحال الفرزدق هذا الشعر محاولة ضعيفة ، بل لعلها أضعف تلك المحاولات ، فقد كان الفرزدق فى بيئة إسلامية كثر فيها الشعر وكثر فيها الشعراء ، وذاع فيها حديث الجاهليين وشعرهم ، وبرزت أحكام النقاد فى تقدير القيم الفنية فيه ، ولم يكن علم الفرزدق بهذا الشعر أوفر من علم غيره به . وكان أحرى بالفرزدق أن ينسب شعر امرىء القيس إلى نفسه لو أراد ، لا أن ينحل شعره امرأ القيس لغير ما سبب ظاهر أو خفىّ ؛ ولم يتجه الظن إلى الفرزدق وحده فى ذلك الانتحال ؟ فإن القياس لا يمنع أن يكون صانعه أبا تمام ، أو بشاراً ، بل لا يمنع أن يكون صانع هذا البارودى أو غيره من شعراء هذا العصر الحديث ؛ إذا كان المراد مجرد إلصاق هذا الشعر الذى ينسب إلى امرىء القيس إلى أى شاعر غيره . . . فليكن !

ولقد كان للفرزدق خصوم من أنداده نالوا منـــــه كما نال منهم ، وكان فى وسعهم أن يفطنوا إلى مادسّ على امرىء القيس الذى يعرفون شعره ، وأن يكون ذلك — لو صحّ — مادة للنيل من الفرزدق وسبباً من أسباب التشهير به .

ثم محاولة تأييد هذا الظن بملامح فى شعر الشاعرين ، ومشابه من الفحش فى ذكر السوءات ، والنيل من المحصنات فى معلقة امرىء القيس ، وفى بعض شعر الفرزدق ، فإن ذلك لا يؤيد هذا الظن فما أكثر من تشابهت أخلاقهم فى الفضائل وفى الرذائل ، وفى العفّة وفى الفحش ؛ بل فى أسلوب التعبير عن المعانى

---

(١) فى الأدب الجاهلى ٢١٦.

والأفكار ، وهذا التشابه لا يمكن أن ينهض دليلا على أن هذا صنع شعر ذاك أو نحله إياه . والذى قد يقبله العقل قد يكون عكس هذا الظن ، فإن المتأخر هو الذى قد يحذو حذو المتقدم ، وقد يسرق معانيه وأفكاره ، وقد كان الفرزدق قوى الذاكرة يحفظ من شعر العرب وأخبارها وأيامها الشيء الكثير ، ضمن كل ذلك شعره الذى كان يزهو فيه بنفسه و يفخر فيه بآبائه وأجداده . ومن خصائص أسلوبه الميل إلى الغرابة ، ومداخلة بعض الكلام فى بعض ، وقد قالوا فيه إنه أحيا ثلث اللغة فى شعره : بما استعمل فيه من ألفاظ الجاهليين وأساليبهم ، بعد أن عدل كثير من الشعراء عن غريبها ووحشيها متأثرين بالإسلام و بأسلوب القرآن الكريم . ولذلك قالوا فى الموازنة بين الفرزدق وجرير : إن الفرزدق ينحت من صخر ، و إن جريراً يغرف من بحر . وذلك إشارة إلى ما كان يتكلفه الفرزدق فى ألفاظه وأساليبه من التشبه بالجاهليين .

ومثل ذلك يقال فيما حاول صاحب الكتاب من إلصاق بعض شعر المعلقة بعمر بن أبى ربيعة فى قوله : أما وصف امرىء القيس لخليلته ، وزيارته إياها ، وتجشمه ما تجشم للوصول إليها ، وتخوفها الفضيحة حين رأته ، وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها ، وما كان بينهما من لهو ، فهو أشبه بشعر عمر بن أبى ربيعة منه بأى شيء آخر ، فهذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر فن عمر بن أبى ربيعة قد احتكره احتكاراً ولم ينازعه فيه أحد . وقد يكون غريباً حقا أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن و يتخذ فيه هذا الأسلوب و يعرف عنه هذا النحو ثم يأتى ابن أبى ربيعة فيقلده فيه ، ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبى ربيعة قد تأثر بامرىء القيس ، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرىء القيس فى طائفة من الشعراء فى أنحاء من الوصف ، فكيف يمكن أن يكون امرؤ القيس هو منشىء هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبى ربيعة ،

والذى كوّن شخصية ابن أبى ربيعة الشعرية ، ولا يعرف له ذلك ؟

ثم يقول : وأنت إذا قرأت قصيدة أو قصيدتين من شعر ابن أبى ربيعة لم تكد تشك فى أن هذا الفنّ فنه ابتكره ابتكاراً ، واستغله استغلالاً قويا ، وعرفت العرب له هذا . وقل مثل هذا فى هذا القصص الغرامى الذى تجده فى قصيدة امرىء القيس الأخرى « ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالى » . ففى هذا القصص الفاحش فن ابن أبى ربيعة وروح الفرزدق . ونحن نرجح إذن أن هذا النوع من الغزل إنما أضيف إلى امرىء القيس ، أضافه رواة متأثرون بهذين الشاعرين الإسلاميين[1] .

وهذا الذى وصف به عمر بن أبى ربيعة صحيح لا شك فى صحته ، فهو شاعر الغزل الذى وقف عليه شعره أو أكثر شعره ، ولم يوصف بذلك امرؤ القيس ، وإنما وصف بقدرته على التصرف فى فنون الشعر ، وقد عالج هذا الفن ، فن الغزل ، فيما عالج من تلك الفنون ؛ فامرؤ القيس هو الذى سبق إلى هذا الفن فى بعض قصائده أو فى أجزاء منها . والطبيعة لا تكذب هذا لحياة امرىء القيس الحرّة التى كان ينتهب فيها اللذات انتهاباً لا تمنع أن يصف ذلك فى شعره ، وأن يُوجد فيه ذلك القصص الغرامى ، الذى افتتن به ابن أبى ربيعة ، وافتتن فيه حتى أصبح إماماً فيه .

والقضية كما سبق معكوسة تماماً ، والذى ينبغى أن يقال هو أن ابن أبى ربيعة اقتدى بامرىء القيس حتى برع فى فن الغزل براعة فاق فيها أستاذه ؛ وقد كانت الخمريات أحد الفنون التى عالجها شاعران كبيران فى الجاهلية هما عمرو بن كلثوم والأعشى ، وشاعر إسلامى هو الأخطل ، وجاء فى العصر

---

(١) فى الأدب الجاهلى ٢١٧ .

العباسى أبو نواس ، وهو الشاعر الذى فاق أولئك الفحول فى وصف الخمر ومجالسها وصناعتها وفعلها بشاربيها ، حتى أصبح فى هذه الصنعة إماما ، فهل نستطيع أن نستنتج قياساً على هذا أن شعر عمرو بن كلثوم والأعشى والأخطل فى نعت الخمر مصنوع ، وأن الذى صنعه ونحله إياهم هو أبونواس ، أو أحد الرواة الذين عرفوا منهجه فى التعبير عن هذا الفن ، وخصائص شعر الخمر عنده ؟ ! .

لِمَ هذا الظن ؟ بل لِمَ هذا الإسراف فى الظنّ ؟ والحجج كما ترى لايؤيدها منطق فى الطبيعة ، ولايعضدها سند من رواية ، أوعلم عن يقين !! .

لقد كان الأولى أن يوجّه أبناؤنا الذين نريد لهم الخير ، ونحملهم عليه ، ونعودهم البحث ، ونعدهم لحمل رسالة الأدب والنقد ، على نحو آخر ينبههم إلى تلك الملامح من التشابه فى العصور المختلفة ، وفى أعلام الأدب ومناهجهم ، وفى فنون الأدب التى خلفوها ، ويوقفهم على ماسبق إليه القدماء وما احتذاهم فيه اللاحقون حتى يَعرفوا الجهود الفنية التى تضافرت على ذلك الفن أو ذلك حتى بلغ مكانته بين الفنون ، ويعرفوا أثر ذلك العصر وأثر الحياة والمعرفة فى تطور الفكرة الأدبية ، وأن نضع أمامهم الحقائق ليدرسوها ، ويصلوا منها إلى التمييز الفنى الصحيح الذى ننشده لهم فى الحياة وفى العلم والفن .

ثم اقرأ هذا الكلام ، وأكبر الظن أنك لن تجد فيه الإنكار الذى رأيته ، ولكنك لن تجد فيه أيضاً ، الإثبات إن كنت طالباً له ، يقول الدكتور طه : بقى الوصف ، ولاسيما وصف الفرس والصيد ، ولكننا نقف فيه موقف التردد أيضا . واللغة هى التى تضطرنا إلى هذا الموقف . فالظاهر أن امرأ القيس كان قد نبغ فى وصف الخيل والصيد والسيل والمطر . والظاهر أنه قد استحدث فى ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوفة من قبل ، ولكن أقال هذه الأشياء فى هذا

الشعر الذى بين أيدينا ؟ أم قالها فى شعر آخر ضاع وذهب به الزمان ، ولم يبق منه إلا الذكر ، وإلا جمل مقتضبة أخذها الرواة فنظموها فى شعر محدث أنشئوه ولفقوه وأضافوه إلى شاعرنا القديم ؟ هذا مذهبنا الذى نرجحه . فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد وشبه الخيل بالعصىّ والعقبان التى يرويها الرواة .وأكبر الظن أن هذا الوصف الذى نجده فى المعلقة وفى اللامية الأخرى فيه شىء من ريح امرىء القيس ، ولكن من ريحه ليس غير (ص ٢١٧) .

وإذا تدبرت هذا الكلام فأكبر الظن أنك لن تخرج منه بشىء ، بل هو كلام لامحصل له ، وكاتبه يقول « الظاهر أن امرأ القيس كان قد نبغ فى وصف الخيل والصيد والمطر » ويقول : « والظاهر أنه قد استحدث فى ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوفة من قبل » . فمن أين هذا الظاهر الذى وضح أمامه ، ونادى على نفسه بالظهور والوضوح ؟ إنها الكلمات التى ردّدها الرواة والإخباريون والتى سبق أن تعمد تكذيبها ، واتهامهم بالوضع والانتحال والتلفيق ، وأولئك الرواة فى هذا المقام هم النقاد الناظرون فى الأدب لم يخترعوا هذا الكلام ، ولم ينشئوا هذه الأفكار والمعانى — التى ذهبوا إلى أن امرأ القيس أول من ابتكرها — من خيالهم ، ولكنهم من غير شك استخلصوها من شعر امرىء القيس نفسه ، ومن معلقته بالذات ، بعد أن سمعوها ، واستقرءوا الشعر الجاهلى الذى عاصر شعرامرىء القيس أو الذى سبقه ، حتى بان لهم أن تلك المعانى لم يُسبق إليها فأصدر واحكمهم بأنه أول من . . . وأول من . . . الخ

فهذا الشعر الذى هو موضع الشك ، هو ذلك الشعر المشتمل على تلك المعانى التى عُدّ امرؤ القيس بها سابقاً للشعراء ، وهى المعانى التى لايتردد الكاتب فى قبولها ، وإن كان يحاول نفى الشعر الذى تضمنها واحتواها ، واستخلصت منه تلك المعانى .

وبعد فهذا جهد بذلناه فى التعقيب على هذا الرأى ، كنا فى حاجة إلى بذله

فى ناحية أخرى من نواحى هذه الدراسة ، لولا أن صاحب هذا الرأى أستاذ كبير ملأ صيته الآفاق ، وكتبه من الآثار التى يحرص عليها ، وأراؤه لها اعتبارها فى نفوس القراء فى بلاد العروبة وغيرها . والذين يحملون رسالته من تلاميذه عدد ليس بالقليل، ثم إن صاحبه كان صاحب أول صوت جهر بهذه الآراء الجريئة التى لفتت الأنظار بغرابتها فى عالم الدراسات العربية وفى بيئات التفكير الأدبى . فكان لابد من تناول رأيه والفحص عنه لوثيق صلته بالموضوع الذى هو مادة هذه الدراسة وجوهرها .

ونجتزىء الآن بهذا القدر من الدراسة فى توثيق المعلقة وشرح أغراضها ، مدخرين دراستها الفنية ودلالاتها الاجتماعية والتاريخية إلى موضع آخر ، حيث نقرنها بأخواتها ، ونستخلص منها صورة واضحة للشعر الجاهلى .

نص المعلقة*

(١) قِفَا نبكِ من ذِكرَى حبيبٍ ومَنزِلِ — بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فحومَلِ
(٢) فتُوضِحَ فالمِقْرَاةِ لم يَعْفُ رسْمُها — لِمَا نسجَتْها من جَنُوبٍ وشَمْأَلِ
(٣) تَرَى بَعَرَ الآرامِ فى عَرَصاتِها — وقِيعَانِها كأنَّه حَبُّ فُلْفُلِ
(٤) كأنِّى غَداةَ البَيْنِ يومَ تحمَّلُوا — لَدَى سَمُرَاتِ الحىِّ ناقِفُ حَنْظَلِ
(٥) وُقوفًا بها صَحْبِى علىَّ مَطِيَّهمْ — يقُولونَ لاتهلِكْ أسىً وتجمَّلِ
(٦) وإنَّ شِفَائِى عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ — فهلْ عندَ رسْمٍ دارسٍ مِنْ مُعَوَّلِ
(٧) كدَأْبِكَ مِنْ أمِّ الحُوَيْرِثِ قبلَها — وجارَتِها أمِّ الرَّبابِ بمَأْسَلِ

(*) جعلنا لكل بيت من أبيات هذه المعلقة وغيرها رقما للرجوع إليه فيما يأتى من الشرح والدراسة .

(٨) إذا قامتا تَضَوَّعَ المِسْكُ منهما   نَسيمَ الصَّبا جاءتْ بِريَّا القَرَنْفُلِ

(٩) ففاضتْ دموعُ العَيْنِ منّى صَبابةً   على النَّحْرِ حتَّى بلَّ دَمْعِىَ مِحْمَلِي

(١٠) ألا رُبَّ يومٍ لك منهنَّ صالحٍ   ولا سِيَّما يومٍ بِدَارةِ جُلْجُلِ

(١١) ويومَ عَقَرْتُ للعَذارَى مطيَّتى   فيا عجباً من كُورِها المُتَحَمَّلِ

(١٢) فظلَّ العذارَى يَرْتَمِين بلحمها   وشَحْمٍ كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ

(١٣) تُدَارُ علينا بالسَّدِيفِ صِحافُها   ويُؤْتَى إلينا بالعَبِيطِ المُثَمَّلِ

(١٤) ويومَ دخلتُ الخِدرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ   فقالتْ لكَ الوَيْلاتُ إنَّك مُرْجِلِي

(١٥) تقولُ وقد مالَ الغَبِيطُ بنا معاً   عَقَرْتَ بعيرى ياامرأَ القيسِ فانْزِلِ

(١٦) فقلتُ لها سِيرِى وأَرْخِى زِمامَهُ   ولا تُبْعِدِينى من جَناكِ المُعَلَّلِ

(١٧) دَعِى البَكْرَ لاتَرْثِى لهُ من رِدَافِنا   وهاتِى أَذِيقِينا جَناةَ القَرَنْفُلِ

(١٨) بثغرٍ كمِثْلِ الأُقْحُوانِ مُنَوَّرٍ   نَقِىِّ الثَّنايا أَشْنَبٍ غيرِ أَثْعَلِ

(١٩) فمثلكِ حُبْلَى ....

(٢٠) ....

(٢١) ويوماً على ظهرِ الكَثِيبِ تعذَّرَتْ   عَلَىَّ وآلتْ حَلْفَةً لم تَحَلَّلِ

(٢٢) أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ   وإنْ كنتِ قدأزمعتِ صَرْمِى فأَجْمِلِي

(٢٣) أغرَّكِ منى أن حُبَّكِ قاتلى   وأنَّكِ مَهما تأمُرِى القلبَ يفعَلِ

(٢٤) وأنَّكِ قسَّمْتِ الفُؤَادَ فنِصفُهُ   قتيلٌ ونِصفٌ بالحديدِ مُكَبَّلِ

(٢٥) وإن تكُ قدْ ساءتْكِ منِّى خليقةٌ   فسُلِّى ثيابى من ثيابكِ تَنْسُلِ

(٢٦) وما ذرفَتْ عيناكِ إلا لتضربى   بِسَهْمَيْكِ فى أعشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

(٢٧) وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها ... تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

(٢٨) تجاوزْتُ أحراساً إليها ومعشراً ... عليَّ حِراصاً لو يُسِرُّونَ مَقْتَلِي

(٢٩) إذا ما الثُّريَّا في السَّماء تعرَّضَتْ ... تَعرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفَصَّلِ

(٣٠) فجِئْتُ وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابَها ... لدَى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المتفضِّلِ

(٣١) فقالتْ يمينُ اللهِ مالكَ حيلةٌ ... وما إنْ أرَى عنكَ الغَوايةَ تنْجَلِي

(٣٢) خرجْتُ بها أمشِي تجرُّ وراءنا ... على أثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

(٣٣) فلمَّا أجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى ... بنا بطنُ خَبْتٍ ذي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

(٣٤) هَصَرْتُ بفَوْدَيْ رأسِها فتمايلَتْ ... عليَّ هَضِيمَ الكشْحِ ريَّا المُخَلْخَلِ

(٣٥) مُهَفْهَفَةٌ بيضاء غيرُ مُفَاضةٍ ... تَرائبُها مصقُولةٌ كالسَّجَنْجَلِ

(٣٦) كبِكْرِ المُقاناةِ البياضِ بصُفْرةٍ ... غذاها نَميرُ الماء غيْرُ المحلَّلِ

(٣٧) تَصُدُّ وتُبْدِي عن أسِيلٍ وتتَّقِي ... بناظرةٍ من وَحْشِ وَجْرةَ مُطْفِلِ

(٣٨) وجِيدٍ كجيدِ الرِّئْمِ ليْسَ بفاحِشٍ ... إذَا هِيَ نَصَّتْهُ ولا بمُعطَّلِ

(٣٩) وفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أسْوَدَ فاحِمٍ ... أثِيثٍ كقِنْوِ النَّخْلةِ المتَعَثْكِلِ

(٤٠) غدائرُهُ مُسْتَشْزَراتٌ إلى العُلاَ ... تَضِلُّ العِقاصُ في مثنًّى ومُرْسَلِ

(٤١) وكَشْحٍ لَطِيفٍ كالجَدِيلِ مُخَصَّرٍ ... وسَاقٍ كأُنْبُوبِ السَّقِيِّ المذلَّلِ

(٤٢) وتُضْحِي فَتِيتُ المِسْكِ فوقَ فراشِها ... نئومُ الضُّحا لم تنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

(٤٣) وتعْطُو برَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنَّهُ ... أساريعُ ظَبْيٍ أو مَساوِيكُ إسْحِلِ

(٤٤) تُضِيء الظَّلامَ بالعِشاء كأنَّها ... مَنارةُ مُمْسَى راهبٍ مُتَبتِّلِ

(٤٥) إلى مِثْلِها يَرْنُو الحليمُ صَبابَةً   إذا ما اسْبَكَرَّتْ بَيْنَ دِرْعٍ ومِجْوَلِ

(٤٦) تَسَلَّتْ عَماياتُ الرِّجالِ عن الصِّبا   ولَيْسَ فُؤَادِي عَنْ هَوَاكِ بِمُنْسَلِ

(٤٧) ألا رُبَّ خَصْمٍ فيكِ ألْوَى رَدَدْتُهُ   نَصِيحٍ على تَعْذالِه غَيْرِ مُؤْتَلِ

(٤٨) ولَيْلٍ كمَوْجِ البحرِ أرْخَى سُدُولَهُ   عليَّ بأنواعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِي

(٤٩) فقلتُ له لمّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وأَرْدَفَ أعجازاً وناءَ بِكَلْكَلِ

(٥٠) ألا أيُّها اللَّيلُ الطويلُ ألا انْجَلِ   بِصُبْحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمْثَلِ

(٥١) فيالَكَ من ليلٍ كأنَّ نُجُومَهُ   بكُلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

(٥٢) كأنَّ الثُّرَيّا عُلِّقَتْ في مَصامِها   بأمْرَاسِ كَتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

(٥٣) وقِرْبَةِ أقْوَامٍ جعلتُ عِصَامَها   على كاهِلٍ مِنّي ذَلُولٍ مُرَحَّلِ

(٥٤) ووادٍ كجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قطعتُهُ   به الذئبُ يَعْوِي كالخليعِ المُعَيَّلِ

(٥٥) فقلتُ له لمّا عَوَى إنَّ شأنَنا   قليلُ الغِنَى إن كنتَ لمّا تَمَوَّلِ

(٥٦) كِلانا إذا ما نالَ شيئاً أفاتَهُ   ومن يَحْتَرِثْ حَرْثِي وحَرْثَكَ يَهْزِلِ

(٥٧) وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتِها   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ

(٥٨) مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً   كجُلمودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

(٥٩) كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ   كما زَلَّتِ الصَّفْواءُ بالمُتَنَزِّلِ

(٦٠) على الذَّبْلِ جَيّاشٍ كأنَّ اهتزامَهُ   إذا جاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ

(٦١) مِسَحٍّ إذا ما السّابحاتُ على الوَنَى   أَثَرْنَ الغُبارَ بالكَدِيدِ المُرَكَّلِ

(٦٢) يَزِلُّ الغُلامُ الخِفُّ عن صَهَواتِهِ   ويُلْوِي بأثوابِ العنيفِ المُثَقَّلِ

(٦٣) دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الوَلِيدِ أَمَرَّهُ　　تتابُعُ كَفَّيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ

(٦٤) لهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وساقَا نعامَةٍ　　وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

(٦٥) ضَلِيعٍ إذا استدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ　　بِضافٍ فُوَيْقَ الأرْضِ لَيْسَ بأعْزَلِ

(٦٦) كأنَّ على المَتْنَيْنِ منه إذا انتحَى　　مَدَاكَ عَروسٍ أو صَلَايَةَ حَنْظَلِ

(٦٧) كأنَّ دِماءَ الهادياتِ بِنَحْرِهِ　　عُصَارةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ

(٦٨) فعَنَّ لنا سِرْبٌ كأنَّ نِعاجَهُ　　عَذَارَى دَوَارٍ فى مُلاءٍ مُذَيَّلِ

(٦٩) فأدْبَرْنَ كالجِزْعِ المُفَصَّلِ بَيْنَهُ　　بِجِيدٍ مُعِمٍّ فى العشيرةِ مُخْوِلِ

(٧٠) فألْحَقَنَا بالهادياتِ ودُونَهُ　　جَوَاحِرُهَا فى صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ

(٧١) فعادَى عِدَاءً بين ثَوْرٍ ونَعجةٍ　　دِرَاكاً فلمْ يَنْضَحْ بماءٍ فَيُغْسَلِ

(٧٢) فظَلَّ طُهاةُ اللَّحْمِ من بَيْنِ مُنْضِجٍ　　صَفِيفَ شِوَاءٍ أو قَدِيرٍ مُعَجَّلِ

(٧٣) ورُحْنا يكادُ الطَّرْفُ يُقْصِرُ دُونَهُ　　مَتَى ما تَرَقَّ العينُ فيهِ تَسَفَّلِ

(٧٤) فبات عليه سَرْجُهُ ولِجامُهُ　　وباتَ بِعَيْنِى قائماً غيرَ مُرْسَلِ

(٧٥) أصاحِ ترَى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ　　كَلَمْعِ اليَدَيْنِ فى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

(٧٦) يُضِىءُ سَنَاهُ أو مصابيحُ راهبٍ　　أمالَ السَّلِيطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ

(٧٧) قعدْتُ له وصُحْبَتِى بينَ ضَارِجٍ　　وبَيْنَ العُذَيْبِ بُعْدَ ما مُتَأَمَّلِى

(٧٨) على قَطَنٍ بالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ　　وأَيْسَرُهُ عَلَى السِّتَارِ فَيَذْبُلِ

(٧٩) فأضْحَى يَسُحُّ الماءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ　　يَكُبُّ على الأذْقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

(٨٠) ومَرَّ علَى القَنَانِ من نَفَيَانِهِ　　فأنزَلَ منهُ العُصْمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلِ

(٨١) وتيماءَ لم يَترُكْ بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ولا أُطُماً إلا مَشِيداً بجَنْدَلِ

(٨٢) كأنّ ثَبِيراً فى عَرَانينِ وَبْلِهِ كبيرُ أناسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ

(٨٣) كأنّ ذرَارأسِ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً من السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغزَلِ

(٨٤) وألقَى بصحْراء الغَبيطِ بَعَاعَهُ نُزُولَ اليمَانِى ذِى العِيَابِ المُحَمَّلِ

(٨٥) كأنّ مَكَاكِىَّ الجِوَاء غُدَيَّةً صُبِحْنَ سُلافاً من رحيقٍ مُفَلْفَلِ

(٨٦) كأن السِّبَاعَ فيه غَرْقَى عَشِيَّةً بأرجائه القُصْوَى أنابيشُ عُنْصُلِ

طرفة

عدّه ابن سلام رأس الطبقة الرابعة من فحول الجاهليين ، وهم عنده أربعة رهط فحول : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وعدى بن زيد . قال ابن سلام : موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخلّ بهم قلّة شعرهم بأيدى الرواة . وقال : أما طرفة فأشعر الناس واحدةً ، وهى قوله :

لخولة أطلالٌ ببُرقة ثهمدِ وقفتُ بها أبكى وأبكى إلى الغد(١)

وتليها أخرى مثلها ، وهى :

أصحوْتَ اليومَ أمْ شاقتك هِرّ ومن الحبّ جنونٌ مستعرّ

ومن بعد له قصائد حسان جياد(٢) . .

ووصفه ابن قتيبة بأنه أجودهم طويلة ، وهو القائل * لخولة أطلالٌ ببرقة ثهمد * وله بعدها شعر حسن ، وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلا القليل(٣) .

---

(١) هكذا روى ابن سلام عجز البيت ، وفى الرواية المتداولة « تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد » . (٢) طبقات فحول الشعراء ١١٦ . (٣) الشعر والشعراء ١/١٣٧ .

ونقل عن أبي عبيدة قوله : طرفة أجودهم واحدة ، ولا يلحق بالبحور ، يعني امرأ القيس ، وزهيراً ، والنابغة . ولـكنه يوضع مع أصحابه : الحارث ابن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، وسُوَيد بن أبي كاهل[١] .

وسئل لبيد عن أشعر الشعراء ؛ فقال : الملك الضليل « يعني امرأ القيس » ثم الغلام القتيل « يعني طرفة » ثم الشيخ أبو عقيل « يعني نفسه »

وعند صاحب الخزانة أن طرفة أشعر الشعراء بعد امرئ القيس ، ومرتبته ثاني مرتبة، ولهذا ثنِّي بمعلقته[٢] .

والذي يبدو من هذه الآراء وغيرها أنهم يعدون طرفة من متقدمي الفحول بل هو أسبقهم إلى الإجادة في الفن الشعري ، والإبداع فيه ، لا يفضلون عليه في ذلك إلا شيخ الشعراء امرأ القيس ، ينظرون في ذلك إلى الخصائص الفنية التي يجدونها في معلقة طرفة على نحو يدعو إلى الإعجاب بما يتوافر فيها من سمات الشاعرية وملامحها . حتى أولئك الذين جعلوه في الطبقة الرابعة يشعرون أنها ليست منزلته من حيث الإجادة والإبداع ، وإنما من حيث وفرة النتاج ، وهو معنى قول ابن سلام عنه وعن فحول طبقته إن « موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخلّ بهم قلّة شعرهم بأيدي الرواة » . والـكمُّ عند ابن سلام وغيره أهم المقاييس التي يقاس بها الشعراء ، ويفضل بعضهم بعضا ؛ ولذلك قدموا هذا العذر الذي يدل على تقديرهم لما وجدوا من شعره ، وهو قليل بالقياس إلى ما وجدوا من شعر أولئك الذين قدموهم عليه .

* * *

ولا يعرف من أمر نشأة طرفة وحياته إلا القليل ، وليس مصدر ما عرف

(١) الشعر والشعراء ١٤٣/١ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ١٨٢/٢ .

من أمر حياته وطبعه ومزاجه كلام الرواة والإخباريين ؛ بل هو شعره الذى ذكر فيه عن هذه الحياة شيئا ليس بالقليل ، ثم نجد شيئاً عن هذه الحياة فى أخبار غيره من الشعراء الذين فصلوا القول فيهم ، وكانت تصلهم بطرفة صلات من النسب أو غيره ؛ وإن كان الرواة قد ذكروا شيئاً عن صلته بعمرو بن هند ملك الحيرة وأخيه قابوس ، وقصة طويلة تتصل بنهايته ومصرعه .

وهو طرفة بن العبد بن سفيان بن مالك .. البكرى ، أحد فتيان بكر بن وائل ، وبكر من ربيعة ، كان قومه يعيشون فى البحرين على الخليج الفارسى . ويبدو من أخباره أنه نشأ فى بيئة شاعرة ، فخاله جرير بن عبد المسيح (المتلمس) شاعر ، وعمه ربيعة بن سفيان (المرقش الأصغر) شاعر ، وأخته الخِرْنق شاعرة .

وقد ظهرت ملامح الشاعرية عنده مبكرة شأنه فى ذلك شأن الموهوبين الذين يثير شاعريتهم ما يمرّ بهم من الأحداث والمشاهد ، فينطلقون فى التعبير عنها فى شعر ترى فيه آثار الطبع ، على الرغم مما فيه من آثار البديهة والارتجال . وقد رووا أن أول شعر قاله طرفة أنه خرج مع عمه فى سفر ، فنصب فخًّا للصيد وأخطأه الأمل أكثر نهاره ، فلما أراد الرحيل جمع شباكه ، فهبطت قبّرة لم يستطع صيدها ، فأنشد :

يالَكِ من قُبَّرةٍ بمَعْمَرِ خلالك الجوُّ فبيضِى واصْفِرى
ونقِّرِى ما شئتِ أنْ تنقِّرِى قد رحلَ الصيادُ عَنكَ فابْشِرِى
ورفع الفخُّ فماذا تحْذَرِى لابدّ يوماً أن تصادى فاصبرى

وكان أبو طرفة مات ، وطرفة صَغير ، فأبى أعمامه أن يقسموا ماله ، فبدت حميّة هذا الصبىّ فى أبيات نظمها فى الإنكار على أعمامه ما كان منهم من ظلم أمه وردة ، واحتجان تركة صغارها ، وينذر بعقبة هذا الظلم الذى

يفرّق بين العشيرة ، ويقطع أواصر الرحم ، فى عتاب هو أشبه شىء بالهجاء ، وفى تنبيه هو أشبه شىء بالتهديد :

ما تنظرونَ بحقِّ وردةَ فيكمُ ... صَغُرَ البنونَ ورَهْطُ وردةَ غُيَّبُ
قد يبعثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ ... حتى تظلّ له الدماء تَصَبَّبُ
والظلمُ فرّق بين حيَّي وائلٍ ... بَكْرٌ تَساقيها المنايا تغلِبُ
والصدقُ يألفُهُ الكريمُ المرتجَى ... والكِذْبُ يألفُهُ الدَّنِىءُ الأخيبُ
أدّوا الحقوقَ تفِرْ لكم أعراضكمْ ... إنّ الكريمَ إذا يحرَّبُ يغضبُ

وهذه معالم شاعرية ناضجة فى مثل هذه السِّن المبكرة ، مما يجعل هذا الشاعر أجدر الشعراء أن يلقّب النابغة ، لا أولئك الذين عرف الناس شعرهم بعد أن جاوزوا عصر الشباب ، وبعد أن طال تمرسهم بهذا الفنّ ، وبعد أن نضجت ملكاتهم ، واتسعت دائرة تجاربهم فى الحياة والفن .

ولم يقف مظهر الشاعرية الناضجة عند هذا الفتى فى أمثال تلك الأبيات القليلة التى تثيرها الأحداث والتجارب القليلة فى حياته ؛ بل إنها تتخذ مظهراً آخر فى قدرة هذا الفتى على الشعر ، وقدرته على تمييز جيده من رديئه ، والاهتداء إلى مواضع الإصابة ، ومواطن الضعف والتهافت ، والشاعر أقدر الناس على الحكم على هذا الفن ، وهو الذى يعرف أسباب الإجادة فيه ، ومصداق ذلك ماروى المرزبانى عن أبى عبيدة قال : مرّ المسيَّبُ بن عَلَس بمجلس بنى قيس ابن ثعلبة ، فاستنشدوه فأنشدهم :

ألا انعم صباحاً أيُّها الربعُ واسلَمِ ... نحيِّيك عن شحْطٍ وإنْ لمْ تكلَّمِ

فلما بلغ قوله :

وقد أتناسى الهمّ عندَ ادِّكارِهِ ... بناجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَمِ

كميتٍ كناز لحمها حِميريّة ... مواشكة ترمى الحصى بمُلَثَّمِ
كأنّ على أنسائها عِذْقَ خصبةٍ[1] ... تدلّى من الكافور غير مُكَمَّمِ

فقال طرفة، وهو صبى يلعب مع الصبيان، : « استنوق الجمل[2] » فقال المسيَّب : ياغلام، اذهب إلى أمك بمؤيدة، أى داهية. فقال طرفة : لو عاينت فعل أمك خالياً نهاك ! فقال المسيّب : من أنت ؟ قال : طرفة ابن العبد. قال : ما أشبه الليلة بالبارحة. يريد ما أشبه بعضكم فى الشر ببعض[3].

قال ابن قتيبة : وكان طرفة فى حسب من قومه، جريئاً على هجائهم وهجاء غيرهم. وكانت أخته عند عبد عمرو بن بشر بن مرثد، وكان عبد عمرو سيد أهل زمانه، فشكت أخت طرفة شيئاً من أمر زوجها إليه[4] فأنشد طرفه يهجوه :

لقد علم الأقوامُ أنّا بنجوة ... علتْ شرفاً من أن تُضامَ وتُشْتَمَا
لنا هضبة لا يدخل الذل وسطها ... ويأوى إليها المستجيرُ فيُعصَما
ترى جارنا فينا بخيرٍ وعِرسَه ... وجارتنا بُسْلاً على الناس مُحْرَمَا
وأرعن مثل الليل مَجْرٍ يقوده ... أريبٌ إذا ما ساور الأمرَ أبرما
شديد القوى ضخم الدسيعة مقولٌ ... أبىٌّ إذا ماهمّ بالفتك ألحما

(١) الصيعيرية سمة من سمات النوق فى أعناقها، والمكدم الغليظ أو الصلب، والكميت الذى يخالط حمرته قنوء، وناقة مواشكة سريعة، يقال أم البعير الحجارة بخفة يلثمها كسرها، والخصبة النخلة.

(٢) الجمل بالنصب مفعول، أى جعله كالناقة، ويؤيده تفسير الأغانى، أى وصفت الجمل بوصف الناقة وخلطت، وضبط فى اللسان بالرفع، وفسره عن ابن سيده : « استنوق الجمل صار كالناقة فى ذلها ».

(٣) الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ٨٦ (المطبعة السلفية — القاهرة ١٣٤٣ هـ).

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٣٧ .

وردْنا وقد هابت معدٌّ شذاته ... وقد رفع الرايات فيها وسوّما

بطعن يزيل الهام عن سكناته ... وطعن إذا ما مارق الجوف أبجما

فأىّ خميس لا أفأنا نهابَهُ ... وأسيافنا يقطرنَ من كبشه دما

أبى أنزل الجبار عامل رُمحه ... وعمّى الذى أردى الرئيس المعمّما

فيا عجباً من عبد عمرو وبغيهِ ... لقد رام ظلمى عبد عمرو فأنعما

ولا خير فيه غير أن له غِنىً ... وأن له كشحا إذا قام أهضما

يظل نساء الحىّ يعكفن حوله ... يقلن عسيبٌ من سرارة مَلْهَمَا

له شربتان بالنهار وأربعٌ ... من الليل حتى آض سُخْداً مورّما

ويشرب حتى يعمر المحض قلبه(١) ... وإن أعطَهُ أتركْ لقلبى مجثما

وقد نشأ طرفة مسرفاً على نفسه فى شرب الخمر وانتهاب الملذات ، شأن الذين لا يجدون من يردعهم عن شهواتهم ويكبح جماح نزواتهم ، حتى أدّى به الأمر ، إلى إتلاف ما كسب وماورث ، ففقد الطارف والتليد من ماله ، حتى تحامته عشيرته ، ونفر منه أولياؤه ، وفى ذلك يقول :

ومازال تشرابى الخمورَ ولذّتى ... وبيعى وإنفاقى طريفى ومُتلدى

إلى أن تحامتنى العشيرةُ كلّها ... وأُفردْتُ إفرادَ البعير المعبَّد(٢)

ومن الطبيعى أن تتحامى العشيرة فتى مثل هذا الفتى الذى بدد أمواله وسلط لسانه ينال به من أهله وأوليائه ، ولا يكفّه عن الكبير والصغير ينال به منهم ؛ ويصرح بما ينكر من فعالهم ، وينقدبه حياتهم وفنهم . فكان أن هام على وجهه

(١) المجر الجيش العظيم ، الدسيعة العطية الجزيلة ، والشذاة القوة ، والكشح الخصر ، والأهضم الضامر ، والعسيب : جريدة من النخل مستقيمة ، وسرارة الشىء وسطه ، وملهم موضع باليمامة كثير النخل ، والسخد ماء الرحم الذى يخرج مع الولد .

(٢) المعبد الأجرب، وقيل هو المهنوء الذى سقط وبره فأفرد عن الإبل .

فى أحياء العرب وفلوات الصحراء ، وبعد أن كان يعيش فى حسب من قومه ، أصبح يخالط الصعاليك وقطاع الطريق ، حتى عرفهم وعرفوه ، وأصبحوا يعدونه واحداً منهم ، وهو لايجد غضاضة فى أن يذكر ذلك فى قوله :

رأيت بنى غبراء[1] لا ينكروننى ولا أهلُ هذاك الطِّراف الممدَّد

حتى ترميه الصحراء إلى بلاداليمن ، ثم يتجاوزها إلىالنجاشى فى الحبشة . وما كان لهذه النفس الحائرة والروح الثائرة أن تستقر علىحال ، أو ترضى بوطن ، أوتطمئن إلى صديق . فيعود إلى أهله خالى الوفاض ؛ ولعلّ سبل العيش قد ضاقت مذاهبها أمامه ، فلم يجد فى مضارب قومه مايقوم بحاجاته أو يشبع نزواته ، ولم يكن أمامه من أبواب العمل إلا أن يرعى لغيره إبله أو غنمه . ومثل هذا الذى شب على الإسراف وارتياد اللذات كثير عليه أن يعود إلىوطنه أجيراً لغيره ، فطلب أبواب الملوك لعله يجد عندها ماتطمح إليه نفسه وما يرضى هواه ، ولعل خاله المتلمس هو الذى أغراه بذلك وشجعه عليه ، وصحبه إلى بلاط الحيرة ، وملكها يومئذ عمرو بن المنذر .

وقدحكى المفضل بن سلمة فى كتابه « الفاخر » أن عمرو بن المنذر كان يرشح أخاه قابوس بن المنذر ليملك بعده ، فقدم عليه المتلمس وطرفة ، فجعلهما فى صحابة قابوس وأمرهما بلزومه . وكان قابوس شابا يعجبه اللهو ، وكان يركب يوما فى الصيد ، فيركض ، يتصيدّ ، وهما معه يركضان ، حتى يرجعا عشيّة وقد تعبا ، فيكون قابوس من الغد فى الشراب ، فيقفان بباب سرادقه إلى العشىّ .

وكان قابوس يوماً على الشراب ، فوقفا ببابه النهار كله ، ولم يصلا إليه ، فضجر طرفة ، وأنشد قصيدة فى هجائه ، يقول فيها :

---

(١) بنو غبراء هم الفقراء أو الصعاليك ، والطراف قبة من أدم يتخذها المياسير والأغنياء ، والممدد الذى مد بالأطناب .

فليت لنا مكانَ ٱلملكِ عمرو رَغُوثاً حولَ قبّتنا تخورُ
من الزَّمِرَاتِ أُسبلَ قادماها وضَرَّتُها مركّنةٌ دَرُورُ
يشاركنا لنا رَخِلان فيها وتعلوها الكباشُ فما تنُورُ
لعمرُك إنّ قابوسَ بن هندٍ ليخلطُ مُلكَه نُوكٌ كثيرُ
قَسَمْتَ الدهرَ في زمنٍ رخيّ كذاك الحكمُ يَقْصِدُ أو يجورُ
لنا يومٌ وللكِروانِ يومٌ تطيرُ البائساتُ ولا يطيرُ
فأمّا يومُهن فيومُ سَوْءٍ تطاردهن بالحَدَب(١) الصقورُ
وأمّا يومنا فنظلّ رَكباً وقوفاً ما نحُلّ وما نسيرُ

وروى يعقوب بن السكيت فى شرح ديوان طرفة قال : إن طرفة لما هجا عمرو بن هند بالأبيات المتقدمة لم يسمعها عمرو بن هند ، حتى خرج يوما إلى الصيد ، فأمعن فى الطلب فانقطع فى نفر من أصحابه حتى أصاب طريدته ، فنزل وقال لأصحابه : اجمعوا حطباً ، وفيهم ابن عمّ طرفة ، عبد عمرو بن بشر ، فقال لهم : أوقدوا ، فأوقدوا ناراً وشوى ، فبينما عمرو يأكل من شوائه ، وعبد عمرو يقدّم إليه ، إذ نظر إلى خصر قميصه منخرقاً فأبصر كشحه ، وكان من أحسن أهل زمانه جسما ، وقد كان بينه و بين طرفة أمر ، ووقع بينهما منه شر ، فهجاه طرفة بأبيات . فقال له عمرو بن هند ، وكان سمع تلك الأبيات : يا عبد عمرو لقد أبصر طرفة حسن كشحك فقال :

---

(١) الرغوث : النعجة المرضع، وأصل الحوار للبقر فجعله طرفة للنعجة ، الزمرات القليلات الصوف ، وخصها لأنها أغزر ألباناً ، والقادمان الحلفان، وأصل القادمين للناقة لأن لها أربعة أخلاف قادمين وآخرين، فاستعار القادمين للشاة ، أسبل طال وكمل ، الضرة الضرع ، المركنة التى لها أركان أى جوانب وأصل ، الرخل الأنثى من أولاد الضأن ، تنور تنفر ، النوك الحمق، الرخى السهل اللين ، والكروان بكسر فسكون : جمع كروان بفتحتين ، الحدب بفتحتين ما ارتفع من الأرض وغلظ .

ولا خير فيــه غير أنّ له غِنًى   وأنّ له كَشحاً إذا قام أهْضمَا

فغضب عبد عمرو مما قاله وأنف ، فقال : لقد قال الملك أقبح من هــذا ! قال عمرو : وما الذى قال ؟ فندم عبد عمرو وأبى أن يسمعه ، فقال عمرو بن هند : أسمعنيه وطرفة آمن . فأسمعه القصيدة التى هجاه بها . فسكت عمرو بن هند على ما وقر فى نفسه ، وكره أن يعجل عليه لمــكان قومه ، فأضرب عنه ، و بلغ ذلك طرفة ، وطلب غرّته والاستمكان منه ، حتى أمن طرفة ولم يخفه على نفسه ، فظن أنه قد رضى عنه .

وقد كان المتلمس ، وهو جرير بن عبد المسيح ، هجا عمرو بن هند ، وكان قد غضب عليه ، فقدم المتلمس وطرفة على عمرو بن هند ، يتعرضان لفضله ، فكتب لهما إلى عامله على البحرين وهجر ، وكان عامله فيهـــــا فيما يزعمون ربيعة ابن الحارث العبدى ، وهو الذى كتب إليه فى شأن طرفة والمتلمس ، وقال لهما : انطلقا إليه ، فاقبضا جوائزكما ، فخرجا .

فلما هبطا النجف قال المتلمس لطرفة : إنك غلام غرّ حديث السنّ ، والملك من قد عرفت حقده وغدره ، وكلانا قد هجاه : فلست آمنا أن يكون قد أمر فينا بشر ، فهلمّ ننظر فى كتابنا ، فإن يكن أمر لنا بخير مضينا فيه ، و إن يكن أمر فينا بغير ذلك لم نهلك أنفسنا . فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك ، وحرص المتلمس على طرفة فأبى ، وعدل المتلمس إلى غلام من غلمان الحيرة عبــادى ، فأعطاه الصحيفة فقرأها ، فلم يصل إلى ما أمر به فى المتلمس ، حتى جاء غلام بعده فأشرف فى الصحيفة لايدرى من هو ، فقرأها ، فقال ثكلت المتلمس أمه ، فانتزع المتلمس الصحيفة من يد الغلام ، واكتفى بذلك من قوله ، وأتبع طرفة فــلم يدركه ، وألقى الصحيفة فى نهر الحيرة ، ثم خرج هاربا . وقد كان المتلمس فيما يقال قال لطرفة حين قرأ كتابه : تعلم أن فى صحيفتك لمثل الذى فى صحيفتى ،

فقال طرفة : إن كان اجترأ عليك ، فما كان ليجترىء علىّ ولا ليغرّنى ولا ليقدم علىّ . فلما غلبه سار المتلمس إلى الشام ، وسار طرفة حتى قدم على عامل البحرين وهو بهجر ، فدفع إليه كتاب عمرو بن هند فقرأه ، فقال : هل تعلم ما أُمرتُ به فيك ؟ قال نعم ! أُمرت أن تجيزنى وتحسن إلىّ ! فقال لطرفة : إن بينى و بينك لخئولة أنا لها راع ، فاهرب من ليلتك هذه فإنى قد أمرت بقتلك ، فاخرج قبل أن تصبح ويعلم بك الناس ، فقال له طرفة : اشتدت عليك جائزتى ، وأحببت أن أهرب ، وأجعل لعمرو بن هند علىّ سبيلا ، كأنى أذنبت ذنباً ، والله لا أفعل ذلك أبداً . فلما أصبح أمر بحبسه ، وجاءت بكر بن وائل فقالت قدم طرفة ، فدعا به صاحب البحرين ، فقرأ عليهم كتاب الملك ؛ ثم أمر بطرفة فحبس ، وتكرم عن قتله ، وكتب إلى عمرو بن هند أن ابعث إلى عملك ، فإنى غير قاتل الرجل ، فبعث إليه رجلا من بنى تغلب ، يقال له عبد بن هند بن جرذ ، واستعمله على البحرين ، وكان رجلا شجاعاً وأمره بقتل طرفة وقتل ربيعة بن الحارث العبدى ، فقدمها عبد بن هند ، فقرأ عهده على أهل البحرين ، ولبث أياما ، واجتمعت بكر بن وائل فهمّت به ، وكان طرفة يحضهم ، وانتدب له رجل من عبد القيس ، ثم رجل من الحواثر ، يقال له أبو ريشة ، فقتله ، فقبره اليوم معروف بهجر(١) .

قال ابن قتيبة : وكان طرفة ينادم عمرو بن هند ، فأشرفت ذات يوم أخته ، فرأى طرفة ظلّها فى الجام الذى فى يده فقال :

ألا يا بأبِى الظبْىُ الْ ... لَذِى يَبْرُقُ(٢) شَنْفَاهُ
ولولا الملكُ القاعِدُ ... قد أَلْثَمنِى فاهُ

فحقد ذلك عليه ، وكان قال أيضاً :

وليت لنا مكانَ المَلْكِ عمرٍو ... رَغُوثاً حول قبتنا تَدُورُ

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٢/١٨٥ .

(٢) الشنف الذى يلبس فى أعلى الأذن ، والذى فى أسفلها القرط ، وقيل هما سواء .

لعمرُكَ إنّ قابوسَ بنَ هندٍ ليخلطُ ملكَهُ نُوكٌ كثيرُ

وقابوس هو أخو عمرو بن هند ، وكان فيه لين ، ويسمّى قينه العُرس ، فكتب له عمرو بن هند إلى الربيع بن حَوْثرة عامله على البحرين كتاباً أوهمه أنه أمر له فيه بجائزة ، وكتب للمتلمس بمثل ذلك .. وأما طرفة فمضى بالكتاب ، فأخذه الربيع فسقاه الخمر حتى أثمله ، ثم فصد أكحله ، فقبره بالبحرين ، وكان لطرفة أخ يقال له معبد بن العبد ، فطلب بديته ، فأخذها من الحواثر[1] .

وكان طرفة أحدث الشعراء سنّا وأقلهم عمرًا ، قتل وهو ابن عشرين سنة ، فيقال له « ابن العشرين » ورُوِى أنه عاش ستا وعشرين سنة ، واستدلوا على ذلك بقول أخته فى رثائه :

عددْنا له سِتًّا وعشرين حجّةً فلمّا توفّاها استوى سيّدًا ضخما
فُجِعْنَا به لمـا رجـوْنا إيابَهُ على خير حالٍ لا وليدًا ولا قَحْمَا

ويقال إن ذلك كان سنة ٥٥٢ بعد الميلاد ، وقيل ٥٦٤[2] وذكر جرجى زيدان أن وفاة طرفة كانت سنة ٥٠٠ بعد الميلاد[3] ، أى أنه فى رأيه كان أقدم من امرىء القيس الذى ذكر أن وفاته كانت سنة ٥٦٠ بعد الميلاد .

قلت : والذى أرجحه من هذه التواريخ الثلاثة هو أقربها ، وهو سنة ٥٦٤ بعد الميلاد ، وذلك لارتباط قصة مصرعه بملك عمرو بن هند الذى تبوأ ملك الحيرة سنة ٥٥٤ م ، فيمتنع أن تكون وفاة طرفة سنة ٥٠٠ كما ذكر جرجى زيدان ، ويستبعد أن تكون سنة ٥٥٢ كما ذكر الرافعى فى إحدى روايتيه ، ولا يقال إنه من المحتمل أن يكون ذلك قبل أن يلى عمرو بن هند الملك ، فإن شعر طرفة فى هجائه وهجاء أخيه قابوس يصرح فيه بأن عمراً كان ملكاً فى قوله « فليت لنا مكان الملك عمرو » .

---

(١) الشعر والشعراء ١/١٤٢ .
(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣/٢٣٨ .
(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ١/١٠٧ .

معلقة طرفة :

ذكر بعض الرواة أن السبب الذى حمل طرفة على قولها هو أنه كان لطرفة ولأخيه معبد إبل يرعيانها يوماً و يوماً ، فأغبّها طرفة فى المرعى ، فلامه أخوه على فعله ، وقال : أرأيت إذا ذهب إبلنا أكنت تردها بشعرك ؟ قال : فإنى لا أخرج أبداً حتى تعلم أن شعرى سيردّها إن أخذت ! وأخذها ناس من مضر .

وقيل بل إن الإبل التى ضلّت هى إبل معبد ، فسأل طرفة ابن عمه مالكاً أن يعينه فى طلبها ، فلامه وقال : فرّطت فيها ثم أقبلت تتعب فى طلبها ، فقال قصيدته.

و إذا نحن اجتهدنا فى طلب ذلك السبب فى أنحاء القصيدة ، والفحص عنه بين أبياتها ؛ فلن نجده على صورة واضحة بارزة بين أبياتها الكثيرة ، إلا فى أبيات قليلة منها ، وهى قوله :

فمالى أُرَانى وابنَ عمِّى مالكاً ... متى أدْنُ منهُ يَنْأَ عنِّى ويَبْعُدِ
يلومُ وما أدرى علامَ يلومُنى ... كما لامنى فى الحىِّ قُرْطُ بنُ أَعْبَدِ
وأيأسَنِى من كلِّ خيرٍ طلبتُهُ ... كأنّا وضعناه إلى رَمْسِ مُلْحَدِ
على غير ذنبٍ قلتُهُ غير أننى ... نشدْتُ فلم أغفل حَمُولَةَ مَعْبَدِ

ثم أبيات يختلط فيها العتب بالفخر ، والهجاء بالتهديد ؛ ولا يختص بالإبل التى ضيعها ، وطلب العون على ردِّها . وفى هذا ما يحمل على القول بأن هذه القصيدة الطويلة لم تصنع فى وقت واحد ، وأن الشاعر قد استكمل لها الخصائص الفنية فى رويّة وتؤدة ، حتى بلغ بها ذلك المبلغ الذى عدت به من غرر الشعر الجاهلى ، وعدّ به طرفة من أئمة الشعراء ، وسلكه به النقاد فى سلك الفحول المقدمين من شعراء الجاهلية .

ومن التعسف فى الظن الذهاب إلى أن تلك الأبيات الكثيرة التى وصف فيها طرفة الناقة فى أوائل المعلقة وثيقة الصلة بذلك السبب ؛ إذ ليس فيها

مايشير إلى تضييع الإبل ، ولوم الشاعر على التفريط فى صيانتها والتقصير فى رعايتها وإهمال طلبها ، وإنما هو وصف فنى خالص لناقته ، ذلك الوصف الذى عدّ به طرفة إماما ، كما عدّ امرؤ القيس فى وصف فرسه إماماً . ولم يقل أحد إن السبب فى معلقة امرىء القيس إرادة التعبير عن صفات ذلك الفرس ، وكذلك لا يقال إن السبب فى معلقة طرفة هو وصف الناقة لما قيل من تضييع الإبل ، والتقصير فى طلبها .

وقد بدأ طرفة معلقته بذكر الأطلال ، أطلال حبيبته خَوْلة ، ببرقة ثهمد ، ووقوف صحبه مطيهم ، ومواساتهم له على نحو ما صنع امرؤ القيس فى بيته الذى لم يغير طرفة فيه إلا لفظ القافية . ولم يستغرق ذكر حبيبته وأطلالها أكثر من بيتين، ثم انتقل إلى وصف مركب خولة فشبهه بالسفينة التى كان يراها كثيرا فى موطنه بالبحرين على الخليج الفارسى ، وقد استغرق هذا الوصف ثلاثة أبيات؛ ولم تشغل المرأة وما يتعلق بها مكانا ظاهرا فى القصيدة على النحو المفصل الذى وجدناه عند امرىء القيس ، ولعل ذلك يرجع إلى أن طرفة لم يتعلق فؤاده بهواها ، إلى درجة يطغى معها ذكرها على أغراض القصيدة ، ولا نكاد نلمس فى هذه الأبيات حرارة العاطفة التى تدل على فرط صبابته بخولة وهيامه بها ، ولعل طرفة لم يكن من رجال العشق والغرام ، وإن كان من طلاب المتعة واللهو ، كما يبدو من بعض الأجزاء الأخرى فى ثنايا القصيدة ، وهذا ما يدعونا إلى القول بأن ذكر المرأة فى مطلع معلقة طرفة كان تقليداً وضعه امرؤ القيس أو من سبقه من الشعراء ، وأن هذا التقليد أعجب الرأى الأدبى فى ذلك العصر البعيد ، ولذلك فسح الشعراء فى صدور قصائدهم مكاناً للمرأة ، وكأنهم يستلهمون من وحيها ، ويستعينون بذكرها على بلوغ ما يرجون من الغرض الذى يقصدون إليه.

وقد كان ذكر ناقة خولة تمهيداً لما يريد أن يذكر من أمر ناقته ، التى وصفها ، وأطنب فى وصفها على نحو لم يُسبق إليه، ولم يلحق به بعده أحد الشعراء .

وقد استغرق وصف الناقة ثمانية وعشرين بيتا من المعلقة ، تناول فيه كل عضو من أعضائها ، واخترع له تشبيها من التشبيهات المادية التى كان يجدها فى بيئته ، أو رآها فى المواطن التى زارها فى رحلاته التى كانت لاتنقطع . فشبه عرض عظامها بألواح الإران ، وهو تابوت كان العرب يحملون فيه ساداتهم وكبراءهم ، وشبه طريقها بالكساء المخطط ، وشبهها بالجمل فى وثاقة الخلق واكتناز اللحم ، وبالنعامة فى شدة العدو ، وشبه فخذيها بمصراعى قصر عال ، وفقارها المتداخلة بالقسى ، وعلوها بقنطرة الرومى ، وعنقها إذا رفعته بسكان سفينة تجرى فى نهر دجلة ، وجمجمتها بالعلاة فى الصلابة فكأنما انضم بعضها إلى حد عظم يشبه المبرد فى الحدة والصلابة ، وخدها بقرطاس الشآمى ، ومشفرها بسبت اليمانى ، وعينيها بمرآتين ، إلى غير ذلك من الأوصاف الدقيقة التى تناولت كل عضو من أعضائها ، والتشبيهات المتتابعة بما يعرفه الشاعر فى رحلاته أو بما يقع تحت حسه فى بيئته .

ثم ذكره خلائقه ومفاخره فى البأس والندى وعراقة الأصل ، ووصف ندامه ومجالس لهوه واعترف بعكوفه على اللذات ، وتضييع ماله من طريف وتالد إلى أن تحامته العشيرة وأفرد إفراد البعير المعبد .

ثم ذكر أمانيه فى الحياة ، التى لا يحفل إلا بها ، ولا يحرص على الحياة إلا من أجلها . وقرن ذلك بأن الموت لا يبقى ولا يذر ، وأنه يسوى بين الأجواد والبخلاء ، ويأتى على ماخلف الحريصون من مال ومتاع ؛ وينتهب الأعمار كما ينتهب الأموال .

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مالك ابن عمه الذى كان يبعد عنه بمقدار ما يقرب طرفة منه ، حتى يئس من قرابته ، مع أنه لم يقترف ذنبا سوى طلب العون على إعادة إبل أخيه معبد التى ضلت ، ومع أن طرفة وهب حياته وفتوته لقومه إذا أغار عليهم مغير ، أو نال منهم هجاء . ثم يأسف لأن تكون تلك خلائق أهله وعشيرته الذين وصف ظلمهم بأنه أشد وقعا على نفسه من وقع الحسام المهند ،

وأشار إلى سيدين من سادات العرب مذكورين بوفور المال ونجابة الأبناء وشرف النسب ، وهما قيس بن خالد ، وعمرو بن مرثد ، وكان عمرو كثير الولد ، فلما بلغه قول طرفة وجّه إليه وقال له : أما الولد فالله يرزقك ، وأما المال فسنجعلك فيه أسوتنا ، وأمر سبعة من ولده فدفع إليه كل واحد منهم عشرا من الإبل ، وأمر ثلاثة من بنى بنيه فدفع إليه كل واحد عشراً .

ثم عاد إلى فخره وذكر قوّته وفتوّته ، وذكر الناقة فى مقام عقرها والجود بلحمها ، وذكر أنه جدير بأن يُبكى إذا ما قضى ، وعرّض بغيره ممن يرضون بالدون ويحرصون على الحياة ، وأتبع ذلك بشىء من الحكمة التى ثقفها من مشاهداته وتجاربه فى الحياة .

تلك خلاصة الأغراض التى عالجها طرفة فى معلقته . وربما كان موقف الدكتور طه حسين من هذه المعلقة يختلف عن موقفه من معلقة امرىء القيس ، فإنه لا يكاد يشك إلا فيما وصف فيه طرفة الناقة ، ويرى أن أكثر هذه الأوصاف أقرب إلى أن يكون من صنعة العلماء باللغة منه إلى أى شىء آخر. ولا دليل يقدمه على هذا الشك إلا قوله إنك تقرأ هذه الأبيات فلا تفهم منها شيئا دون أن تستعين بالمعاجم .

وهذا الدليل لا يقوم بهذا الشك الذى ذهب إليه ، فإن اللغة تساير العصر وروحه ، ولغة الجاهلية والصحراء تختلف عن لغة الإسلام ولغة الحواضر . وليس هذا الشعر وحده ، وليست أبيات طرفة فى وصف الناقة وحدها ، هى لا نفهمها إلا بالرجوع إلى معاجم اللغة ، بل إن فى شعر الإسلاميين والعباسيين ، بل وفى القرآن الكريم وحديث الرسول بعض ما لا نفهمه دون الرجوع إلى هذه المعاجم وإن كان ذلك بالطبع يختلف قلة وكثرة بين العصور والرجال .

وإن كانت طبيعة الألفاظ فى وصف الناقة تختلف عن طبيعة الألفاظ التى استعملت فى غيره ، فليس الاختلاف فى رأينا كبيراً . أضف إلى هذا أن لغة الشعر تختلف من غرض إلى غرض ، وفى هذه اللغة الألفاظ الجزلة والتراكيب الرصينة ، وفيها

الألفاظ التى تتميز بسلاستها وعذوبتها ، ولكل منها موضوع ، ومايهض بغرض لا ينهض بغيره ، بل إن ذلك الاختلاف قد يوصف بالبلاغة لرعاية المطابقة لمقتضى الحال.

وقد استشهد الدكتور طه على صحة ماذهب إليه ببعض الأبيات التى تتصل بالخمر والندامى والقينة التى تروح بين الشرب بين برد ومجسد . فرأى فى هذه الأبيات لينا ولكن فى غير ضعف ، وشدة ولكن فى غير عنف ، ورأى كلاما لا هو بالغريب الذى لايفهم ، ولا هو بالسوقى المبتذل ، ولا هو بالألفاظ التى رصفت رصفا دون أن تدل على شىء . وهى طبيعة الغرض الذى لايعالج إلا بمثل هذا النوع من الألفاظ ، والشاعر يتفاوت أسلوبه بين قصيدة وأخرى . ويتباين فى أجزاء القصيدة الواحدة إذا تباينت أغراضها ؛ فلا ينهض الاختلاف وحده دليلاً على أن الشعر لأكثر من شاعر .

ويعنينا هنا ما أبرزه من أن شعر المعلقة — عدا ما وصف فيه الناقة — فيه شخصية بارزة قوية ، لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منتحلة أو مستعارة . وهذه الشخصية ظاهرة البداوة واضحة الإلحاد بيّنة الحزن واليأس والميل إلى الإباحة فى قصد واعتدال . هذه الشخصية تمثل رجلاً فكر والتمس الخير والهدى فلم يصل إلى شىء ، وهو صادق فى يأسه ، صادق فى حزنه ، صادق فى ميله إلى هذه اللذات التى يؤثرها . ثم يقول : ولست أدرى أهذا الشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر ؟ وليس يعنينى أن يكون طرفه قائل هذا الشعر ، بل ليس يعنينى أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر ، وإنما الذى يعنينى هو أن هذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا انتحال ، وأن هذا الشعر لا يشبه ما قدمنا فى وصف الناقة ، ولا يمكن أن يتصل به ، وأن هذا الشعر النادر الذى نعثر به من حين إلى حين فى تضاعيف هذا الكلام الكثير الذى يضاف إلى الجاهليين ، فنحسّ حين نقرؤه أنا نقرأ شعراً حقا ، فيه قوة وحياة وروح . إلى أن يقول: فأما صاحب القصيدة فيقول الرواة إنه طرفة . وليست أدرى أهو طرفة أم غيره ؟ بل لست أدرى

أجاهلىّ هو أم إسلامى ؟ وكل ما أعرفه هو أنه شاعر بدوىّ ملحدٌ شاكّ [(١)] ..

إن هذا البدوى الملحد الشاك قالت الرواية وقال التاريخ إنه طرفة ، ولم يقل أحد إنه شخص سواه ، ولم يستطع الدكتور طه فى هذه الكلمات كما رأيت أن ينكر أنه طرفة ، ولم يقم الدليل على أنه شخص آخر ؛ فلم هذا الإمعان فى الإيهام الذى لايخرج القارىء منه بشىء ، ولايصل التحقيق العلمىّ به إلى غاية من الغايات المنشودة من البحث المنطقى السليم ؟ !

وفيما يلى نصّ معلقة طرفة ، مدّخرين دراسة فنيّتها ودلالاتها التاريخية والاجتماعية واللغوية إلى مواضعها من هذا البحث .

(١) لخولةَ أطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تلُوحُ كباقى الوشْم فى ظاهرِ اليَدِ

(٢) وقوفاً بها صَحْبِى علىّ مطيَّهُمْ ... يقُولونَ لاتهلِكْ أسىً وتجَلَّدِ

(٣) كأنّ حُدُوجَ المالكيَّةِ غُدْوَةً ... خَلايا سَفينٍ بالنَّواصفِ منْ دَدِ

(٤) عَدَوليّةٌ أو منْ سَفينِ ابن يامِنٍ ... يَجُورُ بها الملاَّحُ طَوْراً ويَهْتَدِى

(٥) يَشُقُّ حَبابَ الماء حيزومُها بِهاَ ... كما قَسَمَ التُّرْبَ المُفايِلُ باليدِ

(٦) وفى الحىّ أحْوَى ينفُضُ المَرْدَشادِنٌ ... مُظاهِرُ سِمْطَىْ لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدِ

(٧) خَذُولٌ تُراعِى رَبْرَباً بخَميلَةٍ ... تَنَاوَلُ أطرافَ البَريرِ وترْتدِى

(٨) وتبْسِمُ عنْ ألْمَى كأنّ مُنوِّراً ... تخَلَّل حُرّ الرملِ دِعْصٌ له نَدِ

(٩) سَقَتْهُ إياةُ الشمسِ إلا لِثاتِهِ ... أُسِفّ ولم تَكْدِم عليه بإثْمِدِ

(١٠) ووَجْهٌ كأنّ الشمسَ حَلّتْ رِداءَها ... عليْه نِقىُّ اللَّوْنِ لم يتَخدّدِ

(١١) وإنى لأمْضِى الهمّ عند احتضاره ... بعَوْجاء مِرْقَالٍ تروحُ وتَغْتدِى

(١٢) أمونٍ كألواحِ الإرانِ نَصأْتُها ... على لاحب كأنّه ظَهرُ بُرْجُدِ

(١) فى الأدب الجاهلى ٢٤١ .

(١٣) جُمَالِيَّةٍ وَجْنَاءَ تَرْدِي كَأَنَّهَا   سَفَنَّجَةٌ تَبْرِي لِأَزْعَرَ أَرْبَدِ

(١٤) تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ   وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

(١٥) تَرَبَّعَتِ الْقُفَّيْنِ فِي الشَّوْلِ تَرْتَعِي   حَدَائِقَ مَوْلِيِّ الْأَسِرَّةِ أَغْيَدِ

(١٦) تَرِيعُ إِلَى صَوْتِ الْمُهِيبِ وَتَتَّقِي   بِذِي خُصَلٍ رَوْعَاتِ أَكْلَفَ مُلْبِدِ

(١٧) كَأَنَّ جَنَاحَيْ مَضْرَحِيٍّ تَكَنَّفَا   حِفَافَيْهِ شُكَّا فِي الْعَسِيبِ بِمِسْرَدِ

(١٨) فَطَوْرًا بِهِ خَلْفَ الزَّمِيلِ وَتَارَةً   عَلَى حَشَفٍ كَالشَّنِّ ذَاوٍ مُجَدَّدِ

(١٩) لَهَا فَخِذَانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فِيهِمَا   كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ

(٢٠) وَطَيٌّ مَحَالٍ كَالْحَنِيِّ خُلُوفُهُ   وَأَجْرِنَةٌ لُزَّتْ بِدَأْيٍ مُنَضَّدِ

(٢١) كَأَنَّ كِنَاسَيْ ضَالَةٍ يَكْنُفَانِهَا   وَأَطْرَ قِسِيٍّ تَحْتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدِ

(٢٢) لَهَا مِرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَنَّهَا   تَمُرُّ بِسَلْمَيْ دَالِجٍ مُتَشَدِّدِ

(٢٣) كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا   لَتُكْتَنَفَنْ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدِ

(٢٤) صُهَابِيَّةُ الْعُثْنُونِ مُوجَدَةُ الْقَرَا   بَعِيدَةُ وَخْدِ الرِّجْلِ مَوَّارَةُ الْيَدِ

(٢٥) أُمِرَّتْ يَدَاهَا فَتْلَ شَزْرٍ وَأُجْنِحَتْ   لَهَا عَضُدَاهَا فِي سَقِيفٍ مُسَنَّدِ

(٢٦) جَنُوحٌ دِفَاقٌ عَنْدَلٌ ثُمَّ أُفْرِعَتْ   لَهَا كَتِفَاهَا فِي مُعَالًى مُصَعَّدِ

(٢٧) كَأَنَّ عُلُوبَ النِّسْعِ فِي دَأَيَاتِهَا   مَوَارِدُ مِنْ خَلْقَاءَ فِي ظَهْرِ قَرْدَدِ

(٢٨) تَلَاقَى وَأَحْيَانًا تَبِينُ كَأَنَّهَا   بَنَائِقُ غُرٌّ فِي قَمِيصٍ مُقَدَّدِ

(٢٩) وَأَتْلَعُ نَهَّاضٌ إِذَا صَعَّدَتْ بِهِ   كَسُكَّانِ بُوصِيٍّ بِدِجْلَةَ مُصْعِدِ

(٣٠) وَجُمْجُمَةٌ مِثْلُ الْعَلَاةِ كَأَنَّمَا   وَعَى الْمُلْتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفِ مِبْرَدِ

(٣١) وَخَدٌّ كَقِرْطَاسِ الشَّآمِي وَمِشْفَرٌ   كَسِبْتِ الْيَمَانِي قَدُّهُ لَمْ يُجَرَّدِ

(٣٢) وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ اسْتَكَنَّتَا   بِكَهْفَيْ حِجَاجَيْ صَخْرَةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ

(٣٣) طَحُوران عُوّارَ القَذَى فتراهما　　كمكحولتَى مذعورةٍ أمِّ فرقدِ

(٣٤) وصادِقتا سَمْعِ التوجُّسِ للسُّرَى　　لِهَجْسٍ خفِىٍّ أو لِصَوْتٍ مُنَدَّدِ

(٣٥) مُؤلَّلتانِ تعرفُ العِتْقَ فيهما　　كسامِعَتَىْ شاةٍ بحَوْمَلَ مُفْرَدِ

(٣٦) وأَرْوَعُ نبَّاضٌ أحَذُّ مُلَمْلَمٌ　　كمرْداةِ صَخْرٍ فى صَفِيحٍ مُصَمَّدِ

(٣٧) وأَعْلَمُ مَخروتٌ من الأنفِ مارِنٌ　　عَتِيقٌ متى تَرْجُمْ به الأرضَ تَزْدَدِ

(٣٨) وإن شِئْتَ لم تُرْقِلْ وإن شِئْتَ أرقلتْ　＊　مَخافةَ مَلْوِىٍّ من القدِّ مُحصَدِ

(٣٩) وإنْ شئْتَ سامَى واسطَ الكُورِ رأسُها　＊　وعامتْ بضَبْعَيها نَجاءَ الخَفَيْدَدِ

(٤٠) على مثلِها أَمْضِى إذا قال صاحِبى　　ألا لَيْتَنِى أَفْدِيكَ منها وأَفْتَدِى

(٤١) وجاشتْ إليه النفسُ خوفاً وخالَهُ　　مُصاباً ولو أمْسَى على غيرِ مَرْصَدِ

٤٢) إذا القومُ قالوا مَنْ فتًى خِلْتُ أنَّنى　　عُنِيتُ فلم أَكْسَلْ ولم أتبلَّدِ

(٤٣) أحلْتُ عليها بالقَطِيعِ فأجْذَمَتْ　　وقد خَبَّ آلُ الأمعَزِ المتوقِّدِ

(٤٤) فذالتْ كما ذالتْ وليدةُ مجلسٍ　　تُرِى رَبَّها أذيالَ سَحْلٍ مُمَدَّدِ

(٤٥) ولستُ بحلاَّلِ التِّلاعِ مخافةً　　ولٰكنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ

(٤٦) فإنْ تَبْغِنِى فى حَلْقةِ القومِ تَلْقَنِى　＊　وإنْ تلتمسْنى فى الحوانيتِ تَصْطَدِ

(٤٧) وإنْ يلتقِ الحىُّ الجميعُ تُلاقِنى　　إلى ذِرْوَةِ البيتِ الرفيعِ المُصَمَّدِ

(٤٨) نَداماىَ بِيضٌ كالنُّجُومِ وقَيْنَةٌ　　تروح علينا بين بُرْدٍ ومُجْسَدِ

(٤٩) رَحِيبٌ قِطَابُ الجيبِ منها رفيقةٌ　　بجَسِّ النَّدامَى بَضَّةُ المتجرِّدِ

(٥٠) إذا نحن قلنا أسمعينا انبرتْ لنا　　على رِسْلِها مطروفةً لم تَشَدَّدِ

(٥١) إذا رجَّعتْ فى صوتِها خِلْتَ صوتَها　　تَجاوُبَ أظآرٍ على رُبَعٍ رَدِى

(٥٢) ومازال تَشرابي الخمورَ ولذَّتي   وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتلَدي
(٥٣) إلى أنْ تحامَتْني العشيرةُ كلُّها   وأُفرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المعبَّدِ
(٥٤) رأيتُ بني غَبراءَ لا يُنكرونَني   ولا أهلُ هذاكَ الطِّرافِ المُمدَّدِ
(٥٥) ألا أيُّهذا الزَّاجري أحضُرَ الوغَى   وأنْ أشهدَ اللذَّاتِ هلْ أنتَ مُخلِدي
(٥٦) فإنْ كنتَ لا تستطيعُ دفعَ منيَّتي   فدَعْني أُبادِرْها بما ملكتْ يدي
(٥٧) ولولا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ عيشةِ الفتَى   وجَدِّكَ لم أَحْفِلْ متى قام عُوَّدي
(٥٨) فمنهنَّ سَبقِي العاذلاتِ بشَربةٍ   كُمَيْتٍ متى ما تُعلَ بالماءِ تُزْبِدِ
(٥٩) وكرِّي إذا نادَى المُضافُ مُحنَّباً   كَسِيدِ الغضا نبَّهتَهُ المُتورِّدِ
(٦٠) وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ * ببهكَنةٍ تحتَ الخِباءِ المعمَّدِ
(٦١) كأنَّ البُرينَ والدماليجَ عُلِّقتْ   على عُشَرٍ أو خِروَعٍ لم يُخَضَّدِ
(٦٢) فَذَرْني أُروِّي هامتي في حياتِها   مخافةَ شربٍ في الحياةِ مُصَرَّدِ
(٦٣) كريمٌ يُروِّي نفسَهُ في حياتِه   ستعلمُ إنْ مُتْنا غداً أيُّنا الصَّدِي
(٦٤) أرَى قبرَ نحَّامٍ بخيلٍ بمالِهِ   كقبرِ غَوِيٍّ في البَطالةِ مُفسِدِ
(٦٥) ترى جُثْوتين من تُرابٍ عليهما   صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ
(٦٦) أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي * عَقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ
(٦٧) أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ   وما تنقُصِ الأيامُ والدهرُ ينفَدِ
(٦٨) لعمرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأَ الفتَى   لكالطِّوَلِ المُرخَى وثِنياهُ باليدِ
(٦٩) متى ما يشأْ يوماً يَقُدْهُ لحتفِهِ   ومنْ يَكُ في حبلِ المنيَّةِ يَنْقَدِ
(٧٠) فما لي أراني وابنَ عمِّيَ مالكاً   متى أدْنُ منه يَنأَ عنِّي ويَبْعُدِ

(٧١) يلومُ وما أدرى علامَ يلومُني   كما لامنى فى الحىّ قُرْطُ بنُ أعْبَدِ

(٧٢) وأيْأسَنِي من كلّ خيرٍ طلبتُهُ   كأنّا وضعناهُ إلى رَمْسِ مُلْحَدِ

(٧٣) على غير شىء قلتُهُ غيرَ أنّنى   نَشَدْتُ فلمْ أُغْفِلْ حَمُولةَ مَعْبَدِ

(٧٤) وقرّبْتُ بالقُرْبَى وجَدِّك إننى   متى يَكُ أمرٌ للنَّكيثةِ أشْهَدِ

(٧٥) وإنْ أُدْعَ للجُلّى أكنْ منْ حُماتِها   وإن يأتك الأعداء بالجَهْدِ أجْهَدِ

(٧٦) وإنْ يَقْذِفوا بالقَذْعِ عِرْضَكَ أسْقِهِمْ * بكأسِ حياضِ الموتِ قبل التهدُّدِ

(٧٧) بلاحَدَثٍ أحدثْتُهُ وكمُحْدِثٍ   هجائى وقَذْفى بالشَّكاةِ ومُطْرَدِى

(٧٨) فلو كان مولاىَ امرأً هو غيرُهُ   لفرّجَ كَرْبِى أولأنْظَرَنِى غَدِى

(٧٩) ولكنّ مولاىَ امرؤٌ هو خانِقى   على الشكر والتَّسْآلِ أو أنا مُفْتَدِ

(٨٠) وظلمُ ذوى القُرْبَى أشدُّ مَضَاضَةً   على المرء من وقع الحُسَامِ المهنّدِ

(٨١) فذَرْنِى وخُلْقِى إننى لكَ شاكرٌ   ولو حلّ بيتى نائياً عند ضَرْغَدِ

(٨٢) فلو شاء ربّى كنتُ قيسَ بنَ خالدٍ   ولو شاء ربّى كنتُ عَمْرَو بنَ مرْثَدِ

(٨٣) فأصبحتُ ذامالٍ كثيرٍ وزارنى   بنُونَ كرامٌ سادةٌ لمُسَوَّدِ

(٨٤) أنا الرجلُ الضَّرْبُ الذى تعرفُونَهُ   خَشَاشٌ كرأسِ الحيّةِ المتوقّدِ

(٨٥) فآليتُ لاينفكّ كَشْحِى بطانةً   لعَضْبٍ رقيقِ الشَّفْرَتين مهنّدِ

(٨٦) حُسَامٍ إذا ماقمتُ منتصراً بهِ   كفَى العَوْدَ منه البدء ليسَ بمِعْضَدِ

(٨٧) أخِى ثقةٍ لاينثنِي عن ضَرِيبةٍ   إذا قيل مَهْلاً قال حاجزهُ قَدِى

(٨٨) إذا ابتدرَ القومُ السلاحَ وجدْتَنِي   منيعاً إذا بَلَّتْ بقائمِهِ يَدِى

(٨٩) وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارت مخافتى   نَوادِيَها أمْشِي بعَضْبٍ مُجَرَّدِ

(٩٠) فمرّت كهاةٌ ذاتُ خيفٍ جُلالةٌ * عقيلة شيخٍ كالوبيل يلندَدِ

(٩١) يقول وقد ترّ الوظيفُ وساقُها   ألستَ ترى أن قد أتيتَ بمؤيِدِ

(٩٢) وقال ألا ماذا ترونَ بشاربٍ   شديدٍ علينا بغيُهُ متعمّدِ

(٩٣) وقال ذروهُ إنما نفعُها لهُ   وإلاّ تكفّوا قاصيَ البركِ يزددِ

(٩٤) فظلّ الإماء يمتللنَ حُوارَها   ويُسعَى علينا بالسديفِ المُسرهَدِ

(٩٥) فإنْ متُّ فانعيني بما أنا أهلُهُ   وشقّي عليّ الجيبَ يا ابنةَ معبدِ

(٩٦) ولا تجعليني كامرىء ليسَ همُّهُ   كهمّي ولا يُغني غنائي ومشهدي

(٩٧) بطيء عن الجُلّى سريعٍ إلى الخنا   ذَلولٍ بأجماعِ الرجالِ ملهّدِ

(٩٨) فلو كنتُ وغلاً في الرجالِ لضرّني * عداوةُ ذي الأصحابِ والمتوحّدِ

(٩٩) ولكن نفى عنّي الرجالَ جراءتي   عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي

(١٠٠) لعمرُكَ ما أمري عليّ بغُمّةٍ   نهاري ولا ليلي عليّ بسرمدِ

(١٠١) ويومٍ حبستُ النفسَ عند عِراكهِ * حِفاظاً على عوراته والتهدُّدِ

(١٠٢) على موطنٍ يخشى الفتى عنده الردَى * متى تعترِكْ فيه الفرائصُ تُرعَدِ

(١٠٣) وأصفرَ مضبوحٍ نظرتُ حِوارهُ   على النارِ واستودعتُه كفَّ مُجمِدِ

(١٠٤) أرى الموتَ أعدادَ النفوسِ ولا أرى * بعيداً غداً ما أقربَ اليومَ من غدِ

(١٠٥) ستُبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً * ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تزوِّدِ

(١٠٦) ويأتيك بالأخبارِ مَنْ لم تبِعْ لهُ   بَتاتاً ولم تضربْ لهُ وقتَ موعدِ

(١٠٧) لعمرُكَ ما الأيامُ إلاّ مُعارةٌ   فما اسطعتَ من معروفِها فتزوّدِ

(١٠٨) عن المرءِ لا تسألْ وأبصرْ قرينَهُ   فإنّ القرينَ بالمقارنِ مُقتدِ

زهير

من فحول الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية عند ابن سلام ، ووضعه مع امرىء القيس ، ونابغة بنى ذبيان ، والأعشى ميمون بن قيس . وروى ابن سلام عن يونس بن حبيب أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر ، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن أهل الحجاز يقدّمون زهيراً . قال : وأخبرنى يونس كالمتعجب أن ابن أبى إسحق كان يقول : أشعر أهل الجاهلية مُرَقِّش ، وأشعر أهل الإسلام كثيِّر . ولم يقبل هذا القول ولم يشع[1] .

وذكر أبو عبيدة عن الشعبى يرفعه إلى عبد الله بن عباس ، قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سفر ، فبينا نحن نسير قال : ألا تَزاملون ؟ أنت يا فلان زميل فلان ، وأنت يا فلان زميل فلان ، وأنت يا ابن عباس زميلى . وكان لى محباً مقرباً ، وكان كثير من الناس ينفسون علىّ لمكانى منه ، قال : فسايرته ساعة ثم ثنى رجله على رحله ، ورفع عقيرته ينشد :

وما حملت من ناقةٍ فوق رحلها   أبرَّ وأوفى ذمة من محمّدِ

ثم وضع السوط على رحله ، ثم قال : أستغفر الله العظيم ، ثم عاد فأنشد حتى فرغ . ثم قال : يا ابن عباس ألا تنشدنى لشاعر الشعراء ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ومن شاعر الشعراء ؟ قال : زهير . قلت : لم صيّرته شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه لا يعاظل بين الكلامين ، ولا يتتبع وحشى الكلام ، ولا يمدح أحداً بغير ما فيه — والمعاظلة أن يردد الكلام فى القافية بمعنى واحد[2] — قال أبو عبيدة :

---

(١) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٤٣ — ٤٤ .

(٢) المعاظلة والعظال والتعاظل التراكب والتشوب . وانظر كتابنا (البيان العربى) ص ٢٩٧ وكتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبى) ص ١٨٣ لتقف على معناها عند النقاد وأهل البيان .

صدق أمير المؤمنين ، ولشعره ديباجة إن شئت قلت شهد إن مسسته ذاب ، وإن شئت قلت صخر لو رديت به الجبال لأزالهـــا . . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه جالساً فى أصحابه يتذاكرون الشعر والشعراء ، فيقول بعضهم : فلان أشعر ، ويقول آخر : بل فلان أشعر ، فقيل ابن عباس بالباب ، فقال عمر رضى الله عنه : قد أتى من يحدث عن أشعر الناس ، فلما سلّم وجلس ، قال له عمر : يا ابن عباس من أشعر الناس ؟ قال : زهير يا أمير المؤمنين ! قال عمر : ولم ذلك ؟ قال ابن عباس : لقوله يمدح هرماً وقومه بنى مُرَّة :

لو كان يقعدُ فوق الشمس من كرمٍ قومٌ بأولهم أو مجدهم قعدُوا
قومٌ أبوهم سِنانٌ حين تنسبُهم طابوا وطابَ من الأولاد من ولدُوا
جِنٌّ إذا فزعوا إنسٌ إذا أمنوا مرزَّءونَ بَهاليلٌ إذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعِمٍ لا ينزعُ الله عنهم مابه حُسِدُوا

قال عمر : صدقت يا ابن عباس(١) . وعن ابن سلام : أخبرنى عمر بن موسى الجمحى عن أخيه قدامة بن موسى ، وكان من علماء أهل المدينة ، أنه كان يقدم زهيراً ، قلنا : فأى شعره كان أعجب إليه ؟ قال : التى يقول فيها :

قد جعلَ المبتغونَ الخيرَ فى هَرِمٍ والسَّائلون إلى أبوابه طُرُقَا
مَنْ يلقَ يوماً على عِلاَّته هَرِماً يلقَ السماحة منه والندى خُلُقَا

وقال أهل النظر : كان زهير أحصفهم شعراً ، وأبعدهم من سُخْفٍ ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة فى المـــدح ، وأكثرهم أمثالا فى شعره .

وحدث عن عكرمة بن جرير ، قال : قلت لأبى : يا أبه من أشعر الناس ؟

---

(١) انظر جمهرة أشعار العرب لأبى زيد ٣٢ .

قال : أعن أهل الجاهلية تسألنى أم أهل الإسلام؟ قلت : ما أردت إلا الإسلام ، فإذ ذكرت الجاهلية فأخبرنى عن أهلها . قال : زهير شاعرهم . قال : قلت : فالإسلام ؟ قال : الفرزدق نبعة الشعر ، قلت : فالأخطل ؟ قال : يجيد مدح الملوك ، ويصيب صفة الخمر ، قلت : فما تركت لنفسك ؟ قال : دعنى فإنى نحرت الشعر نحراً[1] .

والحديث عن شاعرية زهير يطول ؛ والآراء فى تقديرها وتفضيلها كثيرة فى مختلف العصور وعند أكثر النقاد ، ومع هذه الوفرة فى الأحاديث المأثورة عن شعر زهير ، والأحكام النقدية المختلفة فيه ، والموازنة بين نتاجه ونتاج غيره من الشعراء الجاهليين أو الإسلاميين أو غيرهم . فإن الحقائق التاريخية عن هـذا الشاعر قليلة . وأنت إذا رجعت إلى كتب الأدب والتاريخ فإنك لن تجد فيهـا من تلك الحقائق ما يرسم صورة مفصلة عن حياته الطويلة التى يعدّ بطولها من المعمرين ، وإن كنت تجد حديثاً لا بأس به عن معلقته وظروفها التاريخية والأحداث التى عبّر زهير عنها فيها .

وقد ذكر ابن سلام نسب زهير : زهير بن أبى سُلْمى — واسم أبى سُلْمى ربيعة — بن رياح بن قُرْط بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هدْمة بن لاطم بن عثمان بن مُزَينة (ص ٤٣) .

أما ابن قتيبة فيقول فى إحدى ترجمتيه[2] : هو زهير بن ربيعة بن قُرط ، والناس ينسبونه إلى مُزَيْنَةَ ، وإنما نسبه فى غطَفان . وليس لهم بيت شعر ينتمون فيه إلى مُزَينة إلا بيت كعب بن زهير ، وهو قوله :

هُمُ الأصلُ مِنّى حيثُ كنت وإنَّنِي من المزَنيِّين المصفَّيْن بالكرَمْ

---

(١) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٥٤ .

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ .

وقال فى ترجمته الأخرى (١ / ٩٠) : هو زهير بن أبى سُلمى ، واسم أبى سلمى ربيعة ، بن رياح المُزَنِى ، من مزينة مضر ، وكان زهير جاهلياً لم يدرك الإسلام ، وأدركه ابناه كعب وزهير .

ففى الرواية الأولى ترى شكه فى نسبته إلى مزينة ، على حين يؤيد تلك النسبة فى الترجمة الأخرى . وفى هذا مايدل على عدوله عن شكه الأول ؛ بما اطمأن إليه بعد السؤال من العارفين بالأنساب . وبذلك يزول ذلك الشك فى نسبة زهير إلى مزينة . وقد علق على الشك الأول البغدادى صاحب خزانة الأدب بقوله فى ترجمة زهير : وزهير هو زهير بن أبى سُلمى ربيعة بن رياح المزنى ، من مزينة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ، وكانت محلّتهم فى بلاد غطفان ، فيظن الناس أنه من غطفان ، أعنى زهيرًا ، وهو غلط ، كذا فى الاستيعاب لابن عبد البر ، وكأن هذا ردّ لما قاله ابن قتيبة فى كتاب الشعراء ، فإنه قال : زهير هو ابن ربيعة بن قرط ، والناس ينسبونه إلى مزينة ، وإنما نسبه فى غطفان . وسُلمى بضم السين ، قال فى الصحاح : ليس فى العرب سُلمى بالضم غيره (١) .

كان زهير وقومه يقيمون فى بلاد غطفان ، وكان زهير من بيت كثر شعراؤه ، فكان «بَشَامة بن الغدير» خال أبيه شاعرًا ، وكان أحزم الناس رأيا ، فكانت غطفان إذا أرادوا أن يغزوا أتوه فاستشاروه ، وصدروا عن رأيه ، فإذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم ، فمن أجل ذلك كثر ماله ، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله فى أهل بيته و بين بنى إخوته ، فأتاه زهير ، فقال : يا خالاه ، لو قسمت لى من مالك ؟ فقال . والله يا ابن أختى . لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله ، قال : وما هو ؟ قال : شعرى وَرِثتنيه ! وكان زهير قبل ذلك قال الشعر وكان أول ما قاله . فقال له زهير : الشعر شىء ما قلته، فكيف تعتدّ به علىّ ؟ فقال له بشامة : ومن أين جئت بهذا الشعر ؟ لعلك ترى أنك جئت به من

---

(١) انظر خزانة الأدب للبغدادى ١/١٢٧ .

حزينة ؟ وقد علمت أن حصاتها وعين مائها فى الشعر لهذا الحىّ من غطفان ، ثم لى منهم ، وقد رويته عنى ! .

و يتحدث الرواة أن زهيراً كان رواية « لأوس بن حجر » ، وهو زوج أمه ، وكان يصطنع مذهبه فى تمثيل مظاهر البرِّية العربية فيما يتناول الشعر من التشبيه والوصف .

وكان أبوه « أبو سلمى » أيضا شاعرًا . وهو القائل فى خاله أسعد المرّى ، وهو أسعدُ بن الغدير ، وابنه كعب بن أسعد ، وكان حمل أمَّه وفارقهما :

لتُضْرَفَنْ إبلٌ محبَّبـــةٌ من عند أسعدَ وابنه كَعْب
الآكلَيْن صريح قومهمـــا أكلَ الحُبارَى بُرْعُمَ(١) الرُّطْب

وكانت أخته «سلمى» شاعرة وكان ابناه «كعبٌ» و«بجير» شاعرين، وأتى بجير النبيصلى الله عليه وسلم فأسلم، فكتب اليه كعب أبياتا يعاتبه فيها على ما كان من إسلامه ، فبلغ ذلك النبى فتوعده ونذر دمه ، فكتب بجير إلى كعب يخبره أن الرسول قتل رجلا ممن كان يهجوه « فإذا كانت لك فى نفسك حاجة فاقدمْ عليه ، فإنه لا يقتل أحداً أتاه تائبا ، وإن أنت لم تفعل فانج بنفسك » فلما ورد الكتاب ضاقت عليه الأرض برُحبها ، وأرجف به من كان بحضرته من عدوّه ، فقال قصيدته التى أولها :

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لم يُفْدَ مكبُولُ

وفيها يقول :

نبئتُ أن رسول الله أوعَدَنِي والعفوُ عند رسول الله مأمولُ

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده فى يده ، وأنشد شعره ، فقبل توبته وعفا عنه ، وكساهُ بُرْداً ، فاشتراه منه معاوية بعشرين ألف درهم .

---

(١) الحبارى طائر ، والبرعم كم ثمر الشجر والنور .

وكان لـكعب ابن يقال له «عقبة بن كعب» شاعر ، ولقبه «المضرَّب» وذلك أنه شبب بامرأة من بنى أسد ، فضربه أخوها مائة ضربة فلم يمت ، فسمى «المضرَّب» . وولد لعقبة «العوَّام» ، وهو شاعر . فهؤلاء خمسة شعراء فى نسق : العوام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبى سلمى . ولذلك كان يقال إنه لم يتصل الشعر فى ولد أحد من الفحول فى الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير ، وفى الإسلام ما اتصل فى ولد جرير .

ويبدو من أخبار زهير أنه كان رجلا عفَّ القلب واللسان، ولذلك أحبّه قومه، وتقرب إليه السادة بالهدايا والألطاف ، وقد ذكر البغدادى فى خزانة الأدب (٢ / ١١) فى ترجمة سالم بن دارة أن اسمه سالم بن مسافع بن عقبة .. بن عبد الله غطفان ، وأن دارة أمه ، وكانت أخيذة أصابها زيد الخيل من بعض غطفان وهى حبلى وهى من بنى أسد ، فوهبها زيد الخيل لزهير بن أبى سلمى ، فربما نسب سالم بن دارة إلى زيد الخيل .

كما كان زهير إنسانا يعترف بالجميل لمن أولاه ولا ينسى يداً أسداها إليه إنسان ، وكان يجود على غيره ، كما يجاد عليه ، ويُهدِى كما يُهْدَى إلية . وآية ذلك ما رواه أبو عمرو بن العلاء قال : خرج بجير بن زهير بن أبى سلمى فى غلمة يجتنون جنى الأرض ؛ فانطلق الغلمة ، وتركوا ابن زهير ، فمرّ به زيد الخيل الطائى فأخذه ، ودار طيىء متاخمة لدور بنى عبد الله بن غطفان ، فسأل الغلام من أنت ؟ قال : أنا بجير بن زهير ، فحمله على ناقة ، وأرسل به إلى أبيه ، فلما أتى الغلام أباه أخبره أن زيداً أخذه وحمله . وكان لـكعب بن زهير فرس من جياد خيل العرب . فقال زهير ما أدرى ما أثيب به زيداً إلا فرس كعب ، فأرسل به إليه وكعب غائب ، فلما جاء كعب سأل عن الفرس ، فقيل له : قد أرسل به أبوك إلى زيد . فقال كعب لأبيه : كأنك أردت أن تقوّى زيداً على قتاله

غطفان ! فقال له زهير : هذه إبلى فخذ منها عن فرسك ماشئت[1] .

وذلك الشعور لا شك شعور رجل من السادة يعرف لنفسه كرامتها ، ويعرف موضعه من سادة عشيرته وصفوة صحابته ؛ وليس شعور رجل يتطلع إلى ما فى أيدى الناس ، ويقف فيهم موقف المستجدى بشعره من الذين يأخذون كل شىء ولا يعطون شيئاً ، ويتخذون من فنهم سبيلا لإشباع أطماعهم التى لا تنتهى .

ولذلك كان من الإسراف أن يعدّ مثل هذا الشاعر الكريم الأبىّ فى المتكسبين بشعرهم ، فقد عرفنا أولئك المتكسبين يمدحون ويغرقون فى الثناء لمن مدّ إليهم يده بالعطاء ، فى الوقت الذى يهجون فيه ويسرفون فى الحقد على من ضنّ عليهم بالنوال ، وحرمهم من العطاء . ولكن زهيراً يختلف عن أولئك كل الاختلاف ، فهو يمدح أفعالاً ويمجّد أعمالا ، ويثنى على رجال استحقوا المديح بما تمثل فيهم من مثل رفيعة ، يمجدها هذا الشاعر الأبى بفنه الرفيع وبنفسه الشاعرة ، وينشدها لبيئته ، ولا عليه بعد ذلك أن يترادف عليه العطاء ، أو تترادف الهدايا تقديراً لذلك الرجل الذى خلّد تلك المثل وأشاد بها ورفع منارتها فى ذلك العالم الذى طحنته النائبات ، وشملته الفوضى وفارقه الأمن والاستقرار .

وغالب هذا المديح فى رجل من أجواد العرب الذين عمّ فضلهم قومهم ، واتخذوا من مالهم وسيلة لتسكين الفتنة ، ونشر ألوية المحبة والسلام فى البيئة التى عاشوا فيها ، وكان مثل هرم بن سنان جديراً بالثناء من مثل هذا الشاعر الذى ينشد المحبة والسلام ، ويمقت الحرب والخصام أشد المقت ، مما سيظهر أثره واضحاً فى معلّقته كما سيأتى . ومن شعر زهير فى هرم قصيدته التى مطلعها « صحا القلبُ

---

(١) ذيل الأمالى والنوادر للقالى ص ٢٤ (مطبعة دار الكتب المصرية — القاهرة ١٩٢٦ م) .

عن سلمى وقد كاد لا يسلو * . قال صاحب الأغانى : هذه القصيدة أول قصيدة مدح بها زهير هرماً ، ثم تتابع بعده . وكان هرم حلف ألا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه : عبداً ، أو وليدة ، أو فرساً . فاستحيا زهير منه . فكان زهير إذا رآه فى ملأ قال : أنعموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت !

وقال عمر بن الخطاب لبعض ولد هرم : أنشدنى بعض مدح زهير أباك ، فأنشده ، فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم المدح ، قال : ونحن والله كنا نحسن له العطيَّة . قال عمر : قد ذهب ما أعطيتموه و بقى ما أعطاكم ! وفى رواية عمر بن شبّة قال عمر لابن زهير : ما فعلت الحلل التى كساها هرمٌ أباك ؟ قال : أبلاها الدهر . قال عمر : لكن الحلل التى كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر !

ومن أخبار زهير ماروى أنه رأى فى منامه فى أواخر عمره أن آتيا آتاه فحمله إلى السماء حتى كاد يمسّها بيده ، ثم تركه فهوى إلى الأرض ، فلما احتضر قصّ رؤياه على ولده كعب ، ثم قال : إنى لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدى ، فإن كان فتمسكوا به وسارعوا إليه ، ثم توفى قبل المبعث بسنة ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم خرج إليه ولده كعب بقصيدته « بانت سعاد » وأسلم . وروى أيضا أن زهيراً رأى فى منامه أن سببا تدلى من السماء إلى الأرض ، كأن الناس يمسكونه ، وكلما أراد أن يمسكه تقلص عنه ، فأوّله بنبى آخر الزمان ، فإنه واسطة بين الله و بين الناس ، وأن مدته لا تصل إلى زمن مبعثه ، وأوصى بنيه أن يؤمنوا به عند ظهوره (خزانة الأدب ٢ / ١٣٠) .

* * *

أما شعر زهير فقد أسلفنا بعض الآراء فيه من المشهود لهم بالدراية والبصر بالأدب ، الذين لا يختلفون فى وضعه مع أوائل الفحول المقدمين عندهم ، و إن

اختلفوا فى جعله أولا . وقد اجتمعت فى شعر زهير الصفات التى يتطلبها النقاد لتقديم العمل الأدبى وتقديم صاحبه على غيره من الأدباء . فالذين يحكمون على الشاعر بمدى قدرته على التصرف فى فنون الشعر والإبادة فى أكثرها يجدون أثر هذا فى المأثور من شعر زهير ، الذى مدح فيه وهجا ، فأصاب المدح كما أصاب الهجو والتهكم والازدراء ، ووصف فأجاد الوصف ، وأودعه من ضروب الحكمة مالا يزال معناه يدور فى الأذهان ، وألفاظه تجرى على اللسان . وقد كان زهير أستاذ الحطيئة ، وسئل عنه الحطيئة فقال : ما رأيت مثله فى تكفّيه على أكناف القوافى ، وأخذه بأعنّتها حيث شاء ، من اختلاف معانيها امتداحاً وذمّا .

والذين يبحثون عن كثرة الأعمال الأدبية ، ووفرة النتاج ، وطول النفس فى العمل الأدبى الواحد ، لن يخطئوا ذلك فى المأثور من شعر زهير ، ففى ديوانه كثيرٌ من القصائد الطوال ، أولها معلقته المشهورة وعدد أبياتها ثلاثة وستون بيتا . ومن شعره قصيدته التى أولها :

صَحا القلبُ عن سلمى وقد كاد لا يَسْلُو   وأقفر من سلمى التعانيق والثقل

التى مدح بها هرم بن سنان ، وعدد أبياتها فى شرح الأعلم الشنتمرى ثلاثة وأربعون بيتا[1] : ومنها قصيدته التى مطلعها :

صَحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطلُهْ   وعُرِّى أفراسُ الصِّبا ورواحله

وعدد أبياتها سبعة وأربعون بيتا . ثم قصيدته التى أولها :

إنّ الخليط أجدَّ البين فانفرقا   وعلِّق القلبُ من أسماء ما عَلِقَا

وهى فى ديوانه ثلاثة وثلاثون بيتا ثم قصيدته :

(١) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى للأعلم الشنتمرى ١٥ (طبعة التجارية — القاهرة) .

بان الخليــط ولم يأووا لمن تركوا وزوّدوك اشتيــاقا أية سلــكوا

وهى التى قالها حينما أغار الحارث بن ورقاء على بنى عبد الله بن غطفان وأخذ إبل زهير وراعيه يساراً ، وهى كسابقتها ثلاثة وثلاثون بيتا . وقصيدته التى أولها :

قِفْ بالديار التى لم يَعفُها القِدمُ بلَى وغيّرهــا الأرواحُ والدِّيَمُ

وعدد أبياتها سبعة وثلاثون بيتا . وغير ذلك من قصائده الكثيرة التى تتفاوت فى عدد أبياتها مع اتساق الجودة وحسن السّبك وقوة المعانى ، ففى كل بيت فكرة ، من غير ترديد ، وترى القصيدة وقد اتحدت معانيها وأفرغت فى قالب واحد ، لا تجــد فيه ماقد تجد فى غيره من التفاوت ، أو الثغرات التى تــكون سمة من سمات الارتجال والبديهة . لأنك واجد فى شعر زهير الإتقان الفنى الذى ترى فيه الوحدة وتتابــع الأفــكار فى تناسق وانسجام .

وفى ذلك ما يدل على عناية زهير بشعره ، وحرصه على عدم إذاعته فى الناس إلا بعد تنقيحه وتهذيبه ، ليبدو فى الإطار الذى يرتضيه مثل هذا الشاعر المجيد لفنّه الذى عرف به بين الناس .

وقد روى أن زهيراً كان ينظم القصيدة فى شهر ، وينقحها ويهذبها فى سنة ، وكانت تسمى قصائده (حَوْليات زهير) وقد أشار إلى هذا البهاء زهير فى قوله من قصيدة :

هذا زهيرُك لا زهيرُ مُزَينــةٍ وَافاكَ لا هرِماً على عــلاته

دَعْهُ وحولـيّـــــاتهِ ثم استمعْ لزهــير عصرك حُسْنَ ليْليّاته

والعجب أن بعض الرواة يسم هذا التنقيح والتهذيب بالتكلف . ومن هؤلاء ابن قتيبة الذى يقسم الشعراء إلى متــكلفين ومطبوعين ، ويصف المتكلف منهم بأنه هو الذى يقوم شعره بالثّقاف ، وينقحه بطول التفتيش ، ويعيد فيه

النظر بعد النظر . ويمثل ابن قتيبة للمتكلفين من الشعراء بزهير والحطيئة وأشباههما . وينقل قول الأصمعى : زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . والمطبوع من الشعراء عند ابن قتيبة هو من سمح بالشعر واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر بيته عجزه ، وفى فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر(١) .

ويؤخذ على ابن قتيبة والأصمعىّ وغيرهما من الذين يذهبون هذا المذهب فى فهم المطبوع والمتكلف من الشعراء أو الحكم على الشاعر بالطابع أو التكلف أنهم يصفون الشعر المطبوع بنعوت تدل على أنهم يقصدون بالشاعر المطبوع من كان قادراً على الارتجال وقول البداهة ، فى مواقف لم يعد لها نفسه « وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر » ولا يمكن أن نجاريهم فى رأيهم هذا ، وأن نفهم الشاعر المطبوع على هذا النحو من الفهم ، ذلك أن الشعر تعبير عن شعور ، ومواقف الامتحان التى تختبر فيها قدرة الشاعر على إرسال القول لا يمكن أن تكون مقياساً لصدق العاطفة أو حقيقة الشعور ، لأن الإحساس لا يتكلف ولا يتطلب . والإجادة فى هذا المضمار إن دلت فإنما تدل على شىء واحد هو القدرة على النظم فى أى معنى من المعانى العارضة وفى أى غرض ، وقد لا يكون ذلك الغرض مما يساير عاطفة الشاعر أو يجرى مع هواه . وقد لا يكون فى المقام الذى استحث على القول فيه ما يثير انفعاله . وحينئذ يكون الشعر ضربا من الصناعة اللفظية ، وهو الجدير أن يحسب من الشعر المتكلف . أما الارتجال الذى تبعثه قوة التجربة وحرارة العاطفة والانفعال فلا نشك أنه من أولى علامات الطبع .

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٧ ، والتزحر هو إخراج الصوت أو النفس بأنين عند مجاهدة عمل أو شدة .

ويؤخذ على أولئك أيضاً عدّهم كثيراً من فحول الشعراء كزهير والحطيئة وأشباههما فى المتكلفين ، لا لأنهم رأوا فى أشعارهم فجوات أو آثاراً تدل على شدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات ، ولكن لأنهم علموا أنهم قوموا شعرهم بالثقاف ، ونقحوه بطول التفتيش ، وأعادوا فيه النظر بعد النظر . .

ورأينا الذى نطمئن إليه أن الطبع لايعارض التنقيح والتهذيب بحال ، بل إنه يزداد جمالا ورونقا بإعادة النظر فيه ، وسدّ ما عساه يكون فيه من ثغرات ، واستبدال بعض الألفاظ ببعض على حسب مايرتضيه ذوق الشاعر ومدى حذقه لصناعته . ولهذا رأينا ابن قتيبة يناقض نفسه بهذا الزعم حين يقرر أن هذا اللون من الشعر المنقح المهذب جيّد محكم ، ثم يصفه بكثرة الضرورات وحذف ماتحتاج المعانى إليه وزيادة ما تستغنى عنه . مع أن للتنقيح والتهذيب يزيلان بطبيعتهما تلك العيوب التى لولاها لم تكن هناك من حاجة إلى الرويّة والتهذيب ، بل قد نرى أكثر من ذلك فنقرر أن الفجوات وفقد التلاؤم بين الأبيات إنما يقع فى الشعر المرتجل على غير إعداد ورويّة ، وشتان بين موقف المستعد المتهيء وموقف المدفوع إلى القول دفعا[1] .

وعلى هذا فإن تنقيح الشاعر شعره وتهذيبه لايعدّ تكلفا ، ومن ثمّ لايعد عيباً ، فإن الإجادة والإبداع وتنقية الأعمال الأدبية من الشوائب من واجب أولئك الذين يحترمون أنفسهم ، ويحترمون فنهم ، ويحترمون أذواق الناس ، فلا يقدمون إليهم إلا فنا يرضى عنه الشاعر أولاً ويطمئن إلى جودته ، ليرضى عنه ذوو الأذواق المستنيرة فى بيئات الفن والأدب ، وكان ذلك هو السر فى تلك الأحكام

---

(١) انظر كتابنا (دراسات فى نقد الأدب العربى) ١٦٢ (الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٥٤ م) .

الكثيرة التي اجتمعت على الاعتراف لزهير ، وعلى اعتباره في السّابقين من الفحول وهذا عمر يصف زهيرا بأنه شاعر الشعراء الذي لم يعاظل بين القوافي ولم يتبع وحشيّ الكلام ولم يمدح الرجل إلا بما فيه ، ويستنشد ابن عباس شعره ، فلا يزال ينشده إلى أن يبرق الصبح ، ويسأل عبد الملك بن مروان قوما من الشعراء عن أي بيت من الشعر العربيّ أمدح ، فيتفقون على بيت زهير :

ترَاه إذا ما جئتَه متهلّلا كأنك تعطيه الذى أنتَ سائله

ويستحسن الرواة تشبيه زهير امرأة في الشعر بثلاثة تشبيهات في بيت واحد، وهو قوله :

تنازعَتِ المَها شبهاً ودُرّ الـ بُحُورِ وشاكهتْ فيها الظباء

ثم قوله مفسرّا بعد ذلك :

فأمّا ما فويق العقد منها فمن أدْماء(١) مرتعُها الخلاء

وأمّا المقلتان فمنَ مَهاةٍ وللدُّرّ الملاحةُ والصفاء

وقال بعض الرواة : لو أنّ زهيراً نظر في رسالة عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبي موسى الأشعري ما زاد على ما قال :

فإنّ الحقّ مقطعُه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاء

يعني يمينا ، أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات ، أو جلاء — وهو بيان وبرهان يجلو به الحق وتتضح الدعوى .

وتلك أمثلة يسيرة من شواهد إبداع زهير في شعره الذى اجتمع له نبل

---

(١) شاكهت شاكلت وشابهت ، وأراد بأدماء الظبية البيضاء . ومعنى الشعر : فيها شبه من البقر في العيون ، ومن الدر في الصفاء ، ومن الظباء في طول العنق .

الغرض وفخامة المعنى وصفاء الديباجة ، ولذلك لم يقدم أهل الحجاز شاعراً على زهير ، ووصفه أهل البصر بصناعة الشعر والمعرفة بنقده بأنه كان أحصف الشعراء شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة فى المدح ، وأكثرهم أمثالا فى شعره .

ولا شك أن تلك الأسباب التى قدموا زهيراً بها أسباب موضوعية ، تعتمد على طبيعة الفن ، ومعرفة خصائص الأدب الرفيع الذى يبعد عن الغرابة وينفرد من الحوشية ومن التعقيد ، ويبحث عن جودة المضمون ، كما يعنى بصفاء الإطار والشكل . ويعنى إلى جانب ذلك كله بالصدق الفنى ، وبالعبارة الجميلة عن العاطفة الصادقة والشعور الصادق .

معلقة زهير :

اشتعلت فى بلاد غطفان نار عداوة شديدة وحرب ضروس بين قبيلتين من قبائلها ، وهما قبيلتا عبس وذبيان . وقد قال الرواة فى سبب إنشاد زهير معلقته إن زهيراً مدح بهذه القصيدة الحارث بن عوف ، وهرِم بن سنان ، المرِّيَّيْنِ ، وذكر سعيهما بالصلح بين عبس وذبيان وتحملهما الحمالة .

وكان « ورد بن حابس العبسى » قتل « هرم بن ضمضم المرِّى » فى حرب عبس وذبيان ، وهى حرب داحس قبل الصلح ، ثم اصطلح الناس ، ولم يدخل « حصين بن ضمضم » أخو « هرم بن ضمضم » فى الصلح . وحلف لا يغسل رأسه حتى يقتل « ورد بن حابس » أو رجلاً من بنى عبس ، ثم من بنى غالب . ولم يطلع على ذلك أحداً .

وقد حمل الحمـــالة الحارث بن عوف بن أبى حارثة ، وهرم بن سنان

ابن أبي حارثة . فأقبل رجل من بني عبس ثم من بني غالب حتى نزل بحصين بن ضمضم ، فقال: من أنت أيها الرجل ؟ فقال: عبسيّ ، فقال ، من أيّ عبس ؟ فلم يزل ينتسب ، حتى انتسب إلى غالب . فقتله حصين ، فبلغ ذلك الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، فاشتد عليهما ، وبلغ بني عبس ، فركبوا نحو الحارث . فلما بلغ الحارث ركوب بني عبس ، وما قد اشتد عليهم من قتل صاحبهم — وإنما أرادت بنو عبس أن يقتلوا الحارث — بعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنه ، وقال للرسول : قل لهم آللبن أحبّ إليكم أم أنفسكم ؟ فأقبل الرسول حتى قال ماقال . فقال لهم الربيع بن زياد : إن أخاكم قد أرسل إليكم الإبل أحبّ إليكم أم ابنه تقتلونه ؟ فقالوا : نأخذ الإبل ونصالح قومنا ويتمّ الصلح . فقال زهير في ذلك هذه القصيدة ، وبعد أن تغزل في خمسة عشر بيتا قال :

سعى ساعيا غيظِ بنِ مُرّةَ بعدما تبزّل ما بين العشيرة بالدّمِ

الساعيان هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، وقيل خارجة بن سنان ، وهو أخو هرم بن سنان ، وهما ابنا عم للحارث بن عوف ، لأنهما ابنا سنان بن أبي حارثة ، والحارث هو ابن عوف بن أبي حارثة(١) .

وهذا السبب يظهر ظهوراً واضحاً في ثنايا هذه المعلقة وفي أكثر أبياتها . ولعلّ هذه المعلقة من أهم المعلقات التي يتصل غرضها بأكثر المعاني المبثوثة فيها. وهي في هذه الناحية تختلف عن معلقتي امرئ القيس وطرفة السابقتين ، وقد بيّنا أن الغرض الذي قيل إن كلا منهما أنشدت بسببه يضيع بين ثناياها ، ويضل الباحث في الفحص عنه بين الأغراض الكثيرة التي تزدحم بها كلتا المعلقتين .

---

(١) انظر خزانة الأدب للبغدادي : ج ٢ ص ٢١٥

وقد بدأ زهير معلقته بالتشبيب ومساءلة الدِّمن ، وسلك فى مطلعها مسلك امرئ القيس وطرفة فى مطالع معلقتيهما .

وقد عرف عن زهير العفّة والحياء ، على العكس من امرىء القيس الذى كان يتعهّر فى شعره ، وطرفة الذى ذكر فى أمانيه تهتكه فى العبث وانهماكه فى الشهوات ، وقد برئت معلقة زهير من أثر العبث والمجون . ولكن يبدو أن ذكر المرأة والتشبيب بها فى مطالع القصائد كان تقليداً جرى عليه فحول الشعراء فى الجاهلية ، ولهذا وحده ذكر زهير المرأة فى مطلع قصيدته اتباعا لذلك التقليد الذى جروا عليه ، ولم يكن زهير من العشاق الذين يجرون فى أثر المرأة ، و يجهدون فى البحث عنها ، و يصفون دبيبهم إليها ، و يبرزون محاسنها . ولكنه ذكر « أم أوفى » ، التى لم تكن عشيقة أو حبيبة له ، بل كانت زوجة له أولدها بنين ماتوا صغارًا ، ثم غضب عليها مرّة فطلقها ، وندم وأراد أن يردّها فأبت ، فبكاها و بكى ديارها فى خمسة عشر بيتاً من مطلع قصيدته .

ولا نجد فى هذه الأبيات الخمسة عشر ما يعبِّر تعبيرا صادقا واضحا عن لوعة الحبّ والوجد ، بل لا يتجاوز ذكر « أم أوفى » البيت الأول منها بين الطلول ومواضعها أما بقية الأبيات فكلها فى ذكر الديار وما بقى فيها من الآثار التى تشبه الوشم فى المعصم ، وما يرتع فيها من الظباء و بقر الوحش ، ووصف وقوفه بها ، واهتدائه إليها بعد جهد ومشقة لبعد عهده بها ، وما وجد من الأثافى والنؤى [1] ، ووصف توله الذى جعله يسأل رفيقه : هل يرى الظعائن اللاتى هجرن موضعهن منذ عشرين حجة؟ وأخذ فى وصف تلك الظعائن وكأنه يراهن فى سيرهن ، و يصف حلّهن ومرتحلهن ، وورودهن الماء حتى وضعن الخيام عنده .

---

(١) الأثافى جمع أثفية وهى الحجارة التى تنصب عليها المراجل أو القدور ، والنؤى هو الحفير حول الخيمة يمنع المطر من التسرب داخلها .

ثم انتقل إلى الغرض الذى أنشد من أجله قصيدته ، وهو مدح عظيمى غطفان لسعيهما فى الصلح وتحملهما ديات القتلى فى أموالهما فى عشرة أبيات مجّد فيها هذين العظيمين ، وتداركهما عبساً وذبيان بعد أن أوشكتا على الفناء ، حتى شهد لهما العرب بالمجد والعظمة والبذل والتضحية ، مع براءتهما من جريرة الحرب ، و بعدهما عن الخصومة فيها .

ثم أقبل على الأحلاف أسد وغطفان وطيء ينذرهم أن يحنثوا فيما تحالفوا عليه من السلم، أو يكتموا الله مافى صدورهم، وأتبع ذلك بذكر رزايا الحرب ، وهوّل من شأنها ، وعظم من مصائبها ، وذكر ما أراقته من دماء أشرافهم وسادتهم ، وشبهها مرة بالسباع الضارية ، وأخرى جعلها كالرحى تعرك ثفالها ، وأنها تحمل ثم تلد لهم ذرارى شؤم ..

ثم عرض لحصين بن ضمضم وفعله الذى قتل به العبسىّ ، وكاد يشعل بذلك نار الحرب ، بعد أن كانت عبس وذبيان تتأهبان للصلح وحقن الدماء . ثم أخذ فى حكمة وأمثاله التى هى ثمرة تجاربه وخوضه معركة الحياة ، وتدل على بصره بأخلاق الناس وأحوال المجتمعات ، فى أبيات تفيض بالحكمة التى تقبلتها الأجيال فجرت على ألسنة الناس ، بما اجتمع فيها من آيات الصدق ، والفطنة لطبيعة الحياة وطبيعة الأحياء .

وفيما يلى النص الكامل لمعلقة زهير :

(١) أَمِنْ أمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بِحَوْمانةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

(٢) ودارٌ لها بالرَّقْمَتَيْنِ كأنَّها ... مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فى نَواشِرِ مِعْصَمِ

(٣) بها العِينُ والأَرْآمُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وأطلاؤها يَنْهَضْنَ من كلِّ مَجْثَمِ

(٤) وقفتُ بها من بعدِ عشرينَ حِجَّةً   فَلأْياً عرفتُ الدارَ بعدَ توهُّمِ

(٥) أثافيَّ سُفْعاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ   ونُؤْياً كجِذْمِ الحوضِ لم يَتثلَّمِ

(٦) فلما عرفتُ الدارَ قلتُ لرَبعها   ألا انعَمْ صباحاً أيُّها الرَّبْعُ واسْلَمِ

(٧) تبصَّرْ خليلِي هل ترى من ظَعائنٍ   تحمَّلْنَ بالعَلياءِ من فوقِ جُرْثُمِ

(٨) جَعَلْنَ القَنانَ عنْ يمينٍ وحَزْنَهُ   وكمْ بالقَنانِ من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ

(٩) عَلَوْنَ بأنماطٍ عِتاقٍ وكِلَّةٍ   وِرادٍ حواشيها مُشاكِهةَ الدَّمِ

(١٠) ووَرَّكْنَ في السُّوبانِ يَعْلُونَ مَتْنَهُ   عليهنَّ دَلُّ النَّاعمِ المتنعِّمِ

(١١) بَكَرْنَ بُكوراً واستحرْنَ بسُحْرَةٍ * فهنَّ ووادي الرَّسِّ كاليدِ للفَمِ

(١٢) وفيهنَّ مَلْهىً للَّطيفِ ومنظرٌ   أنيقٌ لعَيْنِ الناظرِ المتوسِّمِ

(١٣) كأنَّ فتاتَ العِهْنِ في كلِّ منزلٍ   نَزَلْنَ به حَبُّ الفَنا لم يُحطَّمِ

(١٤) فلمّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُه   وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضرِ المتخيِّمِ

(١٥) ظهرْنَ من السُّوبانِ ثمَّ جَزَعْنَهُ   على كلِّ قَيْنيٍّ قَشيبٍ ومُفْأَمِ

(١٦) سَعَى ساعِيا غَيْظِ بْنِ مُرَّةَ بعدَما   تبزَّلَ ما بينَ العشيرةِ بالدَّمِ

(١٧) فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حولَهُ   رِجالٌ بنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وجُرْهُمِ

(١٨) يميناً لَنِعْمَ السيِّدانِ وُجِدْتُما   على كلِّ حالٍ منْ سَحِيلٍ ومُبْرَمِ

(١٩) تداركتُما عَبْساً وذُبيانَ بعدَما   تفانَوْا ودقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ

(٢٠) وقد قلتُما إن نُدركِ السِّلْمَ واسعاً   بمالٍ ومعروفٍ منَ القولِ نَسْلَمِ

(٢١) فأصبحتُما منها على خيرِ مَوْطنٍ   بعيدَيْنِ فيها من عُقوقٍ ومأْثَمِ

(٢٢) عظيمَيْنِ في عُلْيا مَعَدٍّ هُدِيتُما   ومن يَسْتَبِحْ كنزاً من المجدِ يَعْظُمِ

(٢٣) تُعَفَّى الكلومُ بالمئينَ فأصبحت   يُنَجِّمها مَنْ ليسَ فيها بمُجْرِمِ

(٢٤) ينجِّمها قومٌ لقومٍ غَرامةً   ولَمْ يُهَرِيقُوا بينهم مِلْءَ مِحْجَمِ

(٢٥) فأصْبَحَ يجري فيهمُ مِنْ تِلادِكُمْ   مَغانمُ شتَّى من إفالٍ مُزَنَّمِ

(٢٦) ألا أبلغِ الأحلافَ عنِّي رسالةً   وذُبيانَ هلْ أقسمتُمُ كلَّ مُقْسَمِ

(٢٧) فلا تكتُمُنَّ اللهَ ما في نفوسِكُمْ   ليَخْفَى ومهما يُكتمِ اللهُ يَعلمِ

(٢٨) يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كتابٍ فيُدَّخَرْ   ليوم الحسابِ أو يعجَّلْ فيُنْقَمِ

(٢٩) وما الحربُ إلا ما علمتُمْ وذُقتُمُ   وما هو عنها بالحديث المرَجَّمِ

(٣٠) متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً   وتَضْرَ إذا ما ضَرَّيتموها فتَضْرَمِ

(٣١) فتَعْرُككُمْ عَرْكَ الرَّحَى بثِفالِها   وتَلْقَحْ كِشافاً ثمّ تُنْتَجْ فتُتْئِمِ

(٣٢) فتُنْتِجْ لكمْ غِلمانَ أشأمَ كلُّهُمْ   كأحمرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فتَفْطِمِ

(٣٣) فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأهلِها   قُرًى بالعراقِ من قَفيزٍ ودِرْهَمِ

(٣٤) لعَمْرِي لَنِعْمَ الحيُّ جرَّ عليهمُ   بما لا يُواتيهم حُصَيْنُ بنُ ضَمْضَمِ

(٣٥) وكان طوَى كَشْحاً على مُسْتَكِنَّةٍ   فلا هو أبداها ولم يتَقَدَّمِ

(٣٦) وقال سأقضِي حاجَتِي ثمّ أتَّقِي   عَدُوِّي بألفٍ مِنْ ورائِيَ مُلْجَمِ

(٣٧) فشَدَّ فلم يُفْزِعْ بيوتاً كثيرةً   لدَى حَيْثُ ألقتْ رَحْلَها أمُّ قَشْعَمِ

(٣٨) لدَى أسَدٍ شاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ   له لِبَدٌ أظفارُهُ لم تُقَلَّمِ

(٣٩) جَرِيءٍ متى يُظْلَمْ يعاقِبْ بظُلْمِهِ   سَريعاً وإلّا يُبْدَ بالظُّلْمِ يَظْلِمِ

(٤٠) رَعَوْا ظِمْأَهُمْ حتى إذا تمَّ أوْرَدُوا   غِماراً تَفَرَّى بالسِّلاحِ وبالدَّمِ

(٤١) فقَضَّوْا منايا بينهم ثمّ أصْدَرُوا   إلى كَلأٍ مُسْتَوْبَلٍ مُتَوَخَّمِ

(٤٢) لَعَمْرُكَ ماجرّتْ عليهم رماحُهُمْ   دَمَ ابنِ نَهِيكٍ أو قتيلِ المثلّمِ

(٤٣) ولاشاركتْ في الموتِ في دمِ نَوْفَلٍ   ولا وَهَبٍ منهم ولا ابنِ المخزّمِ

(٤٤) فكُلاًّ أراهم أصبحوا يَعْقِلونَهُ   عُلالَةَ ألفٍ بَعْدَ ألفٍ مُصَتَّمِ

(٤٥) تساق إلى قوم لقوم غرامة   صحيحاتِ مالٍ طالعاتٍ بمخرمِ

(٤٦) لِحَيٍّ حِلالٍ يَعْصِمُ الناسَ أمرُهُمْ   إذا طرقتْ إحدى الليالي بِمُعْظَمِ

(٤٧) كرامٍ فلاذو الضِّغْنِ يُدْرِكُ تَبْلَهُ   ولا الجارمُ الجاني عليهم بِمُسْلَمِ

(٤٨) سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ * ثمانينَ حَوْلاً لا أبالكَ يَسْأمِ

(٤٩) وأعلمُ مافي اليومِ والأمسِ قبلَهُ   ولكنّني عن علم مافي غدٍ عَمِ

(٥٠) رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ مَنْ تُصِبْ * تُمِتْهُ ومَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

(٥١) ومن لم يصانع في أمورٍ كثيرةٍ   يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بمَنْسِمِ

(٥٢) ومن يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرْضِهِ   يفِرْهُ ومَنْ لا يتّقِ الشّتمَ يُشْتَمِ

(٥٣) ومنْ يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضلِهِ   على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

(٥٤) ومَنْ يُوفِ لا يُذْمَمْ ومَنْ يُهْدَ قلبُهُ   إلى مطمئنِّ البرِّ لايتجمجمِ

(٥٥) ومَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ   وإن يَرْقَ أسبابَ السّماءِ بسُلّمِ

(٥٦) ومَنْ يجعلِ المعروفَ في غيرِ أهلِهِ   يكنْ حَمْدُهُ ذمّاً عليه ويَنْدَمِ

(٥٧) ومَنْ يعصِ أطرافَ الزِّجاجِ فإنّهُ   يطيعُ العَوالِي رُكِّبَتْ كلَّ لهذمِ

(٥٨) ومَنْ لم يَذُدْ عنْ حوضِهِ بسلاحِهِ   يُهدَّمْ ومَنْ لا يَظلمِ الناسَ يُظْلَمِ

(٥٩) ومنْ يغتربْ يَحسِبْ عدوّاً صديقَهُ   ومَنْ لا يكرِّمْ نفسَه لا يكرَّمِ

(٦٠) ومهما تكنْ عندامرىءٍ من خليقةٍ   وإنْ خالها تَخْفَى على الناسِ تُعْلَمِ

(٦١) وكائنْ تَرَى من صامتٍ لكَ مُعْجِبٍ * زيادتُه أو نقصُه في التكلُّمِ

(٦٢) لسانُ الفتى نِصفٌ ونِصفٌ فؤادُهُ فلمْ يَبْقَ إلاّ صُورةُ اللحمِ والدَّمِ

(٦٣) وإنّ سَفَاهَ الشيخ لاحلمَ بعدَهُ وَإنّ الفتى بعد السَّفاهةِ يَحْلُمِ

(٦٤) سألنا فأعطيتم وعُدْنا فعُدْتُمُ ومَنْ أكثر التَّسْآلَ يوماً سَيُحْرَمِ

لبيد

هو لَبِيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر . وقد جعله ابن سلاّم: في الطبقة الثالثة من فحول الشعراء الجاهليين ، في طبقة نابغة بني جعدة ، وأبي ذؤيب الهذلي ، والشمّاخ بن ضرار[1] .

قال ابن سلاّم. وكان لبيد بن ربيعة ، أبو عقيل ، فارساً شاعراً شجاعاً ، وكان عذب المنطق ، رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلما رجل صدق (ص ١١٣) وقال : وعمِّر لبيد عمرا طويلاً ، وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه : يمدحهم ، ويرثيهم ، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم (ص ١١٤) وكان يقال لأبيه « ربيع المقترين » لسخائه ، وقتلته بنو أسد في حرب بينهم وبين قومه[2] .

وقد ورث لبيد من أبيه ربيعة خلّة الجود . وكان قومه أصحاب غارات ، وفيهم بأس وتعرض للترات فوقع فيهم القتل ، وألحت عليهم المصائب ، وكان ذلك من عوامل تفجير شاعريته ، وبروزها في سنّ مبكرة ، وقد النابغة لبيداً وهو غلام جاء مع أعمامه إلى النعمان بن المنذر ، فتوسم فيه الشا

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١٠٢ (٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة

فسأل النابغة عنه فنسبوه ، فقال له : ياغلام ، إن عينيك لعينا شاعر ، أفتقرض من الشعر شيئاً ؟ قال : نعمْ ياعمّ . قال : فأنشدنى ، فأنشده لبيدقصيدته التىأولها * ألم ترجع على الدِّمَن الخوالى * فقال له : ياغلام ، أنت أشعر بنىعامر ، زدْنى ! فأنشده قوله * طلل لخولة فى الرسيس قديم * فضرب بيده على جبينه ، وقال : اذهب فأنت أشعر من قيس كلها !

وكان بين بنى عبس و بين بنى عامر رهط لبيد عداوة أثارها أن خالد ابن جعفر أحد سادتهم وقوادهم قتل زهير بن جذيمة أبا قيس بن زهير صاحب « داحس والغبراء » وخلص قومه وسائر بطون هوازن من ذلالإتاوات التى كان يجبيها منهم بالعسف والقسر ، وكان العامريون يفدون كل سنة على قصور الحيرة عند النعمان بن المنذر ، وكان الربيع بن زياد العبسى مخصوصاً به أثيراً عنده ، يستخلصه لنفسه و ينادمه ، فكان يسىء إليهم ويتنقصهم ويؤخر إذنهم . واتفق أنهم عادوا ليلة من عند الملك إلى رحالهم غضابا ، فقعدوا يأتمرون فيما بينهم ، ولبيد معهم ، فسألهم ما بهم ، فلم يجيبوه استصغاراً لشأنه ، خلف لا يحفظ لهم متاعاً ولا يرى لهم راحلة إن لم يخبروه بشأنهم ، فقال له عمه « عامر بن مالك — ملاعب الأسنة » وهو زعيم الوفد ورئيسهم : خالكالربيع يسىء إلينا عند الملك ! فقال له : أتقدرون أن تجمعوا بينى و بينه ؟ قالوا : وما تصنع ؟ قال : أزجره عنكم بقول ممض مؤلم لا يلتفت إليه الملك بعده أبداً . قالوا : فإنا نبلوك بشتم هذه البقلة — وقدامهم بقلة دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لا صقة بالأرض ، تدعى التربة — فقال : هذه التربة التىلاتؤهل داراً ، ولا تذكى ناراً ، ولا تسرّ جاراً ، عودها ضئيل ، وفرعها كليل ، وخيرها قليل ، نبتها خاشع ، وآكلها جائع ، والمقيم عليها ضائع ، أخبث البقول مرعى ، وأقصرها فرعا ، فتعساً لها وجدعاً . ألقوابى أخا عبس ، أرده

عنكم بتعس ، وأتركه من أمره فى لبس » . فلما أصبحوا حلقوا رأسه وألبسوه حلة ، وغدوا به معهم على باب الملك ، والدار والمجالس مملوءة بالوفود وجماعات الناس ، والربيع مع الملك يطاعمه ، فتقدم لبيد ، فلما كان بحيث يسمعه الملك رجز بالربيع ، وتناوله بهجاء مقذع فى مقطوعة له مروية ، فصرف عنه وجه الملك ، وأذن لبنى عامر ، فأكرم وفادتهم وقضى حوائجهم ، وكان هذا أول ما عرف من كفاية لبيد ونجابته[1] .

ولما أغار الربيع بن زياد العبسى ، واستفاء سروح بنى جعفر والوحيد ابنى كلاب ، وذكر جعفرا والوحيد فى شعر له[2] ، ثار لبيد وأنشد يهدد ربيعا وقومه :

وَلستُ بغافر لبنى بغيض ... سفاهتَهم ولا خَطَل اللسانِ
سآخذ من سَراتِهمُ بعِرضي ... وليسوا بالوفاء ولا المدانى
فإن بقيّة الأحساب منا ... وأصحابَ الحَمَالةِ والطِّعانِ
جراثيم مَنَعْنَ بياضَ نجد ... وأنت تُعد فى الزَّمَع الدوانِى

وهكذا نشأ لبيد شاعرَ قومه ، يدافع عن أحسابهم ويذكر أيامهم . وكان لبيد قد اتصل بالغساسنة ملوك الشام ، ونال الحظوة لديهم بعد ما وثقوا به ، وعداوتهم لملوك الحيرة معروفة ، فقد روى أن الحارث الغسانى ، وهو الحارث الأعرج ، وجّه إلى المنذر بن ماء السماء مائة فارس ، وأمّر لبيداً عليهم ، فساروا إلى عسكر المنذر ، وأظهروا أنهم أتوه داخلين فى طاعته ، فلما تمكنوا منه قتلوه وركبوا خيلهم ، فتعقبهم التبع والجند حتى قتلوا أكثرهم ، ونجا لبيد فيمن نجا ،

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١/٩٥ .
(٢) انظر خزانة الأدب للبغدادى ١/٢٨٩ .

ووقع بسبب ذلك يوم حليمة المضروب به المثل فى قولهم « ما يوم حليمة بسرّ ». ولكن لبيداً كان على مودة مع النعمان فقد رثاه بقصيد طويلة تزيد على خمسين بيتا ، وإن كان أكثر ما فيها من المعانى يدور على ما تصنع الأيام والليالى واستخلاص العبرة من أحداثها ، وأولها :

ألا تسألان المرء ماذا يحاولُ أنحبٌ فيقضى أم ضلال وباطل
حبائله مبثوثة فى سبيله ويَفنى إذا ما أخطأته الحبائل
إذا المرء أسرى ليلة خال أنّه قضى عملا والمرء ماعاش عامل
فقولا له إن كان يقسم أمره ألمّـا يعظك الدهر ؟ أمك هابل
فتعلم ألاّ أنت مدرك مامضى ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنانَ والداً ودون معد فلتزعك العوازل
أرى الناس لايدرون ماقدر أمرهم بلى كل ذى رأى إلى الله واسل
ألا كلُّ شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرئٍ يوماً سيعلم سعيه إذا كشفت عند الإله الحصائل

وهذا كلام من يؤمن بالبعث والنشور ، وتلك طبيعة النفس الصافية ، التى لا تلبث إذا وجدت داعياً إلى الله أن تسرع إلى الإيمان به ؛ وقد كان كذلك فإن لبيداً حين سمع بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ذهب إلى قومه فأسلموا وأسلم معهم ، ثم عادوا إلى باديتهم ، ويفد لبيد على الرسول يسأله عما خفى عليهم من أمور الدين ليحدث قومه بما يرى . ولقد حسن إسلامه ، ودخل نور الإيمان إلى قلبه ، وهجر الشعر الذى كان من أعلامه ، وأقبل على القرآن يحفظه ويتدبر

آياته ، ولذلك وصف بأنه كان مسلماً رجل صدق ، وقد ذكروا أنه لم ينشد في إسلامه إلا بيتاً واحداً وهو قوله :

الحمـــــد لله إذ لم يأتنى أجَلى   حتى كسانى من الإسلام سربالا

وقيل : بل هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليسُ الصالحُ

وكتب عمر بن الخطاب إلى عامله « المغيرة بن شعبة » بالكوفة — وكان لبيد قد اتخذها وطنا فى خلافة عمر — أن استنشد من عندك من شعراء مصرك ما قالوه فى الإسلام ، فأرسل المغيرة إلى الأغلب العجلى أن أنشدنى ، فقال :

لقـــــد طلبتَ هيِّنا موجودا   أرجزاً تريدُ أم قَصيداَ

ثم أرسل إلى لبيد أن أنشدنى ، فقال : إن شئتَ ما عُفِى عنه ، يعنى الجاهلية. قال : لا ، ما قلت فى الإسلام ، فانطلق إلى بيته فكتب سورة البقرة فى صحيفة ، ثم أتى بها ، فقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر . فكتب بذلك المغيرة إلى عمر ، فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وزادها فى عطاء لبيد ، فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة . فكتب الأغلب إلى عمر : يا أمير المؤمنين تنقص عطائى أن أطعتك ؟ فردّ عليه خمسمائة ، وأقر لبيداً على الألفين والخمسمائة . وروى أن عمر رضى الله عنه قال يوما للبيد : أنشدنى شيئاً من شعرك ، فقال : ما كنت لأقول شعراً بعد أن علّمنى الله البقرة وآل عمران(١) .

قالوا : وكان لبيد شريفاً فى الجاهلية والإسلام ، وكان نذر ألا تهب الصَّبا إلا نحر وأطعم ، وأن الصَّبا هبّت يوماً وهو بالكوفة مقتر مملق ، فعلم بذلك

---

(١) مطالع البدور فى منازل السرور ١/٥٣ (مطبعة الوطن — القاهرة ١٢٩٩ هـ) والشعر والشعراء ١/٢٣٣ .

الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان أميراً عليها لعثمان ، فخطب الناس فقال : إنكم قد عرفتم نذر أبى عقيل وما وكد على نفسه فأعينوا أخاكم ، ثم نزل إليه بمائة ناقة ، و بعث الناس إليه ، فقضى نذره ، فاجتمعت عنده ألف راحلة ، وكتب إليه الوليد :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه إذا هبّت رياح أبى عقيل
أغرّ الوجه أبيض عامرىّ طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفرىّ بحلفتيه على العلاّت والماء القليل
بنحر الكُوم إذ سحبت عليه ذيول صبا تجاوب بالأصيل

فقال لبيد لابنته : أجيبيه ، فقد رأيتنى وما أعيا بجواب شاعر ، فأنشأت تقول :

إذا هبّت رياح أبى عقيل دعَوْنا عند هبّتها الوليدا
أشمّ الأنف أصْيَدَ عبشمياً أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركباً عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنا الوُفودا
فعُدْ إنّ الكريم له معادٌ وظنّى يا ابن أروَى أن تعودا

فقال لها لبيد : قد أحسنت لولا أنكِ استزدْتِهِ ، فقالت : والله ما استزدته إلا أنه ملك ولو كان سوقة لم أفعل . وكانت وفاة لبيد فى أول خلافة معاوية ، وهو معدود من المعمَّرين ؛ وقد ذكروا أنه عاش مائة وسبعا وخمسين سنة . وزعم بعضهم أن وفاته كانت فى خلافة عثمان وأن وفاته كانت بالكوفة أيام ولاية الوليد بن عقبة ، وهو وهم ، والصحيح ما ذكر من وفاته أيام معاوية فقد تواترت الروايات أن معاوية أراد أن يجعل عطايا الناس ألفين ، وأنه قال للبيد : هذان

الفودان[١] ، فما هذه العلاوة ؟ يعنى بالفودين الألفين ، و بالعلاوة الخمسمائة ، وأراد أن يحطه إياها ، فقال لبيد : أموت و يبقى لك الفودان والعلاوة ، و إنما أنا هامة اليوم أو غد ، فرقّ له معاوية ، و ترك عطاءه على حاله ، فمات بعد ذلك بيسير ولم يقبضها ، و يروى أن معاوية قال له : يا أبا عقيل ، عطائى وعطاؤك سواء ، لا أرانى إلا سأحطك ! قال لبيد : أوتدعنى قليلا ثم تضم عطائى إلى عطائك فتأخذه أجمع[٢] .

أما شعر لبيد فإن الناظر فيه يستطيع أن يحصر أغراضه فى غرضين هما الفخر والرثاء ، ومعانيه فى كليهما معان جاهلية ، ففخره بفتوّته و ترفّعه و إنجـــاده المستنجد به وقرى الضيف الذى ينزل عليه ، والمباهاة بقومه وعشيرته ، وهو فى هذا الغرض كثيراً ما يقرنه بالوصف ، ولا سيما وصف ناقته التى يرحل عليها ، أو يعقرها لأضيافه ، مع تشبيهها بأصناف من حيوان البادية كالبقرة أو الأتان أو النعامة . ومعانيه فى الرثاء هى معانى الحـكمة المستقاة من الحياة التى تخدع بزينتها وزخرفها ، ثم لا تلبث أن ينطفىء شعاعهـا مع ما يدع ذلك من الحسرة والـكمد فى أنفس الآل والصحب ، ولـكن أسلوبه فى فخره يختلف تمام الاختلاف عن أسلوبه فى رثائه ، فهو يختار للفخر ، وما قد يكون فى ثناياه من الأوصاف والألفاظ الغريبة التى ترى عليها مسحة البادية وخشونة الصحراء ، على درجة لا تـكاد تجد لها نظيراً فى شعر غيره من الجاهليين ، على أنه فى فن الرثاء يعذب و يرقّ ، فلا ترى فى ألفاظه إلا كل سمح من الـكلام وكل مأنوس فى الاستعمال. وأعتقد أن ما وصفه به ابن سلام الجمحى فى قوله فى نعت لبيد بأنه كان رقيق حواشى الـكلام إنمـا كان يقصد به الحـكم على شعره الذى قاله فى الرثاء ، فإن

---

(١) الفودان العدلان ، كل واحد منهما فود ، وكل منهما نصف حمل يكون على أحد جنبي البعير .

(٢) انظر طبقات فحول الشعراء ١١٣ والشعر والشعراء ١/٢٢٣ وخزانة الأدب ٢/٧٤ .

هذا الوصف لا ينطبق بأى حال على شعره فى الفخر أو فى الوصف ، كذلك الذى نجده فى شعر المعلقة مما لا يكاد يفهم إلا بالاستعانة بمعاجم اللغة ، ولعله بعد تلك الاستعانة على حل الألفاظ الغريبة تظل الحاجة إلى فهم الأسلوب والتركيب ، حتى يمكن تذوق الفن الشعرى الذى فيه .

معلقة لبيد :

والدارس لمعلقة لبيد يجدها قد خلت من ذكر المرأة ووصف الشغف بها والصبابة بهواها ، وقد خلا مطلعها تماماً مما عهدناه عند السابقين من أصحاب المعلقات ، فقد وجدنا معلقة امرىء القيس تفيض بذكر المرأة ووصف مفاتنها والدبيب إليها فى أكثر من موضع ، ووجدنا فى معلقة طرفة ذِكراً لها فى أول كلمة منها ، كما وجدناه يعد اللهو بها من أهم أمانيه القليلة التى لا يحرص على الحياة إلا من أجلها ، ورأينا زهيراً مع تعففه وجدِّه يحرص على ذكر « أم أوفى » زوجته هوًى أو تقليداً . ولكن لبيداً يختلف عن هؤلاء أجمعين ، فإنه لا يبدأ قصيدته بذكر « نوار » و إنما بدأها بذكر الأطلال والدمن التى أقفرت من أناسها ، ووصف الطبيعة والرعد والمطر والسحاب فى مجموعة من التشبيهات الجيدة ، فى خمسة عشر بيتا ذكر بعدها « نوار » وذكر يأسه من لقائها لبعد منازلها فى شعر فيه الطبيعة وفيه أثر العقل ، وليس فيه من وصف عاطفة الحب كثير أو قليل :

بلْ ما تذكَّرُ من نوارِ وقد نأتْ ... وتقطَّعتْ أسبابُها ورمامُها

ثم يأمر نفسه بقطع حبلها بعد إذ تعذر وصالها ، و يؤثر عليها وصف ناقته التى تعينه على أسفاره ، و تعينه على قطع المفازات، و تعلو به التلاع وتهبط به الوهاد فى أبيات كثيرة تتعاقب فيها الأوصاف وتترادف التشبيهات ؛ ثم يعود إلى ذكر

« نوار » فى بيت واحد ، هو أشبه بالكيد والتشفى منه بالتعبير عن الود والحب ، إذ هو يصف نفسه بالحزم و إجماع الرأى ، والقدرة على النسيان :

أو لم تـكن تدرى نوار بأننى وصّالُ عَقْدِ حبائل جَذّامُها

ترّاك أمكنـة إذا لم أرْضَهـا أو يعتلقْ بعضَ النفوس حمامُها

ولذلك كان من الممكن القول بأن هذه المعلقة خالية من ذكر المرأة أو من وصفها ووصف الغرام بها .

وقد ذكر الرواة لكل معلقة سبباً دعا إلى إنشادها ، وتجربة أثارت انفعال الشاعر ، فانطلق يعبر عن هذا الانفعال ، ولـكنهم لم يذكروا سبباً خاصًّا أو تجربة خاصة لهذا الشاعر كانت هذه المعلقة تعبيراً عنها . ولـكن الذى يدل عليه هـذا الشعر لا يتعدى الانفعال بحياة البداوة ، وما فيها من مظاهر الطبيعة والحيوان ؛ وما يتمجد به سراة العرب وأجوادهم من النجدة وقرى الضيف ، وقد وصف طرفة تلك المشاهد الطبيعية من الأطلال التى يخلفها الظاعنون ، وفعل الأمطار والسيول بها التى لاتبقى من آثارها إلا مثل ذلك الذى يبدو من أثر الـكتابة على الحجر ، لايبصره إلا من يتأمله . ثم يصف ناقته فى أبيات كثيرة ، يصف فيها مايعتمد عليه منها ، ويذكر سرعتها ، ويكثر من تشبيهها ، فهى تارة كالسحاب ترفعه ريح الجنوب ، وتارة كالأتان الوحشية ، وطوراً كالبقرة الوحشية التى أضاعت ولدها فهى تسرع فى تعقبه وطلبه ، ويصف فضائل نفسه ، وهى من المثـل التى يقدسها العرب ، ويلتمسونها فى فتيانهم ورجالهم ، فهو أبى كل الإباء ، كريم كل الـكرم ، يلعب الميسر على الجزور ثم ينحرها ويطعمها الناس ، وهو رجل أمانة وعقل ونجدة ، لأنه نسل من قوم يهيمون بهذه الفضائل ؛ وكل ذلك فى ألفاظ تغلب عليها خشونة الصحراء التى كان يعيش فيهـا ، وهاك نص معلقة لبيد :

(١) عَفَتِ الديار محلُّها فمُقامُها   بمِنىً تأبَّد غَوْلُها فرِجامُها

(٢) فمَدافِعُ الرَّيّانِ عُرِّيَ رسمُها   خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

(٣) دِمَنٌ تجرَّمَ بعد عهد أنيسِها   حِجَجٌ خَلَوْنَ حلالُها وحرامُها

(٤) رُزِقتْ مرابيعَ النجومِ وصابَها   وَدْقُ الرَّواعدِ جَوْدُها فرِهامُها

(٥) من كلِّ سارِيةٍ وغادٍ مُدْجِنٍ   وعشيَّةٍ متجاوبٍ إرْزامُها

(٦) فعلا فُرُوعُ الأيْهُقانِ وأطفلتْ   بالجَلْهَتين ظباؤها ونَعامُها

(٧) والعِينُ ساكنةٌ على أطلائها   عُوذاً تأجَّلُ بالفضاء بِهامُها

(٨) وجَلا السيولُ عن الطُّلول كأنَّها   زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أقلامُها

(٩) أوْ رَجْعُ واشمةٍ أُسِفَّ نَئُورُها   كِفَفاً تعرَّضَ فوقهنَّ وِشامُها

(١٠) فوقفتُ أسألُها وكيف سؤالُنا   صُمّاً خوالدَ ما يبين كلامُها

(١١) عَرِيَتْ وكان بها الجميعُ فأبْكَروا   منها وغُودِرَ نُؤْيُها وثُمامُها

(١٢) شاقتْكَ ظُعْنُ الحيِّ حين تحمَّلوا   فتكنَّسوا قُطُناً تَصِرُّ خيامُها

(١٣) مِنْ كلِّ محفوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ   زَوْجٌ عليه كِلَّةٌ وقِرامُها

(١٤) زُجَلاً كأنَّ نعاجَ تُوضِحَ فوقَها   وظباءَ وَجْرةَ عُطَّفاً أرْآمُها

(١٥) حُفِزَتْ وزيَّلها السرابُ كأنَّها   أجزاعُ بِيشةَ أثْلُها ورِضامُها

(١٦) بلْ ما تذكَّرُ من نَوارَ وقد نأتْ   وتقطَّعتْ أسبابُها ورِمامُها

(١٧) مُرِّيَّةٌ حلَّتْ بفَيْدَ وجاورتْ   أهلَ الحجاز فأين منك مَرامُها

(١٨) بمَشارق الجبلين أو بمُحَجَّرٍ   فتضمَّنتْها فَرْدَةٌ فرُخامُها

(١٩) فصُوائقٌ إنْ أيْمَنَتْ فمَظِنَّةٌ   منها وِحافُ القَهْرِ أو طِلْخامُها

(٢٠) فاقطعْ لُبانةَ مَنْ تعرَّضَ وصلُه   ولَشَرُّ واصلِ خُلَّةٍ صَرّامُها

(٢١) واحْبُ المجاملَ بالجزيلِ وصَرْمُهُ   باقٍ إذا ضَلَعَتْ وزاغ قِوَامُها
(٢٢) بطليحِ أسفارٍ تركْنَ بقيّةً   منها فأحْنَقَ صُلبها وسنامُها
(٢٣) وإذا تغالَى لحمُها وتحسَّرتْ   وتقطّعتْ بعد الكلالِ خِدامُها
(٢٤) فلها هِبابٌ فى الزِّمام كأنّها   صَهباءُ خفَّ مع الجنوبِ جَهامُها
(٢٥) أو مُلمعٌ وَسَقتْ لأحقبَ لاحَهُ   طَرْدُ الفحولِ وضَرْبُها وكِدامُها
(٢٦) يعلو بها حَدَبَ الإكامِ مُسَحَّجٌ   قد رابهُ عِصيانُها ووِحامُها
(٢٧) بأحِزّةِ الثَّلَبُوتِ يَرْبأُ فوقها   قَفْرَ المَرَاقبِ خوفُها آرامُها
(٢٨) حتّى إذا سلخا جُمادى ستّةً   جَزْءًا فطال صيامُه وصِيامُها
(٢٩) رَجَعا بأمرهما إلى ذى مِرّةٍ   حَصِدٍ ونُجْحُ صَريمةٍ إبْرامُها
(٣٠) ورمَى دوابرَها السَّفا وتهيّجتْ   ريحُ المصايف سَوْمُها وسِهامُها
(٣١) فتنازعا سَبِطًا يطيرُ ظِلالُهُ   كدخانِ مُشْعَلةٍ يُشَبُّ ضِرامُها
(٣٢) مشمولةٍ غُلِثَتْ بنابتِ عَرْفَجٍ   كدخان نارٍ ساطعٍ أسنامُها
(٣٣) فمضى وقدّمها وكانت عادةً   منه إذا هى عَرَّدَتْ إقدامُها
(٣٤) فتوسّطا عُرْضَ السَّرِىِّ وصدّعا   مَسْجُورَةً متجاوراً قُلّامُها
(٣٥) محفوفةً وسْطَ اليراع يُظِلُّها   منهُ مُصرَّعُ غابةٍ وقِيامُها
(٣٦) أفتلكَ أم وحشيّةٌ مسبوعةٌ   خذلتْ وهاديةُ الصِّوارِ قِوامُها
(٣٧) خنساءُ ضيّعتِ الفريرَ فلم يَرِمْ   عُرْضَ الشقائقِ طوفُها وبُغامُها
(٣٨) لِمُعفّرٍ قهدٍ تنازعَ شِلْوَهُ   غُبْسٌ كواسبُ لا يُمَنُّ طعامُها
(٣٩) صادفْنَ منها غِرّةً فأصبْنَها   إنّ المنايا لا تطيشُ سهامُها
(٤٠) باتتْ وأسبلَ واكفٌ من ديمةٍ   يُرْوِى الخمائلَ دائمًا تسجامُها

(٤١) يعلُو طريقةَ مَتْنِها متواترٌ   فى ليلةٍ كَفَرَ النجومَ ظلامُها
(٤٢) تجتاف أصلاً قالصاً متنبِّذاً   بعُجُوبِ أنْقاءٍ يميلُ هيامُها
(٤٣) وتُضِىء فى وَجْهِ الظلامِ مُنِيرةً   كجُمانةِ البَحْرِىِّ سُلَّ نِظامُها
(٤٤) حتّى إذا حَسَرَ الظلامُ وأسفرتْ   بَكَرَتْ تزِلُّ عن الثَّرَى أزلامُها
(٤٥) عَلِهَتْ تَرَدَّدُ فى نِهاءِ صُعائدٍ   سَبْعاً تُؤاماً كاملاً أيَّامُها
(٤٦) حتّى إذا يَئِسَتْ وأَسْحَقَ حالِقٌ   لمْ يُبْلِهِ إرضاعُها وفِطامُها
(٤٧) وتسمَّعتْ رِزَّ الأنيسِ فراعَها   عن ظهرِ غَيْبٍ والأنيسُ سَقامُها
(٤٨) فغدتْ كِلاَ الفرجَيْنِ تحسبُ أنّه   مَوْلَى المخافةِ خلفُها وأمامُها
(٤٩) حتّى إذا يئس الرُّماةُ وأرسلُوا   غُضْفاً دَواجِنَ قافلاً أعصامُها
(٥٠) فلَحِقْنَ واعتكرَتْ لها مَدْرِيَّةٌ   كالسَّمْهَرِيَّةِ حَدُّها وتمامُها
(٥١) لتذودَهُنَّ وأيقنتْ إن لم تَذُدْ   أنْ قد أحَمَّ من الحُتُوفِ حِمامُها
(٥٢) فتقصَّدَتْ منها كَسابِ فضُرِّجَتْ   بِدَمٍ وغُودِرَ فى المَكَرِّ سُحامُها
(٥٣) فبتلك إذ رقصَ اللوامعُ بالضُّحَا   واجتابَ أرديةَ السَّرابِ إكامُها
(٥٤) أقضِى اللُّبانةَ لا أُفرِّطُ رِيبةً   أوْ أنْ يَلُومَ بحاجةٍ لُوّامُها
(٥٥) أوَلَمْ تَكُنْ تدرى نَوارِ بأنّنى   وَصَّالُ عَقْدِ حبائلٍ جَذّامُها
(٥٦) تَرَّاكُ أمكنةٍ إذا لمْ أرْضَها   أوْ يَعْتَلِقْ بعضَ النفوسِ حِمامُها
(٥٧) بل أنتِ لا تدرينَ كمْ مِن ليلةٍ   طَلْقٍ لذيذٍ لَهْوُها ونِدامُها
(٥٨) قد بتُّ سامِرَها وغايةَ تاجرٍ   وافيْتُ إذْ رُفِعتْ وعزَّ مُدامُها
(٥٩) أُغْلِى السِّباءَ بكلِّ أدْكَنَ عاتقٍ   أو جَوْنةٍ قُدِحتْ وفُضَّ خِتامُها
(٦٠) بصَبُوحِ صافيةٍ وجَذْبِ كَرِينةٍ   بمُوَتَّرٍ تأْتالُهُ إبهامُها

(٦١) وغَدَاةِ رِيحٍ قد وَزَعْتُ وقِرَّةٍ   قد أصبحتْ بيدِ الشَّمالِ زِمامُها

(٦٢) بادرْتُ حاجَتَها الدَّجاجَ بِسُحْرَةٍ   لِأُعَلَّ منها حين هبَّ نِيامُها

(٦٣) ولقد حَمَيْتُ الخيلَ تَحمِلُ شِكَّتِي   فُرُطٌ وشاحِي إذ غَدَوْتُ لِجامُها

(٦٤) فعلَوْتُ مُرتقِباً على ذِي هَبْوَةٍ   حَرِجٍ إلى أعلامِهِنَّ قَتامُها

(٦٥) حتّى إذا ألقتْ يداً في كافرٍ   وأجَنَّ عَوْراتِ الثُّغُورِ ظلامُها

(٦٦) أسْهَلْتُ وانتصبَتْ كَجِذْعِ مُنِيفَةٍ * جَرْداءَ يَحْصَرُ دُونَها جُرَّامُها

(٦٧) رَفَّعْتُها طَرْدَ النَّعامِ وشَلَّهُ   حتّى إذا سَخِنَتْ وخَفَّ عظامُها

(٦٨) قَلِقَتْ رِحالتُها وأسْبَلَ نَحْرُها   وابتلَّ من زَبَدِ الحَميمِ حِزامُها

(٦٩) تَرْقَى وتَطْعَنُ في العِنانِ وتنتحي   وِرْدَ الحَمامةِ إذ أجَدَّ حَمامُها

(٧٠) وكثيرةٍ غُرَباؤُها مجهولةٍ   تُرْجَى نوافِلُها ويُخْشَى ذامُها

(٧١) غُلْبٍ تَشَذَّرُ بالذُّحُولِ كأنَّها   جِنُّ البَدِيِّ رواسياً أقدامُها

(٧٢) أنكرْتُ باطِلَها وبُؤْتُ بحقِّها   عندي ولم يفخرْ عليَّ كِرامُها

(٧٣) وجَزُورِ أيْسارٍ دَعَوْتُ لحَتْفِها   بمَغالقٍ متشابهٍ أعلامُها

(٧٤) أدْعُو بهِنَّ لعاقرٍ أو مُطْفِلٍ   بُذِلَتْ لجيرانِ الجميعِ لِحامُها

(٧٥) فالضيفُ والجارُ الجَنِيبُ كأنَّما   هَبَطا تَبالَةَ مُخْصِباً أهضامُها

(٧٦) تأوِي إلى الأطْنابِ كلُّ رَذِيَّةٍ   مثلِ البَلِيَّةِ قالصٍ أهْدامُها

(٧٧) ويُكَلِّلُونَ إذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ   خُلُجاً تُمَدُّ شوارِعاً أيتامُها

(٧٨) إنّا إذا التقتِ المجامعُ لم يزَلْ   مِنّا لِزازُ عظيمةٍ جَشّامُها

(٧٩) ومُقَسِّمٌ يُعطي العشيرةَ حقَّها   ومُغَذْمِرٌ لحقوقِها هَضّامُها

(٨٠) فَضْلاً وذو كَرَمٍ يُعِينُ على النَّدَى   سَمْحٌ كَسُوبُ رغائبٍ غَنّامُها

(٨١) من معشرٍ سَنَّتْ لهمْ آباؤهُمْ ولكلِّ قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها
(٨٢) لا يطبعُونَ ولا يَبُورُ فَعَالُهُمْ إذ لا يَميلُ مع الهوَى أحلامُها
(٨٣) فاقنعْ بما قَسَمَ المليكُ فإنَّما قَسَمَ الخلائقَ بيننا عَلَّامُها
(٨٤) وإذا الأمانةُ قُسِّمتْ فى مَعْشَرٍ أوْفَى بأوْفرِ حظِّنَا قَسَّامُها
(٨٥) فَبَنَى لنا بيتاً رفيعاً سَمْكُهُ فَسَمَا إليه كَهْلُها وغُلامُها
(٨٦) وَهمُ السُّعاةُ إذا العَشِيرةُ أُفْظِعَتْ وَهُمُ فوارسُها وهُمْ حُكَّامُها
(٨٧) وَهُمُ ربيعٌ للمجاورِ فيهمُ والمُرْمِلاتِ إذا تطاولَ عامُها
(٨٨) وَهُمُ العشيرةُ أن يُبَطِّئَ حاسدٌ أوْ أنْ يَميلَ مَعَ العَدُوِّ لِئَامُها

عمرو بن كلثوم

رأس الطبقة السادسة من فحول الشعراء فى الجاهلية عند ابن سلاّم الجمحى ، قال : وهم أربعة رهط ، لكل واحد منهم واحدة : أولهم عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حِلِّزة ، وعنترة بن شداد ، وسُوَيد بن أبى كاهل[1].

وكان عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب بن سعد بن زهير من بنى تغلب ، شاعراً فارساً شجاعاً ، وهو أحد فُتّاك العرب ، ساد عشيرته بشجاعته ولسانه وحسن بلائه فى مطلع شبابه ، وقد ورث تلك الصفات عن أبيه وأجداده ، فأبوه كلثوم بن مالك فارس العرب ، وجدّه لأمه مهلهل بن ربيعة المعروف بشعره وشجاعته و بأسه ، وعمّ أمه كليب وائل أعزّ العرب .

ولا يعرف من أمر نشأته إلا هذا النسب ؛ وإلا ما كان من العداوة الشديدة

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١٢٧ .

بين قومه بنى تغلب و إخوتهم بنى بكر ، التى جرت إلى حرب ضروس أكلت الأخضر واليابس ، وهى حرب البسوس المشهورة فى تاريخ عرب الجاهلية . وقد انتهت قيادة بنى تغلب ورياستهم إلى عمرو بن كلثوم ، وتدخل فى الصلح بين بنى تغلب و بنى بكر المناذرة ملوك الحيرة ، حتى كان عمرو بن هند الذى جمع بكراً وتغلب فأصلح بينهم ، وأخذ من الحيين رهناً من كل حىّ مائة غلام ، ليكف بعضهم عن بعض ، وكان أولئك الرهن يسيرون و يغزون مع الملك ، فأصاب غلمان تغلب ما قضى على أكثرهم ، وسلم البكريون ، فطالب التغلبيون البكريين بديات أبنائهم ، فأبت بكر ، واختصما وتحاكما إلى عمرو بن هند ، وكان سيد تغلب هو عمرو بن كلثوم ، وشاعر بكر هو الحارث بن حلزة . وتفاخرت القبيلتان بين يديه . وفى هذا الموقف قال عمرو بن كلثوم بعض معلقته يفتخر فيها بقبيلته ، وقال الحارث بن حلزة جزءاً من معلقته يفخر فيها ببكر ، كما سيأتى فى ترجمة الحارث .

هذا ما رواه الرواة من أخبار عمرو بن كلثوم ، وليس فيه شىء من التفصيل عن حياته ونشأته ، و إن كان المفهوم أنها حياة لا تختلف عن حياة أمثاله من فتيان العرب الذين ترعرعوا فى مثل بيته وفى مثل بيئته ، من اللهو وانتهاب اللذات ، وضروب البسالة التى يتميز بها الأحرار من شبانهم وسراتهم ، حتى إذا جدّ الجدّ طاروا إلى الحرب زرافات ووحدانا ؛ فإذا عادوا اقتسموا أسلابهم أو غنائمهم ، أو فكروا فى الثأر من أعدائهم إذا نالوا منهم .

و يروون فى تاريخ عمرو حدثاً من الأحداث الكبرى التى انتهت بمصرع ملك الحيرة عمرو بن المنذر على يد عمرو بن كلثوم فى قصة طويلة ، ملخصها أن عمرو بن المنذر ، وهو عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه : هل تعلمون أن أحداً من العرب تأنف أمّه من خدمة أمى ؟ فقالوا : لا نعلمها إلا ليلى أم عمرو بن كلثوم ، قال : ولم ذلك ؟ قالوا لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل

أعزّ العرب ، و بعلها كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب ، وابنها عمرو ابن كلثوم سيّد من هومنه . فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره و يسأله أن يزير أمّه أمّه ، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت ليلى بنت مهلهل فى ظعن من بنى تغلب ، وأمر عمرو ابن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ، وأتاه عمرو بن كلثوم فى وجوه بنى تغلب ، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند فى رواقه ، ودخلت ليلى بنت مهلهل أم عمرو بن كلثوم على هند فى قبة فى جانب الرواق ، وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطُّرَف . فقالت هند : ياليلى ناوليني ذلك الطبق ! فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها وألحّت ، فصاحت ليلى : واذ لاّه ! ياَلتَغْلِبَ ! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه ، ونظر إلى عمرو بن هند ، فعرف الشر فى وجهه ، فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ، وليس هناك سيف غيره ، فضرب به رأس عمرو بن هند حتى قتله ، ونادى فى بنى تغلب ، فانتهبوا جميع مافى الرواق ، وساقوا نجائبه ، وساروا نحو الجزيرة(١) .

وهذه القصة قد استفاضت بها أخبار التاريخ العربى فى مصرع عمرو بن هند ، وليس لدينا من المصادر الأخرى ما نستطيع به نفى هذه الرواية أو تأييدها ؛ ولذلك أثبتنا خلاصتها حتى يقوم الدليل الثابت على دحضها ، فإننا نستكثر من ناحية العادة أن يقتل ملك من ملوك الحيرة يحميه ملوك الفرس ، لأنه حارس تخومهم من غارات سكان الجزيرة من غير أن تتبع جنوده وجنودهم القاتل ويقتصوا منه ومن عشيرته ، وإن كان العقل لا يمنع جواز وقوع مثل ذلك ، لضعف أولئك الملوك فى أخريات دولتهم ، وللمظالم وضروب العسف التى ارتكبوها قبل رعاياهم الذين أصبحوا يتمنون الخلاص من سيادتهم .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٨٦ .

وقد كانت وفاة عمرو بن كلثوم فى نحو سنة ٦٠٠ م بعد أن عمّر عمراً طويلا.

أما شعره فقد اشتهر منه معلقته التى سنأتى على وصفها وشرح أغراضها ، وهى أهم ما أثر من شعره ، وأكثر كتب الأدب وموسوعاته لا تروى له من الشعر غيرها ، وقد روى له أبو تمام فى حماسته أربعة أبيات له فى الشجاعة والفخر وهى قوله :

معَاذَ الإلَه أن تنوح نساؤنا   على هالك أوْ أنْ نَضِجّ من القتلِ
قِراعُ السُّيُوفِ بالسُّيُوفِ أحلّنا   بأرضٍ بَرَاح ذى أراك وذى أثْلِ
فما أبقت الأيامُ مِلمَالِ عندنا   سوى جِذْمِ أذوادٍ مُحَذَّفة النَّسْلِ
ثلاثة أثلاثٍ ، فأثمانُ خيلنا[1]   وأقواتُنَا ، وما نسوق إلى القتلِ

معلقة عمرو بن كلثوم :

وهى التى اشتهر بها عمرو بين فحول شعراء الجاهلية ، وقد قالوا إن هذه المعلقة كانت تزيد على ألف بيت ، وإنما وصل إلينا بعضها ، وقد أنشد هذه القصيدة فى الحماسة والفخر ، وكان الذى أثاره لنظمها غضبه لامتهان أمه فى بيت عمرو بن هند ، ذلك الغضب الذى جعله ينتضى السيف ويهوى به على رأس عمرو فيصرعه ، ويغلب على الظن أن هذه المعلقة لم تنظم فى وقت واحد ، فإن بعضها يشير إلى الخلاف الذى كان بين قومه بنى تغلب وبنى بكر واحتكام الفريقين إلى عمرو بن هند هذا . وقد وقف عمرو بن كلثوم بهـــــذه القصيدة

(١) البراح الأرض التى لا بناء فيها ولا عمران ، ملمال أى من المال ، الجذم الأصل ، الأذواد جمع ذود يقع على ما دون العشرة من الإبل ، المحذفة النسل المقطوعة . ومعنى البيت الرابع : أموالنا ثلاثة أثلاث ، ثلث نشترى به الخيل ، وثلث نشترى به أقواتنا ، وثلث نعطيه فى الديات — وانظر ديوان الحماسة لأبى تمام ١ / ١٨٩ (طبعت صبيح — القاهرة) .

فى سوق عكاظ فأنشدها فى الموسم ، وكانت تغلب تعظم هذه القصيدة وتحتفل لإنشادها ، و يفتخرون بها حتى عيّرهم بذلك بعض الشعراء فى قوله :

أَلْهَى بنى تغلب عن كلِّ مكرمة قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ
يفاخرون بها مُذْ كانَ أوّلُهمْ يالَلرِّجال لفخر غير مسئومِ

قال ابن قتيبة : وعمرو بن كلثوم هو القائل * ألا هُبِّي بصحنك فاصبحينا * وكان قام بها خطيبا فيما كان بينه و بين عمرو بن هند ، وهى من جيد شعر العرب القديم ، و إحدى السبع[١] .

وتبدو فى هذه المعلقة ظاهرة جديدة تختلف بها عن غيرها من المعلقات ، فهى لا تبدأ بذكر الدمن والأطلال ، ولا بذكر الأحبة الذين رحلوا عنها ، ولكنها تبدأ ، على غير المعهود من ذلك فى الشعر الجاهلى بخاصة بذكر الخمر ومباكرة شربها فى الصباح ، ووصف ما تفعل بشار بيها إذا كانوا كراماً أو كانوا أشحة بما تبعث فيهم من الارتياح إلى البذل والسخاء ، والعتب على الساقية التى لم تعدل فى توزيع شرابها على الذين عرفوا أصول السقى وقواعد المنادمة فى مختلف بيئاتها .

ثم ينتقل بعد هذا المطلع إلى ذكر الظعائن ومساءلتها عن سر الرحيل ، ثم يأخذ فى وصف المرأة وتشبيه أجزاء جسمها بما يشتهى من الأوصاف ؛ حتى يأخذ فى موضوع المعلقة الذى أنشأه أيام التحاكم أمام عمرو بن هند فى الخلاف بين بنى تغلب و بنى بكر ، وفى هذا الجزء من القصيدة يغلو عمرو بن كلثوم فى الفخر بنفسه وقومه ، والتباهى بشجاعتهم وأيامهم التى امتلأت بالقتل والدماء ، وعصيانهم الملوك والثورة عليهم وقتلهم ، حتى هابتهم الجزيرة وخشيت سطوتهم قبائلها . و يصف فى أثناء ذلك وقائعهم وما أنزلوا بأعدائهم من الهزائم ، ومجد

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ١٨٨ .

قبيلته الموروث الذى تعترف لهم به قبائل معد ، والغارات التى كانوا يقومون بها ، مما يصور حياة الجاهلية التى فقدت الأمن والسلام ، وعمتها الفوضى والحروب ، ولا يزال يهدد العرب بقومه الذين لا يزالون على عهدهم أهل نخوة و بأس ، ويحذرهم محاولة الاعتداء عليهم بالقول والفعل .

ثم ينتقل إلى الجزء الثانى من موضوعى المعلقة ، وهو الذى يتصل بقصة أمه ليلى التى حاولت أم عمرو بن هند أن تحطم كبرياءها وتستخدمها ؛ وما جرّ ذلك من ثورة عمرو بن كلثوم ومقتله الملك . وفى هذا الجزء يصل الفخر و يهدد الملك ، و يذكر آباءه وأجداده الذين عرف تاريخ العرب بسالتهم و بلاءهم ، ثم يخاطب بنى بكر مذكرا إياهم بما عرفوا من وقائعهم ، و يصف كتائب قومه وما تدججت به من السلاح والدروع ، وما فعلت فى جيوش الأعداء ، والخيل الكريمة التى ورثوها عن آبائهم الكرام ، وأشار إلى ما كان يفعل العرب الذين كانوا يُشهدون نساءهم الحروب ، و يقيمونهن خلف الرجال ، ليقاتل الرجال ذباعن حرمهم ، فلا يفشلون مخافة العار بسبي الحرم ، و يذكر ما أخذن على رجالهن من العهود ، وما بستثرن به نخوتهم و بسالتهم .

ثم يعود إلى مفاخر العرب فيجعلها لقومه ، فهم فى الذروة والسنام من العزة ، وهم المطعمون فى المحل ، والمنتصرون فى الحرب ، وهم الذين يغيِّرون ولا يغيِّر الناس عليهم ، يدعون ما سخطوا ، و يأخذون ما رضوا ، ويحمون من أطاعهم ، و يفتكون بمن عصاهم ، لا يسكتون على ثأر ، ولا ينامون على ذل .

هذا مجمل أغراض المعلقة التى نجد فيها غلوا فى الفخر ، واعتداداً بالنفس والقبيلة ، كما نجد فى ألفاظها وتراكيبها سهولة ورقة ، لا نكاد نجد لها نظيراً فى الشعر الجاهلى ، ومرجع هذا طبيعة الشاعر ، ولا شك أن لتلك الطبيعة أبعد الأثر فيما يصدر عنه من قول . وهذا يدلّنا على تباين الشعر الجاهلى ، وقد مرت

بنا معلقة لبيد ، وماأودع فيها من غريب اللفظ الذى لا يوقف على معناه بسهولة ؛ وهذه المعلقة على عكسها ، وقلما نجد فيها ما يحتاج إلى شىء من العنت فى فهمه ، وفى هذا ما يؤكد طبيعة هذا الشعر الذى يختلف باختلاف أذواق أصحابه وتباين أمزجتهم بين الغلظة واللين ، والجزالة والسلاسة .

قال الذين قدموا عمرو بن كلثوم : هو من قدماء الشعراء ، وأعزهم نفساً ، وأكبرهم امتناعاً ، وأجودهم واحدة . وقال عيسى بن عمرو : لله در عمرو بن كلثوم ، أىّ حِلْس شعر ، ووعاء علم ، لو أنه رغب فيما رغب فيه أصحابه من الشعراء ، وإن واحدته لأجود سبعهم .

وذكر أبو عمر بن العلاء أن عمرو بن كلثوم لم يقل غير واحدته ، ولولا أنه افتخر فى واحدته وذكر مآثر قومه ما قالهـــا . وكان عيسى بن عمر يقول : لو وضعت أشعار العرب فى كفة وقصيدة عمرو بن كلثوم فى كفة لمالت بأكثرها[1] .

وفيما يأتى النص الكامل لمعلقة عمرو بن كلثوم :

(١) ألاَ هُبِّى بِصَحْنِكِ فاصْبَحِينَا ولا تُبْقِى خمورَ الأَنْدَرِينا

(٢) مُشَعْشَعَةً كأنَّ الحُصَّ فيها إذا ما الماء خالطَها سَخِينا

(٣) تجورُ بذى اللُّبَانَةِ عَنْ هواهُ إذا ماذاقَها حتّى يَلِينا

(٤) ترَى اللَّحِزَ الشَّحيحَ إذا أُمِرَّتْ عليه لمالِهِ فيها مُهينا

(٥) صَبَنْتِ الكأسَ عنّا أُمَّ عَمْرٍو وكانَ الكأسُ مَجْراها اليمينا[2]

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ٤٠ — ٤١ .

(٢) يروى هذا البيت والبيتان اللذان يليانه لعمرو بن عدى اللخمى ابن أخت جذيمة الأبرش ، قيل: إن رجلين خرجا يريدان مدح جذيمة الأبرش والتعرض لصلته ومعهما قينة لهما ،

(٦) وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرٍو   بصاحبِك الذي لا تَصْبَحِينا

(٧) وكأسٍ قد شربتُ ببَعْلَبَكٍّ   وأُخرى في دِمَشْقَ وقاصرينا

(٨) وإنّا سوفَ تُدرِكُنا المنايا   مقدَّرةً لنا ومقدَّرينا

(٩) قفي قبل التفرُّقِ ياظَعِينا   نُخَبِّرْكِ اليقينَ وتخبرينا

(١٠) قفِي نسألْكِ هل أحدَثْتِ صَرْماً   لوَشْكِ البينِ أو خُنْتِ الأمينا

(١١) بيوم كريهةٍ ضَرْباً وطعنا   أقرَّ به مَوَاليكِ العيونا

(١٢) وإنَّ غداً وإنَّ اليومَ رَهْنٌ   وبعدَ غدٍ بما لا تعلمينا

(١٣) تُريكَ إذا دخلتَ على خَلاه   وقد أمِنَتْ عيونَ الكاشحينا

(١٤) ذِراعَيْ عَيطَلٍ أدماءَ بِكْرٍ   هِجانِ اللونِ لم تَقرأْ جنينا

(١٥) وثدياً مثلَ حُقِّ العاجِ رَخْصاً   حَصَاناً من أكفِّ اللامسينا

(١٦) ومَتْنَيْ لَدْنةٍ سَمَقَتْ وطالتْ   رَوادِفُها تنوءُ بما وَلِينا

(١٧) ومأكَمةً يضيقُ البابُ عنها   وكشحاً قد جُنِنْتُ به جُنونا

(١٨) وسارِيتَي بلنطٍ أو رُخامٍ   يَرِنُّ خَشاشُ حَلْيِهما رَنينا

(١٩) فما وَجَدَتْ كوَجْدي أمُّ سَقْبٍ   أضَلَّتْه فرجَّعتِ الحنينا

(٢٠) ولا شمطاءُ لم يَترُكْ شقاها   لها من تسعةٍ إلا جنينا

(٢١) تذكَّرتُ الصِّبا واشتقتُ لمّا   رأيتُ حُمولَها أُصُلاً حُدِينا

(٢٢) فأعرضَتِ اليمامةُ واشمخرَّتْ   كأسيافٍ بأيدي مُصْلِتينا

(٢٣) أبا هندٍ فلا تعجلْ علينا   وأنظِرْنا نُخبِّرْكَ اليقينا

= فلما كانا في بعض الطريق قعدا يشربان ، فإذا هما بعمرو قد وقف عليهما ، فلما صبت القدح صرفته عنه إليهما فقال هذه الأبيات .

(٢٤) بأنَّا نُورِدُ الراياتِ بِيضاً ... ونُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قد رَوِينا

(٢٥) وأيَّامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ ... عَصَيْنَا المَلْكَ فيها أنْ نَدِينا

(٢٦) وسَيِّدِ مَعْشَرٍ قد تَوَّجُوهُ ... بتاجِ المُلْكِ يحمي المُحْجَرِينا

(٢٧) تركنا الخيلَ عاكفةً عليه ... مُقَلَّدَةً أعِنَّتَها صُفُونا

(٢٨) وأنزلنا البيوتَ بذي طُلوحٍ ... إلى الشاماتِ تَنفِي المُوعِدِينا

(٢٩) وقد هرَّتْ كلابُ الحيِّ مِنَّا ... وشَذَّبْنا قَتادَةَ مَنْ يلينا

(٣٠) متى ننقلْ إلى قومٍ رَحانا ... يكونوا في اللِّقاء لها طَحِينا

(٣١) يكونُ ثِفالُها شَرْقِيَّ نجدٍ ... ولُهْوَتُها قُضاعةُ أجمعينا

(٣٢) نزلتُمْ منزلَ الأضياف منَّا ... فأعجلْنا القِرَى أنْ تَشتِمُونا

(٣٣) قَرَيْناكُمْ فعجَّلْنا قِراكُمْ ... قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْداةً طَحُونا

(٣٤) نَعُمُّ أناسَنا ونَعِفُّ عنهُمْ ... ونحملُ عنهمُ ما حَمَّلونا

(٣٥) نُطاعِنُ ما تراخى الناسُ عنَّا ... ونَضْرِبُ بالسُّيوفِ إذا غُشِينا

(٣٦) بِسُمْرٍ من قَنَا الخَطِّيِّ لُدْنٍ ... ذوابلَ أوْ بِبِيضٍ يَعْتَلِينا

(٣٧) كأنَّ جماجمَ الأبطالِ فيها ... وُسُوقٌ بالأماعِزِ يَرْتَمِينا

(٣٨) نشقُّ بها رُؤوسَ القومِ شقًّا ... ونُخْلِيها الرِّقابَ فتَخْتَلِينا

(٣٩) وإنَّ الضِّغْنَ بعدَ الضِّغْنِ يبدو ... عليكَ ويُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينا

(٤٠) وَرِثْنا المجدَ قد علمتْ مَعَدٌّ ... نُطاعِنُ دُونَهُ حتَّى يَبِينا

(٤١) ونحنُ إذا عِمادُ الحيِّ خرَّتْ ... على الأحْفاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِينا

(٤٢) نجُذُّ رُؤوسَهُمْ في غيرِ بِرٍّ ... فما يدرُونَ ماذا يَتَّقُونا

(٤٣) كأنَّ سيوفَنا فينا وفيهِمْ ... مَخاريقٌ بأيدِي لاعبينا

(٤٤) كأنَّ ثيابَنا منّا ومنهمْ　　خُضِبْنَ بأُرْجُوانٍ أو طُلِينا
(٤٥) إذا ما عَىَّ بالإسْنافِ حَىٌّ　　من الهَوْلِ المشبَّهِ أنْ يكونا
(٤٦) نَصَبْنا مثلَ رَهْوَةَ ذاتَ حَدٍّ　　محافَظةً وكنّا السابقينا
(٤٧) بشبّانٍ يَرَوْنَ القتلَ مجداً　　وشِيبٍ فى الحروبِ مجرَّبينا
(٤٨) حُدَيّا الناسِ كلِّهُم جميعاً　　مقارَعةً بنيهم عن بنينا
(٤٩) فأمّا يومَ خشيتنا عليهمْ　　فتصبحُ خيلُنا عُصَباً ثُبِينا
(٥٠) وأما يومَ لانخشَى عليهمْ　　فنُمْعِنُ غارةً متلبِّبينا
(٥١) برأسٍ من بنى جُشَمَ بن بكرٍ　　ندقُّ به السُّهولةَ والحُزُونا
(٥٢) ألاَ لا يعلم الأقوامُ أنّا　　تَضَعْضَعْنا وأنّا قد وَنِينا
(٥٣) ألاَ لا يجهلَنْ أحدٌ علينا　　فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا
(٥٤) بأىِّ مشيئةٍ عمرَو بنَ هندٍ　　نكونُ لقَيْلِكم فيها قَطِينا
(٥٥) بِأىٍّ مشيئة عمرَو بنَ هندٍ　　تُطيعُ بنا الوُشاةَ وَتَزْدَرِينا
(٥٦) تَهَدَّدْنا وأوْعِدْنا رُويداً　　متى كنا لأمِّك مَقْتَوِينا
(٥٧) فإنْ قناتنا يا عمرُو أعْيَتْ　　على الأعداء قبلَك أن تَلِينا
(٥٨) إذا عَضَّ الثقاف بها اشمأزتْ　　وولَّتْهمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونا
(٥٩) عَشَوْزَنَةً إذا انقلبتْ أرَنَّتْ　　تشجُّ قفَا المثقِّفِ والجبينا
(٦٠) فهلْ حُدِّثْتَ فى جُشَمَ بن بكرٍ　　بنقصٍ فى خطوب الأوّلينا
(٦١) ورِثْنا مجدَ علقمةَ بنِ سَيْفٍ　　أباح لنا حصونَ المجْدِ دِينا
(٦٢) ورِثتُ مُهلهِلاً والخيرَ منهمْ　　زهيراً نِعْمَ ذُخرُ الذاخرينا
(٦٣) وعتّاباً وكلثوماً جميعاً　　بهمْ نلنا تراثَ الأكرمينا

(٦٤) وذا البُرَةِ الذى حُدِّثْتَ عنهُ … به نُحْمَى ونحمِى المُحْجَرِينا
(٦٥) ومنّا قبلهُ الداعى كليبٌ … فأىُّ المجدِ إلا قد وَلِينا
(٦٦) متى نَعْقِدْ قرينتنا بحبلٍ … نَجُذَّ الحبلَ أو نَقِصِ القرينا
(٦٧) ونُوجَدُ نحنُ أمنعُهُمْ ذِماراً … وأوفاهم إذا عَقَدوا يمينا
(٦٨) ونحنُ غَداةَ أُوقِدَ فى خَزَازَى … رَفَدْنا فوقَ رِفْدِ الرّافِدِينا
(٦٩) ونَحْنُ الحابسون بذى أُراطَى … تَسَفُّ الجِلّةُ الخُورُ الدَّرِينا
(٧٠) وكنّا الأَيْمَنِينَ إذا التقينا … وكان الأَيْسَرِينَ بنُو أَبِينا
(٧١) فصالوا صَوْلَةً فيمن يليهم … وصُلْنا صَوْلَةً فيمنْ يَلِينا
(٧٢) فآبُوا بالنِّهَابِ وبالسَّبايَا … وأُبْنَا بالمُلوكِ مُصَفَّدِينا
(٧٣) إليكُمْ يابنى بَكرٍ إليكُمْ … أَلَمَّا تعرفُوا منّا اليقينا
(٧٤) أَلَمَّا تعرفُوا منّا ومنكُمْ … كتائبَ يَطَّعِنَّ ويَرْتَمِينا
(٧٥) علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليمانِى … وأسْيافٌ يُقِمْنَ ويَنْحَنِينا
(٧٦) علينا كُلُّ سابغةٍ دِلاصٍ … تَرَى فوقَ النِّجادِ لها غُضُونا
(٧٧) إذا وُضِعَتْ عَنِ الأبطالِ يوماً … رأيتَ لها جُلودَ القَوْمِ جُونا
(٧٨) كأنَّ غُضونهنَّ مُتونُ غُدْرٍ … تُصَفِّقُها الرياحُ إذا جَرَيْنا
(٧٩) وتحملُنا غَداةَ الرَّوْعِ جُرْدٌ … عُرِفْنَ لنا نقائِذَ وافتُلِينا
(٨٠) وَرَدْنَ دَوَارِعاً وَخَرَجْنَ شُعْثاً … كأمثالِ الرَّصائعِ قَدْ بَلِينا
(٨١) وَرِثْناهُنَّ عن آباءِ صِدْقٍ … ونُورِثُها إذا مُتْنا بَنِينا
(٨٢) على آثارنا بِيضٌ حِسَانٌ … نُحاذِرُ أنْ تُقَسَّمَ أو تَهُونا
(٨٣) أَخَذْنَ على بُعُولتِهنَّ عَهْداً … إذا لاقَوْا كتائبَ مُعْلَمِينا

(٨٤) لَيَسْتَلِبُنَّ أفراساً وبِيضاً — وأسْرَى فى الحديدِ مُقَرَّنينا

(٨٥) ترانا بارزِينَ وكلُّ حَىٍّ — قد اتَّخذوا مخافتَنا قَرِينا

(٨٦) إذا مارُحْنَ يَمْشِينَ الهُوَيْنَى — كما اضطربَتْ مُتُونُ الشّاربينا

(٨٧) يَقُتْنَ جِيادَنا ويَقُلْنَ لَسْتُمْ — بُعُولَتَنا إذا لم تَمْنَعُونا

(٨٨) إذا مالم نَحْمِهِنَّ فلا بَقِينا — لشىءٍ بعدهنَّ ولا حَيِينا

(٨٩) ظعائنَ من بنى جُشَمَ بن بكرٍ — خَلَطْنَ بِمِيسَمٍ حسباً ودِينا

(٩٠) وما مَنَعَ الظعائنَ مثلُ ضَرْبٍ — ترى منه السّواعدَ كالقُلِينا

(٩١) كأنّا والسُّيُوفُ مُسَلَّلاتٌ — ولَدْنا الناسَ طُرًّا أجمعينا

(٩٢) يُدَهْدُونَ الرءوسَ كما تُدَهْدِى — حَزاوِرَةٌ بأبطَحِها الكُرِينا

(٩٣) وقد علِمَ القبائلُ مِنْ مَعَدٍّ — إذا قُبَبٌ بأبطَحِها بُنِينا

(٩٤) بأنّا المُطْعِمُونَ إذا قَدَرْنا — وأنّا المُهْلِكُونَ إذا ابْتُلِينا

(٩٥) وأنّا المانِعُونَ لما أرَدْنا — وأنا النّازلونَ بحيثُ شِينا

(٩٦) وأنّا التارِكون إذا سَخِطْنا — وأنّا الآخذونَ إذا رَضِينا

(٩٧) وأنّا العاصِمونَ إذا أُطِعْنا — وأنا العارِمُونَ إذا عُصِينا

(٩٨) ونشربُ إن وَرَدْنا الماء صَفْواً — ويَشْرَبُ غيرُنا كَدِراً وطِينا

(٩٩) ألا أبلغ بنى الطَّمّاحِ عَنّا — ودُعْمِيًّا فكيفَ وَجَدْتُمُونا

(١٠٠) إذا ما المَلْكُ سامَ الناسَ خَسْفاً — أبَيْنا أنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينا

(١٠١) لنا الدُّنيا ومَنْ أضْحَى عليها — ونَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قادرينا

(١٠٢) نُسَمَّى ظالمينَ وما ظَلَمْنا — ولكنّا سَنَبْدَأ ظالمينا

(١٠٣) مَلأْنَا البَرَّ حتّى ضاقَ عنَّا وَماءُ البَحْرِ نَمْلؤُهُ سَفِينا

(١٠٤) إذا بلغَ الفِطَامَ لنا صَبِيٌّ تَخِرُّ له الجبابرُ سَاجِدِينا

عنترة

وهو من فحول الطبقة السادسة من شعراء الجاهلية عند ابن سلاَّم ، وقد وضعه مع عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلِّزة ، وسُوَيْد بن أبى كاهل ، قال : ولكل واحد منهم واحدة . وعنترة هو ابن شداد بن معاوية بن قُرَاد بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قُطَيعة بن عبس ، وله قصيدة ، وهى :

يادارَ عَبْلَةَ بالجِوَاءِ تكلّمى وعِمى صَبَاحاً دَارَ عَبْلَةَ واسلمِى

وله شعرٌ كثير ، إلا أن هذه نادرة ، فألحقوها مع أصحاب الواحدة[1] ...

وقال ابن قتيبة فى نسب عنترة : هو عنترة بن عمرو بن شداد بن عمرو بن قراد بن مخزوم . . . ونقل عن ابن الكلبىّ أن شدادًا هو جدُّه أبو أبيه ، غلب على اسم أبيه ، فنُسب إليه ، وإنما هو عنترة بن عمرو بن شداد . وقال غيره : شدّاد عمّه ، وكان عنترة نشأ فى حجره ، فنسب إليه دون أبيه .

وإنما ادّعاه أبوه بعد الكِبَر ، وذلك أنه كان لأَمَةٍ سوداء ، يقال لها « زَبِيبَة » . وكانت العرب فى الجاهلية إذا كان للرجل منهم ولد من أمةٍ استعبده ، وكان لعنترة إخوة من أمه عبيد .

وكان سبب ادّعاء أبى عنترة إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١٢٧ — ١٢٨ .

بنى عبس ، فأصابوا منهم ، فتتبعهم العبسيون ، فلحقوهم فقاتلوهم عما معهم ، وعنترة فيهم ، فقال له أبوه : كُرَّ ياعنترة ! فقال عنترة : العبد لا يحسن الكَرّ ، إنما يحسن الحِلاَب والصَّرّ[1] ! فقال : كُرَّ وأنت حُرٌّ ! . فكرّ وقاتل يومئذ فأبلى ، واستنقذ ما كان بأيدى عدوهم من الغنيمة ، فادعاه أبوه بعد ذلك ، وألحق به نسبه .

وعنترة أحد « أغربة العرب[2] » وكان من أشدّ أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سابّه رجل من بنى عبس ، فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وعيّره بذلك ، وبأنه لا يقول الشعر ، فقال له عنترة : والله إن الناس ليترافدون بالطُّعْمة ، فما حضرتَ مَرْفَد الناس أنت ولا أبوك ولا جدّك قطّ ، وإن الناس لَيُدْعَوْن فى الغارات فيعرفون بتسويمهم ، فما رأيناك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قطّ ، وإن اللّبس ليكون بيننا ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدّك خطة فيصل ، وإنما أنت فِقْعٌ نبت بقَرْقَر ، وإنى لأحتضر البأس ، وأوفى المغنم ، وأعفّ عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدى ، وأفصل الخطة الصمعاء ، وأما الشعر فستعلم . . !

فكان أول ما قال قصيدة : * هلْ غادرَ الشعراء من مُتَرَدَّمِ * وهى أجود شعره وكانوا يسمونها (المُذْهَبَة)[3] .

---

(١) الصر شد الضرع برباط ، وكان من عادة العرب أن تصر ضروع الحلوبات إذا أرسلوها إلى المرعى سارحة ، ويسمون ذلك الرباط الصرار ، فإذا راحت عشياً حلت تلك الأصرة وحلبت .

(٢) أغربة العرب سودانهم ، شبهوا بالأغربة فى لونهم ، وهمّ ثلاثة: عنترة وأمه زبيبة سوداء ، وخفاف بن عمير الشريدى من بنى سليم وأمه ندبة وإليها ينسب وكانت سوداء ، والسليك بن عمير السعدى وأمه سلكة وإليها ينسب وكانت سوداء .

(٣) الفصل القضاء بين الحق والباطل ، واسم ذلك القضاء الذى يفصل بينهما فيصل =

وكان عنترة قد شهد حرب « داحس والغبراء » فحسن فيها بلاؤه ، وحمدت مشاهده .

قال أبو عبيدة : إن عنترة بعد ما تأوّت[(١)] عبس إلى غطفان بعد يوم جبلة ، وحملت الدماء ، احتاج ، وكان صاحب غارات ، فكبر فعجز عنها ، وكان له بَكر على رجل من غطفان ، فخرج قِبَلَه يتجازاه ، فهاجت رائحة من صَيِّف ، وهبّت ناخفة ، وهو بين شَرْج وناظرة ، فأصابت الشيخ فهرأته ، فوجدوه ميتا بينهم[(٢)] .

وكان عنترة يلقب « عنترة الفلْحاء » لتشقق فى شفته ، وأنثوا اللقب اتباعاً لتأنيث اسمه ، أو لتأنيث الشفة التى وصفت بالفلَح ، وكان يكنى « أبا المغلِّس » والمغلِّس هو السائر فى الغلَس ، والسير فى الظلام من أمارات الجرأة والشجاعة ، أو أن ذلك إشارة إلى سواد لونه .

وقد عاصر عنترة الحطيئة وعمرو بن معد يكرب ، وكلاهما أدرك الإسلام ، ووصفه يوما الحطيئة لعمرو بن الخطاب ، حين سأله : كيف كنتم فى حربكم ؟ فقال : كان قيس بن زهير فينا ، وكان حازماً فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنترة ، فكنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا حجم . وذكره عمرو بن معد يكرب

= والفقع بالفتح والكسر الرخو من الكمأة وهو أردؤها ، والقرقر : الأرض المطمئنة اللينة ، وهذا مثل ، يقال : أذل من فقع بقرقر ، لأن الدواب تنجله بأرجلها ولا أصول له ولا أغصان ، والصماء اللاضية ، والمتردم من قولهم ردمت الثوب أى أصلحته . والمعنى هل أبقى الشعراء لأحد معنى إلا وقد سبقونا إليه ، فلم يدعوا مقالا لقائل (انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠٦/١) .

(١) تأوت عادت ، أوى وتأوى بمعنى .

(٢) الصيف بتشديد الياء المكسورة الماء الذى يجىء فى الصيف ، والريح الناخفة الباردة ، وشرج وناظرة ماءان لعبس .

فى قوله : ما أبالى من لقيت من فرسان العرب مالم يلقنى حُرَّاها وعبداها ، يعنى بالحرَّين : عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب . ويعنى بالعبدين : عنترة ، والسُّلَيْك بن السلكة . وفى نحو سنة ٦٥٠ م (٣٠ هـ) مات الحطيئة ، وقبله فى سنة ٦٤٢ م (٢١ هـ) مات عمرو بن معد يكرب . وقبل هذا بأعوام كانت «حرب داحس والغبراء» التى خبت نارها بين سنتى ٦٠٨م وسنة ٦١٠م . وقد رجح صاحب كشف الظنون وفاة عنترة سنة ٦١١ م وروى غيره أن وفاته كانت سنة ٦١٥ م . وفى رواية أن عنترة مات مقتولا ، وكان أغار على بنى طيء ، وهو شيخ ، فرماه ابن سلمى ، وقاتل عنترة حتى أتى قومه وهو مجروح ، فقال :

وإن ابنَ سَلْمى عنده فاعلموا دمى   وهيهات لا يُرْجَى ابنُ سَلْمَى ولادَمى

وعاش ابن سلمى قاتل عنترة إلى مابعد الهجرة ، وكان أحد الوافدين من طيء على النبى صلى الله عليه وسلم[1] .

وكان عنترة قد عشق فى شبابه (عبلة) ابنة عمة ، قبل أن يحرره أبوه ويدّعيه ، فأبى عمه أن يزوجه ابنته وهو عبد ، لحفزه ذلك إلى طلب المعالى ونشدان المجد ، وأثار شاعريته . فاجتمع له الشعر السلس القوىّ ، والشجاعة النادرة ، والمروءة والبذل ، حتى إذا أصبح سيداً حراً زوّجه عمه ابنته عبلة .

وإنك لواجد فى شعره آثار تلك العظمة النفسية التى وهبها ذلك الفارس العربى ، الذى أصبح اسمه علما على الشجاعة والنجدة ، وعنوانا على الحب الصادق ، والبذل والسخاء ، وجرى ذكره فى العصور يتغنى به العاشقون والكرام والشجعان ، وقد أضيف إلى أخباره كثير ، وحمل عليه من الشعر كثير ، حتى أصبح عنترة قصة تروى فى الأجيال .

---

(١) انظر شرح ديوان عنترة بن شداد : ل تحقيق عبد المنعم شابى ، وتقديم إبراهيم الإبيارى (شركة فن الطباعة — القاهرة)

وفى شعره الموثوق بصحته وصدق نسبته إليه معالم شاعرية ناضجة ، تعبّر عن تجارِبها فى قوة وفحولة ، وفى لغة تجمع الجزل والسهل على حسب ما يقتضيه كل غرض من الأغراض المختلفة التى عالجها . ففيه الفخر بشجاعته وسخائه ، وفيه الوصف ، وفيه النسيب الصادق . كل ذلك فى معان تجد فيها الشخصية بارزة ، والجدّة ظاهرة ، فقد خلط الحياة التى عاشها والبيئة التى عاش فيها ، والأحداث التى شهدها ، بهمسات قلبه ، وذوب عواطفه ، ونجوى فؤاده ، حتى كان ذلك الشعر الصادق المتين الذى يشهد لصاحبه بالفحولة ، كما شهدت له الوقائع والأحداث بالبسالة والبطولة .

معلقة عنترة

أشرنا فيما سبق إلى السبب الذى أثار عنترة لإنشاد معلقته ، وهو ما كان بينه و بين رجل من بنى عبس سابه ، وعيّره بسواد أخوته وسواد أمه ، وأنه لا يقول الشعر ، فكان ذلك هو الذى أثار شاعريته ، وأطلق لسانه بتلك المعلقة التى كانت أول ماقال الشعر ، كما ذكر ذلك ابن قتيبة وغيره .

ولست أطمئن إلى هذا السبب ، الذى يوحى بأن عنترة قد ارتجل هذه المعلقة ارتجالا بسببه ، ليدل على أن فى استطاعته أن يقول الشعر . فقد بلغ المأثور من هذه المعلقة حدًّا كبيراً من الجودة والإتقان والابداع الفنى وطول النفس ، يصبح معه القول بأن تلك المعلقة كانت أول ما قال عنترة من الشعر ضربا من الخيال ، فليس الشعر الذى نقرؤه فى تلك المعلقة شعر شاعر مبتدىء ، بل هو شعر ناضج كل النضج ، وهو فى الذروة من شعر الفحول الذين راضوا أنفسهم طويلاً على تلك الصناعة ، وفيها أغراض أخرى عبر عنترة فيها ،

إشارة إلى ذلك الحديث ؛ بل إن تلك الأغراض من الممكن أن تكون أو يكون واحد منها سببا لإنشادها .

وقد بدأها عنترة بذلك المطلع الخالد الذى عبّر فيه عن نضج الشعر الجاهلى قبله ، وسبق الشعراء إلى معانيه ، وكأنه يتهيب القول ، لأن السابقين لم يدعوا مقالاً لقائل ، وأكمل ذلك المطلع بذكر الديار التى عرفها بعد توهم ؛ ثم أعقب ذلك بمناجاة دار عبلة وتحيتها واستنطقها علّها تخبره عن أهلها الظاعنين عنها ، فتخفف من لوعته ووجده . وقد ذهب بعض الرواة إلى أن بيت عنترة .

يادار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

هو مطلع القصيدة ، وكأنهم ينكرون أن يكون البيت الأول من شعر عنترة ولا حجة لهم فى هذا الإنكار ، وممن ذهب هذا المذهب ابن سلام الجمحى صاحب الطبقات ، وابن عبدربه صاحب العقد ، وغيرهما . وهذا البيت الذى اختاروه مطلعاً يقع ثانى أبيات المعلقة فى بعض الروايات ويقع رابعاً فى غيرها ، كما سيأتى فيما نثبت من شعر المعلقة ، والبيتان اللذان أغفلهما أكثر الرواة هما :

(٢) أعياكَ رسمُ الدار لم يتكلَّمِ حتّى تكلَّم كالأصمِّ الأعجَمِ
(٣) ولقد حبستُ بها طويلاً ناقتى أشكو إلى سُفْعٍ رواكدَ جُثَّمِ

ثم أخذ يصف دار عبلة متغزلا بها ، ويذكر منازلها ومنازل قومه ، ويوازن بين حالها وحاله ، ويذكر صعوبة طلابها وبعد مزارها ، ويصف حبّه لها ، وحلاوة ثغرها ، وما ينبعث من نشرها ، فشبه ثغرها بفأرة المسك مرة ، وبالروضة الأنف التى تجود عليها السحب فلا تخلو من الرىّ مرة أخرى . وهو فى كل مرة لاينسى أن

يذكر ماهى فيه من أمن ودعة ، ومايقاسى هو فى غدوه ورواحه من العناء ، ثم أخذ فى وصف الناقة التى قد تبلغه دارها ، على نحو ما فعل طرفة ، ولكنه لم يسرف ، وانتقل إلى وصف فرسه الذى يخوض به معامع القتال، ليذكر بلاءه فيها ، وأنه لم يستطع أن ينساها وهو فى غمراتها ، والرماح تنهل منه ، والسيوف تقطر من دمه ، وكيف كان يصارع الأبطال فيصرعهم ، ويخرق بسيفه دروعهم ، ثم يطعنهم برمحه ، ويعلوهم بسيفه ، ثم يستريح من ذلك قليلا ليناجى حبيبته التى حرمت عليه ، ويذكر إرساله جاريته لتتجسس أخبارها ، ثم يعاود ما كان فيه من وصف بلائه فى الحرب ، ويذكر ما كان من استحثاث قومه له ودعائهم إياه ليقدم الصفوف ويشتت جموع الأعداء ، ويصل ذلك بالاعتذار إلى حبيبته عن عدم استطاعته زيارتها بسبب تلك الأهوال التى كان يخوضها ، وختم قصيدته بما ساقه من الوعيد لا بنى ضمضم اللذين كان عنترة قد قتل أباهما فتوعداه ونذرا دمه .

ويتضح من هذا أن الغرض الغالب على معلقة عنترة هو الفخر ببسالته فى ميادين القتال ، وصبره على لقاء الأبطال ، وذلك الغرض مشوب بالغزل ومشوب بالوصف . ومن الممكن الذهاب إلى أن الغرض الأصلى من القصيدة الغزل ، وأن ما أسرف فيه عنترة من ذكر بطولته ووصف وقائعه قد تذرع به ليغزو قلب حبيبته بشجاعته الفائقة ، ليعوّض بذلك مافقده من جمال اللون ونسب الأم ، لتكون تلك الشجاعة مفخرته التى فقدها كثير من حسان الوجوه وكرام أعراق الأبوين .

وفيما يلى نص معلقة عنترة :

(١) هل غادر الشعراء من متردَّمِ أمْ هل عرفتَ الدارَ بعد توَهُّمِ

(٢) أعياكَ رسمُ الدارِ لم يتكلمِ حتّى تكلَّمَ كالأصَمِّ الأعجمِ

(٣) ولقد حَبَسْتُ بها طويلا ناقتي   أشكو إلى سُفْعٍ رواكدَ جُثَّمِ

(٤) يا دارَ عَبْلَةَ بالجِواء تَكلَّمِي   وعِمِي صباحاً دارَ عبلةَ واسْلَمِي

(٥) دارٌ لآنسةٍ غضيضٍ طَرْفُها   طَوْعِ العِناقِ لذيذةِ المتبسَّمِ

(٦) فوقفتُ فيها ناقتي وكأنها   فَدَنٌ لأَقْضِيَ حاجةَ المتلوِّمِ

(٧) وتَحُلُّ عبلةُ بالجواء وأهلنا   بالحَزْنِ فالصَّمَّانِ فالمتثلَّمِ

(٨) حُيِّيتَ من طللٍ تقادَمَ عهدُهُ   أقْوَى وأقفَرَ بعدَ أمِّ الهيثمِ

(٩) حلَّتْ بأرضِ الزائرينَ فأصبحتْ   عَسِراً عليَّ طِلاَبُكِ ابنةَ مَخْرَمِ

(١٠) عُلِّقْتُها عَرَضاً وأقتلُ قومَها   زَعْماً لعَمْرُ أبيكَ ليسَ بمزْعَمِ

(١١) ولقد نزلْتِ فلا تَظُنِّي غيرَه   مِنِّي بمنزلةِ المُحَبِّ المُكرَمِ

(١٢) كيف المزارُ وقد تربَّع أهلُها   بعُنَيْزَتَين وأهلُنا بالغَيْلَمِ

(١٣) إن كنتِ أزمعْتِ الفِراقَ فإنَّما   زُمَّتْ رِكابُكُمُ بليلٍ مُظْلِمِ

(١٤) ما راعني إلا حَمُولَةُ أهلِها   وسْطَ الدِّيارِ تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ

(١٥) فيها اثنتان وأربعون حَلُوبةً   سُوداً كخافيةِ الغُرابِ الأسْحَمِ

(١٦) إذ تَسْتَبِيكَ بذي غُرُوبٍ واضحٍ   عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ لذيذِ المَطْعَمِ

(١٧) وكأنما نظرت بِعَيْنَيْ شادنٍ   رَشَأٍ من الغِزْلانِ ليسَ بِتَوْأَمِ

(١٨) وكأنَّ فأرَةَ تاجرٍ بقَسِيمةٍ   سَبَقَتْ عوارضَها إليكَ من الفَمِ

(١٩) أو رَوْضَةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نَبْتَها   غَيْثٌ قليلُ الدِّمْنِ ليس بمَعْلَمِ

(٢٠) جادتْ عليها كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ   فتركْنَ كلَّ قرارةٍ كالدِّرْهَمِ

(٢١) سَحًّا وتَسْكاباً فكلَّ عَشِيَّةٍ   يجري عليها الماءُ لم يتصرَّمِ

(٢٢) وخلا الذُّبابُ بها فليس ببارحٍ   غَرِداً كفعلِ الشاربِ المترنِّمِ

(٢٣) هَزِجاً يحكُّ ذراعَهُ بذراعه … قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ

(٢٤) تُمْسِي وتُصْبِحُ فوقَ ظهرِ حَشِيَّةٍ … وأَبِيتُ فوقَ سَراةِ أدْهَمَ مُلْجَمِ

(٢٥) وحَشِيَّتِي سَرْجٌ على عَبْلِ الشَّوَى … نَهْدٍ مَراكِلُهُ نَبِيلِ المَحْزِمِ

(٢٦) هل تُبْلِغَنِّي دارَها شَدَنِيَّةٌ … لعِنَتْ بمحرومِ الشرابِ مُصَرَّمِ

(٢٧) خَطَّارةٌ غِبَّ السُّرَى مَوَّارَةٌ … تَطِسُ الإِكامَ بوَخْدِ خُفٍّ مِيثَمِ

(٢٨) فكأنّما أَقِصُ الإكامَ عَشِيَّةً … بقَريبِ بَيْنَ المَنْسِمَيْنِ مُصَلَّمِ

(٢٩) تأوي لهُ قُلُصُ النَّعامِ كما أَوَتْ … حِزَقٌ يَمانِيَةٌ لأَعْجَمَ طِمْطِمِ

(٣٠) يَتْبَعْنَ قُلَّةَ رأسِهِ وكأنّه … حَرَجٌ على نَعْشٍ لهُنَّ مُخَيَّمِ

(٣١) صَعْلٍ يَعُودُ بذي العشيرة بَيْضَهُ … كالعبدِ ذي الفَرْوِ الطَّويلِ الأصلمِ

(٣٢) شَرِبَتْ بماءِ الدُّحْرُضَيْنِ فأصبحتْ … زَوْراءَ تَنْفِرُ عن حياضِ الدَّيْلَمِ

(٣٣) وكأنّما تنأى بجانبِ دَفِّها الـ … وَحْشِيِّ من هَزِجِ العشيِّ مُؤَوَّمِ

(٣٤) هِرٍّ جَنِيبٍ كلَّما عَطَفَتْ لهُ … غَضْبَى اتَّقاها باليدينِ وبالفَمِ

(٣٥) أَبْقَى لها طولُ السِّفارِ مُقَرْمَداً … سَنَداً ومثلَ دعائمِ المتخيِّمِ

(٣٦) بَرَكَتْ على ماءِ الرِّداعِ كأنّما … بَرَكَتْ على قَصَبٍ أَجَشَّ مُهَضَّمِ

(٣٧) وكأنَّ رُبًّا أو كُحَيْلاً مُعْقَداً … حَشَّ الوَقُودُ به جوانبَ قُمْقُمِ

(٣٨) يَنْباعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ * زَيَّافَةٍ مثلِ الفَنِيقِ المُكْدَمِ

(٣٩) إنْ تُغْدِفي دُوني القِناعَ فإنّني … طَبٌّ بأَخْذِ الفارسِ المُسْتَلْئِمِ

(٤٠) أَثْنِي عليَّ بما عَلِمْتِ فإنّني … سَهْلٌ مُخالَقَتي إذا لم أُظْلَمِ

(٤١) فإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظُلْمِيَ باسِلٌ … مُرٌّ مَذاقَتُهُ كطَعْمِ العَلْقَمِ

(٤٢) ولقد شربتُ منَ المُدامةِ بعدَما ... رَكَدَ الهواجرُ بالمَشُوفِ المُعلَمِ
(٤٣) بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسِرَّةٍ ... قُرِنَتْ بأزهرَ فى الشمالِ مُفدَّمِ
(٤٤) فإذا شربتُ فإننى مُستهلِكٌ ... مالِى وعِرضِى وافرٌ لمْ يُكلَمِ
(٤٥) وإذا صَحَوتُ فما أقصِّرُ عن ندًى ... وكما علِمْتِ شمائلى وتكرُّمِى
(٤٦) وحليلِ غانيةٍ تركتُ مُجدَّلاً ... تمكو فريصتُه كشِدقِ الأعلَمِ
(٤٧) سَبقَتْ يدَاىَ له بعاجلِ طعنةٍ ... ورَشاشِ نافذةٍ كلونِ العَندَمِ
(٤٨) هلاَّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ... إنْ كنتِ جاهلةً بما لم تعلَمِى
(٤٩) إذْ لا أزالُ على رِحالةِ سابحٍ ... نَهْدٍ تعاوَرَهُ الكُماةُ مُكلَّمِ
(٥٠) طوْراً يُجرَّدُ للطِّعانِ وتارةً ... يأْوِى إلى حَصَدِ القِسِىِّ عرَمْرَمِ
(٥١) يُخبِرْكِ من شهِدَ الوَقيعةَ أننى ... أغْشَى الوَغَى وأعِفُّ عند المَغْنَمِ
(٥٢) فأرَى مغانمَ لو أشاءُ حَوَيْتُها ... فيصُدُّنى عنها الحَيَا وتكرُّمِى
(٥٣) ولقد ذكرتُكِ والرِّماحُ نواهلٌ ... منِّى وبيضُ الهِندِ تقطُرُ من دَمِى
(٥٤) فوَدِدْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنَّها ... لَمَعَتْ كبارقِ ثغرِكِ المتبسِّمِ
(٥٥) ومُدَجَّجٍ كرِهَ الكُماةُ نِزَالَهُ ... لا مُمْعِنٍ هَرَباً ولا مُستسلِمِ
(٥٦) جادتْ له كفِّى بعاجلِ طَعْنةٍ ... بمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقوَّمِ
(٥٧) برحيبةِ الفرْغينِ يَهْدِى جرْسُها ... باللَّيلِ مُعتسَّ الذئابِ الضُّرَّمِ
(٥٨) فشككْتُ بالرُّمحِ الأصمِّ ثيابَهُ ... ليس الكريمُ على القَنا بمحرَّمِ
(٥٩) فتركتُه جزَرَ السباعِ ينُشْنَهُ ... يَقْضَمْنَ حُسْنَ بَنانِه والمِعْصَمِ
(٦٠) ومِشَكِّ سابغةٍ هتكتُ فُرُوجَها ... بالسَّيفِ عن حامِى الحقيقةِ مُعلِمِ
(٦١) رَبِذٍ يداهُ بالقِداحِ إذا شتَا ... هتَّاكِ غاياتِ التِّجارِ مُلوَّمِ

(٦٢) لمّا رآنى قد نزلتُ أُريدُه ... أبدَى نواجذه لغيرِ تبسُّمِ
(٦٣) فطعنتُه بالرمح ثم علوتُه ... بمُهنّدٍ صافى الحديدةِ مِخْذَمِ
(٦٤) عَهْدِى به مَدَّ النهارِ كأنّما ... خُضِبَ البنانُ ورأسُه بالعِظلِمِ
(٦٥) بَطَلٌ كأنّ ثيابَه فى سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نعالَ السِّبْتِ ليس بتوْأمِ
(٦٦) ياشاةَ ما قَنَصٍ لمنْ حلّتْ له ... حَرُمَتْ على وليتَها لم تَحْرُمِ
(٦٧) فبعثتُ جاريتى فقلتُ لها اذهَبِى ... فتجسّسِى أخبارَها لىَ واعلمِى
(٦٨) قالتْ رأيتُ من الأعادى غِرّةً ... والشاةُ مُمْكِنَةٌ لمنْ هو مُرْتَمِى
(٦٩) وكأنّما التفتتْ بجِيدِ جَدَايةٍ ... رَشَإٍ من الغِزْلانِ حُرٍّ أرْثَمِ
(٧٠) نُبّئتُ عَمْراً غيرَ شاكرِ نِعْمتِى ... والكفرُ مَخْبَثَةٌ لنفس المُنْعِمِ
(٧١) ولقد حفظتُ وَصاةَ عمِّى بالضُّحَا ... إذْ تَقْلِصُ الشفتانِ عن وَضَحِ الفَمِ
(٧٢) فى حَوْمَةِ الحَرْبِ التى لا تشتكى ... غَمَرَاتِها الأبطالُ غيرَ تَغَمْغُمِ
(٧٣) إذْ يتّقون بىَ الأسنّةَ لم أخِمْ ... عنها ولكنّى تضايقَ مُقْدَمِى
(٧٤) ولقد هممتُ بغارةٍ فى ليلةٍ ... سوداءَ حالكةٍ كلَوْنِ الأدْلَمِ
(٧٥) لما سمعتُ نداءَ مُرّةَ قد علا ... وابنَىْ ربيعةَ فى الغُبارِ الأقتَمِ
(٧٦) ومُحلِّمٍ يسْعَوْنَ تحتَ لوائهمْ ... والموتُ تحتَ لواءِ آلِ مُحلَّمِ
(٧٧) أيقنتُ أنْ سيكونُ عند لقائهمْ ... ضَرْبٌ يُطيرُ عن الفِراخِ الجُثَّمِ
(٧٨) لما رأيتُ القومَ أقبلَ جمعُهمْ ... يتذامرونَ كررتُ غيرَ مُذمَّمِ
(٧٩) يدْعُونَ عنترَ والرماحُ كأنّها ... أشطانُ بئرٍ فى لَبانِ الأدهَمِ
(٨٠) مازلتُ أرميهمْ بثُغْرةِ نحرِهِ ... ولَبانِه حتّى تَسَرْبلَ بالدّمِ
(٨١) فازْوَرَّ من وقعِ القَنَا بلَبانِه ... وشكَا إلىَّ بعَبْرَةٍ وتحَمْحُمِ

(٨٢) لو كانَ يَدرِي ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مُكلِّمي

(٨٣) ولقد شفَى نفسي وأَبرَأَ سُقمَها قِيلُ الفوارسِ وَيكَ عنترَ أَقدِمِ

(٨٤) والخيلُ تقتحمُ الخَبارَ عوابساً ما بين شَيظَمَةٍ وأَجرَدَ شَيظَمِ

(٨٥) ذُلُلٌ رِكابي حيثُ شِئتُ مُشايِعِي لُبِّي وأَحفِزُهُ بأَمرٍ مُبرَمِ

(٨٦) إنِّي عَدَاني أَنْ أَزورَكِ فاعلمي ما قد علمتِ وبعضُ مالم تعلمِي

(٨٧) حالتْ رماحُ ابنَيْ بغيضٍ دُونكمْ وزوَتْ جوَانِي الحربِ مَنْ لم يُجرِمِ

(٨٨) ولقد كرَرْتُ المُهرَ يدْمَى نحرُهُ حتَّى اتَّقتْنِي الخيلُ يا ابنةَ حِذْيَمِ

(٨٩) ولقد خَشِيتُ بأنْ أموتَ ولم تَدُرْ للحربِ دائرةٌ على ابنَيْ ضَمْضَمِ

(٩٠) الشَّاتِمَيْ عِرضِي ولم أَشتُمْهُمَا والناذِرَيْنِ إذا لَم الْقَهُمَا دَمِي

(٩١) إنْ يفعلا فلقد تركتُ أباهُمَا جَزَرَ السِّباعِ وكلِّ نَسرٍ قَشعَمِ

الحارث بن حلزة

من شعراء الطبقة السادسة الجاهلية عند ابن سلام ، وموضعه عنده مع عمرو ابن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، وسويد بن أبي كاهل . وهم الذين قال فيهم إن لكل واحد منهم واحدة . . . وقال عن الحارث بن حلزة : وله قصيدة ، التي أولها :

آذنتنا ببينها أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّوَاءُ

وله شعر سوى هذا ، وهو الذي يقول في شعره :

لا تــكسَعْ الشَّوْلَ بأغبارهــا إنّك لا تدرى مَن النّاتج (١)

وهو الحارث بن حلزة من بنى يشكر ، من بكر بن وائل . قال أبو عبيدة : أجود الشعراء قصيدة واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم ، والحارث ابن حلزة ، وطرفة بن العبد . وزعم الأصمعى أن الحارث قال قصيدته هذه وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة (٢) . ويقال إنه ارتجلها ارتجالا فى شيء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، بين يدى عمرو بن هند ، وكان ينشده من وراء السجف للبرص الذي كان به ، فأمر برفع السجف بينه و بينه ، استحسانا لها ، وكان الحارث متوكئا على عنزة ، فارتزّت فى جسده وهو لايشعر (٣) .

وقد كان الحارث شاعر بكر سيداً من ساداتها ، كما كان عمرو بن كلثوم سيد تغلب وشاعرها ، وقد مرّ فى ترجمة عمرو بن كلثوم ذكر الظروف التى أنشد فيها عمرو بعض معلقته « ألاهبّ . . » وهى الظروف نفسها التى أوحت إلى الحارث بن حلزة أن يرتجل معلقته « آذنتنا ببينها أسماءُ » فإن عمرو بن هند لما ملك ، وكان جباراً عظيم السلطان ، جمع بكراً وتغلب فأصلح بينهم ، وأخذ من الحيين رهناً من كل حيّ مائة غلام فكف بعضهم عن بعض ، وكان أولئك الرهن يكونون معه فى مسيره و يغزون معه ، فأصابتهم سموم فى بعض مسيرهم ،

---

(١) البيت مثل سائر ، الشول جمع شائلة ، وهى من الإبل ما أتى على حملها أو وضعها سبعة أشهر ، فجف لبنها فلم يبق فى ضروعها إلا شول أى بقية ، والأغبار جمع غبر وهى بقية اللبن فى الضرع ، وكسع الناقة بغبرها تركه فى خلفها ليغزر لبنها ويشتد ، وربما نضحوا ضرعها بالماء البارد فيرتد اللبن فى ظهرها ، فيكون ذلك أسمن لأولادها التى فى بطونها وأقوى لها . يقول : لا تفعل ذلك رجاء أن تستجيد نتاج إبلك ، فإنك لا تدرى أتموت فيرثها وارث أو يغير عليها مغير ، فيأخذها منك . يحضه على الكرم ، وأن يحلب لأضيافه ولا يبخل . وانظر طبقات فحول الشعراء ١٢٨ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ١/٣٢٣ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٥٠ ، والعنزة بفتح النون عصا فى قدر نصف الرمح ، فيها سنان أو زج كزج الرمح يتوكأ عليها ، ارتزت ثبتت فى جسده مثل رز السكين فى الحائط .

فهلك عامة التغلبيين ، وسلم البكريون ، فقالت تغلب لبنى بكر : أعطونا ديات أبنائنا ، فإن ذلك لازم لكم ، فأبت ذلك بكر . فاجتمعت تغلب إلى عمرو بن كلثوم ، فقال عمرو بن كلثوم لتغلب : بمن ترون بكرا تعصب أمرها اليوم ؟ قالوا : بمن عسى إلا برجل من أولاد ثعلبة ؟ قال عمرو : أرى الأمر والله سينجلي عن أحمر أصلع أصمّ من بنى يشكر . فجاءت بكر بالنعمان بن هرم أحد بنى ثعلبة ابن غنم بن يشكر ، وجاءت تغلب بعمرو بن كلثوم . فلما اجتمعوا عند الملك قال عمرو بن كلثوم للنعمان بن هرم : يا أصمّ ! جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم ، وهم يفخرون عليك . فقال النعمان : وعلى من أظلت السماء يفخرون ! قال عمرو ابن كلثوم : والله لو لطمتك لطمة ما أخذوا لك بها ! قال : والله لوفعلت ما أفلت بها . . . فغضب عمرو بن هند ، وكان يؤثر بنى تغلب على بنى بكر . . فكانت بين عمرو بن هند والنعمان بن هرم مشادة غضب بسببها غضبا شديداً ، حتى همّ بالنعمان ، فقام الحارث بن حلزة ، وهو أحد بنى كنانة بن يشكر ، فارتجل قصيدته ارتجالا ، وتوكأ على قوسه ، فزعموا أنه انتظم بها كفه وهو لا يشعر من الغضب . وكان عمرو بن هند شريراً لا ينظر إلى أحد به سوء ، وكان الحارث إنما ينشده من وراء حجاب ، فلما أنشده هذه القصيدة أدناه حتى خلص إليه[1] .

ولا يكاد يعرف من تاريخ الحارث بن حلزة إلا هذا القدر ، وقد رأينا مما تقدم أنه كان لملوك الحيرة أعظم الأثرفى تعريفنا بشىء من تاريخ أكثر شعراء الجاهلية ، ولولا انتجاع أولئك الشعراء قصورهم بالحيرة ، والأحداث التى اتصلوا بها ما عرفنا من أمرهم شيئاً . ولعل مرجع ذلك أن العلماء والرواة كانوا هم أيضاً يقصدون أولئك الملوك ، وهم الذين رووا من تلك الأحداث ما رووا ، وليس يعزب عن البال أن التاريخ فى أكثر ما كتب فيه تاريخ ملوك وساسة أكثر مما

---

(١) انظر خزانة الأدب ١/٢٢٣ وشرح القصائد العشر للتبريزى ٢٠١ .

هو تاريخ رعية وشعوب ، ولم يثبت فى أكثره من تاريخ الرجال إلا ما كان له صلة بتاريخ أولئك الملوك والساسة والقادة ، فأهم مراحل حياة طرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة والنابغة الذبيانى وغيرهم من فحول الشعر فى العصر الجاهلى ، إنما عرف منها ذلك الشطر الذى وفدوا فيه على أولئك الملوك مختصمين أو محتكمين أو طالبي عطاء وصلة ، وكان هذا هو الذى وجّه إليهم الأنظار ، ولولا ذلك لضاعت أخبارهم وعفت آثارهم ، كما عفت آثار الديار فى صحراء العرب و باديتها .

معلقة الحارث :

وهى واحدته التى اشتهر بها ، وقد عرفنا من القصة السابقة وحدة الظروف التى جمعت بينها و بين معلقة عمرو بن كلثوم ، ووحدة الهدف أيضا ، فكلا الشاعرين كان يحامى قبيلته المدافع عنها ما رميت به من الظلم والاعتداء ، وهو الناطق بمفاخرها ، المسجل لأمجادها ، المباهى بأيامها ووقائعها ونجدتها وسخائها ولذلك قال معاوية بن أبى سفيان فى وصف المعلقتين : قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلزة من مفاخر العرب ، كانتا معلقتين بالكعبة دهراً .

ويروى أن الحارث قال لقومه بنى بكر بن وائل : إنى قد قلت قصيدة ، فمن قام بها ظفر بحجته وفلج على خصمه . فروّاها ناساً منهم ، فلما قاموا بين يديه لم يَرْضَهم ، فحين علم أنه لا يقوم بها أحد مقامه ، قال لهم : والله إنى لأكره أن آتى الملك فيكلمنى من وراء سبعة ستور ، و ينضح أثرى بالماء إذا انصرفت عنه — وذلك لبرص كان به — غير أنى لا أرى أحداً يقوم بها مقامى ، وأنا محتمل ذلك عنكم ، فانطلق حتى أتى الملك ، فلما نظر إليه عمرو بن كلثوم قال للملك : أهذا يناطقنى وهو لا يطيق صدر راحلته ؟ ، فأجابه الملك حتى أفحمه ، وأنشد الحارث معلقته ، وهو من وراء سبعة ستور ، وهند تسمع ، فلما سمعتها قالت : تالله ما رأيت كاليوم قط رجلا يقول مثل هذا القول يكلم من وراء

سبعة ستور ! فأمر الملك بالستور فرفعت ، حتى صار مع الملك على مجلسه ، ثم أطعمه فى جفنته . وليس ذلك إلا من أثر إعجابه بقصيدته ، وما ساق من الثناء لآبائه فى ثناياها .

وقد بدأها على عادة الشعراء بذكر المرأة ، فشبب بأسماء ، التى آذنته بفراقها مع شدة شغفه بها وحرصه على الدنو منها ، مع أن فى المقيمين من يكره مقامه ، وأخذ يعدد ديارها ومنازلها التى كان يلقاها بها ، و يبكى فقدها ، و بعد أن مضى فى هذا التشبيب قليلا أخذ فى وصف ناقته التى يستعين بها على الهم ، فيشبهها بالنعامة فى السرعة والخفة وقد أفزعها الصوت . ثم جعل يذكر تجنى بنى تغلب على قومه بنى بكر . الذين يخلطون بريئهم بسيئهم ، و يلصقون بهم الأخطاء التافهة ، و يسرعون إلى إعداد جيوشهم لحربهم . ثم وجه الخطاب إلى رجل تغلب عمرو بن كلثوم الذى يزين كلامه بالباطل و يسرف فى النيل من بنى بكر أمام عمرو بن هند ، وبين أنهم لا يعبئون بهذه السعايات فطالما وشى بهم الوشاة فلم ينالوا من كيدهم شيئا ؛ بل ثبتوا أمام الأحداث التى لم تزعزع عزتهم الثابتة ، كأنها الجبال الشامخة لا تلين للأحداث ولا تنال منها الرياح . وأخذ يذكر مالقومه من المنعة والأيام والمآثر ، ويصل ذلك بمدح الملك وتذكيره بأيامهم وأياديهم . وتعد هذه المعلقة سجلا لكثير من الأحداث السياسية والتاريخية ففيها حديث الحرب بين بكر وتغلب وما كان بينهم من صلح ، وما قدم فيه من العهود والكفلاء ، وأيام انتصرت فيها تغلب ، وأخرى انتصرت فيها بكر وذكر للعداء القديم الذى كان بين المنذر ملك الحيرة و التغلبيين لما امتنعوا عن نصرته ، ووصف ولاء بنى بكر لملوك الحيرة . وقد استطاع الحارث بهذه القصيدة أن يجذب الملك إلى صفه ، وأن يقنعه بالحجة والتاريخ والمنطق ، فكسب الموقف لقبيلته ، وغلب بنى تغلب الذين وقف شاعرهم قصيدته على الفخر

والمباهاة والمبالغة الظاهرة التي تدعو إلى الاعتقاد بأن ذلك خيال شاعر أكثر مما هو حق يراد تأييده والانتصار له ، فى موقف هو أشبه المواقف بموقف الخطيب الذى يقرع الحجة بالحجة ، ويؤيد الدليل بالدليل ، ويؤثر فى عقول سامعيه ، ليقنعهم بصدق مايقول ، وذلك كان أهم أسباب نجاح الحارث وإخفاق ابن كلثوم .

ومع هذا المنطق المقنع والحجة المؤيدة بالوقائع والأحداث لم تلن قناة الحارث ، ولم ينسه جلال الموقف وحرصه على النجاح فى اجتذاب الملك إلى قومه ، أن يفخر بأمجاد قبيلته ، ويهدّد الوشاة الساعين بالوقيعة بن بنى بكر وعمرو بن هند ، بأن سعايتهم باطلة ، وهى وإن أصابت من الملك أذنا صاغية ، فلن تنال من بنى بكر الذين سبقت أعمالهم فى حماية الملوك وفك أغلالهم ، مما لا يستطيعه إلا السّادة الأقوياء ، ولم يكن لعمرو بن هند أن ينال منهم ، حتى لو وقعت السِّعاية موقعها من نفسه ، بل ينكر أن بنى بكر تبع ورعايا لعمرو بن هند « هل نحن لابن هند رعاءُ » إلى غير ذلك مما شمخ فيه بأنفه وباهى فيه بقومه .

أما أسلوب المعلقة فإنه يختلف تماماً عن أسلوب عمرو بن كلثوم فى معلقته ؛ فإن معلقة الحارث تبدو فيها أمارات القوة ، فى جزالة ألفاظها وجودة تراكيبها ، التى تساير بها روح العصر الذى أنشدت فيه ، وطبيعة الموضوع الذى عالجته .

وفيما يلى نص معلقة الحارث :

(١) آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منهُ الثَّوَاءُ

(٢) بَعد عهدٍ لنا بِبُرْقَةِ شَمَّا ءَ فأدْنَى دِيارِها الخَلْصَاءُ

(٣) فالمُحَيَّاةُ فالصِّفَاحُ فأعْنا قُ فِتَاقٍ فعاذِبٌ فالوَفَاءُ

(٤) فرِياضُ القَطَا فأودِيةُ الشُّرْ بُبِ فالشُّعْبتانِ فالأبْلاءُ

(٥) لا أرَى من عَهِدْتُ فيها فأبكي ال يومَ دَلْهاً وما يُحِيرُ البكاءُ

(٦) و بعينيكَ أوْقدَتْ هندُ النّا رَ أخيراً تُلوِى بها العلياءُ

(٧) أوْقدَتْها بين العَقِيقِ فشَخْصَيْ نِ بِعُودٍ كما يلوحُ الضِّياءُ

(٨) فتَنَوَّرتُ نارَها من بَعيدٍ بِخَزَازَى هيهاتَ منكَ الصِّلاءُ

(٩) غيرَ أنِّي قد أستعينُ على الهمِّ إذا خَفَّ بالثَّوِيِّ النَّجاءُ

(١٠) بِزَفُوفٍ كأنَّها هِقْلَةٌ أمُّ رِئَالٍ دَوِّيَّةٌ سَقْفاءُ

(١١) آنَسَتْ نَبْأَةً وأفْزَعَها القُنَّ اصُ عَصْراً وقد دَنَا الإمساءُ

(١٢) فترى خَلْفَها من الرَّجْعِ والوَقْ عِ مَنِيناً كأنَّهُ إِهْبَاءُ

(١٣) وطِرَاقاً من خَلْفِهِنَّ طِرَاقٌ سَاقطاتٌ ألْوَتْ بها الصَّحْرَاءُ

(١٤) أتَلَهَّى بها الهوَاجِرَ إذ كلُّ ابنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْياءُ

(١٥) وأتانا من الحوادث والأنبا ءِ خَطْبٌ نُعْنَى به ونُسَاءُ

(١٦) أنَّ إخوانَنا الأراقِمَ يَغْلُو نَ علينا فى قِيلِهِمْ إحْفاءُ

(١٧) يَخْلِطُونَ البريءَ منّا بذى الذَّنْ بِ ولا ينفعُ الخَلِيَّ الخَلاءُ

(١٨) زعموا أنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ العَيْ رَ مَوَالٍ لنا وأنَّا الوَلاءُ

(١٩) أجمعوا أمرَهُمْ عشاءً فلمَّا أصبحُوا أصبحَتْ لهم ضَوْضَاءُ

(٢٠) مِنْ مُنادٍ ومِنْ مجيبٍ ومِنْ تَصْ هالِ خَيْلٍ خِلالَ ذاكَ رُغَاءُ

(٢١) أيُّها النَّاطقُ المرقِّشُ عنّا عند عَمْرٍو وهلْ لذاكَ بَقَاءُ

(٢٢) لا تَخَلْنَا على غِرَاتِكَ إنَّا قَبْلُ ما قدْ وَشَى بنا الأعداءُ

(٢٣) فبَقِينا على الشَّناءةِ تَنْمِيـ نَا حصونٌ وعِزَّةٌ قَعْسَاءُ

(٢٤) قبلَ ما اليَوْمِ بَيَّضَتْ بعُيونِ النَّا سِ فيها تَغَيُّظٌ وإباءُ

(٢٥) وكأنَّ المَنُونَ تَرْدِى بنا أرْ   عَنَ جَوْناً ينجابُ عنهُ العَمَاء

(٢٦) مُكْفَهِرّاً عَلَى الحوادث لاتَرْ   تُوهُ للدَّهْرِ مُؤْيِدٌ صَمَّاء

(٢٧) أيَّمَا خُطَّةٍ أرَدْتُم فأدُّو   هَا إلينا تَمْشِى بها الأمْلاء

(٢٨) إنْ نَبَشْتُمْ ما بَيْنَ مِلْحَةَ فالصَّا   قِبِ فيه الأمواتُ والأحياء

(٢٩) أو نَقَشْتُمْ فالنَّقْشُ يَجْشَمُهُ النَّا   سُ وفيه الصَّلاَحُ والإبْرَاء

(٣٠) أو سَكَتُّمْ عنَّا فكُنَّا كمن أغْ   مَضَ عيناً فى جَفْنِها أقْذَاء

(٣١) أو مَنَعْتُمْ ما تُسْألُونَ فمن حُدْ   ثِتُمُوهُ له علينا العَلاء

(٣٢) هلْ علمتُم أيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّا   سُ غِوَاراً لكلِّ حَىٍّ عُوَاء

(٣٣) إذْ رفعنا الجِمالَ من سَعَفِ البَحْ   رَيْنِ سَيْراً حتى نَهَاهَا الحِسَاء

(٣٤) ثُمَّ مِلْنا على تَمِيمٍ فأحْرَمْ   نَا وفينا بناتُ مُرٍّ إمَاء

(٣٥) لايقيمُ العزيزُ بالبَلَدِ السَّهْ   لِ ولا ينفعُ الذليلَ النَّجَاء

(٣٦) لَيْسَ يُنْجِى مُوائِلاً من حِذَارٍ   رأسُ طَوْدٍ وحَرَّةٌ رَجْلاء

(٣٧) فملكنا بذلكَ النَّاسَ حتّى   مَلَكَ المُنْذِرُ بنُ ماء السَّماء

(٣٨) وهو الرَّبُّ والشهيدُ على يَوْ   مِ الحِيَارَيْنِ والبَلاءُ بلاء

(٣٩) مَلِكٌ أضْلَعُ البَرِيَّةِ لا يُو   جَدُ فيها لما لديهِ كِفَاءُ

(٤٠) فاتركوا الطَّيْخَ والتَّعاشِى وإمَّا   تتعاشَوْا ففى التعاشِى الدَّاءُ

(٤١) واذكروا حِلْفَ ذِى المجازِ وما قُدْ   مَ فيهِ العُهُودُ والكُفَلاءُ

(٤٢) حَذَرَ الجَوْرِ والتعدِّى وهل يَنْ   قُضُ ما فى المهارِقِ الأهْوَاءُ

(٤٣) واعلمُوا أنَّنا وإيّاكُمُ فِيـ   ـما اشترطْنا يومَ اختلفنا سَوَاءُ

(٤٤) أعَلَيْنا جُناحُ كِنْدَةَ أنْ يَغْ   نَمَ غازِيهِمُ ومنَّا الجزاءُ

(٤٥) أمْ علينا جرّي حَنِيفةَ أوما   جَمَّعتْ من مُحاربٍ غَبْرَاءُ

(٤٦) أمْ جنايا بنى عَتيقٍ فمن يَغْـ   ـدرْ فإنّا من حَربِهمْ بُرَآءُ

(٤٧) أمْ علينا جرّى العِبادِ كما نيـ   ـطَ بجَوْزِ المحمَّلِ الأعْباءُ

(٤٨) أمْ علينا جرّى قُضَاعَةَ أم لَيْـ   ـسَ علينا فيما جَنَوْا أنْدَاءُ

(٤٩) أمْ علينا جرّى إيادٍ كما قِيـ   ـلْ لطَسْمٍ أخوكُمُ الأَبَّاءُ

(٥٠) ليسَ منّا المُضَرَّبونَ ولا قَيْـ   ـسٌ ولا جَنْدلٌ ولا الحذّاءُ

(٥١) عَنَتاً باطلا وظُلماً كما تُعْـ   ـتَرُ عن حَجْرَةِ الرَّبِيضِ الظِّباءُ

(٥٢) وثَمانُونَ مِنْ تَمِيمٍ بأيْدِيـ   ـهِمْ رِمَاحٌ صُدُورُهُنَّ القَضَاءُ

(٥٣) لَمْ يُخَلُّوا بَنِي رِزَاحٍ بِبُرْقَا   ءِ نَطَاعٍ لهمْ عليهمْ دُعَاءُ

(٥٤) تركوهمْ مُلَحَّبِينَ وآبوا   بِنِهابٍ يَصَمُّ منها الحُدَاءُ

(٥٥) ثُمَّ جاءُوا يسترجِعونَ فلمْ تَرْ   جِـعْ لهمْ شامَةٌ ولا زَهْرَاءُ

(٥٦) ثُمَّ فاءُوا منهمْ بقاصمةِ الظَّهْـ   ـرِ ولا يَبْرُدُ الغليلَ الماءُ

(٥٧) ثُمَّ خَيلٌ منْ بعد ذلك مع الغلاّ   قِ لا رَأْفَةٌ ولا إبْقاءُ

(٥٨) ما أصابُوا مِنْ تَغْلَبِيٍّ فمطلُو   لٌ عليه إذا تَوَلَّى العفاءُ

(٥٩) كتكاليفِ قَوْمِنَا إذْ غَزَا المُنْـ   ـذِرُ هَلْ نَحْنُ لابنِ هِنْدٍ رِعاءُ

(٦٠) إذْ أحلَّ العَلْياءَ قُبَّةَ مَيْسُو   نَ فأَدْنَى دِيارِها العَوْصَاءُ

(٦١) فتأوَّتْ له قَرَاضِبَةٌ مِنْ   كُلِّ حَيٍّ كأنَّهمْ أَلْقَاءُ

(٦٢) فهَدَاهُمْ بالأَسْوَدَيْنِ وأمرُ اللَّـ   ـهِ بلْغٌ تَشْقَى به الأشقياءُ

(٦٣) إذْ تَمَنَّوْنَهُمْ غرُوراً فَسَاقَتْـ   ـهُمْ إليكمْ أُمْنِيَّةٌ أَشْرَاءُ

(٦٤) لم يَغُرُّوكُمُ غُرُوراً ولـكِنْ   رَفَعَ الآلُ جَمْعَهُمْ والضَّحَاءُ

(٦٥) أيُّها الشانئُ المبلِّغ عنَّا   عند عَمْرٍو وهلْ لذاك انتهاءُ

(٦٦) إنّ عَمْراً لنا لديْهِ خِلالٌ   غَيْرَ شَكٍّ فى كُلِّهنَّ البلاءُ

(٦٧) مَلِكٌ مُقْسِطٌ وأكْمَلُ مَنْ يَمْـ   ـشِى ومِنْ دُونِ مالَدَيْهِ الثَّناءُ

(٦٨) إرَمِىٌّ بمثله جالَتِ الخَيْـ   ـلُ فآبتْ لخصمِها الأجْلاءُ

(٦٩) مَنْ لنا عِنْدَهُ من الخيرِ آيا   تٌ ثلاثٌ فى كلِّهنَّ القضاءُ

(٧٠) آيةٌ شارِقُ الشَّقِيقةِ إذجا   ءوا جميعاً لكُلِّ حَىٍّ لِوَاءُ

(٧١) حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلْئِمِينَ بكَبْشٍ   قَرَظِىٍّ كأنَّه عَبْلاءُ

(٧٢) وَصَتِيتٍ مِنْ العواتكِ لا تَنْـ   ـهاهُ إلاَّ مُبْيَضَّةٌ رَعْلاءُ

(٧٣) فَرَدَدْناهُمُ بطَعْنٍ كما يَخْـ   ـرُجُ مِنْ خُرْبَةِ المزادِ الماءُ

(٧٤) وحَمَلْناهُمْ على حَزْمِ ثَهْلا   نَ شِلالاً وَدُمِّىَ الأنْسَاءُ

(٧٥) وجَبَهْناهُمُ بطَعْنٍ كما تُنْـ   ـهَزُ فِى جَمَّةِ الطَّوِىِّ الدِّلاءُ

(٧٦) وفعلْنا بِهِمْ كما عَلِمَ اللّـ   ـهُ وما إنْ للحائنينَ دِمَاءُ

(٧٧) ثمّ حُجْراً أعْنِى ابْنَ أمٍّ قَطَامٍ   وله فارِسِيَّةٌ خَضْراءُ

(٧٨) أسَدٌ فى اللِّقاءِ وَرْدٌ هَمُوسٌ   ورَبِيعٌ إنْ شَمَّرَتْ غَبْرَاءُ

(٧٩) وفككْنا غُلَّ امرىءِ القَيْسِ عَنْهُ   بَعْدَ ما طالَ حَبْسُهُ والعناءُ

(٨٠) وأقَدْناه رَبَّ غَسَّانَ بالمُنْـ   ـذِرِ كَرْهاً إذ لاتُكالُ الدِّماءُ

(٨١) وأتيناهُمُ بِتِسْعَةِ أمْلا   كٍ كِرامٍ أسْلابُهُمْ أغْلاءُ

(٨٢) وَمَعَ الجَوْنِ آلِ بنى الأوْ   سِ عَنُونٌ كأنَّها دَفْوَاءُ

(٨٣) ما جَزِعْنا تحتَ العَجاجةِ إذْوَلَّـ   ـتْ بأقفائِها وَحَرٌّ الصِّلاءُ

(٨٤) وَوَلَدْنَا عَمْرَو بْنَ أُمِّ أُنَاسٍ مِنْ قَرِيبٍ لَمَّا أَتَانَا الْحِبَاءُ
(٨٥) مِثْلُهَا يُخْرِجُ النصيحةَ لِلْقَوْ مِ فَلَاةٌ مِنْ دُونِهَا أَفْلَاءُ

* * *

تلك هى المعلقات السّبع التى انعقد الإجماع على ستٍّ منها ، ولم يخالف فى السّابعة،وأعنى بها معلقة الحارث بن حلِّزة ، إلا أبو زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب كما سبق ، الذى أغفل ذكر الحارث بين أصحاب المعلقات ، مع موافقته فى الست السابقة ، وإضافته إليها قصيدة النابغة الذبيانى التى أولها « عوجوا فحيُّوا النُم . . . »[1]

وقصيدة الأعشى التى مطلعها « ما بكاء الكبير . . . »[2]

وقد وافقه فى اعتبار النابغة والأعشى أبو جعفر أحمد بن محمد إسماعيل النحوى الذى ذكر التبريزى أنه أضاف إلى السبع الطوال المشهورة قصيدة النابغة الدالية التى مطلعها « يادارمية . . . »[3]

وقصيدة الأعشى التى أولها « ودِّع هريرة . . . »[4]

وأضاف التبريزى قصيدة عبيد بن الأبرص «أقفر من أهله ملحوب». . . ولم يذكر سنداً لهذه الإضافة .

ولذلك اقتصرنا من تلك القصائد على ماانعقد عليه الإجماع فى القصائد الست الأولى ، ومالم يخالف فيه غير واحد فى الحارث.أما ما كان من هذه القصائد موضع شك عند أكثر الرواة فقد آثرنا عدم التعرض له ، لا سيما وأن قصيدة الأعشى (ودع هريرة . . .) وقصيدة النابغة الدالية لم تذكرا على أنهما معلقتان ، بل

---

(١) الجمهرة ٧٧ . (٢) الجمهرة ٨٧ .
(٣) شرح القصائد العشر ٣٠٨ . (٤) شرح القصائد العشر ٢٨٨ .

على أنهما من قصائد الجاهلية المشهورة . أما قصيدة الأعشى (مابكاء الكبير . .) وقصيدة النابغة الرائية فقد انفرد بعدِّهما من المعلقات أبو زيد القرشى ، ولم يتابعه واحد من الرواة فيما نعلم ، ويبدو لأول وهلة أنه اعتمد فى ذلك على قول أبى عبيدة : أشعر الناس أهل الوبر خاصة ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة ، فإن قال قائل إن امرأ القيس من أهل نجد فلعمرى إن هذه الديار التى ذكرها ديار بنى أسد بن خزيمة ، وفى الطبقة الثانية الأعشى ولبيد وطرفة . . . وقال الكميت : عمرو بن كلثوم أشعر الناس ، قال أبو زيد : والقول عندنا ماقال أبوعبيدة : امرؤ القيس ، ثم زهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو ، وطرفة[1] . ومضمون هذا الكلام وجوهره المفاضلة بين الشعراء ، وليس فى هذا الكلام ما يدل أية دلالة على حصر أصحاب المعلقات فى أولئك السبعة . لولا أن أبا زيد نقل بعد ذلك عن المفضل قوله فيهم : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب السموط ، فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة (الجمهرة ٤٥) .

ولكن أبا زيد نفسه يخالف إذ يجعل من أصحاب المعلقات — وهم الذين وصفوا بأنهم أصحاب السبع الطوال — عنترة بن شداد ، ويجعل قصيدته ثامن المعلقات ؛ فكأنه لم يقيد نفسه بكلام أبى عبيدة ، ولا بكلام المفضل ، وإن كان يوافقهما فى إغفال ذكر الحارث بين أصحاب السبع عندهما ، وبين أصحاب المعلقات عنده .

وهذه القصائد التى كتبنا نصوصها هى التى خصت باسم (المعلقات) والتى احتفظت بهذا اللقب الذى صرح به أكثر الرواة ، ولذلك اقتصرنا عليها ،

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد ٤٥ .

وذكرنا من أخبار أصحابها ما رأينا فيه الكفاية : أما ماسواها من القصائد المأثورة عن شعراء الجاهلية فهى أكثر من أن تحصر ، وقد انتظمتها مجموعات أخر ، وانفردت بتسميات أخر عند بعض الرواة ، ولم نجد من الأسباب الوجيهة مايحملنا على إيثار بعضها و إضافته إلى المعلقات دون بعض ، فإن موضع ذلك دراسة عامة فى الشعر الجاهلى ، لا تمتاز فيها المعلقات عن غيرها من الشعر الجاهلى ، ونعتقد أن التعرض لتلك القصائد يخرج بنا عن مجال هذه الدراسة المخصصة لمعلقات العرب دون سواها من مأثور شعر الجاهلية .

الفصل الثالث

المجتمع العربى كما صورته المعلقات

يستطيع الناظر فى تلك القصائد أن يتخذ من مجموعها صورة كاملة للشعر العربى فى أقدم عصوره ، وهى الصورة التى انتهت إليها محاولات الشعراء ، واطمأنت إليها أذواقهم الفنية ، وأقرّهم عليها الذوق الأدبى العام .

و يستطيع كذلك أن يجد فى تلك القصائد ما يعينه على تبين معالم البيئة الجاهلية التى عاش فيها أولئك الشعراء ، والتعرف إلى طبيعة العرب وميولهم وتقاليدهم ، وما كانوا يزاولون من أعمال فى تلك البيئة فى ذلك الزمان البعيد . فلقد صورت تلك المعلقات ذلك الجنس العربى الذى سكن الجزيرة قبل الإسلام ، تصويراً يتسم بسمات الصـــدق والصراحة والحرية ، وهى الصفات التى كان أولئك العرب يحرصون عليها فى حياتهم الخاصة ، وفى حياتهم العامة التى كانوا يتصلون فيها بغيرهم من القبائل أو الأمم الغريبة عنهم . فإن أولئك القوم - إن عاشوا أفراداً أو جماعات - كانوا أقرب إلى الطبيعة ، وكانوا على وفاق مع تلك الطبيعة ، ولذلك وصف شعرهم هذه الطبيعة بكل مافيها من أسباب الرغد ، وظواهر الخشونة والشظف ولذلك كان أخصّ ما يوصف به ذلك الشعر هو صفة الصدق .

و إنك لتنظر إلى شعر المترفين الناعمين منهم كما تنظر إلى شعر الذين قاسوا مرارة الحرمان ، وخاضوا غمرات القتال ، ونالت من دمائهم السيوف والرماح ؛ فلا تجد الفرق كبيراً بين شعر هذا وشعر ذاك ، و إنما تجد صوراً كثيرة للحياة العربية ، تتلاقى فى مجموعها ، و يتمم بعضها بعضاً ، حتى تستطيع أن تحصل على الصورة الكاملة التى

تنشدها ، ولا يخل ذلك بسمات الشخصية التى تبدو بكل جلاء فى كل قصيدة من تلك المعلقات على حدة .

فشخصية امرىء القيس بارزة فى معلقته فى ذلك الغزل الذى عرف به ، وفى الفروسية التى كان يهيم بها .

وشخصية طرفة فى فتوته وغروره ورحلاته وتحلله من القيود لا يخفى على الناظر فى معلقته

والشخصية الوادعة التى تنفر من الحرب وتعشق الدعة والأمن والسلام تعلن عن نفسها فى معلقة زهير .

والبادية بأخلاقها ومثلها واضحة المعالم فى معلقة لبيد التى تدل معانيها وألفاظها على لون متميز من الحياة ، هو ذلك اللون الذى عاش فيه لبيد فى جاهليته .

كما تجد الفخر الفاخر الذى يشعرك بطيش الشبان الذين يتجاوزون حد المعقول فى زهوهم ومباهاتهم ومبالغاتهم ، تجده بارزاً فى معلقة عمرو بن كلثوم .

وتجد العقل والمنطق والحجة المقنعة فى حكمة الشيوخ وحلمهم وحنكتهم ، وهى الصفات التى كان يتحلى بها الحارث بن حلزة ، والتى ظهرت معالمها بكل وضوح فى معلقته .

كما تجد شخصية عنترة ، وقد تنازعها الحب المشبوب والشجاعة والفداء ، كما تبدو فى معلقته التى ترى فيها أثر ذلك التنازع قويا بارزاً .

ولكنك مع هذه الشخصيات البارزة فى المعلقات ، تراها جميعاً وقد تلاقت عند التصوير الصادق للطبيعة بأجلى معانيها ، و بأوسع ماتدل عليه تلك الكلمة ، من غير محاولة للتزويق الذى يخرج بها عن معنى الطبيعة . وها أنت ترى قصيدة واحدة مثل معلقة امرىء القيس ، وقد جمعت المتناقضات ، فأنت ترى فيها الأطلال والغدران و بعر الآرام ، إلى جانب فتيت المسك فوق فراش نئوم الضحا ،

وترى فيها جذع النخلة إلى الأطم المشيد بالجندل . ولكنها ليست متناقضات في الحقيقة بل هى الطبيعة التى يعيش فيها الشاعر ، ويقع عليها حسّه وبصره . ولو أراد الشاعر أن يتعمل ويتكلف لاختار ما يعجبه ، وألّف بين ما يستحسن من المناظر والأحوال . ولكنه كما قلنا صادق فى العبارة عما يجد ، وعما يحس وعما يرى ويسمع . ولن ترى فى هذه القصائد الطوال ما يخرج عن نفس العربى وعواطفه وانفعالاته بالحياة ومظاهرها وأحداثها . كما يتضح ذلك من الإشارات الآتية التى نلم فيها إلماماً بما اشتملت عليه البيئة الجاهلية من مواقع وجبال ومياه وأرض وسماء ، وأخلاق ومثل ، وحروب ووقائع صورها أصحاب المعلقات .

(١) المواقع والجبال :

وإنك لتنظر إلى المعلقات فتراها وقد زخرت بالمعاهد والمواقع التى ألفها الشعراء فى حداثتهم وشبابهم، والتى كانت مرتع لهوهم، ومواطن أحبتهم فى ظعنهم وإقامتهم، وموضع حروبهم وأيامهم وقد خلدت تلك المواضع فى هذا الشعر الفحل الذى احتوته المعلقات ، فسارت أسماؤها فى العصور ، ولانت بها الألسنة ، مع ما قد يكون فيها من الغرابة ، والعسر على المنطق الذى يحسّه من يقرؤها للمرة الأولى ، حتى صارت تلك المعلقات مصادر لتلك المواضع والجبال والوهاد ، ولم تخل من ذلك معلقة من المعلقات :

ففى معلقة امرىء القيس[١] : سقط اللِّوى بين الدَّخُولِ فحَوْمَل (١) فتُوضِحَ فالمِقْراة (٢) وهى منازل بنى كلاب الذين منهم أم الحويرث ، وهى هرّ ، أم الحارث بن حصين بن ضمضم الكلبى ، وأم الرباب من كلب أيضاً ، وهما اللتان ذكرهما امرؤ القيس ، وذكر مقامهما بمأسَل (٧) وفيها دارة جُلجُل (١٠)

(١) وضعنا بجانب كل علم رقماً يدل على البيت الذى ورد فيه فى كل معلقة إيثاراً للايجاز، وبعداً عن التكرار . وكذلك فعلنا فى سائر نقاط البحث

التى ذكر لهوه فيها من العذارى ، وقال هشام الكلبى : دارة جلجل عند غمر كندة [(١)] وقال الأصمعىّ وأبو عبيدة : « دارة جلجل » فى الحمى [(٢)] . وفيها وَجْرَة (٣٧) التى اشتهرت بوحشها ، وهى موضع بين مكة والبصرة أربعون ميلا ما فيها منزل أبداً فهى مساكن للوحوش [(٣)] . وفيها ضارج والعذيب (٧٧) اللذان قعد الشاعر بينهما يرقب البرق الذى يضىء سناه ، وضارج موضع باليمن والعذيب موضع بالعراق يشير إلى سناه الذى بعد تأمله إياه ، ويروى « بين حامز و بين أكام » وهو من بلاد غطفان . وفيها قَطَن والشَّىِّ والسِّتار ويَذْبل (٧٨) قال البكرى فى معجم ما استعجم : « قطن » جبل بنجد فى بلاد بنى أسد على يمينك إذا فارقت الحجاز ، والشيم جبل أيضاً ، والستار جبل بالحجاز ، ويذبل جبل بالحجاز أيضاً ، ويقال له « يذبل الجوع » لأنه أبداً مجدب . وفيها كتيفة (٧٩) وهى موضع . والقنان (٨٠) وهو اسم جبل لبنى أسد . وتيماء (٨١) وهى مدينة كثيرة النخل والتين والعنب بين حوران ومدينة الرسول عليه السلام . وثبير (٨٢) وهو جبل بمكة ، وهى أربعة أثبرة بالحجاز : ثبير الأثبرة وهو بمكة ، والثانى ثبير غينا ، والثالث ثبير الأعرج ، والرابع ثبير الأحدب ، أراد الشاعر واحداً منها . والمجيمر (٨٣) وهو جبل لبنى فزارة . وصحراء الغبيط (٨٤) وهى أرض بنى يربوع والغبيط أكمة يرتفع طرفاها و يطمئن وسطها

وفى معلقة طرفة من أسماء البلاد والمواضع والجبال : برقة ثهمد (١) التى ذكر أن بها أطلال خولة ، التى تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد ، والبرقة الأرض ذات الحجارة المختلفة الألوان ، والثهمد السمينة ، وهما علم على جبل فى الحمى حوله أبارق كثيرة فى ديار غنى ، وموضع فى ديار بنى عامر . و دد (٣) اسم موضع .

---

(١) غمر كندة موضع وراء وجرة ، بينه وبين مكة مسيرة يومين (انظر مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع : ص ١٠٠٠ .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ١٣ .

(٣) نهاية الأرب فى شرح معلقات العرب ١٨ .

وعَدَوْلى (٤) وهى قرية بالبحرين . وذكر التبريزى أنها جزيرة من جزر البحر من أوال وأوال أسفل من عُمَان . والقفَّان (١٥) وهما تثنية «قف» وهو ماغلظ من الأرض وارتفع ، فلم يبلغ أن يكون جبلا ، والقفُّ واد من أودية المدينة، ثنّاه على عادتهم فى تثنية المفرد،وجمعه لإتمام النظم . وضرغد (٨١) وهى أرض لبنى هذيل و بنى غاضرة و بنى عامر بن ثعلبة ، وقيل هى حرة بأرض غطفان ، وقيل اسم جبل.

وفى معلقة زهير : حومانة الدراج والمتثلم (١) التى ذكر أنهما موضع دمن أم أوفى ، والحومانة المكان الغليظ ، أو القطعة من الرمل ، والدراج والمتثلم موضعان بالعالية . والرقمتان (٢) قال الأصمعىّ : الرقمتان إحداهما قرب المدينة والأخرى قرب البصرة ، والمعنى أن دارها بينهما. وقال الكلابى : الرقمتان بين جرثم و بين مطلع الشمس بأرض بنى أسد ، وهما أبرقان مختلطان بالحجارة والرمل ، والرقمتان أيضاً حذاء« ساق الفرو» ، وساق الفرو جبل فى أرض بنى أسد ، والرقمتان أيضاً« بشط فلج » أرض بنى حنظلة . والعلياء وجرثم (٧) والعلياء بلد ، وجرثم ماء لبنى أسد . والقنان (٨) وهو جبل لبنى أسد . والسُّوبان (١٠) وهو واد ، وهو أيضاً اسم جبل أو أرض . و وادى الرّسّ (١١) وهو ماء ونخل لبنى أسد ، والرسيس حذاءه . والعراق (٣٣) الذى كان لأرضه غلات عظيمة تضرب بها الأمثال . والمثلم (٤٢) وهو موضع بين اللاوى وجبهرم .

وفى معلقة لبيد : مِنًى ، والغَوْل ، والرِّجام (١) ومنى اسم موضع غير الذى فى الحرم ، وهو قريب من طخفة بالحمى «حمى ضرية» ، وطخفة موضع بعد النباج و بعد امرة فى طريق البصرة إلى مكة ، و«ضرّية» قرية لبنى كلاب على طريق البصرة إلى مكة ، وهى إلى مكة أقرب . والريان (٢) وهو واد بالحمى، قال ياقوت فى معجم البلدان : «الريان» اسم جبل فى بلاد بنى عامر ، و إياه عنى لبيد بقوله « فمدافعُ الريان عُرِّى رسمها » والريان جبل فى طريق البصرة إلى مكة ، والريان أيضاً جبل فى بلاد طيىء ؛ وقال صاحب اللسان : «وريان» اسم جبل ببلاد بنى عامر ،

قال لبيد « فمدافع الريان عُرِّى رسمها » . والجلهتان (٦) وهما فى الأصل تثنية جلهة ، وهى ناحية الوادى ، ثم جُعلت علما على موضع بعينه . وتوضح ووجرة (١٤) وقد سبق هذا الموضعان فى معلقة امرىء القيس . و بيشة (١٥) واد من أودية تهامة. وفيد، والحجاز (١٧) وفَيْد موضع فى نصف المسافة بين مكة وبغداد، وهى منزل من منازل الحاج . ومشارق الجبلين ، ومحجّر وفَرْدة ورُخام (١٨) أراد بالجبلين أجأ وسلمى ، والمحجّر وفردة ورخام أسماء مواضع متقاربة. وصوائق ووحاف القهر وطلخام (١٩) أسماء مواضع ، والقهر اسم جبل . وأحزّة الثَّلَبُوت (٢٧) والأحزّة جمع حزيز ، وهو المكان الغليظ ، والثلبوت واد أو أرض بين طيىء وذبيان . وصُعائد (٤٥) اسم موضع . وتبالة (٧٥) اسم موضع كثير الخصب ، ومن أمثالهم ، « ما نزلت تبالة لتحرم الأضياف » ، وهى بلد مشهور بتهامة فى طريق اليمن ، وهى مما يضرب المثل بخصبها، وذكروا أن عبد الملك ولى الحجاج عليها ، فلما أتاها استحقرها ، فلم يدخلها فقالوا « أهْوَنُ من تَبَالَةَ على الحجّاج »

وفى معلقة عمرو بن كلثوم : الأندرين (١) وهى قرية بالشام كثيرة الخمر جيدته . واليمامة (٥) وهى مدينة بنجد . وذو طُلُوح ، والشامات (٢٨) موضعان . ونجد (٣١) فى قوله « يكون ثفالها شرق نجد » وفى رواية أخرى « شرق سلمى» وهو اسم أحد جبلى طيىء : أجأ وسلمى . ورَهْوَة (٤٦) اسم جبل . وخَزَازَى (٦٨) وهو اسم جبل وموضع ، وخزازى ، وكير ، ومتالع ، أجبال ثلاثة بطخفة ما بين البصرة إلى مكة ، وقيل خزاز جبل لبنى غاضرة خاصة . وذو أراطى (١٩) اسم مكان ، وهو واد لبنى أسد . والأبطح (٩٣) وهو واد فيه دقاق الحصى ، وأراد به « أبطح مكة » لأن الناس يجتمعون فيه من كل وجه .

وفى معلقة عنترة : الجِوَاء (٢) بلد فى نجد يسميه أهل نجد « جِوَاء عَدَنة » . والحزن ، والصمَّان ، والمتثلَّم (٧) الحزن وموضع لبنى يربوع ، والصمّان جبل وموضع لبنى تميم ، والمتثلم مكان . وعنيزتان ، والغيلم (١٢) وعنيزة موضع بين

البصرة ومكة ، وهى أيضاً بئر على ميلين من القريتين ، ببطن الرمّة لبنى عامر ابن كريز ، وعنيزة من أودية اليمامة قرب سُوَاج ، وقرى عنيزة بالبحرين[1] ، والغيلم اسم موضع . والدُّخْرُضان والديلم(٣٢) والدحرضان اسم موضع ، وقيل هما دُخْرُض ووشيم ، فغلب أحدهما على الآخر ، وهما ماءان بين سعد وقشير ، وقيل: هما وراء الدهناء ، قيل : ودحرض ماء لآل الزبرقان ، والديلم ماء من مياه بنى سعد . والرداع (٣٦) وهو اسم ماء .

وفى معلقة الحارث بن حلّزة : بُرْقَة شماء ، والخلصاء(٢) والبرقة والأبرق والبرقاء رابية فيها رمل وطين، أو طين وحجارة مختلطان ، وشمّاء هضبة فى حِمَى ضَرية وهى أرض بنجد ، والخلصاء بلد بالدَّهناء ، وقيل أرض بالبادية ، فيها عين ماء لعُبادة بالحجاز . والمحيّاة ، والصفاح ، وفتاق، وعاذب، والوفاء(٣) والحياة هضبة أسفل من أبان الأسود غير بعيد ابنى أسد ، والصفاح أسماء هضاب مجتمعة وموضع بين حُنين وأنصاب الحرم على يسرة الداخل إلى مكة من مُشاش ، وفتاق اسم جبل ، وعاذب اسم واد أو جبل قريب من رَهْبَى ، وهى فى الصمان فى ديار بنى تميم ، والوفاء أرض . ورياض القطا وأودية الشُّرْبُب والشعبتان والأبلاء (٤) ورياض القطا رياض بعينها يكثر فيها استنقاع الماء ودوامه فتعشب فتألفها الطير لذلك ، والشُّرْبُب واد فى ديار بنى سليم ، قال الأصمعى إنما أراد فوادى الشربب فاضطره الشعر إلى الجمع ، وقال غيره : العرب توقع الجمع على الواحد ، من ذلك قوله تعالى « فنادته الملائكة » أى فناداه جبريل عليه السلام، والشعبتان أكمة لها قرنان ناتئان ، والأبلاء اسم بئر . والعلياء (٦) المكان المرتفع من الأرض ، وإنما أراد العالية ، وهى الحجاز وما يليه من بلاد قيس . والعقيق وشخصان (٧) وفى ديار العرب أعقَّة ، منها عقيق عارض اليمامة ، واد واسع ، وفيه قرى ونخل كثير ، يقال له عقيق تمرة ، ومنها عقيق المدينة فيه عيون

(١) انظر مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ٢/٩٦٨ .

ونخل ، وشخصان تثنية شخص موضع ، ويقال أكمة لها شعبتان . وخزازى (٨) جبل بين العقيق وشخصين . وملحة والصاقب (٢٨) والصاقب جبل ضخم تلقاء ملحة . والبحرين والحساء (٣٣) والبحرين واسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان من جزيرة العرب ، وعمان آخرها ، ومدينتها هَجَر ، وبينها و بين البصرة خمسة عشر يوماً ، و بينها و بين عُمان مسيرة شهر ؛ والحسَاء مياه لبنى فزارة بين الرَّبذة ونخل يقال لمكانها ذو حِسَاء . والحياران (٣٨) وهما بلدان غزا فيهما المنذر بن ماء السماء ومعه بنو يشكر ،فأبلوا بلاء حسناً. وذو المجاز (٤١) موضع بمكة ، وهو الموضع الذى أخذ فيه عمرو بن هند الملك على تغلب العهود، وأصلح فيه بين الحيّين، وأخذ منهم رهناً من أبنائهم من كل حى مائة غلام، فيما تقول الروايات. وذو نطاع (٥٣) قرية من قرى اليمامة ، ومياه فى بلاد بنى تميم . والعلاة والعوصاء (٦٠) فى بلاد الشام ، وهما أقرب أرض أنزلها النعمان « ميسون » بعد أن قتل أباها . وحزم شهلان (٧٤) والحزم ما غلظ من الأرض وكثرت حجارته ، وشهلان جبل ضخم بالعالية ، وقيل فى بلاد بنى نمير .

ذلك أكثر ما ورد فى تلك المعلقات من أسماء المواضع والجبال ، لم تذكر لمجرد السّرد، وإنما ذكرت لدلالتها، ولارتباطها بحياتهم ومنازلهم ورحلاتهم ووقائعهم . إلى جانب ما تفيض به المعلقات من ذكر الأودية والكثبان والعيون والمياه ؛ وغيرها مما يتصل بطبيعة الأرض التى عاشوا فيها ، والصحراء التى جمعت شتات تاريخهم ؛ وحفظت معالم أوطانهم .

(٢) الجو والرياح والمطر والنجوم :

وكذلك عبّر شعر المعلقات عن سماء العرب ونجومها ، وما يتعاقب عليهم من الرياح والأمطار ، إذ كانت تلك المشاهد الطبيعية شديدة الاتصال بحياتهم ،

عميقة التأثير فى نفوسهم ، فقد مدّوا عيونهم على الصحراء ، ورفعوها نحو السماء ، فاتصلت الأرض بالسماء ، والجبال بمسارح النجوم فى خواطرهم ، واتخذوا منها دليلاً فى حلهم ومرتحلهم ، يهديهم سبلهم ، و يعرفون بها أين هم من تلك المفاوز الواسعة ، والكثبان المتشابهة . وكانت السماء مرتجاهم يترقبون سحبها ، و يتوقعون غيثها الذى ينمى لهم النبات الكلأ والعشب ، فيأكلون و يرعون أنعامهم ، ورصدوا حركات الرياح التى تدفع السحاب ، وتخفف عنهم حدة الطبيعة المتطرفة .

ومن ذلك فى معلقة امرىء القيس : الجنوب والشمأل (٢) اللذان ذكر امرؤ القيس أن منازل حبيبته لم تعف آثارها بسببهما ، بل هى باقية ، ولو عفت لاستراح ، أولم يعف رسمها للريح وحدها ، و إنما عفا المطر والريح وغيرهما ، قال صاحب القاموس : والجنوب ريح تخالف الشمال مهبُّها مطلع سُهيل إلى مطلع الثريا[١] . وقال القلقشندى : إن مهبّها من حد القطب الأسفل إلى مطلع الشمس ، وتسمى بالديار المصرية « القبليّة » لأنها تأتى من القبلة فيها ، وتسمى بها أيضا « المريسيَّة » لأن فى الجهة القبلية بلاد المريس ، وهم ضرب من السودَان ، قال : وهى أردأ الرياح عند أهل مصر[٢] ؛ أما الشمأل بالهمز والتخفيف ، فقد ذكر أن مهبّها من حد القطب الشمالى إلى مغرب الشمس ، وسميت شمالا لأنها على شمال من استقبل المشرق . وفيها يقول الفيروزابادى (٣ / ٤٠٢) هى التى تهب من قبل الحِجْر أو ما استقبلك عن يمينك وأنت مستقبل . قال : والصحيح أنه ما مهبّه من مطلع الشمس وبنات نعش أو من مطلع النعش إلى مسقط النسر الطائر[٣] ، ويكون اسمًا وصفة ، ولا تكاد

---

(١) القاموس المحيط للفيروزابادى ١ / ٤٩ ، وسهيل كوكب أحمر منفرد عن الكواكب ، ولقربه من الأفق كأنه أبداً يضطرب ، وهو من الكواكب اليمانية . قال ابن قتيبة : ومطلعه عن يسار مستقبل قبلة العراق . قال : وهو يرى فى جميع أرض العرب ، ولا يرى فى شىء من بلاد أرمينية .

(٢) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى ٢ / ١٦٧ .

(٣) بنات نعش سبعة أنجم على القرب من القطب الشمالى ، منها أربعة فى صورة نعش وثلاثة أمامه مستطيلة . وهى المعبر عنها بالبنات ، وتعرف هذه ببنات نعش الكبرى ؛ =

تهب ليلاً . . وذكر الصَّبا (٨) الذى يتضوع المسك من أم الحويرث وجارتها أم الرباب كما يتضوع نسيمها ، والصَّبا هى التى تأتى من المشرق ، وتسمى القَبُول أيضا ، لأنها فى مقابلة مستقبل المشرق ، قال فى صناعة الكتاب : وأهل مصر يسمونها الشرقية ؛ لأنها تأتى من مشرق الشمس . وأصول الرياح أربعة : الصَّبا ، والدَّبور ، والشمال ، والجنوب . . والثُّريَّا (٢٩) التى ذكر تعرضها وشبهه بتعرض أثناء الوشاح المفصل، حينما دبّ إلى صاحبته وتجاوز إليها الأحراس ، والثريا ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم ، وهى فى شكل مثلث متساوى الساقين ، وبين نجومها نجوم صغار جداً كالرشاش ، وأول ما يطلع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الأفخاذ منها . . وذكر الليل الذى تطاول عليه، والصبح الذى ليس أمثل من الليل (٤٩و٥٠) وذكر نجومه التى يراها لا تزايل مواضعها ، وكأنها شدت بجبل يذبل فلا تستطيع حراكا . . وذكر الثريا مرة أخرى (٥٢) فى معرض الشكوى من طول الليل ، وكأنها علقت فى موضعها مشدودة بحبال من الكتان إلى حجارة صم ، فلا تستطيع المضى . . وذكر البرق ووميضه والحبىّ المكلل (٧٥) والحبىّ ما ارتفع من السحاب ، والمكلل المستدير كالإكليل ، والمكلل المبتسم بالبرق ، وشبه البرق فى تحركه ولمعانه بلمع اليدين ، وفى تألقه بمصباح الراهب (٧٦) أميلت فتيلته بصب الزيت عليها ، وفى قوله أمال السليط بالفتيل قلب ، وإنما المراد أمال الفتيل بالسليط . . وذكر قعوده مع أصحابه بين ضارج والعذيب (٧٧) ينظرون إلى هذا السحاب يشيمون برقه ، ذلك السحاب الذى امتدّ وانتشر فى الأفق وتناءت أطرافه ، فنزل مطر يمناه على جَبَلَىْ نجد قَطَن والشيم ، ومطر يسراه على جبلى الحجاز ستار ويذبل (٧٨) . وهذا السحاب يصبّ ماءه حول

=وبالقرب منها سبعة أنجم على شكلها . والنسر الطائر ثلاثة أنجم ، سمى بذلك لأنهم يجعلون اثنين منها جناحيه ، ويقولون قد بسطهما كأنه طائر ، والعامة تسميه الميزان .

كثيفة ، فإذا سال ماؤه اقتلع الأشجار لكثرته ، وقوة جريانه ، وألقاها على رءوسها (٧٩) وقد مرّ على جبل القنان شيء مما تناثر من ذلك المطر ، فأنزل هذا القدر اليسير منه الوعول أو الظباء من منازلها ، وإذا كان هذا حال رشاشه وما تناثر منه ، فكيف يكون حال ذلك المطر نفسه ؟ (٨٠) . . وهذا المطر أصاب تيماء فيما أصاب ، فلم يترك بها نخلة إلا قلبها ، ولا حصنا إلا هدمه ، اللهم إلا ما كان من هذه الحصون مبنيا بالصخور العظيمة فإنه لم يهدّمه (٨١) .. ووصف ما فعل هذا المطر بثبير (٨٢) الذى بدا فى أوائل هذا المطر كأنه كبير قوم تزمل بكساء مخطط ، يريد أن المطر لما نزل على هذا الجبل وسحّ من جوانبه خطط فيه خطوطا ، فكأنه فى تلك الحال كبير قوم تلك حاله . . وكذلك ما فعل بذرا رأس جبل المجيمر (٨٣) الذى بدا صبيحة ليلة ذلك المطر مما حمله السيل إليه وأداره بجوانبه ، كأنه الخشبة التى تطيف بالمغزل وتحيط به . . وهذا المطر ألقى بصحراء الغبيط (٨٤) ما كان يحمله من الماء ونشره بأطرافها ، كما ينشر الرجل اليمانى التاجر المحمل من الثياب ما فى عيابه منها ليعرضها على من يشتريها ، والمراد أن المطر لما نزل بهذه الصحراء خرج منه نبت مختلف ألوانه ، فكانت كثياب مختلفة الألوان نشرت فى أرض . . وكأن مكاكى الجواء غدوة ليلة ذلك المطر سقين خمرا صافية لذاعة ، فهنّ لا يزلن يتغنين (٨٥) .. وكأن الأسود ، وقد غرقت فى سيول ذلك المطر ، أصول البصل البرى (٨٦) فهذه الأسود قد تلطخت بالطين ، حتى كأنها أصول البصل لكثرة ما عليها من طين . وهكذا أبدع امرؤ القيس فى وصف المطر وفعله بالبادية ومنازلها وأشجارها وجبالها وحيوانها ما شاء ، فى تلك التشبيهات التى تعتمد على طبيعة البادية وما فيها من الأحياء والجماد .

وفى معلقة طرفة : ذكر الشمس (٩) التى كسا ضوؤها ثغر حبيبته ، فأصبح

بَراقاً حاشا لثتها، فإنها حوّاء تضرب إلى السمرة ولا بريق فيها ، وإنما نفى عنها ذلك لأنهم لا يستحسنون اللثة إذا كانت براقة، وإنما يستحسنونها إذا كان فى لونها ميل إلى السواد . وذكر الشمس مرة أخرى (١٠) حين ذكر أن لحبيبته وجها مشرقا كأن الشمس أعارته ثوبا نقيا خالصا من أثوابها، ليس فيه غضون ولا شقوق كوجه المسنّة أو المريضة ، وذكر الوَلْى (١٥) فى قوله إن ناقته نزلت فى الربيع القُفَّين على النوق الشول ورعت بنت الوادى المولىّ وهو الذى أصابه الولى ، وهو المطر الثانى من أمطار السنة يلى الوسمىّ ، وهو المطر الأول والآل (٤٣) فى قوله « وقت خبّ آل الأمعز المتوقد ، والآل ما يرى طرفى النهار فى الصحراء كأنه ماء وليس بماء ، وما يرى وسط النهار فهو سراب . والدجن (٦٠) وهو إلباس الغيم السماء .

وفى معلقة لبيد : المرابيع والنجوم والودق والرواعد والجود والرهام (٤) والمرابيع هى الأمطار التى تكون فى أول فصل الربيع ، والنجوم الأنواء ، والودق المطر ، والرواعد السحائب جمع راعدة ، والرعد صوتها ، يصفقها الريح بعضها فى بعض ، فيحصل من تصادمها واحتكاكها هذا الصوت الذى يسمع منها ، والجَوْد المطر الغزير حتى لا يطر فوقه ، والرهام جمع رهمة، وهى المطر الضعيف الدائم. وذكر السارية ، والغادى المدجن ، والإرزام (٥) والسارية السحابة تسرى ليلا ، والغادى السحاب الذى ينشأ غدوة ، والمدجن المطبق الذى استوعب أقطار السماء ، والإرزام التصويت ، يقال : أرزمت السحابة إذا اشتد صوتها . والسيول (٨) جمع سيل وهو الماء الكثير السائل، وصفها وقد كشفت عن آثار الديار لأنها غسلت ما كان مترا كما عليها من التراب، فكأن تلك الطلول كتب غابت فيها الكتابة لطول عهدها بالكاتب ، وكأن تلك السيول أقلام تجدد كتابة تلك الكتب وتظهر ما خفى منها . والسراب (١٥) الذى يلوح للنظر

فى الظهيرة أنه ماء وليس بماء . والصَّهْبَاء (٢٤) وهى سحابة فى لونها صُهبة ، أى حمرة . وريح المصايف والسهام (٣٠) التى حركت الحشيش فهاج، أوتحركت ريح الصيف مرورها وسمومها ، والسهام ريح حارة . وأسبل وا كف من ديمة يروى الخمائل دائما تسجامها (٤٠) أسبل سال واسترخى ، وقال أبو زيد : أسبلت السماء إسبالا ، وهو المطر يكون بين السماء والأرض حين يقع من السحاب قبل أن يصل إلى الأرض ، والوا كف المطر يكف منها، والديمة مطر يدوم و يسكن ليس بالشديد ، والتسجام الصب . وهذا المطرمتواتر فى ليلة كفر النجوم ظلامها أو غمامها (٤١) والمتواتر المتتابع ، وكفر النجوم غطاها وسترها، ومنه قيل لليل كافر لأنه يستر الأشياء بظلمته ، والفلاح كافر لأنه إذا ألقى الحب فى التراب ستره به ، والغمام السحاب واحدته غمامة . ورقص اللوامع بالضحا وأردية السراب (٥٣) أى يقضى لبانته بتلك الناقة إذا اضطرب الآل ، وهو الذى يراه الإنسان بالضحا ، كأنه يرتفع و ينحط ، وإذا البست الإ كام أردية السراب . والليلة الطلقة (٥٧) التى لا برد فيها ولا مطر . «وغداة ريح قد وَزَعْتُ وقِرَّةٍ قد أصبحت بيد الشمال زمامها» (٦١) الغداة أول النهار، والقرة البرد ، يقول: رب غداة باردة ، قد هبت فيها ريح الشمال ، فزادت فى بردها ، دفعتها عن نفسى وندمانى بالشراب « . حتى إذا ألقت يداً فى كافر وأجنّ عورات الثغور ظلامها » (٦٥) الضمير فى ألقت للشمس ولم تذكر قبل هذا ، والكافر الليل لستره الأشياء بظلامه ، وأجنّ ستر . وذكر تناوح الرياح (٧٧) وهو تقابلها ، تهب الصّبا وتقابلها الدبور ، وتهب الشمال وتقابلها الجنوب .

وفى معلقة عمرو بن كلثوم : ذكر تصفيق الرياح للدروع (٧٨) وهو ضربها ، ويروى « عرينا » موضع « جرينا » معناه أصابتهن ريح باردة ، والعرية الريح الباردة .

وفى معلقة عنترة : ذكر الروضة الأنف التى تضمن نبتها غيث قليل الدمن

ليس بعلم (١٩) أى أن المطر سقط عليها فطيّب رائحتها ، وقد جادت عليها كل عين ثرّة أو بكر حرةّ فتركن كل قرارة كالدرهم (٢٠) أى أصابتها بالجود وهو المطر الغزير ، والبكر من السحاب التى لم تمطر بعد فهى أكثر ماء ، والحرة الخالصة من البرد والريح ، ويرى « كل عين ثرة » والعين : المطر لا يقلع خمسة أو ستة أيام ، وثرة كثيرة المطر دائمته ، والقرارة مستقر الماء فى الوادى . والسحّ والتسكاب (٢١) والسحّ صب المطر ، والتسكاب السكب .

وفى معلقة الحارث : ذكر الهواجر (١٤) وهى أنصاف النهار واحدها هاجرة . والعماء (٢٥) وهو السحاب الرقيق .

(٣) نبات الصحراء :

وفى المعلقات ذكر لبعض ما يعرفون من نباتات البرية وأعشابها ، وما يمرون به فى غدواتهم وروحاتهم ومرعاهم من تلك النباتات التى يرعونها ، أو يشمون شذاها ، أو تأسر عيونهم بجمال منظرها ، أو يستعملونها فى بعض أغراض حياتهم .

ومن ذلك فى معلقة امرىء القيس : حب الفلفل (٣) الذى شبه به بعر الآرام الذى تناثر فى عرصات الديار . والسَّمُرات والحنظل (٤) والسمرات جمع سمرة، وهى شجرة ذات شوك، وناقف الحنظل هو الذى يشقه عن الهبيد، وهو حبّ الحنظل وإنما شبه نفسه به، لأن ناقف الحنظل تدمع عيناه لحرارة الحنظل . والقرنفل (٨) الذى شبه برائحته رائحة المسك الذى تضوع من صاحبته أم الحويرث وجارتها أم الرباب ، الذى ذكره مرة أخرى (١٧) فى قوله « إذ يقينا جناة القرنفل ». والأقحوان الذى شبه به ثغر صاحبته (١٨) . والنخلة التى شبه بقنوها[1] فرعها

(١) القنو بالكسر ويضم العذق ويقال له الكباسة .

الأسود الفاحم الذى يزين متنها (٣٩) . والتى ذكرها مرة أخرى حين ذكره تيماء المعروفة عندهم بكثرة النخيل ، وهى بين حوران ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . والاسْحِل (٤٣) وهى شجرة دقيق أغصانها فى استواء ، تشبَّه بها الأصابع دقة واستواء . وذكر دوح الكنهبل (٧٩) والدوح جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة والكنهبل بضم الباء وفتحها ضرب من الشجر . (٨١) وقد وصف المطر الذى أصاب تيماء بأنه لكثرته لم يترك بها نخلة إلا قلبها ولا حصنا إلا هدمه ، وذكر العُنصُل وهو البصل البرّى (٨٦) وأنابيشه وهى أصوله التى ينبش عنها .

وفى معلقة طرفة ذكر المَرْدَ (٦) وهو ثمر الأراك ، وذكر الخميلة وهى الروضة المعشبة (٧) والبرير وهو ثمر الأراك إذا أدرك ، والمنور (٨) وهو الأقحوان النابت فى الأرض السهلة . وذكر الضال (٢١) وهو شجر السدر البّرى . والعُشَر والخروع (٦١) والعشر شجر فيه حُرّاق لم يقتدح الناس فى أحسن منه ، ويحشى فى المخاد للينه ، والخروع نبت لا يرعى .

وفى معلقة زهير : ذكر العهن (١٣) وهو القطن مصبوغاً أو غير مصبوغ والمراد به فى هذا البيت المصبوغ، لأنه شبهه بحب الفنا وهو شجر له حب أحمر، وهو الذى يقال له عنب الثعلب .

وفى معلقة لبيد : ذكر الأيهقان (٦) وهو عشب يطول ، وله وردة حمراء وورقه عريض ويؤكل ، أو هو الجرجير البرّى واحدته أيهقة ، والثمام (١١) وهو نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص ، تحشى به خصائص البيوت واحده ثمامة ، والأثل (١٥) وهو نوع من الطرفاء ، الواحدة أثلة . والسّفا (٣٠) وهو شوك شجر البهمى ، والعرفج (٣٢) شجر سهلى ، والقلام (٣٤) نبت يكون على الأنهار ، واليراع (٣٥) وهو القصب ، والجرداء (٦٦) وهى النخلة التى انجرد كربها وليفها .

وذكر عمرو بن كلثوم الدرين (٦٩) وهو الحشيش اليابس الذى حبس قومه إبلهم على طعامه حتى ظفروا ولم ينل منهم عدو .

وفى معلقة عنترة : الخمخم (١٤) وهو آخر ما يبس من النبات ، واحدته خمخمة . والعظلم (٦٤) وهو نبت يختضب به .

وفى معلقة الحارث بن حلزة : العود (٧) الذى يتبخر به ، والسعف (٣٣) وهو أغصان النخلة ، واحدتها سعفة .

(٤) حيوان البادية :

وفى المعلقات إشارات لبعض حيوانات البادية ، وفيها تفصيل لبعضه الآخر وكان الذى أفاض شعراء المعلقات فى ذكره ، وفصلوا فى نعته هو أكثر أنواع الحيوان لهم نفعاً ، وأشده بحياتهم اتصالا .

وقد كان للخيل الحظ الأوفى من عناية العرب فى الجاهلية ، إذ كانت شديدة الاتصال بحياتهم فى الحرب ، وكان صهيلها من الأصوات التى ألفوها فى شتى ظروفهم ومقاماتهم وحلهم وترحالهم .

ولقد أفاض امرؤ القيس فى ذكر الخيل ونعتها بنعوتها فى كثير من أبيات معلقته ، ولا سيما الأبيات التى تبدأ بالبيت السابع والخمسين وتنتهى بالبيت الرابع والسبعين ، فإنها جميعاً تذكر الخيل التى كان يباهى بهـا امرؤ القيس ويتأنق فى أوصافها فى أكثر شعره ، وفى هذه الأبيات ذكر مبا كرته الصيد، والطير لا تزال فى عشاشها ، على فرس ماض فى سيره، عظيم الجثة ، لا يفوته من الوحش هارب ، فكأنه قيد فى أرجلها ، وهذا الفرس مكرّ إذا أريد منه الكرّ، مفرّ إذا أريد منه الفرار ، مقبل إذا أريد منه ذلك، مدبر إذا أريد منه الإدبار ، وذلك جميعا من قوته لا يعجز عن شىء منه ، وليس مراده أن هذه الأشياء الأربعة تقع منه فى وقت واحد، لأن ذلك غير ممكن بحال، وأنه كصخرة ألقاها السيل من أعلى الجبل إلى أسفل الوادى فى السرعة وصلابة الخلق . وهذا الجواد لا كتناز لحمه وملاسة ظهره لا يثبت عليه اللبد، كما أن الحجر الأصم لا يثبت عليه المطر ، وإنما يزلق عنه ؛ وهذا الذى ذكره من صفة جواده ممدوح فى الخيل . وهذا الفرس على ضموره خفيف الحركة سريع الانتقال ، وإذا

عدا سمع لجريه صوت كصوت القدر، إذا كان يغلى على النار ، وإن كان بين البيتين تناقض فى المعنى ، لأنه وصفه هنا بذبول الخلق وضمور البطن ، ووصفه من قبل باكتناز اللحم ، حتى إن اللبد ليزل عنه لكثرة ما عليه من اللحم ، وقد ساوى كفله وعنقه .

وهذا الفرس فى حال إعيائه وفتور أعضائه من كثرة التعب يصب الجرى صبًّا ، كما يصب الماء إذا كلت الخيل الجياد السوابح ، وأثارت الغبار فى الأرض المذللة بحوافر الدواب وهو لشدة سيره وسرعة عدوه ينسل من تحت راكبه نسلا ، فيسقط راكبه ، ولا يثبت على ظهره راكب ، خفيفا كان أو ثقيلا فإذا ركبه الغلام الخفيف زلق عن ظهره ، وإذا ركبه الرجل الكبير الثقيل الجسيم سقط فهلك . وهو فى سرعة جريه كأنه خذروف الصبى قد احكم فتل خيطه ، وتتابعت كفاه بإدارته .

ولهذا الفرس خاصرتان كخاصرتى الغزال فى الضمور وساقان كساق النعامة فى الطول ، وإرخاء كإرخاء الذئب فى السرعة، وتقريب كتقريب ولد الثعلب فى وقوع قدميه موضع يديه ، فقد شبهه بأربعة أشياء فى بيت واحد . وهذا الفرس عظيم الجرم ، طويل الذنب يكاد يمسّ ذنبه الأرض ، كثير شعر الذنب ، إذا قام الإنسان خلفه رآه قد سدّ ذنبه ما بين رجليه فلا يرى منهما شىء ، ووصف ذنبه بأنه ليس بمائل إلى شقّ ، وذلك من دلائل العتق وكرم الأصل . ثم شبّه جانبى صلب الفرس إذا اعتمد على رجليه بالحجر الذى يدق عليه الطيب للعروس ، أو الحجر الذى يكسر به الحنظل ، يريد أنه أملس الظهر مكتنز اللحم ، وفى هذا الوصف رجوع مرة أخرى إلى وصفه بالسِّمن بعد أن عدل عنه ووصفه بالذبول والضمور . ثم شبه آثار دماء الوحوش على عنق هذا الفرس بما بقّى من الحناء على الشعر الأشيب ، يريد أن دماء الصيد على نحره قد جفّت وتراكمت لكثرتها ، وذلك كناية عن كونه كثير السعى فى طلب الصيد ، وأنه لا يفوته منها هارب .

و بعد تلك الأوصاف الدقيقة يعرج امرؤ القيس على ما يفعل بهذا الفرس من الخروج به إلى الصيد ، وصنيعه فى ذلك ، فيذكر قطيعا من بقر الوحش ، و يشبه إناثه فى السمن وا كتناز اللحم والتبختر فى المشى بعذارى عليهن ملاحف طويلات الذيول تسحب خلفهن وهنّ يطفن حول الصنم ، وتلك النعاج من بقر الوحش أقبلت عليه مجتمعات فلما تَبَيَّنَتْهُ نفرت منه وفرت عنه متفرقات بعضهن عن بعض ، فكأنها الخرز اليمانى فى عنق صبى كريم كثير الأعمام والأخوال ، قد فصل بين خرزاته بجواهر ، فلما أدبرت النعاج جرى فرسه فى إثرهن ، فأدرك به أوائلهن ، والمتأخرات منهن لا يزلن فى ضجة أو شدة ، أو مجتمعات لم يتفرقن ، وهذه مبالغة فى قوة الفرس وشدته وقدرته على العدو ، حتى كأنه بهذه المثابة ؛ وقد استطاع أن يجمع بين ثور و بقرة فى شوط واحد فقتلهما تباعاً ، وهو لم يعرق فيغسله العرق ، وهذا كناية عن كون هذا الفرس فعل هذا كله ولم يمسّه إعياء ولا تعب فيعرق ؛ وذلك الفرس بعد التعب الذى ناله طول يومه فى الصيد قضى ليلته تلك مسرجاً قائما على قوائمه مقيداً ، وأنه بات يكلؤه طول ليلته خيفة عليه .

ذلك ما أتت عليه معلقة امرىء القيس من وصف الفرس ، ركوبهم فى الصيد والقتال ، وقد تمثلت فى هذا الوصف نعوت الخيل الجياد فى نظر العرب .

أما طرفة فقد ذكر الخيل فى أمانيه الثلاث التى عدّها من لذة الفتى التى لا يبالى الموت إذا فقدها ؛ فإن ثانى الأشياء التى يحرص على الحياة من أجلها كرّه لإغاثة الملهوف ، ونجدة المستصرخ المكروب ، فرساً فى يده انحناء قليل ، وهذا محمود فى الخيل ، فإذا كثر كان مذموماً ، وكأن هذا الفرس ذئب الغضا فى ورود الماء أثير وأفزع ، وهو إذا كان فيه هذان الأمران كان أسرع ما يكون من الحيوان عدواً وأخفه حركة وأكثره نشاطا (٥٩)

وفى معلقة لبيد قليل من ذكر الخيل ، وذلك حين فخر بحمايته الحىّ تحمل سلاحه فرس متقدمة سابقة فى العدو قد توشح بلجامها (٦٣) وذلك أن الفرسان كان أحدهم يتوشح بلجام فرسه ، ليكون ساعة الفزع والحاجة إلى الركوب قريبا منه ، وأنه خبّ بها ، ثم أحضر بها ثانيا ، فلما عرقت خفت أعضاؤها للعدو ، فاشتدت فى عدوها اشتداداً قلق له رحلها ، وسال منه نحرها عرقا ، وابتل حزامها من ذلك العرق ، وهى ترفع رأسها نشاطاً ، وتجذب عنانها من كف راكبها ، وتعتمد فى سيرها ، كأنها حمامة قد جدّ جماعتها فى طلب الماء لكثرة ما نالهن من العطش ، فهن أسرع ما يكنّ طيرانا (٦٧ و ٦٨ و ٦٩) .

ووصف عمرو بن كلثوم الخيل حين ذكر صنيع قومه بسادة غيرهم ، من الذين يحمون اللاجىء إليهم ويدفعون الضيم ، إذ يقتلونهم ويحبسون خيلهم الصامتات عليهم فتقف مطمئنة لا يروعها شىء ولا يفزعها مفزع (٢٦) وحين ذكر أن قومه أبداً على أحد حالين : فأما إذا خشوا على بنيهم من العدو أصبحوا متيقظين مستعدين للقتال للمدافعة عنهم ، وأما يوم لا يخشون عليهم فيتركونهم فى منازلهم ، ويمعنون فى الغارة على الأعداء وطلب الكسب (٥٠ — ٥١) وحين ذكر أن ما يحملهم يوم الفزع هى الخيل الجرد (٧٩) وهى القصيرة الشعر ، وهو وصف لكرائمها ، وقد استنقذوها من قوم آخرين ، فاصطفوها وتخيروها ؛ ويعلف هذه الجياد كرائم نسائهم (٨٧) عناية بها ، وإدراكا لأهميتها .

وفى مقام الفخر بالفروسية والبطولة ، ذكر عنترة الخيل حين وازن بين حال حبيبته عبلة التى تمسى وتصبح منعمة موطأً لها الفرش والحشايا ، وحاله وهو يربت على ظهر فرسه ، وحشيته السرج على فرس ضخم الأطراف والقوائم (٢٤ — ٢٥) وحين ذكر حبيبته بطول ما أبلى ، وهلا سألت الخيل عنه إن كانت جاهلة ، إذ كان مقيما على فرسه الذى تعاوره الكماة (٤٩) والذى كان

بجرده للطعان ولاقتحام جيش الأعداء ، فإذا نـكى فيهم عاد به إلى جيش قومه (٥٠) وذكر دعاء قومه إياه لاقتحام غمرات القتال ، فلما أشرع الأعداء الأسنة نحو فرسه ليعقروه ويأسروا راكبه ، كانت أشبه شىء بالحبال التى ترسل فى البئر ليستقى عليها (٧٩) وأنه ما زال يكر عليهم بفرسه حتى عم الدم جسمه فـكان عليه كالقميص ، حتى مال ذلك الجواد عن القوم لـكثرة ما ناله من رماحهم ، ودمعت عينه وحمحم كأنه يشكو إلى فارسه ذلك ، ولو كان يعلم الـكلام لأفصح بالشكوى (٨٠ و ٨١ و ٨٢) ولقد كانت الخيل تقتحم الغبار بسرعة وهى عوابس لهول الموقف وجده ، وكان منها الطويل والقصير الشعر (٨٤ و ٨٥) .

أما الحارث بن حلزة، فقدوصف إغارة بنى تغلب على قومه من بكر ، وأنهم كانوا يحكمون أمرهم ليلا ، ليصبحوهم بما اتفقوا عليه ، فيسمعونهم الضوضاء والصياح وصهيل الخيل ورغاء الإبل (٢٠) وذكر خيل العلاق وهو رجل من بنى يربوع بن حنظلة من تميم ، كان على هجائن كسرى، وكان أغار على بنى تغلب فقتل فيهم (٥٧).

وهكذا نرى الخيل قد شغل ذكرها ووصفها مكاناً بارزا فى أكثر المعلقات فى غرضيها اللذين تستخدم فيهما، وهما الصيد فى إبان الأمن والسلام ، والحرب فى مواقف النجدة والقتال .

أما الإبل فقد شغلت أيضاً مكانا بارزاً فى بعض المعلقات ، إذ كانت منزلتها عندهم هى منزلة الخيل إن لم تفقها ، إذ كانت ركوبهم فى رعيهم وفى ترحالهم ، وكان لحمها قرى ضيفانهم ، وكانت هى الفداء الذى يستل السخينة من القلوب ويطفىء نائرة الحروب .

وقد ذكر امرؤ القيس يوم «دارة جلجل» وما كان من ذبحه ناقته للعذارى ،

وإطعامهن لحمها الذى استطبنه ، كما استطبن شحمها الذى يشبه الأطراف المسترسلة من الإبريسم الأبيض (١٢) وذكر ركوبه مع صاحبته على بعيرها بعد أن عقر بعيره ، وخشيتها على بعيرها أن يثقل عليه حمل متاعها ومتاعه (٧١) .

أما طرفة فقد أفاض فى ذكر ناقته ووصف جسمها وقدرتها على السير السريع الآمن ، فإذا عزم أمراً أمضاه بناقة ضامرة سريعة السير ، تصل سير الليل بسير النهار ، لا تنى ولا تفتر (١١) وهى ناقة مأمون عثارها فى عدوها ، ضخمة كأن عظامها ألواح التابوت ، إذا ركبت بها مَتْنَ الطريق الواضح زجرتها فأسرعت (١٢) وهى كالجمل فى متانة خلقها ، عظيمة الوجنات ، سريعة السير ، فإذا مشت بين العدو والسير كانت كأنها نعامة عرضت لظليم قليل الشعر (١٣) فإذا كانت الناقة هكذا سرعة فى مشيها فى تلك الحالة ، فكيف يكون حالها إذا اشتدت فى عدوها و بذلت أقصى جهدها ، وهى تعارض فى سيرها كرام الإبل حين تتبع رجلها يدها فوق الطريق المذلل؟ (١٤) ووصف الناقة بأنها نزلت فى الربيع القفين ترتعى نبت الوادى الممطور أولا وثانيا ، مع طائفة من الإبل وذلك أدعى لإقبالها على الرعى للأنس بجنسها (١٥) وهى ناقة مؤدبة متعلمة فمن أهاب بها رجعت إليه ، وإذا دنا منها الفحل اتقته بذنبها (١٦) وذنبها أبيض ، كأنه جناح نسر قوى ، وهى لا تزال تلعب بذلك الذنب ، فتارة تضرب به على عجزها ، فيكون خلف الرديف ، وتارة تجعله بين ساقيها ، فتضرب به على أخلاف يابسة قد ذبلت وانقطع لبنها ؛ ولها فخذان سمينان قد اكتمل لحمهما ، طويلان كأنهما بابا قصر منيف ، ولها فقار مطوية متراصفة متداخلة ، كأن أضلاعها المتصلة بها قسى ، ومقدم عنقها قد ضم وألصق بخرز عنقها أحكم إلصاق ، وجعل بعضه على بعض ، وكأن إبطيها فى السعة بيتان من بيوت الثور الوحشى ، وكأن أضلاعها قسى معطوفة تحت صلب قوىّ محكم الوضع . ولها مرفقان بعيدان عن جنبيها فكأنها سقّاء قوىّ ، حمل بكل يد دلواً ، ومشى بهما ، وقد باعدهما عن جنبيه ، فارتفع

جذلك مرفقاه عن جنبيه . وهى فى ضخامة جسمها وحسن خلقها وتراصف أعضائها كقنطرة رجل رومى بالغ فى صنعها وتقوية بنائها . وفى لونها صهبة وفى ظهرها شدة ، يبعد ذميل رجليها ، ويكثر تحرك يديها فى السير ، وكنى بكونها صهابية اللون عن كرم أصلها. ويداها قد فتلتا فتلا محكما جافى عضديها عن دفيها، وأميل عضداها تحت جنبين كأنهما سقف قد أسند بعضه إلى بعض، حتى قوى واستحكم . ولشدة مرحها تعتمد إذا سارت على أحد شقيها وتتدفق فى سيرها ، وهى عظيمة الرأس وذلك من دلائل قوتها واستكمال خلقها ، وقد رفع لها كتفان بقوائم طويلة تبعد جسمها عن الأرض . وكأن آثار النسع فى جلدها آثار طرق مورد على صخرة ملساء فى أرض صلبة ، ومراده وصفها با كتناز اللحم وتماسكه .

وعنقها طويل ، إذا رفعته كان فى ارتفاعه كسكان ضرب من السفن معروف عندهم، إذا كان سائراً فى الماء . ورأسها صلب، كأنه حديدة العلاة ، وكأن طرفيه اجتمعا على مبرد حديد ، وهذا آكد ما يكون من الدلالة على صلابة رأسها .

ولتلك الناقة خدّ كأنه فى نعومته قرطاس الرجل الشآمى ، ولها شفة كأنها جلد الرجل اليمانى لم يسقط عنه شعره . ولها عينان تلمعان كأنهما مرآتان قد توطنتا فى كهفين ، وأحيطتا بعظمين كأنهما حجر القلت[1] . وإنما قيد الحجر بكونه حجر قلت لأن القلت هو الذى يشبه العين ، فالماء الذى فيه يشبه حجم العين، واستدارة الصخر حول ذلك الماء يشبه استدارة العظم و إحاطته بالعين ، وليدل بذلك على فضل قوة ذلك العظم، فإن الصخر إذا كان فيه ماء كان أصلب وأتمّ قوة . وهاتان العينان سليمتان، تطرحان الأذى عن أنفسهما ، وهما واسعتان كعينى بقرة وحشية أريعت، ولها ولد ، فهى تحدق بعينيها لتتقى الصائد وتحفظ ولدها ، فهى أوسع ما تكون حينئذ عينا .

---

(١) القلت : النقرة تكون فى الصخرة يستنقع فيها الماء .

ولها أذنان صادقتا الحسّ تامتا الإدراك ، فهى تدرك بهما ما علا وما خفى من الأصوات ، فلا يخفى عليها شىء جليل أو دقيق . ولها قلب ذكىّ ، قوىّ الفطنة ، كثير الحركة ، مجتمع الخلق ، كأنه حجر مرداة[1] من صخور ذلك المحل أو كمرداة صخر بين أضلاع تشبه أحجاراً عراضا صلبة موثقة ، وشفتها العليا مشقوقة ، ومارن[2] أنفها كذلك ، وهى إذا أدنت رأسها من الأرض ازدادت فى سيرها .

وهى ناقة مهذبة مروضة ، لا تتعب راكبها ، فهو إن شاء منها أن تسرع فى سيرها أسرعت ، وإن شاء منها أن تخفف من سيرها قللت ، وإن شاء منها أن تجعل رأسها فوق واسطة كورها وتسبح بيدها ورجليها فعلت .

وهو على مثل هذه الناقة يمضى ويقطع الفلوات إذا جزع رفيقه منها ، وقال له: أفديك من هذه الفلاة وأفتدى نفسى ، وظن أنه هالك ، وإن لم يكن هناك خوف لما داخله من الذعر ، وخالط حشاشة قلبه من الجزع .

وإذا وقع الناس فى شدة وتساءلوا عن المرجىّ لكشفها ، تيقن أنهم إنما يعنونه بقولهم هذا ، فأقبل على ناقته ضربا بالسوط ، فاشتدت فى سيرها ، وقد تحرك الآل على الأماكن الغليظة التى يشق المشى عليها ، وهى تتبختر فى مشيتها كأنها جارية عرضت على أهل مجلس ، فقامت تتبختر ، وترخى أذيالها ، لترى سيدها أذيالها البيض . وإنما قال « ترى ربها » لأن سيدها إذا كان فى المجلس كانت أشد مبالغة فى التبختر وسحب الأذيال ؛ لتسرّ فؤاده ، وتستدعى رضاه .

وذكر من عاداتهم فى الإبل ما يفردون البعير الأجرب ، ويمنعونه من دخول معاطن الإبل ، لئلا تسرى عدواه إلى غيره .

ولقد كانت الإبل مظهر نعمتهم ، ولذلك كانوا يحرصون عليها ، ولا يرعونها

(١) المرداة : الصخرة التى تردى بها الصخور ، أى تضرب بها لتكسر .
(٢) المارن : مالان من قصبة الأنف .

إلا فتى يقظا يحسن رعيها والحفاظ عليها؛ إذ كان فيهم اللصوص الذين يتحينون غفلة الرعاة. وفى معلقة طرفة شىء من خبر ذلك، فقد كانت له ولأخيه معبد إبل وكانا يرعيانها معاً، وكان طرفة ربما رعى به وحده، وردّ أخاه معبداً، فقال له أخوه معبد يوما : لا تسرح فى إبلك وحدك ، كأنك تظن أنها إن أخذت ردها عليك شعرك ! قال له : إنى أخرج فيها أبداً ، حتى تعلم أن شعرى سيردها إن أخذت ، حتى أغار عليها قوم من مضر فاستاقوها ، فجد طرفة فى نشدانها (٨٣) كما فخر بأنه لا ينثنى عن عقر الإبل لندمائه ، سواء كانت له أو لغيره ، فيقول : رب إبل نائمة مشيت بينها ألتمس بعيراً أذبحه للندمان ، فثارت ثقالها من مخافتى ، وقامت من مباركها ، فمرت بى منها ناقة ضخمة سمينة ، قد جف ضرعها وهى من كرائم نوق شيخ صخاب سيىء الأخلاق من قومه ، فلما ذبحتها قال ذلك الشيخ : إنك قد أتيت بداهية لذبحك هذه الناقة التى لا يذبح مثلها لضيف ، قال لمن حوله : ماذا ترون بهذا الرجل الذى ظلمكم ، وتعمد إيذاءكم فى أكرم أموالكم ؟ ، يعنى كفّوه عنه ، وإلا لم يترك لكم شيئا . ثم عدل الشيخ عن هذا ، وقال : دعوه فإنما هوله ، لأننى سأخلفه عليها ، ثم قال : ردّوا ما ندّ من الإبل لئلا يعقره أيضا ، فلما شوى الإماء حوارها[1] الذى نزل من بطنها عند شقه على الملة[2] ، أقبلوا على أكله ، كما أكلوا قطعا من سديفها المسرهد[3] .

وبكل هذا الذى سلف أتى طرفة فى معلقته على الكثير من أوصاف الإبل ورعيها ، وقرى الأضياف والندمان بلحمها ، واستطاعت المعلقة أن تنهض بشرح هذه الأغراض على ذلك النحو من الوضوح والتفصيل .

وذكر زهير بن أبى سلمى فى معلقته ناحية أخرى من النواحى الأخرى

---

(١) الحوار : ولد الناقة .

(٢) الملة : الرماد الحار المخلوط بالجمر .

(٣) السديف : قطع السنام ، والمسرهد : المنتهى فى السمن

التى كانوا يصطنعون فيها الإبل ، وهى تقديم الإبل ديات للقتلى ، لتلتئم بها الجراح ، وتستل الضغائن والأحقاد ، فقال أن الجروح تمحى بالمئين من الإبل أى تسقط الدماء بدفع دياتها ، وإن هذه الديات يدفعها نجوماً متفرقة من كرامهم من لم يجترم جرماً ، ولم يُرِق ملء محجم من دم ، وإنما تحملها كرماً وفضلا لإصلاح ذات البين وصلة الرحم (٢٣ — ٢٤) .

وفى معلقة لبيد كثير من أوصاف الإبل وما ينتفع به منها ، فيذكر أن من لم يستقم لك فى ودّه فأنت قادر على قطيعته بركوب ناقة قد اعتادت الأسفار حتى أهزلتها ، فدق ظهرها ، وجف سنامها ، وفيها بقية من قوة ، وتكون هذه الناقة التى قد ذهب لحمها وانكشفت عظامها وتقطعت سيورها التى شدت بها أرساغها، خفيفة فى السير قادرة عليه، كأنها سحابة خفيفة ذهبت مع ريح الجنوب ، أو كأنها أتان أشرقت أطباؤها باللبن، واسودّت حلمتاها ، وقد حملت من حمار وحش فى حقويه بياض ، وقد أهزله طرد الفحول عنها وضربها وعضها (٢٠ — ٢٥) وبتلك الناقة يقضى لبانته إذا اضطرب الآل ، ولبست الآكام أردية السراب، يريد أنه يبكر فى الخروج عليها، ثم يديم السير عليها إذا اشتدت الظهيرة ، وذلك لجلدها على الحر والتعب (٥٣) .

وذكر لبيد ما يفعل الأيسار بالجزور[1] ، فيقول : رب جزور قوم مقامرين قمرتهم عليها ،وأخذتها منهم بقداح متشابهة العلامات ، ثم دعوت الناس إليها ، يريد أنه من المظفرين فى الميسر ، فما قامر إلا قمر ، والعرب فى الجاهلية كانوا يتمدحون بهذا . وكان يدعو بهذه القداح ليقامر بها على ناقة عاقر أو مطفل وإنما خصّهما بالذكر لسمن الأولى ، وجودة لحم الثانية ، يبذل لحمها للجيران أو يوزع

(١) الجزور التى جزرت أى نحرت ، والأيسار : جمع ياسر وهم الذين يضربون فى الجزور بالقداح والميسر .

بينهم ، أو أنه دعا بهذه القداح من أجل امرأة عاقر لا تحمل وأخرى ذات ولد ، ليس لهما من يعولهما ، فهو يقامر ليحصل لهما على ما يأكلانه ، ثم يفرق ما بقى على جيرانه ، فالضيف والجار الغريب المقيم فى جوارهم إذا نزلا بهم صادفا عندهم من الخيرات والفواكه والرطب ما يصادف النازل فى تبالة من الخيرات ، يشير بذلك إلى سعة يدهم ، وعنايتهم بضيفهم وجارهم ، والحفاوة بهما ، والمبالغة فى إكرامهما (٧٣ — ٧٥) .

وفى معلقة عمرو بن كلثوم شبه ذراعى امرأته بذراعى العيطل وهى الطويلة من النوق الأدماء ، وهى البيضاء الخالصة البياض ، والبكر وهى من النوق التى ولدت بطنا واحداً ، ويروى بفتح الباء وهو الشاب من الإبل (١٤) ووصف وجده وحزنه لفراق حبيبته ، بأنه فاق حزن ناقة أضلت حوارها ، فكررت الحنين إليه (١٩) وتذكر الصبا لما رأى الحمولة ، وهى الإبل التى يحمل عليها ، وقد حدتها الحداة ساعة الأصيل (٢١) .

وفى معلقة عنترة إشارات إلى الإبل فى مواضع متفرقة ، لأن أكثر هذه المعلقة يدور حول الفخر ببسالته وحسن بلائه فى الحرب ، وأداة ذلك الخيل التى قدمنا ما ذكر من أوصافها . ومما ذكر فيه الإبل قوله إنه وقف ناقته عند دار حبيبته أو أطلالها (٦) وأنه علم بقرب رحيلها حين رأى إبلهم تسف حب الخمخم[1] وذلك لأن من عادتهم إذا جاء الربيع أن يتفرقوا فى طلب الكلأ ، فإذا انقضى الربيع ويبس النبت رجعوا إلى ديارهم (١٤) وحين وصف دار حبيبته بالبعد حتى أنه ليستبعد الوصول إليها على مثل تلك الناقة التى وصفها بقوة الجسم وسرعة السير وبعد عهدها بالحمل والولادة ، والتى يكسر ظهور الإكام وهو راكب عليها كأنها الظليم (٢٦ — ٢٨) وقد شربت الناقة من ماء الدحرضين وتجافت عن

(١) الخمخم آخر ما ييبس من النبات واحده خمخمة ، وروى بحاءين غير معجمتين ومعناهما واحد .

حياض الديلم لأنها تخافها ، وبها من الحدة والنشاط ما كأنّ هرّاً تحت إبطها ينهشها ، إذا عطفت عليه وهى غضبى لتصده عنها دفعها بيده وفمه ، وقد أبقى لها طول السفر عليها سناما عاليا وقوائم كأنها الدعائم، يريد أنه لم ينهكها، وقد بركت على موضع قد نضب ماؤه، وجفّ أعلاه، وصار له غشاء رقيق ، فإذا بركت عليه سمع له صوت لتكسره تحتها ، أو أنها بركت لخنت فكأن صوتها صوت المزمار.

وكأن عرقها الذى يسيل من رأسها دبس أو قطران جعل فى قمقم وأضرمت النار تحته فهو يترشح ، وعرق الخيل والإبل أول ما يخرج أسود، فإذا يبس اصفرّ (٣٢ — ٣٧) .

وكما استعان طرفة بناقته التى يمضى عليها همّه ، ولجأ إليها لبيد فراراً ممن خان عهده ، ولم يصف له ودّه ، ووقفها عنترة عند أطلال حبيبته ، استعان الحارث بن حلزة على إمضاء همه ، وقضاء وطره ، بناقة سريعة السير ، كأنها نعامة طويلة الساقين ، وهذه النعامة سمعت صوتا خفيفا ، وخافت على نفسها الصياد ، وقد أدركها الليل ، فهى تريد أولادها . والغرض من هذا كله المبالغة فى سرعتها وشدة عدوها ، فأنت ترى من خلفها من رجع قوائمها وضربها الأرض بها غباراً دقيقاً كأنه الهباء ، وترى خلفها أطباق نعلها ، قد سقطت فى أماكن مختلفة ، وإنما أبلاها سلوك المفاوز ، وهو يتلهى بالركوب على هذه الناقة والسير عليها فى الهواجر ولم يعيه همّ يلحقه (٩ — ١٤) .

أما الظباء وبقر الوحش فقد كثر ذكرها ووصفها فى المعلقات فى معارض شتى ، كأن توصف آثارها فى الديار التى ارتحل أهلوها ، أو فى معرض التشبيه بها فى سعة العيون ، أو فى سرعة العدو ، أو فى ألوانها .

ومن ذلك فى معلقة امرىء القيس ما وصف به ديار حبيبته التى رحلت عنها ، وأنه صادف فى عرصاتها بعر الآرام ، وهى الظباء الخالصة البياض (٣) وما وصف به حبيبته حين تعرض عنه بوجهها فيبدو منها خد أسيل ، وتقبل عليه بوجهها فتتقى

نظره إليها بعين ظبية من ظباء وجرة لها أطفال (٣٧) وفى قوله إنها تبدى عنقا كعنق الظبى، غيرمتجاوز القدر المحمود منه، ولا هو معطل عن الحلى كعنق الظبى (٣٨) وفى تشبيهه خاصرتى فرسه بخاصرتى الغزال فى الضمور (٦٤) وفى ترقبه للصيد وعثوره بسرب من بقر الوحش، كأن إناثه فى السمن واكتناز اللحم والتبختر فى المشى عذارى عليهن ملاحف طويلات الذيول تسحب خلفهن (٦٨). وتلك النعاج من بقر الوحش أقبلن عليه مجتمعات، فلما رأينه نفرن منه، وفررن عنه متفرقات بعضهن عن بعض، فكأنهن فى تلك الحالة عقد خرز يمانى فى عنق صبى كثير الأعمام والأخوال، قد فصل بين خرزاته بجواهر، فلما أدبرن جرى فرسه فى إثرهن فأدرك أوائلهن، والمتأخرات منهن لا يزلن فى ضجة، واستطاع فرسه أن يجمع بين ثور و بقرة من بقر الوحش فى حملة واحدة، فقتلهما تباعاً ولم ينضح جسمه بشىء من العرق (٦٩ — ٧١) ويصف المطر الذى نزل على القنان[1] فأنزل منه العُصْم جمع أعصم وهو الوعل، أو الظبى المعتصم بأعالى الجبال (٨٠).

وفى معلقة طرفة ذكر الأحوى (٦) وهو الظبى فى ظهره حمرة تضرب إلى السّواد، ينفض المرد وهو ثمر الأراك، حين يكون شادنا، والشادن الغزال إذا تحرك واشتد فاستغنى عن أمه، وقال إن هذا الظبى قد لبس عقد لؤلؤ وعقد زبرجد، وتحلّى بهما جميعا، وهذا لا يكون من الظبى، وإنما يكون من إنسان يشابهه، وهو حبيبته التى قال إنها تشبه الغزالة التى تخلفت عن صواحباتها، وأقامت على ولدها، تنظر بعينيها إلى من ذهب عنها، فتمد عنقها لذلك، وتتناول أطراف ثمر الأراك فتتهدل أغصانها عليها فتكون كالرداء لها (٧) وإنما شبه محبوبته بالظبية فى تلك الحال لأن الغرض تشبيهها بالظبية فى طول العنق، وهى أطول ما تكون عنقا فى مثل تلك الحال.

(١) القنان: اسم جبل لبنى أسد

والمعنى الذى ذكره امرؤ القيس، وهو أن ديار حبيبته أصبحت مراحاً للأرآم ، هو الذى ذكره زهير بن سلمى حين ذكر أن دار حبيبته بالرقمتين قد أصبحت مراحاً لبقر الوحش والظباء ، وأنهن يمشين خلفة ' يخلف بعضهن بعضاً ، وأنهن يدعون أولادهن إذ يرضعهن، ثم يذهبن يرتعين ، فإذا ظنن أن أولادهن قد أنفدن ما فى أجوافهن صوتن بهن ، فينهضن من مجاثمهن ليرضعن (٣) .

وفى معلقة لبيد ذكر لنعاج توضح وظباء وجرة (١٤) حين وصف الظعائن وقوله إنهن تحملن جماعات ، فكأنهن فى هوادجهن على رحالهن بقرات وحش فى حسن عيونهن ، أو ظباء وجرة عاطفات على أطفالهن ، و إنما قيدهن بهذا الوصف لأنهن حينئذ أحسن عيونا منهن فى سائر حالاتهن . وفى مجال الموازنة بين ناقته والأتان ، والتماسه موازنة أخرى بينها و بين البقرة الوحشية (٣٦) المسبوعة ،أى التى أكل السبع ولدها ، فهى مذعورة، قد خذلت أصحابها من الوحش وأقامت على ولدها ترعاه ، وتتلفت إلى البقر ، فإذا رأتها طابت نفساً وعلمت أن القطيع لم يفتها بعد ، ووصفها (٣٧) بأنها خنساء ، من الخنس، وهو تأخر الأنف وقصره أن يبلغ إلى الشفة ، والبقر كلها خنس ، وقد ضيعت ولدها فافترسته السباع ، فهى لا تزال تطوف الأرض تفتش عليه وتبكيه ، بعد أن رأته معفراً بالتراب ، قد تجاذبت أعضاءه ذئاب غبس[1] تكسب ما تأكل (٣٨) بعد أن صادفت من هذا الغزال غفلة فأصبنه منها (٣٩) .

ثم يستطرد فى وصف هذه البقرة ،فهى ممطورة ، تمطرها ديمة تروى الخمائل دائم تسكابها ، وهذا المطر يعلو ظهرها متتابعاً أو متقطعا فى ليلة أطبق غيمها فستر النجوم، وهى تسكتن فى أصل شجرة مرتفعة أغصانها لا تسترها، بعيدة عن سائر الأشجار ، وقد وقعت هذه الشجرة فى كثيب من الرمل ينهال ولا يتماسك ، وهذه البقرة

---

(١) الغبس : جمع أغبس ، من الغبسة ، وهى صفرة إلى سواد .

كلما تحركت بالليل أشرق لونها ، فهى كالدرة انقطع سلكها فسقطت ، وإنما وصفها بذلك لأنها إذا سقطت من الحبل كان ذلك أضوأ لها ، ولما انقشع ظلام الليل بإشراق نور الصباح أصبحت هذه البقرة وقوائمها لا تثبت على الأرض من الطين ، فبقيت حائرة فزعة تتردد فى أطراف هذا المكان سبع ليال ،حتى إذا يئست البقرة من ولدها، وجفّ ضرعها الذى كان ممتلئاً لبناً و بلى ولم يبله أن أرضعت وفطمت ولكن ثكلت فحزنت وتركت العلف ، فانقطع لبنها وجف ضرعها . فلما سمعت صوت الناس أفزعها إذ لم تر أشخاصهم ، وحق لها أن تفزع من أصواتهم، لأنهم هلاكها ، لتوقع صيدهم إياها ، خائفة أن تؤتى من خلفها وأمامها وهى تحسب أن كلا الجانبين أولى بالخوف من الآخر .

فلما يئس الرماة أن تبلغها سهامهم، أرسلوا عليها كلاباً مضراة بالصيد معودة عليه ، يابسة قلائدها التى فى أعناقها من كثرة البروز للهواء والشمس ومطاردة الوحوش فى القفار ، فلما لحقت الكلاب هذه البقرة رجعت البقرة عليهن تطعنهن بقرن كأنه الرمح حدة وطولا ، لتدفعهن عن نفسها وتمنعهن عنها ، وقد علمت أنها إن لم تدفعهن عنها عقرنها ، فهى أشد ما تكون مقاومة لهن لخوفها على حياتها منهن . وقد حملت هذه البقرة على « كساب » إحدى كلاب الصيد ، فطعنتها بقرنها فصرعتها وتركتها مضرجة بدمها ، ثم كرت على أخيها « سُحام » فطعنته فتركته صريعاً فى محل الكر (٤٠ — ٥٢) .

وهذا وصف فريد وتصوير رائع لتلك البقرة الوحشية ، ووصف لحالتها وما تقاسى من آلام الطبيعة القاسية فى تلك الصحراوات الواسعة، وما يفعل المطر بها ؛ وما تفعل السباع الضارية بصغارها، وما تجد من الحيرة والفزع بين النظرة الحانية الحزينة على صغيرها الذى انتهشته تلك السباع ، و بين القطيع من بقر الوحش الذى كانت تقوده ، وكيف أحست بالصوت الخافت ينبعث من

أحد الصيادين ، و إطلاقه كلابه نحوها لتحصرها ، ووصف دقيق لدفاعها عن نفسها . . وهي صورة دقيقة تفيض بالحركة ، وتضطرب بالمشاعر التي أجاد الشاعر العبارة عنها ، وانفرد بالإبداع في تفصيلها في هذه المعلقة .

أما عنترة فما أقلّ حديثه عن الظباء و بقر الوحش ، ومن ذلك القليل ما شبه فيه جيد حبيبته بجيد الجداية (٦٩) والجداية ما أتت عليه خمسة أشهر أو ستة من أولاد الظباء الحرة التي على أنفها بياض .

تلك أهم الإشارات إلى حيوان البادية ذي الشأن في لهوهم وصيدهم وتشبيههم وقتالهم وعدا ذلك إشارات إلى بعض ما عرفوا من صنوف الحيوان .

فقد ذكر امرؤ القيس «النعامة» و بيضها في تشبيهه لون صاحبته بلون بيضة النعامة المخلوط بياضها بصفرة (٣٦) وهذا اللون أحسن ألوان النساء عند العرب وذكر «الأساريع» (٤٣) وهي دواب رملية تكون فيه مثل شحمة الأذن ، وقد شبه بها أصابع حبيبته للينها . وذكر الطير (٥٧) التي يغدو للصيد وهي لا تزال في وكناتها . وشبه ساق فرسه بساق النعامة في الطول ، وشبه إرخاء فرسه بإرخاء «السرحان» ، والإرخاء جرى في سهولة ، والسرحان الذئب ، وشبه تقريب فرسه بتقريب «التتفل » ، وتقريب الفرس في العدو هو رفع يديه معاً ووضعهما معا ، والتتفل ولد الثعلب (٦٤) وذكر مكاكي الجواء (٨٥) والمكاكي جمع «مكاء» بالمد والتشديد على وزن رمان ، وهو طائر كثير الصفير . وذكر السباع (٨٦) جمع سبع ، وهو كل حيوان مفترس أسداً كان أو غيره .

وذكر طرفة «السفنجة» و«الأزعر الأربد» (١٣) والسفنجة النعامة والأزعر ذكر النعام الذي لونه كلون التراب . شبه ناقته إذا سارت سيراً بين العدو والمشي بنعامة عرضت لظليم قليل الشعر كأن لونه التراب ، والنعامة أسرع ما تكون عدواً إذ ذاك ، فإذا كانت ناقته هكذا في سرعة مشيها في تلك الحالة ، فكيف

يكون حالها إذا اشتدت فى عدوها و بذلت أقصى جهدها ؟ وذكر المضرحى (١٧) وهو العتيق من النسور يضرب إلى البياض ، أو هو الصقر الطويل الجناح وشبه عينى ناقته بعينى بقرة وحشية، أر بعت ، ولها ولد ، فهى تحدق بعينيها لتتقى الصائد،وتحفظ ولدها ،فهى أوسع ماتكون حينئذ عيناً(٣٣)وذكر الخفيدد (٣٩) وهو ذكر النعام ، والسِّيد (٥٩) وهو الذئب شبه به فرسه ، والحيّة (٨٤)وقد شبه نفسه برأسها المتوقد .

وذكر زهير العين والأرآم (٣) والعين البقر الوحشىّ واحدتها . عَيْنَاء ، سميت بذلك لسعة عيونها ، « والأرآم » وهى الظباء الخالصة البياض ،جمع رئم ، و « الأطلاء » جمع طلا ، وهو ولد الظبي والبقرة ، وذكر الأسد ذا اللبد الكثير اللحم (٣٨) .

وفى معلقة لبيد ذكر للظباء والنعام (٦) وكذلك « العِين » (٧)وأطلاؤها ، و « نعاج تُوضِحَ » ، « وظباء وَجْرَة » و « أرآمها » (١٤) و « والأحقب » وهو حمار الوحش (٢٥) وقد شبه ناقته بأتان أشرقت أطباؤها باللبن واسودّت حلمتاها ، وقد حملت من حمار وحش ، أهز له طرد الفحول عنها وضربها وعضها . وهذا الحمار ذكر من أوصافه أنه يُعلى تلك الأتان الإكام ، إبعاداً لها عن الفحول لئلا يمسها منها أحد ، وهو فى شك من حملها لامتناعها عليه فى السير معه ، وإنما وصفه بذلك ليدل على شدة سوقه إياها ، وطردها إلى رءوس الإكام (٢٦) . وما زال ذلك الحمار وتلك الأتان على مثل حالهما حتى مرّ عليهما الشتاء وجاء الربيع ، فصارا يكتفيان بأكل رطب الحشيش عن الماء ، ثم رجعا بأمرهما إلى طلب الماء لمجيء الصيف ، وقد رمى التراب وشوك الشجر مآخير الحوافر ، فعدوا الى الماءعدوا سريعاأثار الغبار ، فارتفع من تحت أرجلهما وكأنه دخان نار مشتعلة لتكاثفه وانعقاده ، أو كأنه نار هبت عليها ريح الشمال .

لقد مضى الحمار إلى الماء وقدّمها أمامه ، لكيلا تفر منه ، وتلك عادته ، والأتن لا ترد الماء حتى يتقدم الفحل ، فيشرب ، وينظر هل بالماء ما يريبه أولا . ولقد خاضا النهر حتى توسّط ، وشقّقا النبت الذى على الماء (٢٧ — ٣٤) .

كما ذكر لبيد « الوحشية المسبوعة » (٣٦) وهى البقرة التى أكل السبع ولدها و « والفرير » (٢٧) وهو ولد البقرة ، « الدجاج » (٦٢) التى تصيح سحراً ، و« الحمامة » (٦٦) وذكر عمرو بن كلثوم (٢٩) الكلاب وهريرها .

وذكر عنترة « الغراب الأسحم » (١٥) و « الذباب » (٢٢) و « قلص النعام » (٢٩) وهى أولادها وأحدثها « قلوص » . وذكر الشاة (٦٦) التى كنى بها عن المرأة و « الجداية » (٧٩) وهى من الظباء ما أتى عليه خمسة أشهر أو ستة ، و « النسر » (٩١) .

وفى معلقة الحارث بن حلزة ذكر للربيض (٥١) وهو جماعة من الغنم .

وذلك أهم ما عرضت له المعلقات بالذكر من سائر صنوف الحيوان التى كانوا يعرفونها فى صحرائهم ، ويعتمدون على بعضها فى حياتهم .

الحياة الجاهلية فى المعلقات

ولقد صورت المعلقات المجتمع العربى كما هو ، فبرزت فيها صور مختلفة لذلك المجتمع ، ويمكن أن تعد تلك الصور صوراً متكاملة ، يتكون من مجموعها رسم واضح لذلك المجتمع فى أكثر نواحيه ومختلف حالاته ومتعدد ألوانه .

وأهم هذه الصور ما رسمته المعلقات لحياة الظعن والترحل ، التى كانت تمثل حياة الغالبية العظمى من بدو الصحراء ، الذين كانوا فى سفر دائم ، متتبعين مساقط الغيث ومنابع الماء ومواطن الرعى ؛ حتى إذا زايلها السحاب ، وجف معينها ويبس كلؤها ، تحوّلوا إلى غيرها من المواطن وراء الماء الذى يستقون منه ، ويسقون

غنمهم و إبلهم وخيولهم ، و يجدون عنده من العشب مايطعمه حيوانهم الذى يركبون و يتخذون من ألبانه ولحومه طعامهم ، ومن أصوافه وأوباره وجلوده أثاثاً ومتاعاً إلى حين …

وذلك اللون من الحياة صوّره أكثر أصحاب المعلقات فى مطالع معلقاتهم حين وصفوا ما يخلفه الظاعنون من آثار منازلهم ومضارب خيامهم ، فى معرض تذكرهم للهو بها ، والتشبيب بفتياتها اللاتى رحلن عنها إلى منازل أخرى مع عشائرهنّ فيقف الشعراء عند أطلال تلك المنازل ، واصفين ما خلّفه الراحلون من النؤى والأحجار ، و باكين لفراق الأحباب الذين حملوا معهم قلوبهم فى جملة ما حملوا من الأثاث والمتاع .

وصف ذلك امرؤ القيس فى ستة أبيات فى مطلع معلقته ، ناشد فيها رفيقيه الوقوف معه ، و إعانته بالبكاء ، عند تذكر حبيبته التى فارقت منزلها بسقط اللوى بين الدخول وحومل وتوضح والمقراة ، والذى لا تزال آثاره باقية لم تدرس لاختلاف ريحى الجنوب والشمال عليه ، فإذا غطّته إحدى الريحين بالتراب كشفت عنه الأخرى فظهر ، وقد أقفر من أهله ، ولم يبق به أنيس من سكانه ، فخلفتهم عليه الظباء تسرح ، وقد بدا بعرها منثورا كأنه حب الفلفل .

وكذلك فعل طرفة فى مطالع معلقته فى خمسة أبيات من ذلك المطلع ، ذكر فيه أن لحبيبته «خولة» أطلالاً ببرقة ثهمد ، كأنها آثار الوشم على اليد ، أى أنه لم يبق من ديار هذه المحبوبة إلا مايساوى الأرض ، وأما ما كان مرتفعاً عنها فقد ذهب وتلاشى ، ولذلك شبهه بالوشم ، لأن أثره مساو لظاهر اليد ، وشبه مراكبها التى فارقته بالسفن العظام بمجارى المياه الضخمة ، وهى تارة تعتدل فى الطريق ، وتارة تميل عنه ، كما أن ملاح السفينة يجور بها مرة ، و يهتدى بها مرة أخرى .

ولا يبعد عما ذكره الشاعران ما ذكره زهير عن منازل «أم أوفى» التى وقف

عليها ، وسألها عن أهلها سؤال توجُّع وتذكُّر ، لا سؤال جاهل يلتمس جوابا ، وإنما جعل الدمنة بالحومانة — وهى ماغلظ من الأرض — لأنهم كانوا يتحرَّون النزول فيما غلظ من الأرض وصلب ، ليكون بمعزل من مياه السيل ، وليمكنهم حفر النؤى وضرب أوتاد الخيام ، ونحو ذلك مما لا يتيسر فى الأرض اللينة ؛ وفيما وصف فيه أطلال ديارها بالرقمتين، التى عفت ودرست ، ولم يبق من آثارها على وجه الأرض إلا كما يبقى على ظاهر اليد من الوشم ، فقد ساوت التراب ولم يبق منها ما شخص أو ارتفع عنه . وفيها من العين والأرآم شىء كثير ، وأنهن يمشين خلفة يخلف بعضهن بعضا ، وكل ما وجده فى ديارها من آثارها تلك الأثافى ، وهى الحجارة التى كانوا ينصبون عليها قدورهم . والنؤى[1] وهو حاجز من تراب كانوا يرفعونه حول بيوتهم لئلا يدخلها الماء ؛ وعاود زهير ذكرى رحيل صاحبته فى جماعتها ، فيسأل صاحبه إن كان يرى من فوق ذلك الماء نساء فى هوادجهن قد طرحن على الهوادج أنماطاً[2] جياداً أطرافها حمر ، كأن لونها الدم ؛ وهو لا يرى شيئا من ذلك ، وإنما صوره له الوهم كأنه يراه ، كما كان رآه يوم خرجن من وادى السوبان . ثم عرض لهن مرة أخرى فقطعنه ، وقد رآهن يوم خرجن للسفر سحرة يقصدن ذلك الوادى الذى يعرفنه جيداً ، كما تعرف اليد طريق الفم ؛ ولطول السفر بليت الرحال فتساقط فتات العهن المصبوغ من هوادجهن فى كل منزل نزلن به ، وكأنه حب عنب الثعلب وهو صحيح لم يكسر ، وإنما قيد بذلك لأنه إنما يكون أحمر إذا كان صحيحا ، فإذا كسر حال لونه وتغير فلما وردن المياه التى ينزلنها فى غير زمن الربيع أقمن عليها ، ونصبن خيامهن عليها ، وقد ألقين عصا التسيار ، واطمأنَنَّ إلى هذا المنزل .

---

(١) النؤى هو الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل .

(٢) الأنماط جمع نمط وهو ما يفرش من الثياب .

أما لبيد فقد افتتح قصيدته بذكر عفاء الديار التي كان ينزلها أحبابه بمنى ، وقد توحش موضعا الغَوْل والرِّجام لظعن الأحبة عنهما ؛ وقد خلت منهم مدافع الرَّيَّان بارتحالهم عنها ، ولم يبق على ظاهر الأرض من ديارهم إلا كل خامد لاحق بالأرض ، كالكتابة على الأحجار ، كما شبه غيره تلك البقايا بالوشم الذى يبقى على ظاهر اليد ، ودعا لتلك الديار المقفرة بأن تسقيها أمطار الربيع ، حتى تخضل رباها وتخضّر وهادُها ، و يعاودها من جمال المنظر ما فقدته بخلوّها من أنيسها وارتحاله عنها . ووصف كما وصف غيره بقرات الوحش العين ، وهنّ حديثات عهد بالولادة ، قد أقمن على صغارهن يرضعْنَهُنَّ ، وانبثت فى تلك الصحارى حتى ملأتها ، فقد عدمت تلك المعاهد أن تكون مغانى للإنس وصارت مغانى للوحوش .

ولما تهاطلت الأمطار على تلك الديار كشفت آثارها بغسل ما كان مترا كما عليها من التراب ، فكأن تلك الطلول كتب غابت فيها الكتابة لطول عهدها بالكاتب ، وكأن تلك السيول أقلام تجدد كتابة تلك الكتب ، وتظهر ما خفى منها ، أو كأنها واشمة عمدت إلى وشم قد ضعف أثره على اليد ، فرجعته وأعادته بذرٍّ النئور على داراته ليبدو جديداً .

وقد وقف الشاعر يسأل تلك الدِّمَن الصُّمّ ، ثم يصحو فينكر من نفسه أن تخاطب أحجاراً لا تبين ، وذكر كما ذكر غيره أنها خلت من أهلها الذين كانوا بها وارتحلوا عنها بكرة ، ولم يتركوا إلا النؤى والثمام ، وقد شاقته ظُعُن الحىّ حين ركبن الهوادج وارتحلْنَ عليها . و يأخذ بعد ذلك فى وصف هوادجهن فوق الإبل وصفاً دقيقاً أخَّاذاً .

وأشار عمرو بن كلثوم فى مطلع معلقته إشارة سريعة إلى الظعن[1] التى استوقفها ليخبرها باليقين من شجاعته وحسن بلاء قومه . و بعد أبيات يذكر صباه

(١) الظعن : جمع ظعينة وهى المرأة ما دامت فى الهودج .

ويصف أشواقه لما رأى حمولتها ، وقد حدتها الحداة ، وجَدَّت فى المسير نحو غايتها ، بعد أن غادرت اليمامة ، وحال دونها السراب ، فتراءت لهم مرتفعة تلوح كالسيوف المسلولة من أغمادها ، وإنما خيّلها لهم السراب كذلك .

وتلك الظاهرة — ظاهرة الرحيل ووصف الظعائن فى مطالع المعلقات — برزت فى قصيدة عنترة الذى عرف الديار ، ديار حبيبته عبلة بعد توهمه ، وبعد أن أعياه رسمها الأصم ، وحبس بها طويلا ناقته يشكو إلى أطلالها الصامتة مافعل به هجر حبيبته ورحيلها إلى أرض أعدائه ، حتى صار مطلبها عليه عسيراً ، لعدم إمكانه الخلوص إليها ، بعد أن زمت ركائبها سِرًّا ، فلم يعلم خبر رحيلها إلا حين رأى إبل قومها تسفُّ حبَّ الخِمخِم ، وهو آخر مايبس من النبات ، وذلك لأن من عادتهم إذا جاء الربيع أن يتفرقوا فى طلب الكلأ ، فإذا انقضى الربيع ويبس النبت عادوا إلى ديارهم .

وبرزت تلك الظاهرة كذلك فى مطلع معلقة الحارث بن حلزة ، التى بدأها بذكر حبيبته أسماء التى آذنته بفراقها ، بعد عهده بها ببرقة شماء ، وبالخلصاء وبالمحيَّاة ، والصِّفَاح ، وأعناق فتَاق ، وعاذبٍ ، والوفاء ، ورياض القطا ، ووادى الشربُب والشعبتين ، والأبلاء ، التى كان يعهدبها كلها من كان يواصله ، ثم تحملت عنه وخلّفتها خاوية ، فهو يبكى شوقا إليها ، وإن كان يعلم أن البكاء لن يردها إلى معاهدها ، ولن يغنى عنه شيئاً ، غير أنه يبكى ليشفى بعض مابه من الحزن . ويذكر آخر عهده بها حين رأى نارها تلوح بالعلياء ، ولم يعلم أين مكانها حتى تأملها ، فعلم أنها بين العقيق وشخصين ، فظنّها قريبة منه ، فطمع فى اصطلائها ، حتى عرف أنها بعيدة عنه فيئس ، وعاوده الحزن والحنين .

* * *

حياة الحرب والسلام :

وعلى ذلك النحو صورت المعلقات حياة الصحراء ، وما يعانى ساكنها الذى لا يستقر على حال ، بل يقضى حياته فى ظعن و إقامة ، وحل وترحال ، والبيئة هى التى تحركه وتوجهه ، وفى تحريكها وتوجيهها ، تثور عواطفه ، وتفيض نفسه بمختلف الأحاسيس ، التى صورها الشعراء على ذلك النحـــــو الذى أوردنا شيئاً منه فى تلك المواضع البارزة من صدور المعلقات ومطالعها .

وتلك الحياة نفسها هى التى أثرت فى أخلاق العربى وسلوكه ، فهى التى أفقدته الأمن بما أفقدته من الاستقرار ، والأمن والاستقرار متلازمان ، فلا مستقر إلا للآمن المطمئن الذى اطمأن إلى البقعـة التى يحيا فيها ، بما يجد فيها من أسباب العمل والعيش ، وكلاهما ينسق حياته ، و يجعلها تجرى على نظام رتيب ؛ و إلا إذا اطمأن إلى من حوله من الناس الذين يشغلهم العمل كما يشغله ، وتنتظم حياتهم كما تنتظم حياته ، حين يجد كل منهم مورد رزقه ، وقد هيأته له الطبيعة ، يغدو إليه فى جد ، و يقبل عليه فى استقامة ، و يروح إلى أهله بثمرة ذلك الجد والكفاح ، ولا يجد من الوقت ما يفكر فيه فى شر يصيب به من يعرف ومن لا يعرف .

إن شيئاً من ذلك لم تهيئه الطبيعة فى تلك الصحراء إلا لعدد قليل من سكان الجزيرة فى جاهليتهم ، و بقيت الأكثرية منهم تعبث بهم تلك الطبيعة القاسية ، وتبخل عليهم تلك الأرض الجدبة ، وتضنّ عليهم السماء بغيثها ، فقضوا حياتهم مشردين ، ومالم ينالوه عفواً من أسباب العيش أصابوه اغتصاباً ، ولا غلبة عندهم لحق ، ولا صوت لضمير ، ولا منطق للأحداث ، و إنما الغلبة للقوة ، والمنطق المحترم هو منطق الرماح ، وصليل السيوف .

ومن هنا زخرت المعلقات بذكر الحروب ، والحديث عن القادة ، والتباهى بالحشود والجنود ، و بالقتلى والضحايا والسبايا ، و بالغنائم والأسلاب ، وفاضت بذكر مواقع القتال ، وشن الغارات ، والفتك والنهب والسلب ، ثم أصوات قليلة تذكر بنعمة السلام الذى حرمته ، ولذة الأمن الذى فقدته .

على أن المعلقات كلها ليست على درجة واحدة من العناية بإبراز هذا الضرب من الحياة ، حياة الحرب والقتال ، فإن بعضها قد غلب عليه ذلك الغرض حتى كأنها لاتقوم إلاّ به ، على حين أن البعض الآخر لايعرض له إلا لماماً . ومرجع ذلك إلى اختلاف أصحابها فى حياتهم وطباعهم ، و إلى تباين أمجادهم ، واختلاف موارد أرزاقهم ، و إلى القبائل والجماعات التى ينتمون إليها ، ومارکب فى نفوس أبنائها من حب للخير والسلام ، أو نزوع إلى الشر والخصام .

و يؤكد هذا الاختلاف فى طباعهم ومنازعهم أن معلقة امرئ القيس على طولها لم تعرض للحرب أوالقتال قليلا أو كثيراً . وسبب ذلك أنه أنشدهافى حياته الأولى، تلك الحياة العابثة الماجنة التى قضى فيها شبابه فى حياة أبيه ، على الرغم من تلك المعارك التى خاضها أبوه وأعمامه فى قتال الثائرين على ملكهم ، أو الخارجين على طاعتهم ، والتى انتهت بقتل أبيه حُجْر ، ولكن امرأ القيس لم يكن رجل سيف أو رمح ، بل كان رجل صيد ولهو وخمر وقيان ، لا يشغله عنها شيء ، ولذلك خَلَتْ معلقته تماما من ذكر الحرب والقتال ، والتارات والغارات التى كانت عند كثير منهم سبيلا إلى الكسب والمغنم ، فقد كان فى ماله ومال أبيه غناء عما لم يعهده ، ومالا تطيقه نفسه المرفهة الناعمة ، التى تفزعها صورة الحرب ، و يزعجها منظر الدماء .

ذلك على حين أن صورة الفتوة العربية ، والحمية الجاهلية وما تستلزمه من صفات النجدة والشجاعة ، تبرز بوضوح فى معلقة طرفة بن العبد ، إنه يذكر أن

قومه كثيراً ما يخوضون غمرات القتال ، وكثيراً ما يدعُون فتيانهم إلى اقتحامها ، للذَّوْدِ عن حماهم ، أو للثأر ممن وترهم ، فإذا وقعوا فى أمر فظيع ، وسألوا عن فتيانهم الذين يرجونهم لكشف الغمة تيقن طرفة أنهم إنما يعنون إياه بدعوتهم ، فلم يكسل ولم يتبلّد (٤٢) ومدح نفسه بأنه ليس من أولئك الذين يختفون فى القلاع من طالبى نصرتهم ، بل إنه ينزل بحيث يراه كل من يستصرخه و يستنجده ، وذلك دلالة على الكرم والمروءة (٤٥) وأن هذا هو لون الحياة الذى ألفه ، فلا يستطيع العدول عنه ، فيقول لمن عذله فى كثرة شهوده الحرب ، واقتحامه الوغى ، حرصاً على سلامته ، و إبقاء على حياته : أفى استطاعتك أن تضمن لى الخلود إن أنا نكصت عن القتال ، وآثرت السلامة حرصاً على حياتى و إبقاء على نفسى ؟ (٥٥) إنه لو كان حريصاً على حياته لحرص عليها ، لأغراض لا ينثنى عنها ، ومنها امتطاؤه صهوة فرسه الجواد ، الذى لا يفتأ يكرّ عليه ، لإغاثة ملهوف ، أو نجدة مستصرخ مكروب (٥٩) وهو إنْ دُعِىَ للخطوب الجسام كان ممَّن يحمى فيها ، و إن دهم الأعداء قومه فقاتلوهم بأقصى جهدهم لم يألُ فى ردِّهم بأقصى ما يملك من الشجاعة والجهد (٧٥) وهو رجل خفيف قليل اللحم ، لا تعوقه بدانته عن سرعة الحركة ، وهذا مما تتمدح به العرب ، لأن كل مفاخرهم محصورة فى لقاء الأبطال ، ومقارعة الأقران ، و إغاثة الملهوف ، وقطع الفلوات (٨٤) .

ولقد أقسم طرفة ألا يزال جنبه بطانة لسيفه القاطع ، لا يفارقه أبداً ، بل يظل ملازما له متقلدا إياه ، وليس كل سيف يُغْنِى عن صاحبه إذا انتصر به ، ولكن هذا الحُسام إذا قام لينتصر به انتصر ، أو لينتقم به من عدوّه أغنت الضربة الأولى عن الضربة الثانية ، أى أنه حسام بتّار يقطع ضريبته بضربة واحدة ، فهو موثوقٌ بمضائه لا ينبُو عن الضريبة ، فإذا ضرب به مرّة واحدة ، وقيل لحامله : كف عن الضرب ، قال حامله : كفانى فقد بلغت المراد ، وهو

قطع الضريبة . وإذا دهم الناس أمر فزعوا منه إلى سلاحهم كان طرفة منيعاً بهذا السيف ، لا يستطيع أحد أن يصل إليه بشر ، ومن جرؤ على الدُّنُوِّ منه ضربه به فأصماه (٨٤ — ٨٨) ويذكر يوماً حبس فيه نفسه على القتال فى موطن يتهيب فيه الشجعان الحرب ، وتضطرب فيه الفرائص من كثرة الهول والجزع ، أما هو فقد صدق القتال ، وثبت فى الميدان محافظة على ما يجب عليه حفظه ، وتهدداً للأقران ، حتى لا يجدوا فيه مطمعاً بعد ذلك اليوم الذى أرعبهم فيه بقتاله ، وما أبدى فيه من ضروب البسالة (١٠١ و ١٠٢) .

ذلك طرفة ، إن لم يذكر قتالا بعينه ، ولم يصف معركة بذاتها ، ولا موقعة بنفسها ، فقد ذكر ما يعد نفسه له الفتى العربى ، الذى يرى بلاده وقد خضبت الدماء ساحاتها ، وحرمت الغارات أهلها نعمة الأمن ولذة السكرى .

والحرب فى معلقة لبيد قليل ذكرها ، لما شغلها به من الفخر بكرمه ، ووصف ناقته ، وما ذكر من صفات البقر وحمر الوحش وغيرها . ومع ذلك لم تخل قصيدته من ذكر بسالته و بلائه فى القتال ، وإن كان استطراده يخرج به عما بدأه من الحديث عن ذلك إلى الحديث عن جواده ، فقد ذكر أن القبيلة تلجأ إليه لحمايتها (٦٣) فيحميها ، ويدفع عنها أعداءها على فرس سابق متقدم فى العدو ، وقد توشح بالجام ، ليكون ساعة الفزع والحاجة إلى الركوب قريباً منه . وقد علا لحماية الحىّ جبلا أغبر ، وأرضا مخوفة قريبة من أرض عدوّه ، فظل طول يومه يرقبهم على ذلك الجبل ، حتى هجم الليل وغابت الشمس .

وتلك صورة من حياة الحرب والغارات التى عاشت فيها العرب فى الجاهلية ، وإن كان الاستطراد إلى وصف الفرس كما قدمنا قد جعل الشاعر يوجز فى رسم تلك الصورة إلى ذلك الحدّ القليل .

أما المعلقات الأربع الباقية فقد فاضت بالحديث عن الحرب والمواقع التى خاضتها العرب فى الجاهلية ، ووصفت فى شىء من التفصيل كثيراً من أخبارها وأيامها المشهورة عندهم ، وتحدّثت عن الغارات والثارات ، وذكرت الكماة والأبطال والقتلى والأسرى والدّيات ، والخيل والسلاح ، وأحاديث الصلح والمهادنة ، والعهود والمواثيق التى أبرمت ، ثم نقضها دعاة الحرب والخصام .

وكلُّ معلّقتين من تلك المعلقات الأربع تتّصل بحرب من حروبهم المشهورة التى دامتْ سَنوات طوالاً ، حتى ضرجت الأرض بالدماء ، وثكلت الأمهات أولادهن ، وهلك الحرث والنسل .

فإن معلقة عنترة بن شداد العبسى ومعلقة زهير بن سلمى تعرضان لكثير من التفصيلات التى تتصل بالحرب المعروفة عندهم بحرب « داحس والغبراء » تلك الحرب التى هاجت بين عبس وذبيان ابنى بغيض بن ريث بن غطفان ، وكان السبب الذى هاج هذه الحرب ، فيما يروى الرواة ، أن قيس بن زهير وحمل بن بدر تراهنا على داحس والغبراء أيهما يكون له السّبق ، وكان داحس فحلا لقيس بن زهير ، والغبراء حجراً لحمل بن بدر ، فأكمن حمل بن بدر فى الشعاب فتياناً على طريق الفرسين ، ليردوا وجه داحس عن الغاية إذا جاء سابقا ، فلما شارف داحس الغاية ، ودنا من الفتية وثبوا فى وجهه ، فردوه عن الغاية . وقد ذكروا أن هذه الحرب دامت أربعين سنة .

أدرك عنترة بن شداد تلك الحرب شابا ، وخاض غمارها ، وأبلى فيها أحسن بلاء ، وفى معلقته كثير من وصف بسالته وإقدامه ، وإشارة إلى بعض أحداث تلك الحرب ورجالها ، ولا نعدو الواقع حين نقرر أن أهمّ ماعالجته معلقته غرضان ، أولهما تشبيبه بحبيبته عبلة التى ضنت عليه بوصالها ، وضن أولياؤها بها عليه ، وإبرازه

إياها فى صورة المنعمة المترفة ، التى تمسى وتصبح على فراشها الوثير ، وهو يقضى ليله ونهاره على صهوة جواده ، يقارع الأبطال فى ثبات واستبسال ، وذلك هو الغرض الثانى الذى طغى على سائر أغراضها ، وحفظ لنا صورة من صور الحياة عند أولئك الأبطال المغاوير ، الذين يقضون شبابهم على صهوات جيادهم ، قابضين على سيوفهم ، شاهرين إياها فى وجوه أعدائهم ، وكل ذلك فى سبيل حماية أحيائهم ، والحفاظ على أمجادهم ؛ أو فى سبيل الكسب والمغانم التى يظفرون بها من غاراتهم التى كثيرا ما يشنونها على ضحاياهم ، إذا صادفوا منهم غِرَّةً ، أو تحيّنوا منهم غفلة .

يقول مخاطباً عبلة التى أرخت قناعها لتخفى وجهه عنه ، حياء أو دلالاً : إن تستري وجهك عنى فإنّى أنا الحامى لمثلك أن تستبى وتبتذل ، فأنا جدير منك بسهولة المعاملة . ويستطرد فى ذكر بلائه فى القتال ، وكثرة مايصرع من الأبطال ، فهو حاذقٌ للطعن ، لا يطعن إلا فى المقاتل ، وإن قلبه حاضر معه ، يعرف كيف يطعن برمحه ، فيصيب من عدوه مقتله بطعنة نافذة ، يتطاير منها دمه ويتفرّق . ولو سألت عنه الخيل لعرفت منها ما قد تجهل من أمره ، وعرفت كيف كان يدفع فرسه لاقتحام جيوش الأعداء ، فإذا كان النصر وكانت الغنائم عفّ عنها وتركها لغيره ، إذ كان لا يحارب من أجل تلك الغنائم ، وإنما يحارب بطولة وفتوّة ، وحماية للحرمات .

ويذكر عنترة فى سبيل فخره بشجاعته كثيراً من عاداتهم فى القتال ، وأوصافهم فى الحرب ، وعدتهم فى اللقاء ؛ فقد ذكر الفارس المستلئم (٣٩) وهو اللابس اللأمة ، وهى الدرع ، والمدجج وهو الذى يتوارى بسلاحه ، والكمى وهو الذى يستر نفسه بالدرع والبيضة (٥٥) وكلاهما يخشى الأبطال لقاءه ، لأنه ينال منهم ولا ينالون منه ، ولكنه طعنه طعنة برمحه الأصم شكت ثيابه ؛ وتلك عادتهم فى تعظيم من يتصدون لقتالهم ، وتمجيد بسالتهم حتى إذا قتلوهم كان ذلك

أدعى إلى الاعتراف ببطولتهم ، لأن العظيم من يغلب العظيم ، والبطل هو الذى يتصدى للقاء الأبطال المغاوير فيصرعهم ، وكانوا يوصون أبطالهم بالثبات ، و يقدمون شبابهم أول الصف للقاء الـكماة ، يتقون بهم الأسنة ، وكانوا يحرض بعضهم بعضا ؛ و ينادون المعروفين منهم بالشجاعة (٧٩) وكان أولئك الأبطال يجدون فى ذلك النداء اعترافاً بغنائهم ، وشفاء لما فى صدورهم ، فيحرصون على الموت ، لتوهب لهم ولأقوامهم الحياة .

وفى معلقة عنترة إشارة إلى اليوم المعروف عندهم بيوم المريقب ، وهو يوم انتصرت فيه عبس على فزارة ، إذا التقوا بذى المريقب من أرض الشربة فاقتتلوا ، فـكانت الشوكة فى بنى فزارة ، قتل منهم عوف بن زيد بن عمرو بن أبى الحصين أحد بنى عدى بن فزارة ، وضمضم أبو الحصين المرّى ، قتلهٔ عنترة الفوارس ، ونفر كثير ممن لا تعرف أسماؤهم ، وقد بلغ عنترة أن حُصَيْناً وهرماً ابنى ضمضم يشتمانه و يوعدانه ، فقال فى معلقته .

ولقَدْ خَشِيتُ بأنْ أموتَ ولم تُدرْ للحربِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنَىْ ضَمْضَمِ (٨٩)

الشَّــاتِمَىْ عِرْضِى ولمْ أشْتُمْهُمَا والنَّاذِرَيْنِ إذَا لَمَ الْقَهُمَا دَمِى (٩٠)

إنْ يَفْعَلاَ فَلَقَدْ تركتُ أباهُما جَزَرَ السِّبَاعِ وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ (٩١)

فقد ذكر أنهما أكثرا من شتمه ، وآليا لئن لقيهما ليقتلانه بأبيهما ، وأنه يخشى أن يموت قبل أن تدور عليهما دائرة الحرب ، أى قبل أن يقتلا ، ثم قال : إن يفعلا ما سبق من الشتم والتوعد فهما حريان بذلك ، فقد قتلت أباهما ، وتركت عقيرته للسباع والنُسُور .

و إذا كان عنترة قد بدا فى هذه المعلقة فى صورة البطل الذى ألف الحرب ، ولا يجد لذة العيش إلا فى لقاء الـكماة ، وفى صراع الأبطال ، وفى منظر الدماء

تسيل من جراح صرعاه ، وفى وقع الرماح التى يتقيها بجنه إذا يممته ، أو فى لبان أدهمه الذى تسَرْبَل بالدم ، حتى شـكا إليه بعبرة وتحمحم ، ويشعر بالسعادة حين يناديه قومه للذب عنهم بقولهم « ويك عنتر أقدم » ، ويجد فى كل أولئك من المتعة بمظاهر الفتوة والاعتراف بها ما يفوق كل متعة فى حديثه عن حرب « داحس والغبراء » التى خاض غمارها ، وأبلى فيها خير ما يبلى فارس مغامر .

وإذا كان عنترة ذلك الرجل الذى لا يروى إلا بمنظر القتال وسفك الدماء ، فإن حديثا آخر يلقيه أحد الذين شهدوا هذه الحرب بعيونهم ، ونغمة أخرى تصدر عن رجل مجرب عركته الأحداث ، وعرف الحرب ، وقدر ويلاتها ، ومدى ما يجره السفهاء من دعاة الحرب على أقوامهم ، وعلى بلادهم من الخـــراب والدمار ، فلا يفتأ يحذر العرب من تلك الأهوال التى تنزل بالمنتصر كما تنزل بالمنهزم على حد سواء .

ذلك الصوت الهادئ ، الذى يقدر نعمة الأمن فيدعو الأقوام إلى اغتنامها ، وعلى استلال الإحن والأحقاد من نفوس العرب ، ليقطفوا ثمرات الأمن والاستقرار هو صوت زهير بن أبى سلمى الذى شهد حروب غطفان ، فانبعث صوت الحـكمة فى معلقته ، ولذلك كان هذا الشاعر الـكبير جديراً أن يوصف فى ذلك الزمن البعيد بأنه رجل السّلام ، وأخلص دعاة الأمن والاستقرار فى تلك الحياة العربية التى خضبت أرضها الدماء ، وترملت فيها النساء ، . وتيتم الولدان .

إن زهيراً يذكر صلحاً وقعة الفريقان المتحاربان ، وقد نقض هذا الصلح ، فتشقق دماً ، حتى سعى عظيمان من غطفان هما الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، فأصلحاه ، ولقد أكبر زهيراً هذا الصنيع الذى تداركا به قبيلتى عبس وذبيان بعدما هلـكوا وأفنى بعضهم بعضاً ، وتحالفوا على الحرب حتى الموت ، ووقع بينهم الشؤم حتى كاد يبيدهم عن آخرهم ؛ ولذلك يقسم زهير بذلك البيت الذى

تكبره العرب وتقدسه ، والذى طاف حوله الطائفون من قريش ومن قبيلة جرهم الذين كانوا ولاة البيت قبل قريش حتى بغوا بمكة ، واستحلوا حرمتها ، وأكلوا المال الذى كان يهدى إليها ، يقسم زهير يميناً بأن هذين السيدين خير الرجال فى حالة اليسر وفى حالة العسر . ويروى زهير مقالتهما أو ما كانت تتحدث به نفوسهما ، يقول لهما : لقد قلتما إن نتمكن من الصلح ببذل المال ندفعه ديات للقتلى من الفريقين ، نسلم من الحرب ومن إراقة الدماء ، فلما بذلتما جهدكما فى ذلك واستفرغتما وسعكما ، و بذلتما الأموال فى هذا السبيل ، أصبحتما من هذه الحرب المتوقعة على خير منزلة بعيدين فيها من عقوق الأقارب وقطيعه الرحم ؛ وأصبحتما عظيمين فى أشراف القبائل كلها مَعَدّ وغيرها ، وغير بدع ذلك ، فإن من فعل فعلكما وسعى سعيكما و بذل ما بذلتماه من الأموال قد أبيح له المجد ، وصار عظيما فى نفسه ، واستحق أن يعظمه الناس .

إن هذه الجراح التى تشققت أصبحت تعفى وتمحى آثارها بالمئين من الإبل التى تدفع ديات للكلومين ، وهذه الديات تدفع نجوماً متفرقة يدفعها من لم يجترم جرماً ، ولم يرق ملء محجم من دم ، و إنما تحملها فى ماله تطوعا وكرماً وفضلا ، لإصلاح ذات البين وصلة الرحم . تحملتما الحمالة ، ودفعتما الديات لإصلاح ذات بين الفريقين حتى أصبح يجرى فيهم من مالكم الموروث شىء كثير .

ثم يتوجه زهير بالحديث إلى الأحلاف من أسد وغطفان وطيئ ، لأن خزاعة لما أجلت بنى أسد عن الحرم خرجت فحالفت بنى طيئ ثم غطفان ، فيقول : أبلغ أولئك الأقوام أنكم قد تعاقدتم وحلفتم بكل قسم على الصلح وترك القتال ، فلا تحنثوا فى أيمانكم ، ولا تنقضوا عهودكم بإعلان الحرب مرة ثانية ، أو أنكم أقسمتم كل قسم على نقض عقدة الصلح و إضرام نار الحرب ثانياً للأخذ بثأر من قتل منكم ، فلا تكتموا ما أضمرتم فى نفوسكم من الغدر ونقض الصلح

ليخفى ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ومهما كتم الإنسان شيئاً و بالغ فى كتمانه علمه الله ، فإما أن يؤخر عقابه ليوم الحساب ، أو يعجله فينتقم من صاحبه ، لأن كل إنسان مجزىّ بعمله لا محالة .

ثم يحضهم على قبول الصلح ، و يقول لهم : لا ينبغى لكم الرجوع إلى الحرب بعد أن جر بتموها وذقتم مرارة طعمها ، وليس الحديث عنها ظنا ، بل حقيقة عرفتموها بأنفسكم ، وبلوتموها فى رجالكم وفتيانكم . إذا أثرتم الحرب ذممتم عواقبها ، و إذا عودتموها تعودت عليكم ، فالتهبت فاستأصلتكم ، بعد أن تعرككم كما تعرك الرحى ثفالها . والغرض من هذا كله تفظيع أمر الحرب ليكفّوا عما عزموا عليه من إضرام نارها ثانية ، و يضطرهم للبقاء على الصلح ، لأن هذه الحرب تلد لهم من الحوادث المشئومة أولاداً كل ولد منهم أشأم على نفسه وقومه من عاقر الناقة وتغذى أولئك الأولاد وتربيهم ، ثم تفطمهم إذا حان فطامهم يريد أن الحرب كلما طالت وامتدّ وقتها ولدت آثاراً سيئة مشئومة ، حتى إذا انتهت تلك الحرب بقيت آثارها ، إنها تغل لهم من الأهوال ما تغله قرى العراق من قفيز ودرهم ، وهذا تهكم واستهزاء بهم ، فلما انتهى من كف أولياء المقتول عن الحرب ، وحذّرهم عواقبها المشئومة ، عاد للاعتذار عن أولياء القاتل و بيان أنهم لم يكونوا يعلمون بما وقع من صاحبهم ، لا ينبغى أن تضاف جريرته إليهم ، وأثنى على بنى ذبيان الذين لم ينقضوا الصلح ولم يهموا به ، وما كان من حصين ابن ضمضم فقد كان منه على غير رضاً منهم ولا اختيار ، ولا سابقة علم بما سيكون ، و إلا لحالوا بينه و بين ما كان صمّم عليه ، فإن هذا الرجل أضمر فى نفسه خطة ، لم يطلع عليها أحداً ، بل مضى فيها غير مُبَالٍ بمغبتها ، إنه صمم على أن يدرك ثأره بقتل رجل من بنى عبس ، فحمل على الرجل العبسى ، ولم يعلم أكثر قومه بذلك فيحولوا بينه و بين الرجل ، فقتله بعد الصلح ، وحيث حطت الحرب أوزارها

وسكنت ، لأن من طبيعته الظلم ، إن ظلِم انتقم لنفسه ، و إن لم يظلم ابتدأ هو بالظلم . ولقد كانوا فى صلاح من أمورهم بعد الصلح ، ثم صاروا إلى حرب تستعمل فيها السلاح ، وتسفك فيها الدماء ؛ فلم يحمدوا عاقبة أمرهم ونتيجة حربهم .

لقد دفع أولئك السّادة مادفعوا من الديات عن دماء لم يسفكوها ، فقد حملوا دم ابن نهيك ؛ ودم ابن المخزم ، ودم نوفل ، ودم وهب ، على غير مشاركة فى دمائهم أو قتل برماحهم ، و إنما قتلوا بيد غيرهم من ذبيان ؛ وقال أبو جعفر[1] : إن هؤلاء قُتلوا قبل هذه الحرب ، فلما شملتهم هذه الحرب أدخلوا كل قتيل كان لهم فى هذه الحرب ، فطالبوا بهم حمالات وقودا حتى اصطلحوا ؛ ولقد قام السّادة يدفعون عقل[2] كل قتيل ، مع أنهم لم يشاركوا فى دمائهم فيعقلوهم ، ولكنهم مع ذلك دفعوا دياتهم ألفاً بعد ألف كرماً منهم وفضلا، وكفًّا للحرب بين الفريقين وصلة للرحم . لقد كانوا يسوقون هذه الديات لقوم هم أولياء القتلة ، كى يؤدّوها إلى قوم هم أولياء المقتولين غرامة عمّا لزمهم من الدماء ، بلاعدة ولامطل وتسويف فلم يشعروا إلا وهذه الديات قد طلعت عليهم من ثنيّة الجبل ، يشير بذلك إلى وفائهم ، وسرعة إنجازهم وعدهم .

وتلك الإبل المساقة فى الديات إنما هى لقوم ذوى يسار كثيرى الحلال والبيوت ، يلجأ الناس إليهم ، و يعتصمون بهم ، إذا رمتهم الليالى بما يعظم على نفوسهم ، و يثقل عليهم حمله ، وأراد بالقوم قوم الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، الذين عرف كرمهم وعزة جانبهم ، وأن من كان له ثأر عندهم لم يدركه لعزتهم ومنعتهم ومن جنى منهم جناية عليهم لم يسلموه لأولياء المجنى عليه ليقتادوا منه ، لعزهم

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى ١٢٣ .

(٢) العقل : الدية ، سميت بذلك لأنها تعقل عن القتل ، أو لأن الذى يدفعها إذا أتى بها عقلها بفناء دار أولياء المقتول .

وشرفهم ، بل تذهب جناية جانيهم هدراً . ومعنى هذا أن أولئك الأيسار لم يبذلوا ما بذلوا خوفاً من الحرب ، ولا جبناً عن القتال ، و إنما هى طبيعة ركبت فيهم من إيثار الأمن ، والاستجابة لصوت الضمير .

و بمثل هذا تتصل المعلقة بتلك الحرب الضروس التى طحنت عبساً وذبيان ، وقتلت كثيراً من أبطالهم ، وخلدت أسماء سادتهم وكرامهم الذين كان لهم شأن فى إثارة الحرب ، أو رفع راية السلام .

ولقد كان ذكر زهير الحرب فى معرض التهويل لشأنها ، والتذكير بأهوالها التى تدعوا إلى الفرق والانقباض ، ودعوة صريحة للسلم ، و بذل ما يستطاع فى سبيل تحقيقه من الجهد والمال والعفو والتسامح .

و بذلك اختلفت الشخصيتان ، شخصية عنترة وشخصية زهير ، مع اتفاقهما فى الغرض والموضوع ، فكلاهما وصف حرب « داحس والغبراء » ، وكلاهما وصف أهوالها ، و إن كان الأول قد صور نفسه فى صورة الفارس الجرىء المغامر ، الذى يقرع طبولها ، ويهجم على أبطالها ، و يطرب لوقع الأسنة وصليل السيوف . أما الآخر فإنه يفرق لأهوالها ، ويفزع لرؤية الدماء وهى تتقاطر من جراح المكلومين ، ويطرب لأصوات السلام التى تدعو إلى إعادة الأمن والاستقرار .

ولا شك أن المجتمع العربى يصوّره كلا الرجلين ، وتصوّره كلتا المعلّقتين ، إذ أن فيه شيوخاً حكماء ، وشباناً عقلاء . و إلى جانب أولئك فيه الفتية المغامرون الذين لا يعنيهم شىء من العواقب الوخيمة التى تؤدى إليها الحرب ، من إزهاق الأرواح و إهلاك الحرث والنسل ، ونشر الإحن والأحقاد ، بين الإخوة و بنى الأعمام ، وتوريث الخصام بين العشائر والقبائل ، بقدر مايعنيهم أن يوصفوا بالبطولة ، وأن يتراوى الرّواة أخبارهم ، و يشيع فى الأحياء قصص بطولتهم .

ولا يزال كثير من هذه الصّور يعيش فى زماننا فى بعض البيئات الريفيّة ، التى تعيش بعيدة عن أضواء العلم وأنوار المدنيّة ، وتؤثر أن تعتدى على الحرمات أو تدفع عن نفسها عار الاعتداء ، ولا ترضى إلا بأن تكون غالبة بالحق أو بالباطل ، وتنفر كل النفور من الاحتكام للمنطق ، والخضوع لأحكام القانون. وتلك الصّور التى نراها أو نقرأ عنها ، تصوّر إلى حدّ كبير البيئة العربية فى الجاهلية ، قبل أن تشرق عليها شمس الإسلام بحدوده وقوانينه التى نظمت حياتهم ، وقادتهم إلى المجد والسيادة .

* * *

أما المعلقتان الأخريان ، فهما معلقة عمرو بن كلثوم ، ومعلقة الحارث ابن حلزة .

وكلتاهما تتصل بحروب ربيعة ، وأشهرها «حرب البسوس» التى كانت بين بكر وتغلب ، والتى هاجها مقتل كليب بن ربيعة ، وهو الذى يقال فيه «أعزّ من كليب وائل» فقد قاد معدًّا كلها يوم خزازى ، ففض بهم جموع اليمن وهزمهم ، فاجتمعت عليه معدّ كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيبته وطاعته فصبر بذلك حيناً من دهره ، ثم داخله زهو شديد ، وبغى على قومه ، لما هو فيه من عزة ، وانقياد معدّ له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السّحاب فلا يرعى حماه ، ويجير على الدهر ، فلا تخفر ذمته ، ويقول : وحش أرض كذا فى جوارى فلا يهاج ، ولا تورد إبل أحد مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره حتى قالت العرب «أعزّ من كليب وائل» . وكانت بنو جُشم وبنو شيبان فى دار واحدة بتهامة ، وكان كليب بن وائل قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل ابن شيبان ، وأخوها جسّاس بن مرة . وكانت البسوس بنت منقذ التّميمية خالة جسّاس بن مرة ، وكانت نازلة فى بنى شيبان مجاورة لجساس ، وكان لها ناقة يقال

لها « سراب » ولها تقول العرب « أشأم من سراب » و « أشأم من البسوس » فمرت إبل لكليب بسراب ناقة البسوس ، وهى معقولة بفناء بيتها ، جوار جساس بن مرة ، فلما رأت « سراب » الإبل نازعت عقالها حتى قطعته ، وتبعت الإبل واختلطت بها ، حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة ، فلما رآها أنكرها ، فاشتد عليها بسهم ، فنفرت الناقة وهى ترغو ، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها، وصاحت : واذلاه !! واجاراه ! وخرجت فأحمست جساساً ، فركب فرسا له مغرورا به، فأخذ آلته ، وتبعه عمرو بن الحارث ابن ذهل بن شيبان على فرسه ، ومعه رمحه ، حتى دخل على كليب الحمى ، فقال له : يا أبا الماجدة عمدت إلى ناقة جارتى فعقرتها ، فقال له : أتراك مانعى أن أذب عن حماى ؟ فأحمسه الغضب ، فطعنه جساس ، فقصم صلبه ، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه ، فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يفحص برجليه[1] . وقد مكثت هذه الحرب أربعين سنة ، وكانت فيها الغارة بين الرجلين أوالثلاثة ، حتى أكلت العداوة صدورهم ، وأتت على الأخضر واليابس ، وأودت بكهولهم وشبابهم ، وتعددت الأيام بينهم ، فكانت الحرب سجالا .

وقد خلدت المُعَلّقتَان بعض تلك الأحداث بين الحيين ، وعرضت لجهود الصلح التى بذلها دعاة الأمن والسلام ، كما خلدت بعض المواقع التى نال فيها بعضهم من بعض ، فى معرض الزهو والفخر بأمجاد الآباء والأجداد الذين أبلوْا فى تلك الوقائع ، وكسبوا لحيّهم نصراً ، فعمرو بن كلثوم يُذكّرُ حبيبته بما كان من قومه من قتال أقرّ العيون وأثلج الصدور (١٠ — ١١) ورب سيد قوم يحمى الملجأ ويدفع الضيم قتلوه ، وحبسوا خيلهم عليه ، فوقفت عليه صافنة مطمئنة ، لا يروعها شىء ، ولا يفزعها مفزع ، وأنهم حموا « ذا طُلُوح » و « الشامات »

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٧٨ .

وما بينهما ، وطردوا أعداءهم منهما ، وفرّقوا منهم من لا يفرّق لمنعته وعزته . وأن بنى تغلب كانوا إذا حاربوا قوماً طحنوهم كما تطحن الرحى الحنطة ، وشملت حربهم شرقى نجد كلّه ، وأتت على قضاعة كلها . فيعمون ذويهم بالخير ويعفّون عن أموالهم ، ويحملون عنهم ما حملوهم من الديات مما لا يحمله إلا الكرام. وإذا تباعد الناس عنهم فى الحرب طاعنوهم بالرماح ، فإذا خالطوهم ضربوهم بالسيوف يشقون بها رءوسهم (٢٦ – ٣٨) إلى أن يقول : نحن أبداً على أحد حالين ، اما إذا خشينا على أبنائنا من العدو أصبحنا متيقظين مستعدين للقتال للمدافعة عنهم ، وأما يوم لانخشى عليهم فنتركهم فى منازلهم، ونمعن فى الإغارة على الأعداء برأس من بنى جشم بن بكر (٤٩ — ٥١) .

ويتمادى عمرو بن كلثوم فى الفخر بأسلافه الذى ورث أمجادهم فى الحرب والسلم من أمثال علقمة بن سيف ، وهو الذى أنزل بنى تغلب الجزيرة ، ومهلهل الذى كان صاحب حرب وائل أربعين سنة ، وهو جد عمرو بن كلثوم من قبل أمه ، وزهير جده من قبل أبيه ، وعتاب جدّه ، وكلثوم أبيه ، وذى البرة ، وهو رجل من بنى تغلب بن ربيعة، وقيل هو كعب بن زهير ، وإنما قيل له «ذو البرة» لأنه كان على أنفه شعر خشن فشبه بالبرة[1] ، ومن أمثال كليب الذى ضربت بعزته الأمثال (٦١ — ٦٥) .

كما فخر بأسلافه ، وما أبلوا فى «يوم خزازى» وكان أول يوم امتنعت فيه معدّ عن الملوك ملوك حمير ، فأوقدوا ناراً ثلاث ليال ، وكذلك «يوم أراطى» الذى صبروا فيه على الحرب ، وصدقوا القتال ، حتى ظفروا فلم يطمع فيهم عدوهم (٦٨ — ٦٩) .

وذكر أعداءهم بنى بكر بما عرفوا من شدتهم فى الحرب ، وصبرهم على

(١) البرة الحلقة فى أنف البعير .

مكروهها ، وما جرّبوا منهم فى الحروب التى وجدوهم قادرين عليها ، ومهم عدتها من البيض والدرق والدروع السابغة المحكمة اللينة التى إذا شد عليها النطاق تثنت للينها ، وظهرت لها غضون ، وتحملهم الخيل الكريمة التى استنقذوها من غيرهم (٧٣ — ٧٩) سائل عنهم بنى الطماح من بنى وائل ، و بنى دعمى بن جديلة من إياد ، فإن هذين الحيين جرّبوا بنى تغلب فوجدوهم أبطالاً مغاوير ، وأن الناس إذا حملهم الملوك على الظلم والاستكانة أبى بنو تغلب الظلم والاستكانة ورفعوا فى وجوههم أعلام الثورة والإباء (٩٩ — ١٠٠) .

أما الحارث بن حلزة فقد خلط فخره بقومه بنى بكر بالحكمة والتعقل ، فأخذ على بنى تغلب تجنّيهم ، فهم يغلون عليهم ، و يحملونهم ذنب غيرهم ، و يطلبون منهم ما ليس لهم بحق ، و يلحّون فى الإساءة إليهم ، و يطالبونهم بجناية كل من جنى عليهم ، وأنهم يبيتون أمرهم ليلا ، ليصبحوهم بما بيّتوا لهم ، وأن بنى بكر زادوا على هذا الظلم رفعة وامتناعا ، وامتلأ أعداؤهم غيظا لما رأوا من ثبات عزهم واستقرار مكانتهم . وكأن المنية برميها إياهم بمصائبها ترمى جبلا ، فهى لا تضرّه ولا تؤثر فيه ، وأنهم أشراف فرسان بمثلهم ينبغى أن تجول الخيل ، وأن تأبى أن يجلى ركبانها عن أوطانهم ، فهم يحمون الحوزة ، و يذبون عن الحرم (١٦ — ٢٦) .

وليس يشرف بنى تغلب أن يذكروا الوقائع والأيام التى كانت بينهم و بين بنى بكر ، فإذا أثاروا ما كان بينهم بين موضعى ملحة والصاقب من القتل فى الوقائع ظهر لهم ما يكرهون ، فقد قتل بنو بكر قوماً من بنى تغلب ، ولم يستطع التغلبيون أن يثأروا لقتلاهم ، وإذا استقصوا انكشف الأمر ، وصاروا إلى ما يكرهون بانكشاف عارهم وهزيمتهم (٢٨ — ٢٩) .

ثم يذكرهم بما كانت العرب من نزار تملكهم الأكاسرة ملوك فارس ،

وكانت غسان تملكهم الروم ، فلما غلب كسرى على بعض ما فى يديه وضعف غزا العرب بعضهم بعضاً ، وأكل القوىّ منهم الضعيف فيقول الحارث : نحن حين كان الناس هكذا لم يطمع فينا أحد ، لأنّا أعزهم وأمنعهم ، فلا تطمعوا فينا ، بل إن بنى بكر الأقوياء استطاعوا أن يغيروا على القبائل ، حتى أغاروا على تميم فقد خرجنا من البحرَين مغيرين على الناس ، فمازلنا نغير وننتهب ، حتى وصلنا إلى الحساء لم يستطع أحد أن يصدنا ، ثم ملنا على تميم ، فلما صرنا فى ديارهم دخلنا فى الأشهر الحرم ، فكففنا عن قتالهم ، وفينا من بناتهم إماء أسرناهنّ قبل دخول الأشهر الحرم (٣٢ — ٣٤) .

ثم يعيد إلى أذهانهم حلف «ذى المجاز» ، وهو الموضع الذى أخذ فيه عمرو بن هند الملك على تغلب العهود ، وأصلح فيه بينهم و بين بنى بكر ، وأخذ منهم رهنا من أبنائهم من كل حىّ مائة غلام ، و يذكرهم العهود التى أعطوها على الكف عن القتال ، وحذرهم عواقب الجور والتحدّى . وإن كانت كندة قد غزت بنى تغلب ، فقتلت فيهم ، وأسرت منهم ، فليس إثم ذلك واقعاً على بنى بكر ، وليس بنو بكر ملومين كذلك إذا أغار على بنى تغلب بنو حنيفة ولصوص بنى محارب ، أو اعتدى عليهم بنو عتيق أو هزمهم العباديون[1] الذين أصابوا فى بنى تغلب دماء فلم يدرك بنو تغلب ثأرهم منهم ، أو جنى عليهم بنو قضاعة الذين أغاروا عليهم ونالوا منهم ؛ أو اعتدت عليهم قبائل إياد الذين أصابوا منهم ما أصابوا . ثم يقول لتغلب : ليس من بنى بكر المضرّبون وليس منهم قيس ولا جندل ولا الحذّاء ، إنهم قوم من تغلب ضربوا بالسيوف ، ولم يثأر لهم .

وكل هذا ذكره الحارث بن حلِّزة تعييراً لبنى تغلب وتهكما بهم ، فقد

---

(١) العباد بالكسر قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية ونزلوا الحيرة .

تطاولوا فى الفخر ، ولم يذكروا إلاّ نصرهم ، مع أن هزائمهم والأيام التى نكبوا فيها معروفة مشهورة فى أحياء العرب .

وتمادى الحارث فى التهكم بهم ، فذكر ما كان من عمرو أحد بنى سعد بن زيدمناة بن تميم ، الذى خرج فى ثمانين رجلا من تميم غازين ، فأغار على ناس من بنى تغلب يقال لهم بنوا رزاح ، وكانوا ينزلون أرضا يقال لها نطاع، قريبة من اليمن ، فقتل فيهم ، وأخذ أموالا كثيرة ، وتركهم مقطعين بالسيوف ، ورجع بغنائم لا يسمع فيها صوت الحادى ، لأن الإبل والمواشى التى استاقها منهم كانت لها جلبة ورغاء ، فمن أجل ذلك لا يسمع فيها صوت الحداة . وقد رجع بنو رزاح إلى بنى تميم يسترجعون منهم ما أخذوا ، فلم ترجع لهم ناقة سوداء ولا بيضاء . ثم جاء الفلاق ، وهو رجل من بنى يربوع بن حنظلة من تميم ، فأغار على بنى تغلب فقتل فيهم ، ولم ينتصر لهم أحد ، أو يأخذ بثأرهم (٤١ — ٥٨) .

ثم أخذ الحارث فى شرح ما أسدى قومه إلى عمرو بن هند الملك لما رأى تحريض عمرو بن كلثوم إياه على بنى بكر ، قال الحارث : نحن أنصح الناس الملك ، وأصدقهم فى خدمته ، وأكرمهم عليه ، وأقربهم منه منزلة ، ولنا عنده ثلاث علامات ، وفى كلهن يقضى لنا الناس بذلك:

(١) أن قوماً من بنى شيبان جاءوا يغيرون على إبل لعمرو بن هند ، وعليهم قيس بن معد يكرب ، فيهم الأشراف من كندة أبناء العواتك ، فردهم بنو يشكر عنها ، وأوقعوا النكاية فيهم ، وحملوهم على حزم نهلان ، فلجئوا إليه فراراً ، وقد دميت من الجراح أنساؤهم .

(٢) أنهم ردّوا حُجراً ومن معه ، وقتلوا منهم خلقاً . وكان حجر هذا غزا امرأ القيس أبا المنذر بن ماء السماء بجمع من كندة ، فخرجت إليه بكر بن وائل

مع امرىء القيس فردّته . وقتلت جنوده ، وقد شبّه الشاعر تحرك الرماح في أجسامهم بتحرك الدلاء في البئر لتمتلىء ، ليدل بذلك على شدة الطعن ، وأن الرمح ما كان يخرج من جسم المضروب إلا بعنف .

(٣) وأتانا الجون ملك كندة في كتيبة محكمة ، فلم نجزع ولم نخف ، ولكنا قاتلناه ، فهزمنا من معه من الفرسان ، وأخذناه أسيراً حتى سلمناه للمنذر .

ومن هذا يمكن القول أن هاتين المعلقتين — معلقة عمرو بن كلثوم ،ومعلقة الحارث بن حلزة — قد تضمنتا كثيراً من أسماء المواقع التي تحاربت فيها بنو تغلب و بنو بكر في تلك الحرب التي سميت « حرب البسوس » كما اشتملتا على ذكر كثير من الإغارات التي قام بها الحيّان على غيرهم من قبائل العرب وغيرها ، التي أبلى كل حي فيها ضروب البسالة والنجدة ؛ كما اشتملتا على أسماء كثير من رجالاتهم وساداتهم وأبطالهم .

وكل هذا تصوير للمجتمع الذي ملئت صدور أبنائه بالأحقاد ، وفاضت أرضه بالدماء، وامتلأت أجواؤه بأحداث القتل والأسر والإغارة للثأر لضحاياهم، أو للنهب والسّلب .

وهو كذلك تصوير للحياة الجاهلية في ناحية من أبرز نواحيها ، وتصوير لأخلاق العرب في تلك المرحلة المظلمة من مراحل التاريخ التي عاش فيها العرب قبل أن تبزغ عليهم أضواء الإسلام ، فتحيل ظلامهم نوراً ، وفزعهم أمنا وسلاما .

أدوات القتال :

وفي المعلقات تتردد أسماء أسلحة العرب ، وأشهر أدواتهم في الحرب والقتال ، وقد ذكر عنترة من عدتهم في الحرب القِسِيّ (٥) جمع قوس . ذكر صاحب

صبح الأعشى أن القِسِيّ على ضربين : أحدهما القسى العربية ، وقال فى وصفها : هى التى من خشب فقط ، ثم إن كانت من عود واحد قيل لها « قضيب » ، وإن كانت من فِلقَتَين قيل لها « فِلق » .

والآخر القِسِىّ الفارسية ، وهى التى تركب من أجزاء : من الخشب والقَرْن والعَقَب [1] والغراء .

ولأجزائها أسماء يخص كل جزء منها اسم ، فموضع إمساك الرامى من القوس يسمى « المقبض » ومجرى السهم فوق قبضـة الرامى يسمى « كبد القوس » وما يعطف من القوس يسمى « سِيَة القوس » وما فوق المقبض من القوس ، وهو ماعلى يمين الرامى يسمى « رأس القوس » وما أسفله ، وهو ما على يسار الرّامى ، يسمّى « رِجْل القوس » و « النّبل » ما يرمى به عن القِسِىّ العربية . و « النُشَّاب » ما يرمى به عن القسىّ الفارسية . ومجرى الوتر من السهم يسمى « الفُوق » وحديده يسمى « النصل » والريش يسمى « القُذَذ » والسهم قبل تركيب الريش يسمى « القِدْح » [2] .

كما ذكر عنترة الرُّمح (٥٦ — ٥٨) وهو آلة الطعن . والرماح ضربان : أحدهما : ما يتخذ من القَنا ، وهو قصب مسدود الداخل ينبت ببلاد الهند ، يقال للواحدة منه « قناة » ويقال لمفاصلها « أنابيب » ولعقدها « كُعُوب » . فإن كان قد نشأ فى نباته مستقيما قيل له « الصَّعْدة » ، وإن احتاج إلى تقويم مقوم قيل له « مثقَّف » .

والآخر : مايتخذ من الخشب كالزان ونحوه ، ويسمى « الذابل » . ويقال

---

(١) العقب بالتحريك هو العصب الذى تعمل منه الأوتار .

(٢) انظر صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء / ١٣٥ .

للحـديد الذى فى أعلى الرمح « السِّنان » والذى فى أسـفله « الزُّج » و « العَقِب »[1] .

وكانوا يطعنون أعداءهم بالرماح ، ثم يجهزون عليهم بالسيوف ، ذكر ذلك عنترة (٦٣) وذكر السيف « المهند » ، والمهند والهنـدى ماطبع ببلاد الهند ، وكان لهم فيها حذق ومهارة فائقة ، فـكانت تنسب إليهم ، كما يقولون للسيف المطبوع باليمن « يمان » وكما يقولون « مَشْرَفىّ » للذى طبع بالمشارف ، وهى قرى من قرى العرب قريبة من ريف العراق . وقال بعضهم إن تهنيد السيف معناه شحذه .

وذكر طرفة بن العبد فى معلقته « الحُسَام المهنّد » والحسام من أوصاف السيف، وهو القاطع ، أخذاً من الحَسْم ، وهو القطع ، قال طرفة : إن المرء لأن يُضرب بالسيف المهند الحاد القاطع حتى يموت خير له من أن يناله أذى من ذى قرابته يسوؤه و يؤلم قلبه ، وأن من أصابه من أجنبى ما يشق عليه عزّاه عن ذلك بعد ما بينهما ، وليس كذلك القريب (٨٠) .

وكذلك « العَضْب » (٨٥) وهو السيف القاطع الذى وصفه بأنه رقيق الشفرتين مهند ، والشفرتان : مثنى الشفرة وهى حد السيف ، ووصفه بأنه حسام يغنى عن صاحبه إذا انتصر به ، فإذا قام لينتصر وينتقم به من عدوّه أغنت الضربة الأولى عن الضربة الثانية ، يريد أنه قاطع جداً ، فهو يقطع الضريبة بضربة واحدة، وليس « بمِعْضَد » وهو ما اتخذ من السيوف لقطع الأشجار، بعد أن كلّ حدّه ، فيعضد به الشجر (٨٦) وذكر « حاجز السيف » وهو حدّه (٨٧) و « قائم السيف » وهو مقبضه (٨٨) وذكر زهير السلاح الشائـكة (٣٨) وهى الحديدة القاطعة .

---

(١) المصدر السابق ٢ / ١٣٣ .

وفى معلقة لبيد (٥٠) « السَّمْهرِية » وهى الرماح، نسبة إلى بلدة يقال لها سَمْهَرَة من بلاد الحبشة ، وقيل إلى السَّمهرة ، وهى الصلابة ، ومنه « اسْمَهَرّ الأمر » إذا اشتد ، وقال صاحب اللسان : إن السمهرية هى القناة الصلبة ، وهى منسوبة إلى « سمهر » اسم رجل كان يقوم الرماح . يقول لبيد فى وصف بقرته الوحشية : لحقت كلاب الصيد تلك البقرة ، فرجعت البقرة عليهن تطعنهنّ بقرن كأنه الرمح حدّة وتمام طول .

كما ذكر لبيد « الشِّكة » (٦٣) وهى اسم لجميع السلاح ، وقولهم « شائك السلاح » أى لسلاحه شوكة [1] .

وفى معلقة عمرو بن كلثوم ذكر للأسياف (٢٢) فى قوله إنهم ساروا عن اليمامة وحال دونها السراب ، فتراءت لهم مرتفعة كأنها السيوف المسلولة من أغمادها ، وإنما خيلها السراب لهم كذلك ، و « رايات الحرب » (٢٤) التى يوردونها بيضا ، ويعودون بها حمراً قد رويت من الدماء . . وأنهم يطاعنون أعداءهم بالرماح (٣٥) إذا تراخوا عنهم ، فإذا خالطوهم ضربوهم بالسيوف . ووصف رماحهم (٣٦) بأنها سُمْر ، ويوصف الرمح بالأسمر لأن لون القنا السُّمرة ، وهو أجودها ، وبأنها لُدْن أى لينة ، وبأنها ذوابل ، جمع ذابل أى يابس ، وهو الذى يتخذ من الخشب كالزان ونحوه . وقد وصف الرماح بأنها لينة فيها بعض يبس أى أنها لم تجف كل الجفاف فتنشق إذا طعن بها وتندق ، ووصف السيوف « البيض » بأنها لا تنبو عن الضريبة . وشبه أصلهم « بالقناة » التى أعيت على الأعداء أن تلين (٥٧) . وذكر « الثقاف » وهو الحديدة التى تقوم بها

(١) يقال رجل شاكى السلاح ، وشائك السلاح ، أى ذو شوكة وحدق سلاحه . قال الأخفش : شاكى السلاح مقلوب من شائك . وقال النحاس : القلب عند البصريين مثل شاكى السلاح وشائك ، وجرف هاروهائر ؛ وأما مايسميه الكوفيون القلب نحو جبذ وجذب فليس بقلب عند البصريين ، وإنما هما لغتان .

الرماح ، وإذا عضّ الثقاف بتلك القناة نفرت صلبة شديدة (٥٨) وإذا انقلبت في ثقافها صوّتت ، وشجّت قفا من يثقفها .

ووصف كتائبهم ولباسها في الحرب ، ومنه « البَيْض » جمع بَيْضة ، وهي آلة من حديد توضع على الرأس للوقاية من الضرب ونحوه ، وليس فيها ما يرسل على القفا والآذان و « اليَلَب اليمانى » (٧٥) قال ابن السكيت : هو الدرع ، وقيل الديباج ، وقيل ترسة تعمل في بلاد اليمن من جلود الإبل لا يكاد يعمل فيها شيء . وقال الأصمعي : اليلَب جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرءوس خاصة ، وليست على الأجساد . وقال أبو عبيدة هي جلود تعمل منها دروع فتلبس ، وليست بترسه . وقيل اليلب جلود تلبس تحت الدروع[1] ووصف الدروع التي يلبسونها في الحروب (٧٦) بأنها « سابغة » أي طويلة تامة ، وبأنها « دِلاص » والدِّلاص المحكمة ، أو اللينة التي تزل عنها السيوف ، و « النجاد » حمائل السيف ، ويروى « فوق النطاق » والنطاق ما يشدّ به الوسط ، ولها غضون أي هي لينة ، فإذا شد النطاق عليها تثنّت للينها ، وظهر لها غضون ، وهم من طول لبسهم هذه الدروع اسودّت جلودهم (٧٧) وشبه الدروع في صفائها بالماء في الغُدُر (٧٨) وعرض للنسوة اللائي أخذن على فوارسهن عهداً إذا اقتحموا غمار الحرب ، ولاقوا الأبطال المعلمين ، وهم الذين معهم الأعلام ، ليبين مكانهم في الجيش ، ليأسرُنّ الأبطال ، ويأخذنّ سلاحهم وما عليهم من الدروع والبيض .

وفي معلقة عنترة بن شداد ذكر للرماح وهي تنهل من دمه ، وبيض الهند وهي تقطر من دمه (٥٣) وذكر للمدجج الذي يتوارى في سلاحه ويكره الفرسان لقاءه (٥٥) ولكن عنترة عاجله بطعنه من رمحه المثقف (٦٥) وهو المصلح المقوم ، ووصف هذا بأنه صَدْق الكعوب أي صلب ، والكعوب عقد الأنابيب .

وذلك أهم ما عرضت له المعلقات من أنواع السلاح وأدوات القتال .

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٤٣ .

المرأة العربية فى المعلقات :

ولقد شغلت المرأة مكانا بارزاً فى تلك المعلقات ، ولم تخل واحدة منها من ذكر المرأة ، ووصف الهيام بها ، والحنين للقائها ، والجزع لفراقها . وفى مطالع المعلقات من ذلك شيء كثير ، وفى أثناء معظمها شيء كثير أيضا من الحديث عنها ، ووصف ما يتكلفه العربىّ فى الدبيب إليها ، وما يتجشم من الأخطار ليبدو فى نظارها فى صورة البطل ، الجدير بإعجابها ، الذى يحمى حماها ، ويقاتل من أجلها ، وهى تخايله فى حركاته وسكناته ، ولا ينساها فى أوقات الدعة والسلام ، وفى ميادين الوغى ومصارعة الأبطال .

وكل هذا يدلنا على ما كانت المرأة العربية تنعم به من المنزلة فى المجتمع ، وما كانت تشغل من قلب الرجل العربى فى الجاهلية .

وتشغل المرأة فى معلقة امرىء القيس مكانا بارزا من أول أبياتها ، فقد استوقف رفيقيه ، ليعيناه بالبكاء عند تذكر حبيبته التى فارقته ، ومر بأطلال منازلها ، التى تعاقبت عليها ريح الجنوب وريح الشمال (١ — ٢) ووصف حيرته غداة بينها ، وبكاءه يوم تحمل أهلها (٤) وكيف وقف أصحابه عليه مطيهم يواسونه ويشجعونه على احتمال مرارة الفراق ، وهو لا يجد شفاء لوجده إلا العبرات يريقهـــا (٥ — ٦) ويذكر ما لقى من هوى « أم الحويرث » وجارتها « أم الرباب » وكيف كان يضوع المسك من أردانهما ، وشبه ما كان يفوح منهما من روائح المسك بنسيم الصبا إذا اجتازت بالقرنفل (٨) وفى هذا إشارة إلى شيء مما كانت تتجمل به المرأة فى ذلك الزمن البعيد ، وأنها كانت ولا تزال جد حريصة على أن تمتع عين الرجل ، فلا تقع منها على قبيح ، ولا يشم منها إلا أطيب ريح .

ووصف يوماً من أيام لهوه يوم عقر للعذارى مطيته ، وأطعمهن شواءها ، الذى جعلن يترامين به (١١ — ١٢) .

ثم رسم صورة عابثة لصاحبته « عنيزة » التى احتال حتى صحبها فى هودجها ، وما كانت تبدى من امتناع مصطنع ، خشية على راحلتها التى زعمت أن ظهرها لا يحتمل راكبين ، وأن ذلك قد يؤدى إلى عقرها (١٤) وتحدث إليها حديثا لا يجمل بامرأة حرة أن تسمعه ، حتى لقد يبدو أنه يطارح بهذا الحديث امرأة من العابثات ، أو بائعات الهوى (١٦ — ٢٠) .

ورسم صورة أخرى لنفسه وأبرزها فى صورة الهائم الذى قتله الهوى ، وأنه أصبح أسيرا لفاطمة ، وأنها مهما تأمر قلبه يفعل ، وأنها لم تبك إلا لتثير وجده ، وتجرح قلبه ، لأنها تعرف أثر عبراتها فى العاشق المتيم (٢٣ — ٢٦) .

وأبان عن منزلة المرأة عندهم ، وحرصهم على عفتها وكرامتها ، وقتلهم من يحاول الدنو منها أو الاعتداء على شرفها ، لأنهم يجدون فى ذلك اعتداء على كرامتهم ، أما امرؤ القيس فإنه يباهى بأنه استطاع أن يصل إلى بيضة الخدر التى لا تحدث أحدا نفسه بالدنو منها ، وأنه استطاع أن يتجاوز فى وصوله إليها وزيارته إياها أهوالا كثيرة ، وقوما يحرسونها ، وآخرين حراصا على قتله لو قدروا عليه (٢٧ — ٢٨) ويظهر من الأبيات التالية بعض سمات المرأة وعاداتها :

(١) أن النساء أو بعضهن كن يغطين أنفسهن بالمرط — وهو يشبه الملاءة التى لا يزال يلبسها بعض النساء فى أيامنا — وكانت منقوشة بنقوش تشبه رحال الإبل ، يقال : رحل الثوب ترحيلا إذا فعل به ذلك . ويروى « مرجل » بالجيم ، وهو ضرب من البرود ، يقال لوشيه الترجيل (٣٢) .

(٢) أن من أوصاف المرأة التي يؤثرونها أن تكون ضامرة البطن ممتلئة الساق (٣٤) وستأتي أوصاف أخرى المرأة المحببة إليهم .

(٣) أن بعضهن كن ينظفن أجسادهن ، ويصبغن ترائبهن ، والترائب جمع تريبة ، وهي موضع القلادة من الصدر ، وكانت مادة الصبغ هي «السجنجل[1]» وهو الزعفران (٣٥) .

(٣) أن أحسن ألوان بشرة المرأة عندهم هو أن تكون بيضاء مشوبة بصفرة . فقد شبه امرؤ القيس المرأة ببكر المقاناة البياض بصفرة (٣٦) والمراد به بيضة النعامة ، لأن بياضها مخلوط بصفرة .

(٤) وأنهن كن يلبسن القلائد يحلين بها جيادهن (٣٨) .

(٥) وأن شعرهن كان أسود اللون كثيفا ، وكن يضفرنه ويشددنه على رءوسهن بخيوط (٣٩ و ٤٠) .

(٦) وأن من علامات النعمة أن تصادف المرأة وفتات المسك على فراشها الذي باتت عليه ، وأن تنام عليه إلى وقت الضحا ، وأن تكون مخدومة لا تنتطق لعدم حاجتها إلى أن تقوم من نومها قبل طلوع الشمس لقضاء حاجاتها ومواليها (٤٢) .

أما معلقة طرفة فقد بدأها بذكر المرأة أيضا ، ووصف أطلال ديارها ، وشارك امرأ القيس في استيقاف الصحب والبكاء على تلك الأطلال (١ و ٢) ثم وصف مراكبها حين رحيلها (٣ — ٥) .

وفيها وصف للمرأة العربية كما رآها ففي شفتيها حوّة — وهي حمرة ضاربة إلى السواد — وفي عينها كحل ، وعنقها طويل ، وقد حلّت جيدها بعقدين أحدهما من اللؤلؤ والآخر من الزبرجد ، وابتسمت بثغر تضرب حمرة شفتيه

---

(١) رواية أبي عبيدة «ترائبها مصقولة بالسجنجل» وفسر «السجنجل» بأنه الزعفران ورواية غيره «ترائبها مصقولة كالسجنجل» على التشبية بالسجنجل ، وهو عندهم المرآة وأصله رومي .

إلى سواد ، كأنه أقحوان نبت فى كثيب من الرمل لم يخالطه تراب ، وفى ثغرها بريق كأنه الشمس كسته ضوءها ، ولها وجه مشرق كأن الشمس أعارته ثوبا نقيا خالصا من العيوب ، ليس فيه غضون ولا شقوق لأنها فتية ، وليست مسنّة أو مريضة (٦ — ١٠) .

وفى بيت منها (٤٤) إشارة إلى ما كانت تصطنع الجارية من الفتنة لسيّدها ، فقد شبه طرفة وهى تتبختر فى مشيتها بجارية عرضت على أهل مجلس ، فقامت تتبختر ، وترخى أذيالها ، لترى سيدها أذيالها البيض ، لأن سيدها إذا كان فى المجلس كانت أشد مبالغة فى التبختر وسحب الأذيال ، لتسر فؤاده وتستدعى رضاه .

وفيها إشارة إلى الجوارى المغنيات ، ووصف لبعض أحوالهن فى مجالس الشراب يمتعن الشرب بألحانهن ومعابثتهنّ . يذكر طرفة أن ندماه على الشراب بيض الوجوه أطهار الأعراض ، أنسابهم خالصة صافية من كدر الرق ؛ وأن القينة ، وهى الجارية المغنية ، تتردّد بينهم وقد سترت جسدها ببرد ومُجسّد ، والمجسد هو الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران ، والمجسد أيضاً هو الثوب الذى يلى الجسد ، وهو الشعار ، وهو واسع الجيب ، وهو المحل الذى يخرج منه الرأس ، وإذا كان الجيب واسعا بان العنق ، وانكشف معه شىء من الصدر ، فالندامى يرون عنقها وبعض صدرها ، وإذا مسّها أحد من الندامى لم تمتنع عنه ، فهى مواتية ، وإذا مسّت أحداً منهم لم تزعجه بمسّها وهى ناعمة الجسم ، وقال بعضهم إن جسّ الندامى هو ما طلبوا من غنائها ، يقول طرفة : إن هذه الجارية حاذقة عارفة بما يطرب إليه الندمان من الغناء ، فهى تغنيهم به ، على رسلها فى تؤدة ، وبصوت فيه لين وفتور ، لم تتشدد فيه ، ولم ترفعه بقوة فتزعج السامعين ، وإذا

رددت صوتها فى حلقها وترنمت فيه خلتها نوقاً فقدن أولادهن ، فهن يبكين عليهم ، أو نساء قمن فى مأتم يبكين على هالك ، يريد أنها قادرة على تصريف صوتها (٤٨ ــ ٥١)

ومن أماني طرفة سبقه العاذلات بالشرب ، ويفهم من ذلك أن النساء كن ينكرن على رجالهن شرب الخمر ، أو الإسراف فى احتسائها (٨٥)

وكانت المرأة كما تحلى عنقها بالعقود تحلى رجليها بالبرين ، وهى الخلاخيل جمع برة ، ويقال أيضاً للحلقة التى تكون فى أنف البعير برة وبرين ، وكذلك كانت تحلى يدها بالدماليج ، جمع دملج ودملوج المعاضد ، وهى الأسورة التى تلبسها النساء فى أيديهن (٦١) .

وكانت المرأة هى التى تقوم بتهيئة الطعام ، وطهوه، وتقديمه للرجال (٩٤) .

وكانت المرأة تبكى الرجل إذا مات وتولول عليه ، وكانت تشق جيبها إذا فجعت فى عزيز عليها ، يقول طرفة : إذا مت فاذكرينى بما أستحقه من الثناء ، وشقى ثيابك حزنا على ، ولا تعدلى بى فى البكاء والحزن والنعى رجلا ليس همه فى العلا وإدراك المحامد كهمى ، ولا نفعه كنفعى ، ولا شهوده لمنتديات القوم وميادين الحروب كشهودى (٩٥) .

أما معلقة زهير فقد ابتدأها بذلك التقليد الذى جرى عليه أصحاب المعلقات من ذكر المرأة ووصف أطلالها ، فذكر « أم أوفى » زجته التى وجد لبينها ، وندم على فراقها ، ووصف داراً لها بالرقمتين لم يبق من أطلالها إلا مايشبه مراجيع الوشم فى نواشر المعصم ، ثم وصف رحيلها ، ومراكب ظعنها ، ومنازلها فى طريق رحيلها ، وما وردت من مياه ، وما نصبت من خيام (١ ــ ١٥) وذلك أهم ما فى معلقته مما ذكر فيه المرأة ، ثم انتقل إلى غرضه الأصلى من ذكر الحرب، ووصف أهوالها

وما فعل عظيما غطفان اللذان تحملا ديات القتلى فى أموالهما ؛ ليكفا الناس عن القتال وإراقة الدماء .

وبدأت معلقة لبيد بذكر عفاء الديار وتوحشها بعد أن خلت من أناسها ، والدعاء بسقيها بأمطار الربيع حتى تخضلّ رباها ، وتخضرّ وهادها ، ويعاودها من جمال المنظر مافقدته من خلوها من أنيسها وارتحاله عنها . وتحدث عن أشواقه التى أثارتها نساء الحىّ حين ركبن هوادجهن ، وارتحلن عليها ، وكانت الهوادج قد غطيت بنوع من البسط يسمى « الزوج » وجعلت فوقها الستور الرقيقة التى حليت بالرقم والنقوش ، ولقد تحملن جماعات فكأنهن فى هوادجهن على رحالهن بقرات وحش فى حسن العيون ، أو ظباء وجرة عاطفات على أولادهنّ (١٢ — ١٥) ثم عاتب نفسه على بقاء حبه لنوار التى هجرته وجفته ، وجاورت أهل الحجاز فلا أمل فى وصلها ، ووجد أن خيراً من التعلل بالأمانى الكاذبة التعلق بالواقع ، فليصرف حنينه ووفاءه إلى ناقته الباقية على الودّ ، المعينة له على جوب القفار (١٦ — ٢١) فانطلق إلى وصفها المستقصى الذى أشرنا إليه فيما سبق ؛ حتى عاد إلى « نوار » يذكرها بأنه قادر على القطيعة قدرته على الوصل ، وأنه لايقيم فى مواطن الذلّ ، بل يرتحل عنها مهما يكن فى ارتحاله من الشر والمخاطرة (٥٥ — ٥٦) ثم انصرف إلى الحديث عن فتوته ونصابيه فى شرب الخمر ، وإسرافه فى الكرم ، ومقامرته فى سبيل إطعام الأرامل واليتامى .

والمرأة فى مطلع معلقة عمرو بن كلثوم أيضا ، ولكنها هنا جارية تسقى الندمان الصَّبُوح ، ولا تضنّ عليهم بخمور الأندرين ، وهى قرية بالشام كثيرة الخمر ، ثم استوقف أخرى ليحدثها بيوم وقعة كريهة أقرّ بها بنوعمها عيونهم ، وظفروا بآمالهم فى النيل من عدوّهم ، ويسألها عن سر ظعنها أهو فراق حبيبها ،

أم خيانة من لم يخنها (٩ — ١١) .

ثم ينتقل إلى جملة من أوصاف المرأة التى يستحسنونها ، وهى أوصاف مادية ، فذراعاها ممتلئتان لحماً ، كأنهما ذراعا ناقة بيضاء لم تلد بعد ، وبشرتها خالصة البياض ، وهى مع ماتتمتع به من حسن وجمال ممنعة حصان ، وهى طويلة القامة فى غير يبس ، وكأن ساقيها ساريتان من العاج أو الرخام (١٣ — ١٨) ووصف حزنه لفراقها الذى فاق حزن ناقة أضلت حوارها ، فكررت الحنين عليه ، وفاق حزن العجوز التى ولدت تسعة من الأولاد ، وثكلتهم جميعاً (١٩ — ٢٠) ويعقب هذا بحديثه الطويل عن شجاعة قومه ، وحسن بلائهم فى الحروب .

وذكر من عادة العرب فى القتال ما كانوا يعمدون إليه من صحبة نسائهم ، يقفن خلفهم فى ميادين الوغى ، ويشهدْنَ عن كثب صراع الأبطال ، ليشجعنهم على الإقدام والاستبسال ، وقد أخذن على أزواجهن عهوداً إذا اقتحموا غمار الحرب ، ولاقوا الأبطال ، ليأسرّن الأبطال ، ويستلبنّ ماعليهم من السلاح والدروع والبيض ، وقد قمن يمشين غير عجلات ، ويتمايلن مرحاً كما يمايل الشارب الثمل ، وهن يعافن الخيول ، ويقلن لرجالهن : لستم أزواجنا إن لم تمنعونا ، تحريضاً لهم على الصدق فى القتال ، وقد جمعن إلى جمال الخلق كرم الأصل والعفّة (٨٢ — ٨٩) .

وكذلك بدأ عنترة معلقته بتحية دار عبلة ، والوقوف على أطلالها ، كما فعل غيره من أصحاب المعلقات ، ووصف ظعنها ، ثم وصف مايفوح من طيبها الذى شبهه بما ينبعث من فارة المسك ، أو الروضة الأنف التى أمطرتها كل سحابة غزيرة الماء ، حتى امتلأت ودبانها ...

وفيها مايدل على أن المرأة كانت تغطّى وجهها دون الرجال (٣٩) وعلى

أنهم كانوا يكنون عن المرأة بالشاة (٦٦) كما كنى امرؤ القيس عنها ببيضة الخدر (٦٧) .

وبدأ الحارث معلقته بذكر « أسماء » التى آذنته ببينها (١) ونار « هند » التى أوقدتها بين العقيق فشخصين ، فلاحت كما يلوح الضياء ، فرآها فوق جبل خزازى بين هذين الموضعين ، فطمع فى اصطلائها ، فلما علم أنها بعيدة يئس منها ، وقال : هيهات منك الصلاء (٦ ـ ٨) ثم انصرف إلى الفخر بقومه بنى بكر ، ووقائعهم التى أبلوا فيها أحسن البلاء على النحو الذى سبق .

ومن كل هذا تتضح منزلة المرأة عندهم ، فقد ذكروها حبيبة ، وزوجة ، وجارية وقينة ، وذكروا من صفاتها الشجاعة ، وتحريض الرجال على القتال ، وذكروا أوصافها المحببة إليهم فى الخلقة والخلق على النحو الذى فصلناه فى الكلمات السابقة .

عادات العرب فى المعلقات :

وفى المعلقات إشارات إلى عادات العرب وتقاليدهم ، ومن هذه العادات مايعد من أصول الأخلاق وعلامات المروءة ، كالنجدة ، وحماية الجار ، وإغاثة المستغيث ، والشجاعة ، وصيانة المرأة وحمايتها ، وقرى الضيف .

ومنها ماتنفر منه الأخلاق الكريمة كالاعتداء على الحرمات ، والدبيب إلى النساء ، وشرب الخمر ، والميسر ، والتهور ، والإسراع إلى الفتنة .

وقد سبق كثير من وصف بعض تلك العادات ، وبقى أن نشير إلى مالم نذكر منها مما ورد ذكره فى المعلقات :

الخمر :

ففى بعض المعلقات وصفٌ لها ، ووصف لمجالس شربها ، وتصوير لأخلاق الندمان الذين يجالسون على الشراب ، وذلك عند الشعراء ذوى الفتوة ، الذين يرون فى احتسائها علامة السيادة واليسار والشباب ، وأولئك الشعراء الذين تردد ذكر الخمر فى معلقاتهم ، واتخذت فيها مكانا بارزاً ؛ طرفة بن العبد ، وعمرو ابن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، ولبيد بن ربيعة .

أما طرفة فقد ذكر من مفاخره ، وسمات يساره وفتوته ، أنه دائم التردد على حوانيت الخمارين ، وأنه هائم بها هيامه بمحافل الرجال :

فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد (٤٦)

والحوانيت جمع حانوت ، وهو المحل الذى يباع فيه الخمر ، يقول إنه صاحب جد كما هو صاحب لهو ، فمن طلبه فى نادى قومه حيث يجتمعون المشورة وجده بينهم ، ومن طلبه فى الحانات وجده مع جماعة الشاربين .

ووصف نداماه على الشراب ، وما فى مجلس الشراب من الأنس والطرب :

ندامای بيض كالنجوم وقينـــــة تروح علينا بين برد ومُجْسد (٤٨)

رحيبٌ قطاب الجيب منها رفيقة بجس النَدامى بضَّةُ المتجردِ (٤٩)

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنـا على رسلها مطروفة لم تشدّ د (٥٠)

إذا رجّعت فى صوتها خلت صوتها تجاوب آظآر على رُبَعٍ رَدِى (٥١)

وفى هذا صورة للحانات وحوانيت الخمارين عندهم ، التى كان يتردَّد عليها العابثون من الشبان ، يشربون و يسمرون على ألحان القيان ، فقد وصف نداماه

بأنهم كرام ، بيض الوجوه ، طاهرة أعراضهم ، تتردد بينهم جارية بقميص مصبوغ وهي واسعة الجيب ، يرون عنقها ، وبعض صدرها ، وإذا مسّها أحد الندامى لم تمتنع عنه ، فهي مواتية ، أو إذا مسّتْ أحداً منهم لم تزعجه بمسّها ، لأنها رفيقة رقيقة ، وهي حاذقة عارفة بما يطرب إليه الندمان من الغناء ، فهي تطربهم به ؛ وإذا قالوا لهذه القينة غنينا ، أخذت تغنيهم على رسلها فى رقة وتؤدة ، وإذا ردّدت صوتها فى حلقها وترنمت فيه خلتها نوقا فقدن أولادهن فهنّ يبكين عليهم ، أو نساء قمن فى مأتم يبكين على هالك .

ويبدو فى قصيدة طرفة أن البيئة كانت تنكر على شبانها شرب الخمر ، وأن العشائر كانت تكره أن يتردى فتيانها فى معاقرة الخمر ، فيضيعوا أحسابهم وأموالهم ، ولذلك كانوا ينفرون منهم ويتحاشونهم ، إظهاراً لسخطهم وتأديبا لفتيانهم العابثين . يقول طرفة :

وما زال تشرابى الخمور ولذّتى وبيعى وإنفاق طريفى ومتلدى (٥٢)

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبَّدِ (٥٣)

يقول : مازلت أشرب الخمر ، وأشتغل باللذات ، وأبيع من أجلها كل قديم وحديث من مالى ، حتى تجنبنى أهلى ، وتحاموا مخالطتى ، وأفردونى عنهم كما يفرد البعير الأجرب الذى يمنع من دخول معاطن الإبل ، لئلا تسرى عدواه إلى غيره .

ويذكر طرفة أمانيه فى الحياة ، التى لولاها لم يحرص على تلك الحياة ، وأولى تلك الأمانى ، سبقه اللوائم إلى شربة من خمرة كميت — والكميت الخمر التى فى لونها سواد وحمرة — متى مزجت بالماء ظهر الزبد والرغوة على سطحها :

فمنهن سبقى العاذلات بشربة كميت متى ماتُعْلَ بالماء تزبد (٥٨)

يريد أن بكوره فى شرب الراح والناس نيام ، قبل أن تستيقظ عيون اللوائم ، كان من أول مايحرص عليه من ملاذ هذه الحياة .

أما عمرو بن كلثوم فيبدو أن الخمر والهيام بها ، قد أنسته عادة الجاهليين وتقاليدهم فى ذكر الدمن والآثار فى مطالع قصائدهم ، ولذلك شغل بالخمر من أول بيت فى معلقته :

ألاهبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا (١)
مشعشعة كأن الحص فيهـــــا إذا ماالماء خالطها سخينا (٢)

يقول لجاريته : قومى من نومك ، واسقينا الصَّبُوح ، وهو شرب أول النهار ، بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر « الأندرين » التى يحرصون عليها ، والأندرين[(١)] قرية بالشام كثيرة الخمر ، ووصفها بأنها مشعشعة ، أى رقيقة من العصر أو من المزج ، كأن الحص فيها ، والحصّ هو الورس ، يأمرها أن تصبحه خمرة ممزوجة بالماء ، وكأنها قد خالطها الورس ، وإنما جعلها كذلك لأنها إذا مزجت بالماء اكتست ثوب صفرة ، كما قال الآخر :

وحمراءَ قبل المزج صفراءَ بعده بدتْ فى لباسَىْ نرجس وشقائق
حكتْ وجنة المعشوق صرفاً فسلّطوا عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

ثم قال إن الخمر إذا خالطها الماء وشربناها كنا أسخياء وزاد سخاؤنا على ما كان عليه قبل . ثم وصف الخمر بصفتين : الأولى : أنها تميل بشاربها عن حاجته وتصرفه عن هواه حتى ينساه . والأخرى : أنها تبعث على الكرم والبذل والسماحة ، حتى إن البخيل الحريص على ماله إذا شربها سخت يده ، وأهان ماله ببذله :

---

(١) قال ياقوت : أندرين اسم قرية بينها وبين حلب مسيرة يوم للراكب ليس بعدها عمارة ، وهى الآن خراب ، وإياها عنى عمرو بن كلثوم بقوله « ولا تبقى خمور الأندرينا ».

تجورُ بذا اللبانة عن هواه إذا ماذاقها حتى يلينا (٣)

ترى اللحِزَ الشحيحَ إذا أُمِرَّتْ عليه لما له فيها مُهينا (٤)

وفى الأبيات الثلاثة التى ألحقها بعض الرواة بهذه المعلقة[1] يعاتب أم عمرو التى صرفت الكأس عنه إلى غيره ، وهو أحقّ بها ، لأنه يجلس عن يمينها ، ومن عادتهم فى آداب الشراب أن الكأس تدار على اليمين ، وهو عارف بتلك الآداب، فقد شرب الخمر فى مجالس كثيرة ، وفى بلاد متعددة ، شربها فى بعلبكّ وشربها فى دمشق ، كما شربها فى قاصرين . ثم يقول إن المنية لابد ستدركه فلا خير فى الكف عن اللعب ، أوفى الإمساك عن الخمر :

وإنّا سوف تدركنا المنايا مقدَّرة لنا ومقدّرينا (٨)

وفى بيت من أبيات هذه المعلقة تصوير لمشية الشارب ، وهو يترنح من أثر الخمر ، إذ شبّه نساءهم وهنّ يمشين الهوينى ويتمايلن مرحاً بما كان يرى من تمايل الشارب الثمل :

إذا مارحن يمشينَ الهُوَيْنَى كما اضطربتْ متونُ الشاربينا (٨٦)

ذلك ما ورد فى معلقة عمرو بن كلثوم من إشارات إلى الخمر وشربها ومزاجها وآداب الشرب وهيئة الشارب .

أما عنترة بن شداد فإن فى معلقته ما يدلّ على أنه كان شغوفاً بها ، يعاقرها وينفد فيها ماله . وأول ما يقابلنا من ذكر الخمر فى هذه المعلقة تشبيهه الذباب الذى انفرد فى الروضة الأنف ، بشارب الخمر وهو طرب يترنم ، ويرجع الصوت بينه وبين نفسه :

وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ غرداً كفعل الشاربِ المترنِّم (٢٢)

(١) انظر هامش (٢) فى صفحة (١٢٠) من هذا الكتاب .

أما الأبيات التي ذكر فيها الخمر قصداً فهي أربعة أبيات والى بينها :

ولقد شربتُ من المدامة بعدما ركدَ الهواجرُ بالمشُوف المُعْلَمِ (٤٢)
بزجاجةٍ صفراء ذات أسرَّةٍ قرنت بأزهرَ في الشمالِ مُفَدَّمِ (٤٣)
فإذا شربتُ فإنني مستهلِكٌ مالي وعِرضي وافرٌ لم يُكلَمِ (٤٤)
وإذا صَحَوْتُ فما أقصِّر عن ندًى وكما علمت شمائلي وتكرّمي (٤٥)

يقول إنه يشرب الخمر بعد ركود الهواجر ، أي حين تركد الشمس وتقف ويقوم كل شيء على ظلّه ، والركود السكون ، ويعني بذلك وقت الظهيرة ، لأن هذا الوقت وقت راحة واستجمام لا وقت عمل ونصب ، وهو يشرب الخمر بالمشوف أي يدفع فيها ديناراً مجلوًّا . ووصف زجاجة الخمر بأنها صفراء ، أو وصف الخمر نفسها بأن لونها أصفر ، وفي تلك الزجاجة طرائق وخطوط ، جعلت مع إبريق من الفضة أو الرصاص مفدّم ، أي مشدود فمه بخرقة ، أو عليه الفدام[1] يصفّى به . وإذا سكر سخا ، وبذل من ماله ، وإذا صحا من سكره فعل مثل ذلك ، لأن الكرم خلق فيه ، أما عرضه فإنه أبداً كامل ، لا يناله ما يعاب به أو يذمّ من أجله .

وفي معلقة لبيد ذكرياته عن أيام شبابه السّالفة التي كان فيها من معاقري الخمر ، وقد ضمن تلك الذكريات ستة أبيات من معلقته ، وفيها يقول :

بل أنت لا تدرينَ كم من ليلةٍ طلقٍ لذيذٍ لهوُها ونِدامُها (٥٧)
قد بتُّ سامرها وغاية تاجرٍ وافيتُ إذ رفعتْ وعزّ مُدامُها (٥٨)
أُغلي السِّباء بكل أدكنَ عاتقٍ أو جَوْنةٍ قُدِحتْ وفضّ ختامُها (٥٩)

(١) الفدام بكسر الفاء ، وقد تفتح ، بمعنى المصفاة ، يقال إبريق مفدوم ومفدم أي عليه الفدام .

وغداةِ ريحٍ قد وَزَعتُ وقرّةٍ قد أصبحتْ بيد الشّمال زمامُها (٦٠)
بصَبوح صافية وجَذْبِ كَرينةٍ بموتّرٍ تأتالُه إبهامُها (٦١)
بادرتُ حاجتها[1] الدّجاجَ بسُحْرَةٍ لأُعَلَّ منها حيث هبّ نيامُها (٦٢)

يذكرها بما مرّ عليه من أيام اللهو واللذة ، وما نال فيها من غبطة وسرور والليلة الطلقة هي التي لا برد فيها ولا ريح ولا مطر ، والندام المنادمة ، كم كان يسمر مع خلانه ليلا ، وكم ابتاع من الخمار خمرة غالية الثمن نادرة الوجود ، أراد أنه لا يسقى نداماه إلا أحسن أنواع الخمر الذى يشتريه بالثمن الغالى ، ولا يشترى من الخمر القليل ، بل يحمل كل زقّ لم تمسسه يد ، وكل خابية قد فضّ ختامها فسالت وغرف منها . وربّ غداة باردة قد هبت فيها ريح الشمال فزادت فى بردها ، دفع عن نفسه وندمائه بردها بالشراب وسماع صوت العود تعزف عليه امرأة عوادة تحسن الضرب به وتجيده . إن اشتغاله بمثل ذلك اللهو يجعله لا يحس بالبرد الذى تسوقه ريح الشمال ، ومباكرته هذا الشرب والقصف قبل أن تصبح الديكة وتصيح فى وقت السحر ، تلك المباكرة هى التى نفت عنه عذل العذال إذ أنه ينتهب لذته وهم نيام .

أما معلقة امرىء القيس فقد ذكرت الخمر فيها فى بيت واحد ، وهو قوله :

كأنّ مكاكىّ الجواء غُديّةً صُبِحْنَ سُلافا من رحيق مُفلفَلِ

فقد جعل الطيور وهى المكاكىّ من شدة سرورهن بصفاء السماء بعد المطر

---

(١) السباء شراء الخمر ، وأراد بالأدكن الزق الذى فى لونه دكنة ، والعاتق العتيق أو الذى لم يفتحه أحد ، والجونة الخابية السوداء ، وقدحت غرفت ، والقرة البرد ، وزعت كففت ورددت ، والكرينة ذات الكران وهو البربط ، والموتر العود لأن له أوتارا ، وتأتاله تصلحه ، وحاجتها الضمير فيه للنفس .

الذى غرقت فى أقاصيه السباع كأنما شربن سلافا من رحيق مفلفل[1] .

والسّلاف : هو ما سال من عصير العنب قبل أن يعصر ، والخمرة منه أجود ما تكون .

والرحيق : هو صفوة الخمر .

والمفلفل : الذى ألقيت فيه توابل ، أى فهو يلذع لذع الفلفل ، وإنما وصف الرحيق بكونه مفلفلا ، لأنه إذا كان كذلك كان أشد تأثيراً فى الإسكار . والمراد أن هذا المطر أضحك وجه الأرض بالنبات والأزهار ، وأطلق ألسن الأطيار فرددت ألحانها منتشية كأنها سكارى .

وليس فى معلقة زهير بن أبى سلمى أدنى إشارة إلى الخمر ، لأنه رجل عقل وحكمة ، وفى معلقته كثير من الدلائل على إيمانه بالله ، والبعث والنشور ، والثواب والعقاب ، وترفعه عن مقارفة الصغائر .

وكذلك ليس فى معلقة الحارث بن حلّزة شىء من ذكر الخمر ، أو وصف مجالسها ، أو شىء يتعلق بمعاقرته إياها .

وفى هذا ما يدل على أن شرب الخمر عندهم لم يكن ظاهرة اجتماعية عند العرب ، وإنما كان ذلك وقفاً على جماعة من الفتيان المستهترين بشربها من شبابهم .

فضائل العرب النفسية :

وفى المعلقات كثير من الآثار التى تدل على تقديرهم للفضائل النفسية ، وتمكنها من نفوسهم ، ولذلك مجدوا تلك الفضائل ، وفخروا بها لأنفسهم ، ونسبوا إليها أسلافهم ، ولا يكون شىء من ذلك إلاّ إذا كان لهذه الفضائل كثير من التقدير العميق لها فى نفوسهم ، وهذا ما يؤكده ترادف تلك الفضائل فى المعلقات ، حتى لم تخل واحدة منها من الإشادة بتلك الفضائل والفخر بها .

---

(١) قال صاحب اللسان إن الفلفل معروف لا ينبت بأرض العرب ، وقد كثر مجيئه فى كلامهم ، وأصل الكلمة فارسية . وواحدته فلفلة .

ففضيلة الكرم ، وهى من أمهات فضائل النفس ، لأنها الفضيلة التى ينزل بها صاحب المال عن ماله للفقير المحتاج إليه . وحرص الإنسان على المال طبيعة فى النفوس ، لأنه قوام حياته ، والوزر له من أحداث الزمان ، وينزل بمقتضاها صاحب الطعام عن طعامه ، ليبذله للجائع الذى لا يجده ، ولعل صاحب الطعام فى أشد الحاجة إليه ، ولعله بعد هذا البذل من قوته محتاج لمن يبذل له من قوته . تلك الفضيلة كان لها شأنها فى المجتمع الجاهلى ، وكأن طبيعة الحياة فى ذلك المجتمع البدوى ، وفى تلك الصحراء التى لا يزورها الغيث إلا لماماً ، هى التى أملت عليهم ذلك الخلق ، فالعربى يعرف أنه إن وجد اليوم أسباب الرغد فإن ذلك إلى أمد ، وأن الأيام وظروف الحياة ستسلمه بعد قليل إلى الجدب الذى يصبح معه فى حاجة إلى العون ، يقدمه إليه غداً من كان فى حاجة إليه أمس؛ ولذلك فقد كان يحسّ بهول ذلك الشبح ، شبح الحاجة ، الذى يهدده فى غده ، ولذلك تراه حريصاً على أن يسلف من الفضل ما يكون له ديناً فى ذمة التاريخ ، وفى أعناق الرجال .

ولذلك باهى شعراء المعلقات بالجود بالمال والمتاع ، كما جادوا بالطعام ، والتمس بذلك المؤمنون منهم بالله ثواب الله والدار الآخرة ، والتمس به غيرهم النفع فى أيام الشدة والمسغبة . أو الجاه الذى يطير ذكرهم فى الآفاق ، ويظهرهم فى أخلاق الكرام ، والكرام دائما هم السادة بين أقوامهم .

وليس عقر امرىء القيس ناقته للعذارى إلا مظهراً من مظاهر طبيعة الكرم التى لا تقف عند حد ، لأنه سيفقد راحلته ، ويضطر إلى طلب العون ممن يردفه فوق راحلته (١١ — ١٥) وكذلك صيده الذى عنّى فيه نفسه وفرسه ، ثم قدمه بعد ذلك لطهاة اللحم الذين اشتغلوا بشيّه على الجمر ، وطبخه فى القدور ، ليقدم كل ذلك زاداً لطالبى الطعام (٧٢) .

أما طرفة فقد غالى بتلك الفضيلة حتى تجاوز أعلى غاياتها ، وصور نفسه

فى صورة الفتى المتلاف الذى لا يبقى على ما يصل إلى يديه من مال أو متاع ، ويقول عن نفسه :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد (٤٥)

أى لا أنزل بحيث يخفى مكانى على طالب عرف أو طالب نصرتى، بل أنزل بحيث يرانى كل من يطلبنى ، فمن استضافنى أضفته ومتعته بقراى ، ومن استنجدنى أنجدته ولبيت نداءه ، ومن شأن أهل الكرم والمروءات أن يعرضوا أنفسهم لمثل هذا ، وذلك فرق ما بين الكرام واللئام .

وفى أبيات من الحكمة نرى طرفة يذكر العلة فى إيثاره الطريق التى اختارها لسلوكه فى الحياة ، وإتلاف ما تصل إليه يداه من المال :

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوىّ فى البطالة مفسد (٦٤)

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد (٦٥)

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد (٦٦)

إن الشحيح والمسرف اختلافهما فى حال الحياة ، فأما فى الموت فهما سيان ، فالبخيل لا يمنع الموت عنه ما ادخره من المال ، بل إن الموت يسطو على المعدم الذى بدد ماله فى حياته ، كما يسطو على الموسر الذى استطاع أن يجمع ببخله الأموال والمتاع ، ولن ترى فرقا بين قبريهما ، فعلى كل منهما كومتان من تراب فوقهما أحجار صلاب عريضة ، والحذر لا يدفع الموت ، فحرص الكريم على حياته لا يرد عنها يد الحمام ، وحرص البخيل على ماله لا يدفع عنه المهالك ، وإذا كان الأمر كذلك فخير للانسان ألا يضن بنفس ولا مال . ومن تلك المعانى نستبين أن طرفة فى إتلافه ماله ومال غيره لم يكن يفعل ذلك اعتباطاً ، وإنما كان صاحب رأى وفلسفة فى الحياة بما هدته إليه تجاربه ونظراته .

وصورة أخرى صورها طرفة لكرمه ، وأنه كان يرتكب فى سبيله ما كان

أجدر به أن يوصف بأنه حماقة من حماقات طرفة ، حين يصور إبلا نائمة مشى بينها يلتمس بعيراً يذبحه للندمان أو للضيفان ، فتثور ثقالها من مخافته وتمر به منها ناقة ضخمة سمينة قد جفّ ضرعها لخرتها ، ويصيح شيخ فى وجهه :قد أتيت بداهية ، لذبحك هذه الناقة التى لا يذبح مثلها لضيف ! يقول لمن حوله : ماذا ترون بهذا الرجل الذى ظلمكم وتعمد إيذاءكم فى أكرم أموالكم ؟ يريد منهم أن يكفّوه ، وإلا لم يترك لهم شيئا ، ثم عدل الشيخ عن هذا، وقال : دَعُوه فإن النصح لن يزيده إلا عناداً و إصراراً ، و إنما ردُّوا ماندّ من الإبل ، لئلا يعقره أيضاً (٨٩ ـ ٩٣) إن ذلك الشيخ لم ينكر على طرفة كرمه لضيفه ، و إنما أنكره عليه لتهوره فى سبيل ذلك الكرم، وعدم توفيقه فى اختيار مايصلح قرى لأولئك الضيف .

أما زهير بن أبى سلمى فقد خص بالكرم عظيمى غطفان : الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، اللذين تداركا عبساً وذبيان بعد ماأفنى بعضهم بعضا ، وتحالفوا على الحرب حتى الموت ، ووقع بينهم الشؤم ، حتى كاد يبيدهم عن آخرهم :

وقد قلتما إن ندرك السِّلْم واسعاً ... بمال ومعروفٍ من القول نَسْلَمِ (٢٠)

فأصبحتما منها على خير موطنٍ ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم (٢١)

عظيمين فى عليا معدٍّ هديتما ... ومن يستبحْ كنزاً من المجد يعظم (٢٢)

تُعفَّى الكلامُ بالمئين فأصبحتْ ... ينجِّمها من ليس فيها بمجرم (٢٣)

يُنجِّمها قومٌ لقومٍ غرامةً ... ولم يُهريقُوا بينهم ملءَ محجم (٢٤)

وذلك ضرب من الجود يصح أن يسمَّى « الجود الجماعى » أى الجود الذى سببه الجماعة ، والحرص على وحدتها وقوتها ، ولو أدى ذلك إلى أن ينفد الجواد متاعه وأمواله فى سبيل أمن الجماعة ، وسلامة أرواحها ، وقد سجل زهير هذا

الجود الجماعى لهذين الرجلين فى هذه المعلقة . وهى ظاهرة اجتماعية مبكرة فى هذه البيئة العربية ، وفى ذلك الزمن البعيد ، وصورة للفرد الذى لاينظر إلى نفسه وإلى خاصته بقدر ماينظر إلى الجماعة التى ينتسب إليها .

والحقيقة أن هذه الظاهرة فى الحياة الجاهلية تعبر أقوى تعبير عن مدى التجاوب بين الفرد والجماعة ؛ فالجماعة تصون أفرادها ، وتدفع عنهم اعتداء المعتدين ، وتغزو من أجلهم ، وتغير على غيرها جلباً للمغانم التى ينعم بها الأفراد ، والجماعة هى التى تثأر لقتلاها ، وهى التى تدفع العقل والدية عن الجناة من أبنائها .. هذا هو موقف الجماعة من الأفراد .

أما موقف الأفراد من الجماعة ، فإنه تجاوب تام ، فهم الذين يسرعون إلى نجدتها ، وهم الذين يجودون بأرواحهم لحمايتها ، والشعراء منهم هم الذين يرسلون الشعر الحىّ يدافعون به عن أحسابها وأنسابها ، ويدالون به من خصومها وأعدائها ، ويذيعون محامدها ومفاخرها ؛ والسَّراة هنا يحملون فى أموالهم آثام جنايات لم يرتكبوها ، ويلئمون جراحاً لم ينكئوها . وهذا هو التفاعل التام بين الفرد والجماعة ، والتكافل التام أيضا بين الجماعة والفرد ، ومظهر الشركة بينهم فى السَّراء والضَّراء .

يقول زهير لذينك العظيمين إنكما قلمّا إن نتمكن من الصلح ببذل المال نسلم من الحرب ومن إراقة الدماء ، فبذلتما الأموال ، وأصبحتما بعيدين عن كل وصف بالعقوق أو قطع الأرحام ، فعرفت عظمتكما فى أشراف القبائل ، فلقد محوتما الجروح بالمئين من الإبل التى دفعت دية ، كرماً منكما وفضلا ، لإصلاح ذات البين ، وصلة الأرحام .

أما معلقة لبيد ففيها من ذكر الكرم ، وفيها من تصوير الكرام وخلائقهم مايدل عليه ويوضحه قوله :

وجزور أيسار دعوت لحتفهــا ... بمغالق متشابهٍ أعلامُها (٧٣)
أدعو بهنَّ لعــاقر أو مطفل ... بذلتْ لجيران الجميع لحامُها (٧٤)
فالضيف والجار الجنيب كأنما ... هبطا تبالة مخصباً أهضامها (٧٥)
تأوى إلى الأطناب كلُّ رذية ... مثل البلية قالص أهدامها (٧٦)
ويكلّلونَ إذا الرياح تناوحت ... خلجاً تمدُّ شوارعاً أيتامها (٧٧)

وهو تصوير يوقفنا على أسلوب من أساليبهم فى الكرم ، وفى تيسير الطعام للعاجزين عن كسبه ؛ وذلك أنهم كانوا يقامرون على الإبل ، وكان القامر منهم ينحر ما كسبه ، ليقدمه طعاماً لأولئك المحتاجين . يقول لبيد : رب جزور قوم مقامرين قرتهم عليها ، وأخذتها منهم بقداح متشابهة العلامات ، لاتتميز على اللامس ، تغلق الرهن ، وتمنعه الفكاك ، ثم دعوت الناس إليها . وكان يدعو بهذه القداح ليقامر بها من أجل امرأة عاقر لاتحمل ، وأخرى ذات ولد ليس لها من يعولها ، فهو يقامر ليحصل لهما على مايأكلانه ، ثم يفرق مايبقى على جيرانه فالضيف والجار الغريب الذى يقيم فى جوارهم إذا نزلا بهم صادفا عندهم من الخيرات والفواكه والرطب مايصادف النازل فى « تبالة » من الخيرات ، يشير بذلك إلى سعة يدهم واعتنائهم بضيفهم وجارهم ، والحفاوة بهما ، والمبالغة فى إكرامهما . ومن أظهر علامات السماحة ما ذكر لبيد من أن كل امرأة لاتقدر على العمل عليها أخلاق ثياب ، فصارت لشدة الجهد والحاجة لاتستطيع الحركة ، كأنها ناقة عقلت على قبر صاحبها ، فهى لاتبرح من مكانها حتى تموت ، إن هذه المرأة ومثيلاتها لايجدن ملجأ يلجأن إليه إلا داره التى يجدن فيها ماينشدن من القرى والطعام ؛ حتى يقول : إنه إذا أقبل الشتاء ، واشتد البرد ، واختلفت الرياح وضاقت المعيشة على الفقراء والمعدمين ، ومن ليس لهم من يعولهم من

الأيتام بذلنا للناس جفاناً كأنها فى السمة الخلجان قد رصف فوقها اللحم ، وزدنا فيها كلما نقصت . فترى الأيتام يشرعون فيها أيديهم ، ويأكلون منهامايكفيهم وما يزيل مسغبتهم .

وفخر عمرو بن كلثوم بأن العرب يعترفون لقومه بالشرف والسيادة ، وأنهم المطعمون غيرهم إذا ماوجدوا إلى هذا الإطعام سبيلا ، وأنهم قادرون على الانتقام إذا حاول الاعتداء عليهم معتدٍ ؛ وذلك فى إحدى الروايتين « وأنا المطعمون إذا قدرنا . . »

وفخر عنترة بأنه دائم البذل فى جميع حالاته ، فإذا سكر بذل وأعطى ،وإذا صحا من سكره فعل مثل ذلك ، لأن الكرم خلق فيه ، أما عرضه فإنه أبداً كامل مصون ، لاينال مايعاب به ، وما يذم من أجله ، وذلك فى قوله :

فإذا شربت فإننى مستهلك   مالى وعرضى وافر لم يكلم (٤٤)
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى   وكما علمت شمائلى وتكرمى (٤٥)

وهكذا صورت المعلقات فضيلة الكرم التى تخلق بها العربى ، وغالى بها العرب إلى حدّ الإسراف ، فأنفقوا الأموال ، وأطعموا الطعام ، واحتملوا فى أموالهم ديات القتلى الذين لم يكن لهم يد فى قتلهم ، مع قسوة الطبيعة عليهم ، وجدب أرضهم بالنبات ، وبخل سمائهم بالغيث ، وفى هذا ما يكبر صنائعهم ، ويجعلها مثلا من روائع الأمثال .

أما فضيلة الشجاعة عند العرب فقد أصبحت مضرب الأمثال فى العالمين ، ولقد كان العربى فى الجاهلية يسترخص أغلى مايملك ، وهو حياته ، فى سبيل حريته ، وفى سبيل الحفاظ على حرمه وكرامته ، ورب كلمة أنف العربى سماعها ،

جعلته يسرع إلى سيفه ، ليهوى به على رأس من حاول النيل منه بالقول أو بالفعل ، ثم تشتعل نار حرب ضروس تأكل اليابس والأخضر ، وكانت تلك الحياة هى التى علمتهم الشجاعة ، والصبر على القتال ؛ إذ كان صبيانهم يشبون فى بيئات ملأت صدور أهلها الأحقاد ، وتخضبت جنبات أرضها بالدماء ، فلا يسمعون إلا صهيل الخيل وصليل السيوف فى ميادين الوغى ، ولا يرون إلا الثأر لآبائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ينتظر منهم النهوض به . ولذلك كانت الشجاعة أهم صفاتهم ، كما كانت نجدة المستنجد بهم ضريبة عليهم ، لأنهم فى كثير من الأحيان يضطرون إلى الاستنجاد بغيرهم ، ليعينوهم على دمائهم التى يريدون الثأر لها ، وحقوقهم التى يعملون على استخلاصها من أيدى أعدائهم ومغتصبيهم .

والحديث عن شجاعة عرب الجاهلية يحتل مكاناً بارزاً فى شعر المعلقات ، وقد سبقت إلى ذلك إشارات كثيرة فى وصف الحياة الجاهلية ، ووصف الحرب والسلام فى المجتمع العربى ، وفى وصف سلاحهم وأدوات القتال عندهم ، وقد كان الحديث عن الحرب فى حقيقته وصفاً لبطولتهم ومفاخرهم التى حصلوها فى تلك الحروب والوقائع التى خاضوها ، وشجاعتهم وحسن بلائهم فى لقاء الأبطال ، والصبر على القتال ، وانتصاراتهم المترادفة . وليس من سبب لطول الحروب عندهم إلا خلق الشجاعة الذى كان يجرى فى دمائهم ، فيمنعهم الرضا بالهزيمة ، أو النوم على وتر ، مهما أصابهم من رزايا الحرب وأهوالها ، ومهما قتلت من سادتهم وكبرائهم ، ومهما أفنت من رجالهم ؛ لأن العربى لا يستسلم للهزيمة ، ولا يرضى بالهوان ، وإن كان دون ذلك بذل النفس والنفيس من الأرواح والأموال .

وربما كان ذلك العناد الذى أودى بالآلاف من العرب فى الجاهلية هو الذى عطل نهضة الجزيرة العربية ، وعاق تقدمها المادىّ قبل الإسلام ، وصرفهم عن العمل الجاد الذى يحصلون منه على أرزاقهم التى تقيم أصلابهم .

وهاك بعض إشارات يسيرة إلى بعض مظاهر خلق الشجاعة كما عبرت عنها المعلقات .

فامرؤ القيس يتجاوز فى الوصول إلى صاحبته وزيارتها أهوالا كثيرة ، وقوماً يحرسونها وآخرين حراصاً على قتله لو قدروا عليه ، وهو لا يبالى بشىء من ذلك (٢٨) ولم يكن من مظاهر خلق الشجاعة عند امرىء القيس فى الشطر الأول من حياته غير الشجاعة فى العبث ، وفى الدبيب إلى من يهوى ، وكان لا يستخدم حصانه إلا فى الصيد والطرد .

وطرفة يمضى على مثل ناقته ، ويقطع بها عرض الفلوات التى يجزع منها غيره ، لما يخشون من الهلاك الذى يتعرض له قاطع تلك المفاوز الشاسعة (٤٠) ومن شجاعته أن الناس إذا وقعوا فى شدة من الأمر ورجوا من يكشفها ، لم يجدوا غيره ملبيا (٤٢) وهو لا ينزل بحيث يخفى مكانه على طالب عرفه أو طالب نصرته ، فمن استنجد به أنجده ولبى نداءه (٤٥) ويقول لمن يلومه على شهوده الحرب وحضوره مجالس اللذات : أتضمن لى الخلود إن أنا أطعتك فى الكف عن القتال وعن شهود اللذات ؟ ، فإن كنت لا تستطيع أن تدفع منيتى إذا حضرت فدعنى أعاجلها بشجاعتى وبذل مالى (٥٦) ومن أعز أمانيه التى لا يحرص على الحياة إلا من أجلها كرّه لإغاثة الملهوف ونجدة المستصرخ المكروب فرساً فى يده انحناء قليل ، وذلك محمود عندهم فى الخيل ، فإذا فحش كان مذموماً (٥٩) وهو إن يدع إلى الخطوب الجسام كان ممن يحمى فيها ويمنع وإن دهم الأعداء قومه فقاتلوهم بأقصى جهدهم استطاع أن يدفعهم عنهم بأقصى جهده ، ولم يأل فى ردهم عنهم ، وإن يشتموا عرض واحد من قبيلته أو يسبوه لم يشتغل بتهديدهم ، وإنما يسقيهم من حياض الموت ، لانتهاكهم حرماته ، واجترائهم عليه (٧٥ ، ٧٦) وهو قليل اللحم ليس بكثيره فيعوقه ذلك عن سرعة الحركة ، وهذا مما تمدح به العرب ، لأن أهم مفاخرهم فى لقاء الأبطال

ومقارعة الأقران ، وإغاثة الملهوفين ، وقطع الفلوات ، وكل هذه الأمور لا تتيسر إلا لمن خف لحمه . وهو ماض فى أموره لا يثنيه شىء عنها . وهو سريع الحركة شديد الحذر كأنه رأس الحية فى توقده ، وشدة تيقظه (٨٤) وقد حلف لا يزال جنبه للسيف كالبطانة للظهارة لا يزالان معاً ، يريد أنه أقسم لا يفارقه سيفه أبداً ، بل يظل أبداً متقلداً له (٨٥) .

وفى معلقة عمرو بن كلثوم من آثار الشجاعة الشىء الكثير ، فهو يذكر ما كان من قومه الذين أشبعوا أعداءهم ضربا وطعناً أقروا به عيون أوليائهم (١١) وفخر بأنهم يوردون الرايات بيضا ، ويصدرونها وقد احمرت بعد ما رويت من دماء أعدائهم (٢٤) وأن السادة والأبطال لا يستعصون على شجاعتهم (٢٦) وأنهم استطاعوا أن يحموا ذا طلوح والشامات وما بينهما ، وأن يطردوا الأعداء الذين لا يستطيع غيرهم تفريقهم ، لما لهم من المنعة والعزة والبأس (٢٨) وإذا فزعت الأقوام وهمت بالهروب ، وتساقطت أخبيتهم استطاع قومه أن يحموا أنفسهم ، وأن يمنعوا من يليهم ، ولا يدعونهم يرحلون بل يحمونهم ، ويقاتلون عنهم . وإذا عجز قوم عن التقدم إلى الحرب من توقع أهوالها فإن قومه قادرون على التقدم بكتيبة كأنها الجبل ذات بأس وشوكة محافظة على أحسابهم ، حتى يكتب لهم النصر والغلبة على الأعداء (٤٦) إلى كثير من هذا الفخر بالشجاعة والبسالة الذى تقدمت الإشارة إلى شىء منه فيما سبق .

ومثله عنترة ، لولا أن أكثر فخر عنترة بشجاعته ، ومن قوله فى ذلك إنه حاذق بالطعن لا يطعن إلا فى المقاتل ، وأن جأشه دائماً ثابت ، ولذلك فهو يتحرى إصابة رمحه المقاتل (٤٦) واستطرد إلى حسن بلائه فى الحرب ووصف فرسه الذى تعاوره الكماة واحداً بعد واحد ، ومع ذلك ظل ثابتاً ، وأنه يدفعه لاقتحام جيش الأعداء ، فإذا نكى فيهم عاد به إلى جيش قومه (٥٠) وعنترة يغشى الحرب شجاعة ، فإذا كانت الغنيمة كف عنها عفة ، إذ أنه لا يقاتل من

أجلها (٥١) وربّ فارسٍ مدجج فى سلاحه شجاع فى اللقاء يكره الفرسان منازلته لما يعلمون من بأسه ، استطاع عنترة أن يسبقه بالطعن ، وكان أحذق به منه (٥٥) ومثل هذه الصور من الشجاعة كثير فى معلقة عنترة كثرتها فى معلقة عمرو بن كلثوم .

وفى معلقة الحارث بن حلزة من آثار الشجاعة كثير مما سبقت الإشارة إليه فى الكلام عن الحرب وأيام العرب[1] .

ومن الأخلاق العربية التى أبرزتها المعلقات خلق العزّة و إباء الضيم ، الذى كان ثمرة من ثمرات الحرية التى عشقها العربى ، وأرضع لبانها فى تلك البيئة الحرة ، فقد كان العربى سيد نفسه ، لا يرضى إلا بما تسنه قبيلته ، ولا يخضع إلا لسلطانها وفيما عدا ذلك تراه لا يعترف بسيادة ولا يقر بسلطان ؛ إلا أن يقهر أو يغلب على أمره ، ولكن هيهات له أن يستكين .

وترى التحدث بهذا الخلق — خلق العزة و إباء الضيم — أكثر بروزاً فى قصائد شعراء الحماسة من أصحاب المعلقات ، وأعنى بهم طرفة بن العبد ، وعمرو ابن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، والحارث بن حلزة . فمن ذلك فى معلقة طرفة :

و إن أدع للجلّى أكن من حماتها	و إن يأتك الأعداء بالجهد أجهد (٧٥)
و إن يقذفوا بالقذع عرضك أسقهم	بشرب حياض الموت قبل التهدد (٧٦)
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة	على المرء من وقع الحسام المهند (٨٠)
فذرنى وخلقى إننى لك شاكر	ولو حلّ بيتى نائيا عند ضرغد (٨١)
فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى	عداوة ذى الأصحاب والمتوحد (٩٨)
ولكن نفى عنى الرجال جراءتى	عليهم و إقدامى وصدقى ومحتدى (٩٩)

(١) راجع صفحة ٢٥٢ وما بعدها من هذا الكتاب .

يقول : إنه إن دُعى إلى الخطوب الجسام كان ممن يحمى فيها ويمنع ، ولم يأل فى رد الأعداء بأقصى مايملك من الجهد ، وإن شتموا عرضه وسبوه لم يشتغل بتهديدهم ، وإنما يسقيهم من حياض الموت ، لانتهاكهم حرماته ، واجترائهم عليه . وهو لايقبل الظلم ولا يبيت على الضيم ، حتى لو كان ذلك من أهله وذوى قرباه ، إذ يرى أن المرء لأن يضرب بالسيف المهند القاطع حتى يموت خير له من أن يحتمل أذى من ذوى قرابته ، أو يرى منهم مايسوؤه ويؤلم قلبه . ثم يقول لمن لامه على إسرافه فى الإباء وفى النيل من كل من تعرض له : دعنى وما فطرت عليه ، فإنى لاأدع ذلك ، ولو اضطررت إلى العزلة ، ونزلت عند ذلك الجبل « ضرغد » الذى هو أبعد مايكون عن أهله ومنازل قومه ! . ثم يقول عن نفسه : إنه لو كان نذلا ضعيفاً بين الرجال لناله الأذى ممّن له ناصر ، وممن لاناصر له ، ولكن الذى كف عنه أذى الناس هو إباؤه وجرأته وكرم أصله ، وصدقه فيما يتوعدهم به .

ويبدو الإسراف فى خلق الإباء فى قول زهير يذكر حصين بن ضمضم بن مرة ، وكان أبى أن يدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح ، وحلف ليقتلنّ بأخيه رجلا من بنى عبس :

جرىء متى يظلم يعاقبْ بظلمه سريعاً وإلاّ يبد بالظلم يظلم (٣٩)

فهذا الأسد — وهو حصين — إن ظُلم انتقم لنفسه ممن ظلمه سريعاً ، وإن لم يظلم ابتدأ هو بالظلم . وقال فى قوم الحارث بن عوف وهرم بن سنان :

كرام فلا ذو الضغن يدرك وتره ولا الجارمُ الجانى عليهم بمسلم (٤٧)

وصفهم بأنهم كرام عزيزو الجانب ، فمن كان له عندهم ثأر لم يدركه منهم لعزهم ومنعتهم ، ومن جنى منهم جناية عليهم لم يسلموه لأولياء المجنى عليه ليقتادوا منه ، لعزهم وشرفهم ، بل تقع جناية من يجنى منهم هدراً .

وقال لبيد :

أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصّال عقد حبائل جذامها (٥٥)
ترّاك أمكنة إذا لم أرضهـــا أو يعتلق بعض النفوس حمامها (٥٦)

فقد خرج فى قوله هذا على المألوف من العشاق وذوى الصبابة الذين يصبرون على هجر عشاقهم ، ويرون مرهم حلوا ، وهجرهم وصلا ، وبعدهم قربا ، أما لبيد فإنه قادر على أن يملك قلبه ، وعلى أن يجمع أمره ، فهو حازم يصل فى موضع المواصلة من كان أهلا لمواصلته ، و يقطع من قطعه ، وهو كثير الترك لكل مكان لا يرتضيه لإقامته ، لما قد يلحقه فيه من المذلة ، وإن علم أن فى ارتحاله عن ذلك المكان موته ، يريد أنه يفضل الموت فى الغربة على الحياة فى وطنه إذا كان فى مقامه غضاضة تلحقه . وهذا على الرغم من حرص الأحرار على عدم مبارحة الديار ، وإن ضاقت بهم أو جارت عليهم ؛ إلى أن يقول :

وكثيرة غرباؤها مجهـــولة ترجى نوافلها ويخشى ذامها (٧٠)
غلب تشذر بالذحول كأنها جنّ البدىّ[1] رواسيا أقدامها (٧١)
أنكرت باطلها وبؤت بحقّها عندى ولم يفخر علىّ كرامها (٧٢)

ومعناه : رب قبة كثيرة الوفود يجتمع إليها من سائر الآفاق ، ترجى نوافل هذه القبة ، ويخشى أن ينسب إلى أحد فيها عيب ، لأنه يسير بين الناس كالمثل لكثرة من فيها من شذاذ الآفاق ، وكأن تلك الوفود إبل غلاظ الرقاب ، كناية عن قوتهم وجسامتهم ، يتوعد بعضهم بعضاً بالعداوات التى بينهم ، وكأنهم الجنّ

(١) الغلب : جمع أغلب وهو الفحل الغليظ الرقبة ، وتشذر يوعد بعضهم بعضا ، والذحول جمع ذحل وهو العداوة ، والباء فيه للسببية ، أى يتوعد بعضهم بعضا ، بسبب الذحول ، والبدى وادلبنى عامر .

جرأة ومضاء فى أمورهم ، ولكن لبيداً لم يقبل من أحدهم فخراً عليه ، بل أنكره فى هذه القبة ، ورده على من حاوله منهم ، وتجاوبت أصداء فخره فيها . وهو يشير بهذا إلى ما كان له مع الربيع بن زياد العبسى بحضرة النعمان بن المنذر .

أما عمرو بن كلثوم ، فقد رأينا أنه لا يقبل الذل ، ولا يرضى الهوان ، وأنه يتحدى ملك الحيرة عمرو بن هند بقوله :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا (٢٣)

بأنا نورد الرايات بيضاً ... ونصدرهن حمراً قد روينا (٢٤)

وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا (٢٥)

يقول للملك : لاتعجل بانتقاصنا ، ولا تطمع فينا ، فإن من شأننا أن ندخل بالرايات غمار الحرب وهى بيض ، ونخرج منها وقد رويت بالدماء ، يريد أنهم فرسان أبطال ، لايقيمون على ضيم ، وأن أيامهم ظاهرة بين الناس كأنها الغرة فى وجه الفرس ، وهى طوال لشدة هولها ، وقد عصينا الملك فيها ، ولم ندخل فى طاعته ، لعزتنا وشرفنا الذى يأبى علينا أن نكون عبيداً لغيرنا . إلى أن يقول:

ألا لايجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا (٥٣)

بأى مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقيلكم[1] فيها قطينا (٥٤)

بأى مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا (٥٥)

تهددنا وأوعدنا رويداً ... متى كنا لأمك مقتوينا[2] (٥٦)

---

(١) القيل الملك دون الملك الأعظم وجمعه أقيال ، والقطين الخدم ، وهم فى غير هذا الموضع سكان المنزل .

(٢) المقتوون الخدام واحدهم مقتوى ، وقال أبو عبيدة : مقتوى للمفرد وغيره والمذكر والمؤنث سواء . وقال الفراء : الرواة والنحويون ينشدون بيت عمرو مقتوينا بالفتح ، كأنه نسب إلى مقتى ، من القتو ، وهو الخدمة خدمة الملوك خاصة ، ثم إن الشاعر اضطر إلى تخفيف الياء ، فقال « مقتوين » يريد « مقتويين » فإذا قالوا للواحد رجل مقتوى عادوا إلى التشديد .

فإن قناتنـــــا ياعمرُو أعيتْ على الأعداء قبلك أن تلينا(٥٧)

يقول : نحن أعزة لا يعلم الناس منا غير ذلك ، فلا ينبغى لأحد أن يجهل علينا ، فنجهل عليه فوق جهله بنا ، وننال منه أكثر مما ينال منا ويخاطب عمرو بن هند بقوله : كيف تطمع أن نكون خدماً لمن وليت علينا من الأمراء ، على ما تعلم من عزنا ؟ وكيف تطيع الوشاة فينا وتحتقرنا ، على ماتعلم من قلةصبرنا على احتمال الضيم وتحمل الأذى ؟ إلى أن يقول له : أقلل من تهددك إياناوتوعدنا، وتأنّ فى ذلك ، فما كنا خدمة لأمك ! لقد رأيت أن كل من نازعنا أوأرادمغالبتنا خاب وظفرنا به ، فإن قناتنا لا تلين لكاسر ، يريد أنهم لعزتهم لا يُنالون ، ولا يقدر عليهم أحد من البشر . ثم يقول :

ونشرب إن وردنا الماء صفــواً ويشرب غيرنا كدراًوطينا (٩٨)

ألا أبلغ بنى الطماح عنّـــا ودُعمياً(١) فكيف وجدتمونا(٩٩)

إذا ما الملكُ سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الذل فينا (١٠٠)

إذا بلغ الفطــــام لنا صبيٌّ تخر له الجبابر ساجدينا (١٠٤)

يصف قومه بأنه يغلبون على الفاضل من كل شىء ، فيحوزونه ولا يصل الناس إلى شىء مما يتخيرونه لأنفسهم ، لعزتهم وشرفهم . وإنما ضرب الماء مثلا لأنه أعز شىء لديهم ، لقلته مع شدة حاجتهم إليه ، ثم يقول الملك : سل هذين الحيين من العرب : كيف وجدونا حين جربونا ؟ أشجعاناً أم جبناء ؟ وإنما خص هؤلاء بالسؤال لوقائع كانت بينهم . وإذا بلغ أحد صبياننا وقت الفطام سجدت له جبابرة غيرنا . ومن آثار هذا الخلق فى معلقة الحارث بن حلزة قوله :

أيها الناطق المرقش عنـــــا عند عمرو وهل لذاك بقاء(٢١)

---

(١) بنو الطماح ودعمى حيان من إياد .

لا تخلنـــا على غراتك إنا   قبل ماقد وشى بناء الأعداء (٢٢)

فبقينا على الشناءة تنمي   نا حصونٌ وعزةٌ قعساء (٢٣)

قبل ما اليوم بيَّضتْ بعيون النـ   ـاس فيها تعيّطٌ[1] وإباء (٢٤)

يقول : أيها المحسِّن الملك ما يفتريه علينا ، ويغريه بمعاقبتنا ، لا تحسب أنا جزعون لإغرائك الملك بنا ، فقديماً وشى بنا الأعداء ، فقد مرنّا على عداوة الناس ووشاياتهم ، وليس لكذب بقاء . ولقد بقينا على بغض الناس إيانا نزداد عزة وامتناعاً ، ويزدادون غيظا ؛ لما يرون من ثبات عزنا ومكانتنا ، ونحن لا نبالى عدوا ولا حسوداً ، فقبل اليوم عظم شأننا على الناس حتى أعمى أبصارهم .

وفى هذه الصور التى رسمها أصحاب المعلقـــات لعزّة العربى وإبائه الضيم مايكشف عن جانب من أهم الجوانب فى أخلاق العرب ، الذين امتنعوا عن التبعية لسيد من السادة أو ملك من الملوك ، اعتزازا بكرامتهم ، وإيثاراً للحرية التى هاموا بها ، وملكت عليهم أمرهم ، وصرفتهم فى الحياة على ذلك الطراز الذى فقدوا فيه صولة الحاكم ، ووحدة الهدف ، وقوة القانون الذى ينظم صلاتهم ومعاملاتهم .

صور أخرى للمجتمع العربى فى المعلقات :

(١) حماية الماء :

كان بعض العرب يحمون مياههم ، فلا يستقى منها ، ولا ينتفع بها أحد ، قال امرؤ القيس فى تشبيه صاحبته :

كبكر المقاناة البياض بصفرة   غذاها نمير الماء غير المحلَّل (٣٦)

(١) الغراة : من قولك غريت بالشيء أغرى به ، والشناءة : والشنآن البغض ، وتنمينا ترفعنا ، والقعساء : الثابتة المنيعة التى لاترام ، وبيضت بعيون الناس : أعمتها ، والباء زائدة ، والتعيط الارتفاع والامتناع ، واعتاطت رحم الناقة امتنعت عن الحمل .

يقول : إن لون هذه المرأة كاون بيضة النعامة المخلوط بياضها بصفرة ، وقد غذا هذه المرأة الماء النمير العذب الصافى ، ودل على صفاء هذا الماء بقوله « غير المحلل » فإن الماء إذا لم يكن حلالا لكل أحد من الناس ، ولم يحله أحد ، بل كان محميا لقوم معينين ، كان أصفى لكثرته ، وقلة ملامسة الأيدى له .

(٢) دين الجاهلية :

والمعلقات على طولها لم تعرض لدين العرب وعقائدهم فى الجاهلية إلا قليلاً ، وأكثر هذا القليل ورد فى معلقة زهير بن سلمى ، الذى ذكر تعظيم العرب للكعبة ، وأنهم كانوا يقسمون بها لإثبات صدقهم ، وذلك فى قوله :

فأقسمتُ بالبيت الذى طاف حولهُ رجال بنوه من قريش وجُرهم (١٧)

يميناً لنعم السّيدان وُجدتما على كل حال من سحيل ومُبرم(١٨)

وفى معلقته إيمان بالله ، ووصف له بأنه يعلم السرّ والنجوى ، و إيمان بالبعث و النشور ، والثواب والعقاب ، وذلك قوله :

فلا تكتمنَّ الله ما فى نفوسكم ليخفَى ومهما يُكتم الله يَعْلَمِ (٢٧)

يؤخرْ فيوضعْ فى كتاب فيدَّخرْ ليوم الحساب أو يعجّل فينقم (٢٨)

يقول : لا تكتموا عن الله ما أضمرتم فى نفوسكم من الغدر ونقض الصلح ليخفى على الله ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ومهما كتم الإنسان عن الله شيئاً ، و بالغ فى كتمانه علمه الله ، فإما أن يؤخر عقابه ، أو يعجله فينتقم من صاحبه ، فكل إنسان مجزىّ بعمله لا محالة . ولا يعلم الغيب إلا الله :

وأعلمُ ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غدٍ عَمِ (٤٩)

وفى المعلقات من ذكر الوثنية ، والإشارة إلى عبادة الأوثان شىء قليل جدا هو الذى أشار إليه امرؤ القيس فى وصفه سرب بقر الوحش :

فعنَّ لنـــا سرب كأن نعاجَهُ عذارى دُوَارٍ[1] فى مُلاءٍ مذيَّلِ (٦٨)

يقول : بينا نحن فى انتظار صيد إذ عنّ لنا قطيع من بقر الوحش كأن إناثه فى السمن واكتناز اللحم والتبختر فى المشى ، عذارى عليهن ملاحف طويلات الذيول تسحب خلفهنّ ، وهن يطفن حول ذلك الصنم « دُوَار » وهو صنم كان أهل الجاهلية إذا نأوا عن الكعبة نصبوه وطافوا حوله ، تشبها بالطواف حول الكعبة .

وفيها قليل من الإشارة إلى الرهبان المنقطعين عن الناس والمشغولين عن الحياة بعبادة الله ، وذلك فى قول امرىء القيس يصف صاحبته بالبهاء والإشراق :

تضىءُ الظلام بالعشـــاء كأنها منارةُ مُمْسَى راهب متبتِّل (٤٤)

أى أن نور وجهها يمحو ظلام الليل و يطرده ، كما يمحوه ضوء منارة الراهب ، وذلك أن الرهبان كان من عادتهم إذا جن الليل أن يجعلوا مصباحاً على أرفع مكان فى صوامعهم ، ليهتدى به إليهم من ضل عن الطريق ، وستره ظلام الليل عن عينيه . ومثل ذلك قوله :

أصاح ترى برقاً أريك وميضهُ كلمع اليدين فى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ (٧٥)

يضىءُ سناهُ أو مصابيح راهبٍ أمال السَّليطَ بالذُّبال[1] المفتَّل (٧٦)

أى أن هذا البرق فى لمعانه وتحركه كلمع اليدين ، وفى تألقه كمصباح راهب أميلت فتيلته بصب الزيت عليها .

---

(١) فيه أربع لغات فتح الدال وضمها مع تشديد الواو وتخفيفها ، وقال صاحب القاموس (٢/٣٢) الدوار ككتان ويضم الكعبة ، وصنم ، ويخفف .

(١) الحبى السحاب المتراكم ، والمكلل الذى عليه الإكليل ؟ والسليط الزيت عند عامة العرب ، وعند أهل اليمن دهن السمسم ، والذبال جمع ذبالة ، وهى الفتيلة التى تكون فى السراج .

(٣) الآطام والحصون :

وفيها دليل على أن بعض العرب في بعض ديارهم كانوا يقيمون الحصون ، ويرفعون الآطام أو الآجام ، وهي أيضاً البيوت المسقوفة . وذلك في قول امرىء القيس :

وتيماء لم يترك بها جذعَ نخلةٍ ولا أُطُماً إلاّ مشيداً بجندل(٨١)

وتيماء مدينة كثيرة النخل والتين والعنب بين حوران ومدينة الرسول عليه السلام ، يقول إن ذلك المطر لم يدع حصناً إلا ما كان مشيداً بجص وصخر فإنه سلم من المطر ، والمشيد يحتمل أن يكون المبني بالجص ، وأن يكون المطوّل .

(٤) لعب العرب :

وفيها إشارة إلى بعض اللعب التي كان يتسلى بها صبيان العرب ، ومن تلك اللعب « المخاريق » التي ذكرها عمرو بن كلثوم ، الذي ذكر من علامات خفتهم وحذقهم بالضرب أن سيوفهم تشبه « المخاريق » بأيدي الصبيان يلعبون بها ، وذلك في قوله :

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريقٌ بأيدي لاعبينا(٤٣)

وذلك أنه كانت لهم لعبة تسمى « الخطرة » ، قال في القاموس : لعب الخطرة أن يحرك « المخراق » تحريكا . وذكر صاحب المخصص أن « المخراق » منديل أو نحوه ، يلوى فيضرب به أو يلف فيفزع به . وفي القاموس : « المخراق » المنديل يلف ليضرب به . وفي اللسان : « المخاريق » واحدها « مخراق » ماتلعب به الصبيان من الخرق المفتولة ، واستشهد ببيت عمرو بن كلثوم . . وفي الحيوان للجاحظ : الخطْرة أن يعمل مخراقاً ، ثم يرمي واحد منهم من خلفه إلى الفريق الآخر ، فإن عجزوا عن أخذه رموا به إليهم ، فإن أخذوه ركبوهم . وفي محاضرات الراغب أن الخطرة هي أن يرمي أحد الفريقين بمخراق من خلفه فإن عجزوا عن أخذه رموا به إليهم ، فإن أخذوه ركبوهم[١] .

(١) انظر (لعب العرب) لأحمد تيمور ٢٤ .

ومن لعبهم « الخذروف » قال امرؤ القيس فى وصف فرصه بالسرعة :

دَرِيرٍ كخذروف الوليــد أمرَّهُ ... تتابعُ كفَّيه بخيط موَصَّلِ (٦٣)

أى أن هذا الجواد سريع الجرى كأنه فى سرعة عدوه خذروف الصبى وقد أحكمت كفاه فتل خيطه ، وتتابعت كفاه بإدارته ، ووصف الخيط بأنه موصل ، لأنه إذا كان على هذه الصفة كان الكف أملك له وأقوى على إدارته ، وكان ذلك أسرع لحركته ودورانه .

وفى القاموس أن « الخذروف » — على وزن عصفور — شىء يدوِّره الصبى بخيط ، فى يديه فيسمع له دوىّ . وفى اللسان « الخذروف » عويد مشقوق فى وسطه ، يشد بخيط و يمد فيسمع له حفيف ، وهوالذى يسمى « الخرَّارة » . وفى التهذيب أن « الخذروف » عود أو قصبة مشقوقة يفرض فى وسطها ، ثم يشد بخيط ، فإذا أمرّ دار وسمعتَ له حفيفاً ، يلعب به الصبيان ، و يوصف به الفرس لسرعته ، تقول هو يخذرف بقوائمه[١] .

ومن لعبهم « القلين » جمع قلة ، وهى خشبية يلعب بها الصبيان ، يديرونها ثم يضربون بها ، ويقال فى جمعها « قلات » أيضاً ؛ قال عمرو بن كلثوم :

وما منعَ الظعائنَ مثلُ ضربٍ ... ترى منه السَّواعد كالقُلينا (٩٠)

ومن ألعابهم « المفايلة » ، قال طرفة فى وصف السفينة :

يشقّ حبابَ الماء حيزومُها بها ... كما قسم التربَ المفايل باليد

والمفايلة لعبة لفتيان الأعراب ، يخبئون الشىء فى التراب ، ثم يقسمونه ، فإذا أخطأ المخطىء قيل له : فال رأيك ! وقال صاحب اللسان : المفايلة ، والفيال : لعبة للصبيان ، وقيل لعبة لفتيان الأعراب بالتراب ، يخبئون الشىء فى التراب ،

(١) انظر المصدر السابق ٢٥ .

ثم يقسمونه قسمين ، ثم يقول الخابئ لصاحبه : فى أى القسمين هو ؟ فإذا أخطأ قال له : فال رأيك !

قال الليث : يقال : فَيال وفِيال ، فمن فتح الفاء جعله اسما ، ومن كسرها جعله مصدرا .

وقال غيره : يقال لهذه اللعبة « الطبن » و « السدر » . وأنشد ابن الأعرابى * يبتن يلعبن حوالىّ الطبن *

قال ابن برى : والفئال من الفأل بالظفر ، ومن لم يهمز جعله من فال رأيه ، إذا لم يظفر .

(٥) خضاب الرأس :

وفى معلقة امرىء إشارة إلى أن بعضهم كان يخضب شعره بالحِنّاء ، ليخفى شيبه و يظهر بمظهر الشباب والفتوة . وفى ذلك يقول امرؤ القيس فى وصف فرسه :

كأن دماء الهاديات[1] بنحره عصارة حِنّاء بشيب مرجَّلِ (٦٧)

يصف فرسه ، فيقول : كأن دماء الوحوش على عنق هذا الفرس ما بقى من الحناء على الشعر الأشيب ، يريد أن دماء الصيد على نحره قد جفت وتراكمت لكثرتها ، وذلك كناية عن كونه كثير السعى فى طلب الصيد ، وأنه لا يفوته منها هارب . قالوا : وليس فى تقييد الشيب بكونه مرجلا فائدة ، وإنما ذكره لإقامة الوزن والقافية .

وهكذا استطاعت المعلقات أن تنهض بتصوير المجتمع العربى فى الجاهلية فى شتى مناحيه ، وأكثر جهاته ، ولعل فيها من صور المجتمع مالم نذكره لكثرته أو لإيثارنا وضعه فى موضعه من الفصل التالى :

---

(١) الهاديات المتقدمات من الوحش ، والنحر الموضع التى ينحر فيه ، أى يذبح ، وهو من الإنسان محل القلادة من العنق ، والعصارة ما سال من العصر ، وما بقى من الثفل أيضا .

الفصل الرابع

الفن الشعرى فى المعلقات

فى استطاعتنا أن نعد شعر المعلقات هو الصورة الكاملة التى انتهت إليها تجارب الفن الشعرى عند عرب الجاهلية ، بما اكتمل له من خصائص ذلك الفن كما تصوّره أولئك الشعراء فى ذلك الزمن البعيد ، بعد جهود متتابعة بذلها الشعراء فى الوصول بذلك الفن إلى درجة النضج والكمال .

ويبدو أن ذلك التصوّر الذى بدت صورته فى شعر المعلقات كان هو التصور الصحيح لحقيقة الفن الشعرى ، والدليل على ذلك أن تلك التقاليد التى أرسى قواعدها أولئك الشعراء كانت هى التقاليد التى سار عليها الشعر العربى فى سائر العصور ، ولم يستطع الخروج عليها ، إذا استثنينا بعض الصفات العرضية التى كانت تمليها الفروق الفردية بين شاعر وشاعر ، وملابسات الظروف وعوامل البيئة ، واختلاف التجارب التى كان الشعراء يعبرون عنها فى تلك العصور ، و إذا استثنينا بعض محاولات للتجديد لم تستطع أن تبعد عن تلك التقاليد ، ولم يكن لها من الأسباب مايمكنها من الرسوخ الذى يتيح لها أن تتخذ صورة التقاليد الجديدة التى تبنى على أنقاض التقاليد القديمة التى أرسى قواعدها شعراء الجاهلية ، و برزت صورتها الكاملة فى شعر المعلقات .

و إذا كان شعراء العرب فى مختلف العصور قد نظروا إلى تلك القصائد نظرتهم إلى المثال الذى يحتذونه وينسجون على منواله ، فإن النقاد أيضاً كانوا ينظرون إليها تلك النظرة ، و يتخذون منها نماذج للإجادة وللإتقان الفنى ، ويقيسون بها مايعرض عليهم من آثار الشعراء ، و يؤلفون كتبهم فى النقد على ضوء تلك

الخصائص التى فطنوا إليها فى ذلك الشعر القديم ؛ لأن الدراسة النقدية ينبغى أن تبدأ من نقطة ثابتة ، وتلك النقطة الثابتة هى مجموعة التقاليد الموروثة عن رواد الأدب القدماء الذين اعترف لهم الناس بالسبق والإجادة .

وقد فسر بعض النقاد ذلك بأن المصادر الرئيسية التى يستقى منها النقد ثلاثة ، هى : فكرة الطبيعة ، وفكرة آثار السلف ، وفكرة العقل . ولابد من الرجوع إلى هذه الثلاثة جميعاً .

ولكن ليس معنى هذا أن الأديب مطالب بأن يكون موزّعاً بين هذه الثلاثة ، لأن سلطان كل من هذه المراجع مثبت لسلطان الآخرين . فالواجب أولاً أن تتبع الطبيعة ، ولكن لكى يتسنى ذلك لابد من دراسة آثار القدماء، لأن القدماء كانوا على وفاق مع الطبيعة ، وليس هناك خلاف بين الطبيعة و بين الشعر القديم ، ودراسة شعر القدماء معناها دراسة الفن الذى ينطبق دائما على العقل ، فإن الدرس الذى نتعلمه من القدماء هو أن الشعر يجب أن يخضع للقواعد التى يمليها العقل ، فإن الطبيعة نفسها هى عين العقل ، و إذا خيّل لنا أن الطبيعة تجرى على غير سنن العقل فإن إدراكنا هو الذى ضل عن طريق الصواب .

والشعراء الأول قد صوروا عالما منطويا على العقل ، لأنهم كانوا يعرفون حقيقة الطبيعة . وقواعد الصناعة التى كانوا خاضعين لها لم تكن مما يملى على الطبيعة ، بل كانت مما يستمد من الطبيعة ، فهى قواعد استكشفت ولم تخترع ، وقوانين كانت الطبيعة هى التى أملتها ، فهى لاتنطوى إلا على حقائق طبيعية ، لأنها مطابقة للعقل(١) .

وكذلك خلف الشعراء مجموعة من التقاليد منها مايتصل بالأصول ، ونعنى بالأصول تلك التى لا يسمى الكلام شعراً بدونها . فما يعتبر أصلاً موسيقى

---

(١) قواعد النقد الأدبى ، لاسل ابركرمبى ١٦٤ .

الشعر التى تعرف بالأوزان ، وتلك الحروف التى ينتهى بها البيت الأول من القصيدة ، وتتكرر فى الموضع نفسه فى سائر أبياتها ، والتى تسمى « القافية » . وهناك فروع تشترك فى الشعر وغيره ، وإن كانت لها خصائص تختلف عنها فى غيره[1] .

وقد أطلق النقاد والعلماء على مجموع تلك التقاليد اسم « عمود الشعر » وعدّوها علامة الطبع ، ومدحوا بإصابتها ، وعابوا بالخروج عليها . وقد أحصى المرزوقى تلك الخصائص التى سميت « عمود الشعر » سبعاً ، وهى :

(١) شرف المعنى وصحته .

(٢) جزالة اللفظ واستقامته .

(٣) الإصابة فى الوصف .

ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات .

(٤) المقاربة فى التشبيه .

(٥) التحام أجزاء النظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن .

(٦) مناسبة المستعار منه للمستعار له .

(٧) مشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية ، حتى لا منافرة بينهما.

فهذه سبعة أبواب هى « عمود الشعر » ولكل باب منها معيار[2] .

وقد ذكر تلك الخصائص صاحب كتاب « البرهان فى وجوه البيان » بما يقرب مما ذكره المرزوقى ، فى قوله : والذى يسمى به الشعر فائقاً ، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنا رائقاً ، صحة المقابلة ، وحسن النظم ، وجزالة اللفظ ،

---

(١) انظر كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبى) صفحة ٣٧٤ من الطبعة الثانية .
(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٩ .

واعتدال الوزن ، و إصابة التشبيه ، وجودة التفصيل ، وقلة التكلف ، والمشاكلة في المطابقة . وأضداد هذا كله معيبة تمجها الآذان ، وتخرج عن وصف البيان[1] .

وتلك الخصائص إنما مأخذها الشعر القديم التي تعد « المعلقات » صورته المثلى كما أسلفنا . ولذلك اجتهد الشعراء في مراعاتها ، واجتهد النقاد في البحث عنها إذا ما أرادوا الحكم على ما يعرض لهم من آثار الشعراء الذين جاءوا بعد الشعراء الأول.

على أن هذه الخصائص لم تجتمع كلها لشاعر واحد من شعراء المعلقات ، وإنما أخذت من مجموع شعرهم كله ، وفي بعض شعر المعلقات ما يتعارض هو و بعض هذه الأصول في ناحية من نواحيه ، وعدّ ذلك عيباً من عيوب الشعر ، وإنما فطن لهذا العيب بمعارضته بمثله من شعر المعلقات الذي خلا من ذلك العيب .

ومن ناحية أخرى ليست هذه الخصائص السبع هي كل ما في الفن الشعري من المحاسن وليست هي وحدها مظاهر الفنيّة في ذلك الفن الجميل ، بل إن إلى جانبها خصائص أخرى ، وفي المعلقات كثير من هذه الخصائص .

ولا بد من تنظيم الدراسة الفنية في شعر المعلقات ، ولذلك نحاول البحث عن معالم تلك الفنية في النواحي الآتية :

(١) ناحية أغراض المعلقات وفنونها .

(٢) ناحية ألفاظها وأساليبها .

(٣) ناحية أوزانها وقوافيها .

(٤) ناحية معانيها وأخيلتها .

---

(١) كتاب البرهان في وجوه البيان ، المطبوع خطأ باسم « نقد النثر » ٨٤ .

١ ــ أغراض المعلقات وفنونها

وقد ذكرنا فى الفصل الثانى من هذه الدراسة أغراض كل معلقة من المعلقات السّبع على حدة ، وتتبعنا أبيات كل معلقة ، وما عبَّرت عنه من أغراض الشعر ، ويعنينا هنا أن نجمع تلك الأغراض ، ونوحِّد بينها ، وننظر إلى كل غرض منها ونتتبعه فى جميع المعلقات .

وقبل ذلك نشير إلى اختلاف الأدباء والعلماء والنقاد فى أبواب الشعر العربى. ونقل ابن رشيق عن بعض العلماء قولهم : بنى الشعر على أربعة أركان ، وهى : المدح ، والهجاء ، والنسيب ، والرثاء .

وقالوا : قواعد الشعر أربع : الرغبة ، والرهبة ، والطرب ، والغضب . فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع .

وقال على بن عيسى الرمانى : أكثر ما تجرى عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب ، والمدح ، والهجاء ، والفخر ، والوصف ــ ويدخل التشبيه والاستعارة فى باب الوصف .

وقال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سهية : أتقول الشعر اليوم ؟ فقال : والله ما أطرب ولا أغضب ولا أشرب ولا أرغب ، وإنما يجىء الشعر عند إحداهن .

وقال عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى : يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح ، والهجاء ، والحكمة ، واللهو . ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون: فيكون فى المديح المراثى والافتخار والشكر ، ثم يكون من الهجاء الذم والعتاب

والاستبطاء ، ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرب وصفة الخمر والمخمور .

وقال قوم : الشعر كله نوعان : مدح ، وهجاء .

فإلى المدح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب ، وما تعلق بذلك من محمود الوصف كصفات الحمول والآثار والتشبيهات الحسان ، وكذلك تحسين الأخلاق كالأمثال والحكم والمواعظ والزهد فى الدنيا والقناعة .

والهجاء ضد ذلك كله . غير أن العتاب حال بين حالين ، فهو طرف لكل واحد منهما ؛ وكذلك الإغراء ليس بمدح ولا هجاء[1] .

وقد بوّب أبو تمام الأشعار التى اختارها فى ديوان الحماسة فى عشرة أبواب هى (١) باب الحماسة (٢) باب المراثى (٣) باب الأدب (٤) باب النسيب (٥) باب الهجاء (٦) باب المديح (٧) باب الصفات (٨) باب السير والنعاس (٩) باب الملح (١٠) باب ذم النساء . وأهم هذه الأبواب هى الأبواب السبعة التى ذكرها أولا ، أما الأبواب الثلاثة الأخيرة فإنها تدخل فى الأبواب السبعة السابقة .

أما الأوروبيون فإن الشعر عندهم ثلاثة أبواب :

(١) الشعر الغنائى أو الوجدانى « Lyric » .

(٢) الشعر القصصى أو شعر الملاحم « Epic » .

(٣) الشعر التمثيلى أو المسرحى « Dramatic » .

والأول تعبير الشاعر عن نفسه ، ووصف أحاسيسه وعواطفه وانفعالاته . والثانى يصور أحداثا من عصور تاريخية ، ويشرح مايسود هذه العصور من

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/٧٨.

آراء وأفكار ومعتقدات . والثالث شعر يضعونه فى قصص خيالية أو واقعية تهدف إلى العظة ، وتوجيه الجماهير الوجهة النافعة لأنفسهم وأوطانهم ، وهذا الشعر يعتمد على الحوار والحركة ويصحبهما الغناء .

ولم نجد فى الشعر العربى القديم شيئاً يدل على معرفة العرب بالشعر التمثيلى، أما الشعر القصصى على هذا الوصف الذى وصفوه به فإن له آثاراً فى شعر المعلقات. وقد سبق أن فصلنا القول فيما اشتملت عليه معلقات زهير بن أبى سلمى وعنترة ابن شداد ، وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من إشارات تاريخية إلى الأحداث والوقائع التى كانت بين القبائل العربية فى العصر الجاهلى . وقد تناول زهير وعنترة بعض تلك الأحداث التى وقعت بين قبيلتى عبس وذبيان ، كما تناول عمرو ابن كلثوم والحارث بن حلزة بعض الأحداث التى كانت بين بنى بكر و بنى تغلب. وفى هذه القصائد وصف للصراع القبلى والمنافسة على المجد والغلبة بين العشائر والجماعات ، وفيها حديث عن بعض الأبطال الذين أبلوا فى تلك الوقائع من إسراع إلى الحرب والفتنة، أو من سعى إلى الصلح ، وكف الناس عن القتال . كما ذكر فى أثناء ذلك شىء من عاداتهم فى الحرب وتقاليدهم ، وقد مضى تفصيل تلك الأحداث، وما أبلى فيها أبطال العرب من ضروب البسالة والنجدة والبذل والتضحية.

على أن ذلك الذى تضمنته المعلقات من هذا القبيل لا يطابق مفهوم الشعر القصصى عندهم كل المطابقة كما هو فى منظومات هو ميروس ؛ فإن ذكر الأبطال كان يتتبع عندهم حياة البطل، ويصف الأعمال المجيدة التى استطاع القيام بها فى تفصيل و إسهاب ، وقد حيكت حول أولئك الأبطال قصص خيالية وخرافات أصبحت عقائد للناس فى تلك العصور التى صورها الشعر القصصى ؛ وليس شىء من ذلك فى المعلقات ، أو فى الشعر العربى كله ، أو فيما حفظه الزمن واستطاع أن يصل إلينا فى الأقل .

و يبقى بعد ذلك أن أكثر الشعر العربى إنما هو من الشعر الوجدانى فى تقسيم الأوربيين ، وأن هذا الشعر موزع بين الأغراض التى ذكرها علماء الأدب العربى ونقاد الشعر . وكذلك توزع شعر المعلقات بين هذه الأبواب والأغراض والفنون ، كما سنوضح ذلك فى الصفحات التالية .

(١) باب الوصف :

ولعل هذا الغرض كان أهم الأغراض التى عالجتها المعلقات ، ولم تخل منه معلقة منها ، بل إن المعلقة الواحدة تشتمل على كثير من الأوصاف لموصوفات متعددة مما وقع تحت حسّ الشعراء من مشاهد الطبيعة وصور الحياة المختلفة ، فقد وصفوا أرضهم وما فيها من الزرع والنبات والمياه ، وما على ظهرها من الوهاد والهضاب والجبال ، وما يدب عليها من صنوف الحيوان . كما وصفوا السماء وما يزينها من نجوم وكواكب ، وما يحجبها من سحب ، وما يسقط منها من غيث ، وما يلتمع فيها من برق ، كما وصفوا الليل والنهار ، ووصفوا أنفسهم فى تصرف أحوالها ، وفى رضاها وسخطها .

فما جاء فى المعلقات من صفات الحيوان قول امرىء القيس فى وصف فرسه :

وقد اغتدى والطيرُ فى وُكُناتِها — بمنجردٍ قَيْدِ الأوابد هيكلِ
مكرٍّ مِفرٍ مُقبلٍ مُدْبرٍ معاً — كجُلمود صخرٍ حطّه السيلُ من عَلِ
كُمَيْتٍ يزِلُّ اللبدُ عن حال متنه — كما زلّت الصَّفواء بالمتنزّلِ(١)
على الذبل جيّاشٍ كأنّ اهتزامهِ — إذا جاش فيه حَمْيُه غَلْىُ مِرْجَلِ(٢)

---

(١) الكميت الذى فى لونه كتمه ، وهى حمرة مشوبة بسواد . حال متن الفرس وسط ظهره . الصفواء الحجر الصلد . المتنزل المطر .

(٢) الذبل الذبول والمراد به هنا الضمور . جياش مبالغة جائش من جاش الوادى إذا ذخر ، وجاش البحر إذا اضطربت أمواجه . الاهتزام صوت جرى الفرس .

مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى ... أثرْنَ الغُبار بالكديد المركَّلِ[1]

يزلُّ الغلامُ الخِفُّ عن صَهَوَاتِه ... ويُلوِى بأثوابِ العنيفِ المثقَّلِ

دَرِيرٍ كخذروفِ الوليد أمرّهُ ... تتابع كفّيه بخيطٍ موصَّلِ

له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ ... وإرخاء سرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ[2]

ضليع إذا استدبرته سدَّ فرجَهُ ... بضافٍ فُوَيْقَ الأرضِ ليس بأعزَلِ[3]

كأنَّ على المتنين منه إذا انتحى ... مَدَاكَ عروسٍ أو صَلايَةَ حنظَلِ[4]

كأن دماء الهاديات بنحره ... عصارةُ حنّاء بشيب مُرجَّلِ[5]

فعادَى عِدَاء بين ثور ونعجةٍ ... دراكًا فلم ينضح بماء فيغسَلِ

ورُحنا يكادُ الطرْفُ يقصرُ دونَه ... متى ما ترقَّ العينُ فيه تَسفَّلِ

فباتَ عليه سرجُه ولجامُه ... وباتَ بعينى قائمًا غيرَ مُرْسَلِ

فقد وصفه فى هذه الأبيات وصفا مستقصياً ، ذكر فيه صلابة جسمه وسرعته ، وقدرته على الكرّ والفرّ والإقدام والإحجام ، على حسب ما يهوى راكبه ، ووازن بينه وبين غيره ، ووصف أجزاء جسمه ، وما يفعل براكبه إذا

---

(١) المسح السحاح ، يقال : سح الماء وغيره صبه ، وفرس سحاح كأنه يصب الجرى صبا . السابحات الخيل تعدو فتمد أعناقها تستعين بذلك على العدو كالذى يسبح فى الماء . الونى الكلال والإعياء . الكديد الأرض المكدودة بحوافر الخيل . المركل الذى كد بحوافر الدواب من الركل وهو الضرب .

(٢) أيطلا الظبى خاصرتاه . الإرخاء ضرب من العدو : التتفل ولد الثعلب .

(٣) الضليع الفرس التام الخلق . الأعزل من الخيل الذى يقع ذنبه فى جانب ، وذلك عادة لاخلقة وهو عيب ، ولذلك نفاه عنه .

(٤) انتحى اعتمد على أحد شقيه . المداك حجر يسحق عليه الطيب . الصلاية الحجر .

(٥) الهاديات المتقدمات من الوحش .

كان خفيفاً و إذا كان ثقيلا ، و بالغ فى ذلك بما شاء .

وجعل طرفة من أمانيه الثلاث ركوب فرس هذه صفاته فى قوله :

وكَرِّى إذا نادَى المُضافُ مُحنَّباً ‏ ‏ كسِيدِ الغضا نَبَّهتَهُ المتوردِ[١]

وقال لبيد يصف فرسه التى يحمى بها حيّه وعشيرته :

ولقد حميتُ الحىَّ تحملُ شِكّتى ‏ ‏ فُرُطٌ وشاحى إذ غَدَوْتُ لجامُها[٢]

فعلوتُ مرتقباً على ذى هَبْوةٍ ‏ ‏ حَرِجٍ إلى أعلامهنَّ قتامُها[٣]

حتّى إذا ألقَتْ يداً فى كافر ‏ ‏ وأجَنَّ عَوْراتِ الثغور ظلامُها[٤]

أسهلتُ وانتصبَتْ كجذع منيفةٍ ‏ ‏ جرداء يحصَرُ دُونَها جُرَّامُها[٥]

رفَّعتُها طَردَ النعام وَشلَّهُ ‏ ‏ حتّى إذا سخنتْ وخفَّ عظامُها[٦]

قلقتْ رحالتها وأسبل نحرها ‏ ‏ وابتلَّ من زَبَد الحميم حِزامُها[٧]

ترْقى وتطعنُ فى العِنانِ وتنتحى ‏ ‏ وِرْدَ الحمامةِ إذ أجدَّ حَمامُها[٨]

---

(١) المحنب الذى فى يده انحناء . السيد الذئب . الغضا شجر ، وذئاب الغضا أشد ماتكون ضراوة ، ولذلك يضرب بها المثل ، فيقال أضرى من ذئب الغضا . المتورد الوارد على الماء .

(٢) الشكة السلاح . فرط فرس متقدمة سابقة . الوشاح فوطة تحمل على العاتق .

(٣) المرتقب بالفتح المكان وبالكسر الذى يرقب أصحابه ويحميهم . الهبوة الغبرة وذو الهبوة الجبل أو الأرض المغبرة . الحرج الملتصق الثابت . القتام الغبار .

(٤) الضمير فى ألقت للشمس . الكافر الليل . أجن ستر .

(٥) أسهلت أتيت السهل . منيفة طويلة مشرفة . الجرداء النخلة التى يجرد كربها وليفها يحصر يضيق . الجرام الذين يقطعون ماعلى النخلة من التمر .

(٦) الطرد الحضر الشديد . سخنت عرقت .

(٧) قلقت اضطربت . أسبل سال . الحميم العرق ، وفى غير هذا الموضع الماء الحار .

(٨) ترقى تصعد . تطعن فى العنان تعتمد فيه . الورد الورود .

وقال عمرو بن كلثوم :

وتحملنا غداةَ الرَّوْعِ جُرْدٌ عُرِفْنَ لنا نقائذَ وافتُلِينا(١)
وَرَدْنَ دوارعاً وخرجنَ شُعْثاً كأمثالِ الرَّصائعِ قدْ بَلِينا(٢)
ورثناهنَّ عن آباء صـــدقٍ ونورثُهـــا إذا مُتنا بَنِينا

ووصف عنترة فرسه فى أكثر من موضع فى قوله موازنا بين حاله وحال صاحبته :

تمسى وتصبح فوق ظهر حشيَّةٍ وأبيتُ فوقَ سَراةِ أدهمَ مُلْجَمِ
وحشيَّتى سرجٌ على عَبْلِ الشَّوَى نَهْدٍ مَراكِلُه نبيلِ المحْزَمِ(٣)

ويصفه فى مواقف القتال بقوله :

إذ لا أزالُ على رِحالةِ سابحٍ نَهْدٍ تعاوَرَهُ الكُماةُ مُكَلَّمِ(٤)
طَوْراً يجرَّد للطعـــانِ وتارةً يأوِى إلى حَصِدِ القِسِىِّ عَرَمْرَمِ(٥)

وقوله :

يدعون عنـــترَ والرماحُ كأنَّها أشطانُ بئرٍ فى لَبانِ الأدهمِ(٦)

---

(١) النقائذ جمع نقيذة أى استنقذت من قوم آخرين . افتلين اصطفين وانتقين .

(٢) الدارع الذى عليه الدرع ، ودروع الخيل مايجعل عليها من الكساء . الرصائع جمع رصيعة عقدة العنان على قذال الفرس .

(٣) العبل الضخم . الشوى الأطراف والقوائم . النهد العالى المشرف . المراكل جمع مركل موضع الركل وهو الضرب بالرجل . النبيل السمين . المحزم موضع الحزام من جسم الدابة .

(٤) تعاوره الكماة ضربوه واحداً بعد واحد ،

(٥) حصد القسى جيش كثير القسى . العرمرم الكثير .

(٦) الأشطان جمع شطن وهو حبل البئر . اللبان الصدر .

مازلتُ أرميهم بثُغرةِ نحرهِ ولَبانهِ حتى تسربلَ بالدمِ

فازورَّ من وقع القنا بلَبانهِ وشكا إلىَّ بعَبْرةٍ وتحمحمِ (١)

لو كان يدرى ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو علم الكلامَ مُكلمى

أما الناقة فقد شغل وصفها جزءاً ظاهراً من معلقة طرفة ، وذلك فى قوله :

وإنى لأُمضى الهمَّ عند احتضاره بعوجاء مِرْقالٍ تروحُ وتغتدى (٢)

أمونٍ كألواحِ الإرانِ نصأتُها على لاحبٍ كأنه ظهرُ بُرْجُدِ (٣)

جماليّةٍ وجناء تَرْدِى كأنها سَفَنَّجةٌ تبرِى لأزعرَ أربدِ (٤)

تُبارى عتاقاً ناجياتٍ وأتبعتْ وَظيفاً وَظيفاً فوقَ مَوْرٍ مُعبَّدِ (٥)

تربعت القُفَّيْن فى الشول ترتعى حدائق مَوْلِىِّ الأسِرّةِ أَغْيَدِ (٦)

---

(١) ازورمال . الحمحمة صوت الفرس كأنه الشكوى .

(٢) أمضى أنفذ . الهم العزم والإرادة . احتضاره حضوره . العوجاء الناقة الضامر . مرقال من الإرقال وهو ضرب من المشى بين السير والعدو .

(٣) أمون مأمون عثارها . الإران تابوت الموتى كانوا يحملون فيه ساداتهم وكبراءهم . نصأتها زجرتها . اللاحب الطريق المنقاد لاحزونة فيه . البرجد كساء مخطط .

(٤) جمالية تشبه الجمل فى قوة أعضائها ووثاقة خلقها . الوجناء العظيمة الوجنات . تردى ترجم الأرض بحوافرها أو تسير بين العدو والمشى . تبرى تعرض . السفنجة النعامة . الأزعر ذكر النعام . الأربد الذى لونه كلون التراب .

(٥) ناجيات جمع ناجية وهى السريعة فى سيرها . العتاق الكرام . الوظيف مابين الرسغ الى الركبة . المور المستوى لأنه يمار عليه أى يتحرك ذهابا وإيابا .

(٦) تربعت أقامت . القفان تثنية قف وهو ما غلظ من الأرض وارتفع فلم يبلغ أن يكون جبلا ، والقف وادمن أودية المدينة . الشول جمع شائلة وهى التى قل لبنها وتقلص ضرعها . المولى الذى أصابه الولى وهو المطر الثانى من أمطار السنة، لأنه يلى الوسمى وهو المطر الأول . الأسرة جمع سرأفضل عل فى الوادى . الأغيد فى الأصل الوسنان المائل العنق ، والمراد به هنا لين الخلق .

تَرِيعُ إلى صوت المُهِيب وتَتَّقِي ... بذى خُصَلٍ رَوْعَاتِ أكلفَ مُلْبِدِ (١)

كأنَّ جَناحَيْ مَضْرَحِيٍّ تَكَنَّفا ... حِفافَيْه شُكَّا فى العَسِيبِ بِمِسْرَدِ (٢)

فطوراً به خلفَ الزَّمِيلِ وتارةً ... على حَشَفٍ كالشَّنِّ ذاوٍ مُجَدَّدِ (٣)

لها فَخِذانِ أُكْمِلَ النحضُ فيهما ... كأنَّهما بابا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ (٤)

وطَيٌّ مَحَالٍ كالحَنِيِّ خُلُوفُه ... وأجرِنَةٌ لُزَّتْ بِدَأْىٍ مُنَضَّدِ (٥)

كأنَّ كِناسَيْ ضالةٍ يَكْنِفانِها ... وأطْرَ قِسِيٍّ تحت صُلْبٍ مُؤَيَّدِ (٦)

لها مِرفقانِ أفتلانِ كأنَّها ... تَمُرُّ بسَلْمَيْ دالجٍ متشدِّدِ (٧)

كقنطرةِ الرُّوميِّ أقسمَ ربُّها ... لتُكْتَنَفَنْ حتى تُشادَ بقَرْمَدِ (٨)

---

(١) تريع ترجع . المهيب الداعى . ذو خصل الذنب . روعات فزعات . الأكلف من الجمال ما كانت حمرته شديدة يشوبها سواد . الملبد الذى يضرب بذنبه من الهياج حتى تلبد بوله عليه .

(٢) المضرحى النسر المتيق أو الصقر الطويل الجناح . شكا غرزا . العسيب الذنب . المسرد مايخرز به .

(٣) الزميل الرديف . الحشف الضرع البالى . الشن القربة الخلق . الذاوى الذابل . المجدد المقطع أى الذى انقطع لبنه .

(٤) النحض اللحم المكتنز . المنيف العالى . ممرد مملس مصقول أو مطول .

(٥) الطى البئر المطوية أى المبنية . المحال فقار الظهر . الخلوف مآخير الأضلاع واحدها خلف الأجرنة مقدم أعناق الإبل . لزت ألصقت الرأى من البعير الموضع الذى تقع عليه ظلفة الرحل فتعقره .

(٦) الكناس البيت الذى يتخذه الوحش فى أصل شجرة . الضالة شجرة السدر البرى الأطر العطف . مؤيد مقوى .

(٧) المرفق موصل الذراع من العضد . أفتلان متباعدان عن جنبيها . السلم الدلو لها عروة واحدة . الدالج الذى يمشى بالدلو من رأس البئر إلى الحوض حتى يفرغها فيه . المتشدد الشديد القوى .

(٨) لتكتنفن ليحاطن بها . القرمد ضرب من الحجارة يوقد عليها حتى إذا نضج قرمد به أى طلى ، وهو الذى يعرف بالجير أو الكلس ؛ أو هو الآجر .

صهابية العُثنونِ موجَدَةُ القَرَا ... بعيدةُ وخد الرِّجل موّارةُ اليدِ (١)

أُمِرَّتْ يداها فَتْلَ شزْرٍ وأجنحتْ ... لها عضداها فى سقيفٍ مسنَّدِ (٢)

جَنُوحٌ دفاقٌ عَنْدَلٌ ثم أُفْرِعَتْ ... لها كتفاها فى مُعَالًى مصعَّدِ (٣)

كأنَّ علوبَ النسع فى دَأْياتها ... مواردُ من خلقاء فى ظهر قَرْدَدِ (٤)

تَلاقَى وأحيانًا تبينُ كأنها ... بنائقُ غرٌّ فى قميص مُقَدَّدِ (٥)

وأتلعُ نهَّاضٌ إذا صعَّدَتْ به ... كسكّان بوصِىٍّ بدجلة مُصْعِدِ (٦)

وجمجمةٌ مثل العَلاة كأنما ... وَعَى الملتقَى منها إلى حرْف مِبْرَدِ (٧)

وخدٌّ كقرطاس الشآمى ومشفرٌ ... كسِبْتِ اليمانى قدُّه لم يُجَرَّدِ (٨)

وعينـــــان كالمـــاويَّتين اســتكنَّتا

بكهفَىْ حجاجَىْ صَخْرَةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ (٩)

---

(١) صهابية فى لونها صهبة . العثنون شعيرات طوال تحت حنك البعير. موجدة قوية القرا الظهر . موارة كثيرة المور وهو الحركة .

(٢) أمرت يداها أى فتلتا فتلا محكما ، والفتل الشزر ما كان إلى فوق، خلاف دور المنزل الإجناح الإمالة : المسند الذى أسند بعضه إلى بعض :

(٣) جنوح تعتمد على أحد شقيها ، دفاق أى تتدفق فى سيرها . العندل الضخمة الرأس أفرعت أشرفت ورفعت . معالى مصعد أى جسم مرفوع بعيد عن الأرض .

(٤) العلوب الآثار جمع علب . النسع السير ينسج عريضا ليكون على صدر البعير . الدأيات خرزات مقدم الظهر . الموارد طريق الوراد إلى الماء . الخلقاء الصخرة التى ليس فيها وصم ولا كسر . القردد الأرض المستوية الصلبة .

(٥) البنائق جمع بنيقة لبنة القميص أو جربانه .

(٦) الأتلع العنق الطويل. النهاض كثير النهوض. البوصى ضرب من السفن. مصعد سائر

(٧) العلاة السندان . وعى انضم واجتمع .

(٨) المشفر للبعير كالشفة للانسان. السبت جلد البقر إذا دبغ بالقرظ. لم يجرد أى من شعره

(٩) الماويتان تثنية ماوية وهى المرآة . الحجاج العظم الذى ينبت عليه الحاجب . القلت النقرة تسكون فى الصخرة .

طحوران عوّار القذى فتراهما كمكحولتي مذعورة أمّ فرقد (١)
وصادقتا سمع التوجّس للسّرى لهجس خفيّ أو لصوت مندّد (٢)
مؤلّلتان تعرف العتق فيهما كسامعتى شاة بحومل مفرد (٣)
وأروع نبّاض أحذّ ململم كمرداة صخر في صفيح مصمّد (٤)
وأعلم مخروت من الأنف مارن عتيق متى ترجم به الأرض تزدد (٥)
وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوىّ من القدّ محصد (٦)
وإن شئت سامى واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد (٧)

وفي هذا من الدقة والاستقصاء في الوصف ما لا نرى له كثيراً من الأمثلة عند أمهر الشعراء الوصافين ، فقد أتى على شرح أحوال الناقة في سيرها وحركاتها ، وفصّل أجزاء جسمها ، وشبهها بتلك التشبيهات التي تضيف إلى الوصف المقصود أوصافاً أخر ، لا تقل عنه جودة ولا استقصاء .

ولبيد قادر على قطع من يتلاعب بهواه ، ومن يصله إذا شاء ويصرمه إذا أراد :

---

(١) طحوران من الطحر وهو الدفع والإبعاد . العوار والقذى واحد وهو الرمص الذي يكون في العين . كمكحولتي مذعورة بقرة وحشية أريعت. الفرقد ولد البقرة الوحشية .

(٢) التوجس التسمع إلى الصوت الخفي . الهجس الصوت الخفي المندد العالي .

(٣) المؤلل المحدد . الشاة هنا الثور الوحشي .

(٤) الأروع الفؤاد الذكي . النباض الكثير الحركة . أحذ خفيف . ململم مجتمع المرداة الصخرة التي تردى بها الصخور أي تكسر بها . المصمد المحكم الموثق .

(٥) أعلم أي مشفر أعلم ، والأعلم المشقوق الشفة العليا . المخروت المثقوب المارن ما لان من قصبة الأنف . عتيق جميل . ترجم تضرب .

(٦) الإرقال بين السير والعدو . الملوى المفتول . القد سير يقد من جلد غير مدبوغ .

(٧) الكور الرحل بأداته . عامت سبحت . بضبعيها : بعضديها . النجاء الإسراع في السير . الخفيدد ذكر النعام .

بطليح أسفارٍ تركن بقيّةً منها فأحنق صُلبها وسنامُها[1]

وإذا تغالى لحمُها وتحسّرتْ وتقطعتْ بعد الكلال خدامُها[2]

فلها هِبابٌ فى الزِّمام كأنّها صهباءُ خفَّ مع الجنوب جَهامُها[3]

ثم يأخذ فى تشبيهها بحمار الوحش ، ويستطرد فى وصفه ، حتى يصبح ذلك غرضا آخر من أغراض معلقته ؛ إلى أن يقول :

فبتلك إذ رقص اللوامعُ بالضُّحَا واجتابَ أرديةَ السّراب إكامُها[4]

أقضى اللبانة لا أفرّط ريبـةً أو أن يلومَ بحاجةٍ لوّامُها

وعنترة يستبعد الوصول إلى ديار حبيبته على مثل الناقة التى وصفها بتلك الأوصاف :

هلْ تُبلغَنّى دارَها شدنيّةٌ لُعنت بمحروم الشراب مصرَّم[5]

خطّارةٌ غبَّ السُّرى زيّافةٌ تطِسُ الإكامَ بوخد خفٍّ ميثم[6]

---

(١) الطليح : الذى أجهده السير وأهزله . أحنق : ضمر ورق .

(٢) تغالى لحمها ارتفع وذهب. تحسرت: انكشفت عظامها . الخدام جمع خدمة سير يشد فى رسغ البعير .

(٣) الهباب النشاط . الصهباء : سحابة فى لونها صهبة أى حمرة . خف : أسرع . الجهام السحاب : الذى لا ماء فيه .

(٤) رقص ارتفع وانخفض . اللوامع : الآل . اجتاب : لبس . الإكام جمع أكمة وهى المكان المرتفع .

(٥) الشدنية منسوبة إلى شدن أرض باليمن . لعنت قذفت ورميت . محروم الشراب: ضرع لا لبن فيه . مصرم مقطع .

(٦) خطارة من خطر البعير بذنبه إذا شال به . زيافة : من الزيف وهو التبختر . تطس تكسر . خف ميثم : شديد الوطء ، كأنه يثم الأرض أى يدقها .

ثم يشبهها بالظليم ، ويستطرد فى وصفه ، حتى يستأنف وصف الناقة فى قوله :

شربتْ بماء الدُّحرُضين فأصبحتْ زوراء تنفر عن حياض الديلم(١)
وكأنما تنأى بجانب دفها الـ وحشىّ من هَزِج العشىّ مؤوَّم(٢)
هرّ جنيب كلّما عطفتْ لهُ غضبَى اتقّاها باليدين وبالفم(٣)
أبقىَ لها طولُ السفار مقرمداً سنداً ومثل دعائم المتخيَّم(٤)
بركتْ على جنب الرِّداع كأنّما بركتْ على قصَبٍ أجشَّ مهضّم(٥)
وكأنّ رُبّا أو كُحَيْلاً مُعْقَداً حشّ الوقودُ به جوانبَ قُمْقُم(٦)
ينباعُ من ذِفرَى غضوبٍ جَسْرةٍ زيّافةٍ مثل الفنيق المُكدَم(٧)

والحارث بن حلزة يستعين على همه كما استعان طرفة على همّه بناقة هذه أوصافها :

غير أنى قد أستعين على الهمّ (م) إذا خفّ بالثوىّ النجاء(٨)

---

(١) الدحرضان : ماءان يقال لأحدهما «دحرض» وللآخر «دسيع» فلما ثناهما غلب أحدهما على الآخر . الديلم الأعداء وإن كانوا عربا عند الأصمعى ، وحياض الديلم مياه معروفة عندهم . زوراء : مائلة .

(٢) الدف الجنب . الوحشى من البهائم الجانب الأيمن ، والأنسى الجانب الأيسر . الهزج تدارك الصوت . المؤوم العظيم القبيح من الرءوس .

(٣) الجنيب المجنوب :

(٤) القرمد الذى لزم بعضه بعضا كأنه مبنى بالآجر سندا عاليا .

(٥) الرداع : مكان . المهضم : المكسر .

(٦) الرب : الدبس . الكحيل القطران . المقعد الذى أوقد تحته حتى انعقد وغلظ . الوقود الحطب . حش أوقد . القمقم إناء .

(٧) ينباع ينبع . الذفريان عرقان مشرفان وراء الأذنين . جسرة : ضخمة . زيافة من الزيف وهو التبختر . الفنيق هو الفحل . المكدم: الغليظ .

(٨) خف : ذهب ومضى . الثوى: المقيم . النجاء: الانطلاق.

بزَفوفٍ كأنها هِقْـــلَةٌ أمّ (م) رئالٍ دوّيّةٌ سَقْفاء[١]

آنستْ نبأةً وأفزعها القنـــ (م) اصُ عصْراً وقددنا الإمساءُ[٢]

فترى خلفها من الرّجع والوَقْـ (م) ع مَنيناً كأنه أهْباءُ[٣]

وطِراقاً من خلفهنّ طِراقٌ ساقطاتٌ ألْوَتْ بها الصحراءُ[٤]

أتلهّى بهـــا الهواجر إذ كلُّ (م) ابن همٍّ بليّةٌ عمياءُ[٥]

ووصف لبيد حمر الوحش ، وما يعرف من حركاتها وعاداتها ، وذلك فى معرض وصف ناقته ، بعد أن شبهها بالسحابة الجهام التى تصرفها الرياح ، واستطرد إلى تشبيهها بحمر الوحش فى قوله .

أو مُلمعٌ وسقتْ لأحقبَ لاحَهُ طردُ الفحولِ وضربها وكدامُها[٦]

يعلو بها حَدَبَ الإكام مُسَحّجٌ قد رابه عصيانُها ووحامُها[٧]

بأحِزّةِ الثَلَبُوتِ يربأ فوقَها قفرَ المراقب خوفها آرامُها[٨]

حتى إذا سلخا جُمادى ستةً جَزْءاً فطال صيامُه وصيامُها[٩]

---

(١) الزفوف الناقة السريعة الخفيفة. الهقلة : النعامة. الرئال : فراخ النعام. دوية: منسوبة إلى الدو ، وهو الأرض الواسعة البعيدة الأطراف . السقفاء : التى فى رجلها انحناء .

(٢) آنست أحست . النبأة : الصوت الخفى.

(٣) المنين الغبار الدقيق .

(٤) الطراق أطباق النعل . ألوت بها أبلتها .

(٥) الهواجر أنصاف النهار . البلية الناقة التى تعقل على قبر الميت حتى تموت .

(٦) ملمع من ألمعت الفرس والأتان إذا أشرقت ضروعها للحمل واسودت حلمتاها . وسقت حملت . الأحقب حمار الوحش . لاحه غيره . الكدام العض .

(٧) حدب الإكام ما احدودب منها . المسحج الحمار المعضض . الوحام الشهوة .

(٨) أحزة جمع حزيز المكان الغليظ . الثلبوت واد أو أرض بين طيء وذبيان . يربأ يرقب . الآرام أعلام الطريق .

(٩) سلخا مر عليهما برمته ، والسالخ آخر الشهر . جمادى ستة: جمادى الآخرة لأنه السادس من شهور السنة العربية ، وجمادى خمسة جمادى الأولى لأنه الخامس منها ، وقد كان شهر جمادى يقع فى الشتاء والبرد فحيث أطلقوه أرادوا به زمن الشتاء ، وإن لم يقع فيه . جزءا أى اجتزاء بالرطب عن الماء .

رجعا بأمرهما إلى ذى مِرَّةٍ حَصِيدٍ ونجحُ صريمةٍ إبرامُها(١)
ورمى دوابرَها السَّفا وتهيجتْ ريحُ المصايف سَوْمُها وسهامُها(٢)
فتنازعا سبطاً يطيرُ ظلالُه كدخان مشعلةٍ يُشَبُّ ضِرامُها(٣)
مشمولةٍ غلثَتْ بنابت عَرْفَجٍ كدخانِ نار ساطع إسنامُها(٤)
فمضى وقدَّمها وكانت عادة منه إذا هى عرَّدتْ إقدامُها(٥)
فتوسطا عُرْضَ السَّرِىِّ وصدَّعا مسجورة متجاوراً قلاَّمُها(٦)
محفوفةً وسطَ اليراعِ يُظِلُّها منه مصرَّعُ غابةٍ وقيامُها(٧)

وفى بعض المعلقات وصف لبقر الوحش التى كانوا يركبون لصيدها ، ويتسابقون لإدراكها ، ويشبهون بها نساءهم . ومن وصف بقر الوحش فى معلقة امرىء القيس :

فعنَّ لنا سربٌ كأنَّ نعاجَه عذارى دُوَارٍ فى ملاء مذيَّلِ(٨)
فأدبرْنَ كالجَزْعِ المفصَّل بينَهُ بجيد مُعَمٍّ فى العشيرة مخولِ(٩)

---

(١) المرة القوة ، أى أمر محكم . حصد محكم . الصريمة العزيمة .
(٢) الدوابر مآخير الحوافر . السفا شوك شجر البهمى ، والسفا التراب . المصايف جمع مصيف وهو الصيف . سومها مرورها . السهام ريح حارة .
(٣) السبط الغبار المرتفع .
(٤) مشمولة هبت عليها ريح الشمال . غلثت خلط وقودها . العرفج نبت . إسنامها ما ارتفع منها .
(٥) عردت تركت الطريق وعدلت عنه .
(٦) العرض الناحية . السرى النهر الصغير . صدعا شققا النبت الذى على الماء . المسجورة العين المملوءة . القلام نبت يكون على الأنهار .
(٧) محفوفة محاطة . اليراع القصب .
(٨) النعاج الإناث من بقر الوحش . الدوار صنم كان أهل الجاهلية إذا نأوا عن الكعبة نسبوه وطافوا حوله تشبها بالطواف حول الكعبة .
(٩) الجزع الخرز اليمانى ، وهو الذى فيه بياض وسواد تشبه به الأعين . المفصل الذى جعل بين كل خرزتين منه لؤلؤة .

فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها في صرّةٍ لم تزيّلِ (1)
فعادَى عِداءً بين ثور ونعجة دِراكاً ولم ينضح بماء فيغسَلِ

وقال لبيد في وصف البقرة الوحشية في حالة ذعرها، ووجدها على ولدها، ووصف الطبيعة وما تفعل بها، والصيادين وختلهم إياها:

أفتلك أم وحشيّة مسبوعةٌ خذلَتْ وهادية الصّوار قوامُها (2)
خنساء ضيّعتِ الفريرَ فلم يَرِمْ عُرْضَ الشقائق طوْفُها وبُغامُها (3)
لمعفّرٍ قَهدٍ تنازَعَ شِلْوَهُ غُبْسٌ كواسبُ لا يُمَنّ طعامُها (4)
صادفن منها غِرّةً فأصبْنَها إنّ المنايا لا تطيشُ سهامُها
باتتْ وأسبَلَ واكفٌ من ديمةٍ يُرْوِي الخمائلَ دائماً تسجامُها
يعلُو طريقةَ متنها متواترٌ في ليلةٍ كفر النجومَ ظلامُها
تجتاف أصلاً قالِصاً متنبِّذا بعجوب أنقاءٍ يميلُ هيامُها (5)
وتضيء في وجه الظلام مُنيرةً كجمانة البحريّ سُلّ نظامُها (6)

---

(1) الجواحر جمع جاحرة وهي المتأخرة. الصرة الضجة والصيحة. لم تزيل لم تتفرق.

(2) الوحشية البقرة الوحشية. المسبوعة التي أكل السبع ولدها. خذلت تأخرت عن القطيع. هادية الصوار التي تهديه أي تتقدمه. الصوار القطيع من البقر. قوامها الذي تقوم به.

(3) الخنساء من الخنس وهو تأخر الأنف وقصره أن يبلغ الشفة. الفرير ولد البقرة. لم يرم لم يبرح. الشقائق جمع شقيقة الأرض الغليظة بين رملتين. الطوف الطواف. البغام صوت تختلسه البقرة اختلاساً.

(4) المعفر الذي أرضع مرة وترك أخرى ليعود على الفطام، والمعفر الذي عفر بالتراب. القهد ضرب من الضأن. غبس جمع أغبس من الغبسة وهي صفرة إلى سواد. كواسب تكسب ما تأكل.

(5) تجتاف تدخل فيه وتستكن في جوفه. قالصا أي مرتفعا قد تقلص وليس بمسترسل. المتنبذ المتفرق. العجوب جمع عجب وهو آخر كل شيء. الأنقاء جمع نقا وهو ما ارتفع من الرمل. الهيام ما ينهال من الرمل ولم يتماسك.

(6) الجمانة خرزة تعمل من فضة أراد بها اللؤلؤة، ولذلك أضافها إلى البحري.

حتى إذا حَسَرَ الظلامُ وأسفرَتْ بكرتْ تزلُّ عن الثرى أزلامُها[1]
عَلِهَتْ تَردَّدُ في نِهاءِ صُعائدٍ سبعاً تؤاماً كاملا أيَّامُها[2]
حتى إذا يئستْ وأسحقَ حالقٌ لم يُبْلِه إرضاعُها وفطامُها[3]
فتوجَّستْ رِزَّ الأنيس فراعَها عن ظهر غيب والأنيسُ سَقامُها[4]
فغدتْ كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافةِ خلفُها وأمامُها[5]
حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غُضْفاً دواجنَ قافلاً أعصامُها[6]
فلحقن واعتكرتْ لها مدرِيَّة كالسمهرية حدُّها وتمامُها[7]
لتذودهن وأيقنت إن لم تَذُدْ أنْ قد أحمَّ مع الحتوف حِمامُها[8]

وفي بعض المعلقات وصف للظباء والآرام والنعام ، وإنما اكتفينا من صفات الحيوان بما مرّ لأنه هو الذي توالت فيه الأبيات ، حتى أصبح غرضاً متميزاً بين الأغراض التي اشتملت عليها المعلقات .

وأما وصف الديار ورسومها فقد عنى به أصحاب المعلقات ، حتى صار هذا

---

(١) الأزلام في الأصل قداح الميسر وأراد بها هنا القوائم .

(٢) العله خفة من جزع . نهاء جمع نهى وهو المكان الذي له حاجز يمنع الماء أن يفيض . صعائد اسم مكان . تؤام جمع توءم .

(٣) اسحق أخلق . الحالق الضرع الملآن .

(٤) التوجس تسمع الصوت الخفي . الرز — ويروى بدله ركز — وهما الصوت الخفي .

(٥) فغدت من الغدو ، ويروى نعدت من العدو . الفرجان تثنية فرج ، وهو الجهة . مولى المخافة أولى بالمخافة .

(٦) الغضف الكلاب المسترخية الآذان . الدواجن المعودة على الصيد . قافلا يابسا . الأعصام جمع عصام سير من الجلد يكون في العنق .

(٧) اعتكرت رجعت . مدرية بقرة لأن لها مدرى أي قرنا . السمهرية القناة الشديدة أو الرماح الطوال .

(٨) أحم قدر — ويروى أجم — أي حان وقوعه .

الوصف تقليداً جرى عليه عامة الشعراء فى مطالع قصائدهم ، ومن ذلك قول امرىء القيس فى مطلع معلقته :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ
فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها   لما نسجتْها من جنوب وشمألِ
ترى بعر الآرام فى عرصاتها   وقيعانها كأنه حب فلفلِ
وإن شفائى عَبرة مهراقة   فهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعوّلِ

وقول طرفة فى مطلع معلقته :

لخولةَ أطلال ببُرقة ثهمدِ   تلوحُ كباقى الوشمْ فى ظاهر اليدِ

وقول زهير فى مطلع معلقته :

أمن أمّ أوفى دمنةٌ لم تكلّم   بحومانة الدراج فالمتثلمِ
ودار لها بالرقتين كأنها   مراجيع وشم فى نواشر معصمِ (١)
بها العينُ والأرآمُ يمشين خلفة   وأطلاؤها ينهضن من كل مجثمِ (٢)
وقفتُ بها من بعد عشرين حجة   فلأيا عرفتُ الدار بعد توهمِ
أثافىّ سُفْعاً فى معرّس مِرجل   ونُؤيا كجذع الحوض لم يتثلمِ (٣)

---

(١) الرقتان تثنية رقة وهى الروضة ، والرقتان إحداهما قرب المدينة والأخرى قرب البصرة ، أرادو لها دار بينهما. المراجيع جمع مرجوع وهو المعاد المكرر. النواشر عصب الذراع واحدها ناشرة ، المعصم موضع السوار من الذراع .

(٢) العين البقر الوحشية واحدتها عيناء . الأرآم الظباء الخالصة البياض، واحدها رئم. خلفة إذا ذهب منها فوج خلفه آخر . الأطلاء جمع طلا ، وهو ولد الظبية والبقرة . المجثم محل الجثوم وهو القعود .

(٣) الأثافى جمع أثفية، وهى الحجارة التى تنصب عليها القدر. سفع سود يخالطها حمرة . معرس المرجل موضعه والمرجل القدر. النؤى حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخله الماء أو حفير حول الخباء يمنع دخول المطر .

فلما عرفت الدار قلتُ لربعها ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلمِ

وقول لبيد فى مطلع معلقته :

عفت الديار محلّها فمقامُها بمِنًى تأبّد غَوْلها فرجامُها[1]
فمدافع الريان عرّى رسمها خَلَقاً كما ضمن الوُحِيّ سِلامُها[2]
دمن تجرّم بعد عهد أنيسها حججٌ خلَوْنَ حلالها وحرامها[3]
رُزقتْ مرابيع النجوم وصابها ودقُ الرواعد جودها فرهامُها[4]
من كل سارية وغاد مدجن وعشية متجاوب إرزامُها[5]
فعلا فروع الأيهقان وأطفلت بالجلهتين ظباؤها ونعامُها[6]
والعينُ ساكنة على أطلائها عوذاً تأجل بالفضاء بهامُها[7]
وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زُبُرٌ تجدّ متونَها أقلامُها[8]

---

(١) المحل مكان الحلول ، والمقام موضع الإقامة. تأبد توحش. منى والغول والرجام مواضع .

(٢) الخلق القديم البالى . الوحى جمع وحى ووحى ووحاة الكتابة والمكتوب والإشارة والرسالة والمراد هنا الأول . السلام جمع سلمة الحجارة .

(٣) تجرم الشىء انقضاؤه بجملة أجزائه . الحجج السنون. حلالها وحرامها أيام السنة منها الحلال ومنها الحرام ، فالحرام القعدة والحجة والمحرم ورجب ، وماعداها حلال .

(٤) المرابيع الأمطار تكون فى أول فصل الربيع . النجوم الأنواء ، وإنما أضافها إليها لأنها تهيج عندها صابها أصابها. الودق المطر الرواعد السحائب. الجود المطر الغزير. الرهام المطر الضعيف .

(٥) السارية السحابة . المدجن المطبق قد استوعب أقطار السماء . الإرزام التصويت

(٦) الأيهقان عشب له وردة حمراء ورقه عريض. أطفلت صار لها أطفال. الجلهتان ناحيتا الوادى جعل علما على موضع .

(٧) العوذ جمع عائذ الحديثات النتاج من الظباء وكل أنثى . تأجل تصير آجالا ، والآجال جمع إجل وهو القطيع من بقر الوحش. البهام جمع بهم وبهمة أولاد الضأن والمعز والبقر .

(٨) الزبر جمع زبور، وهو الكتاب. تجد تعيده جديداً المتون الظهور أراد بها الكتابة

أو رجعُ واشمة أسف نئورها كِفَفًا تعرض فوقهن وشامُها[1]
فوقفت أسألها وكيف سؤالُنا صُمًّا خوالد مايبين كلامُها
عَرِيَتْ وكان بها الجميع فأبكرُوا منها وغودر نؤيها وثمامُها[2]

ومطلع معلقة عنترة :

هل غادر الشعراء من متردَّم أم هل عرفت الدار بعد توهم
أعياك رسم الدار لم يتكلَّم حتى تكلم كالأصمِّ الأعجمِ
ولقد حبستُ بها طويلا ناقتى أشكو إلى سُفْعٍ رواكد جُثَّمِ
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصَّمانِ فالمتثلمِ
حييتَ من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعدَ أم الهيثمِ
حلت بأرض الزائرين فأصبحتْ عسِرًا علىَّ طلابُك ابنة مَخْرَمِ[3]
كيف المزار وقد تربع أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغيلمِ[4]
ما راعنى إلا حمولة أهلها وسط الديار تسفُّ حبَّ الخمخمِ[5]
فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأسحمِ[6]

وفى مطلع معلقة الحارث بن حلزة :

آذنتنا ببينها أسماءُ ربَّ ثاوٍ يملُّ منه الثواءُ

---

(١) أسف زر . النئور الكحل الذى ترشه الواشمة على مواضع الغرز . الكفف دارات تكون فى الوشم . الوشام غرز الإبرة فى اللحم حتى يظهر الدم .

(٢) الثمام نبت ضعيف له خوص تحشى به خصاص البيوت ، واحده ثمامة .

(٣) الزائرون الأعداء الذين يزأرون عليه من أجلها .

(٤) تربع أهلها نزلوا وقت الربيع . الغيلم وعنيزتان موضعان .

(٥) الخمخم آخر مايبس من النبات .

(٦) الحلوبة التى تحلب . الأسحم الأسود .

بعد عهد لنا ببرقة شما ء فأدنى ديارها الخلصاء
فالمحياة فالصفاح فأعنا ق فتاق فعاذب فالوفاء
فرياض القطا فأودية الشر بب فالشعبتان فالأبلاء
لا أرى من عهدت فيها فأبكى الـ يوم دلها وما يحير البكاء (١)
وبعينيك أوقدت هند النا ر بعود كما يلوح الضياء
فتنورت نارها من بعيد بخزازى هيهات منك الصلاء (٢)

ووصف امرؤ القيس البرق والمطر وما يفعل بالجبال والوديان والديار والطيور والسباع فى قوله :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليدين فى حبى مكلل (٣)
يضىء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل (٤)
قعدت له وصحبتى بين ضارج وبين العذيب بعدما متأمل
على قطن بالشيم أيمن صوبه وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء حول كتيفة يكب على الأذقان دوح الكنهبل (٥)
ومر على القنان من نفيانه فأنزل منه العصم من كل منزل (٦)
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطما إلا مشيداً بجندل

---

(١) دلها : أى باطلا وضياعا . يحير يرد .

(٢) الصلاء : النار .

(٣) الحبى : السحاب للتراكم .

(٤) السليط : الزيت . الذبال : جمع ذبالة وهى الفتيلة التى تكون فى السراج .

(٥) الكنهبل : ضرب من الشجر

(٦) القنان : اسم جبل لبنى أسد . نفيان المطر ونفيه : ماينفيه ويرشه . العصم جمع أعصم ، وهو الوعل الجبلى

كأن ثبيرًا في عرانين وبله ... كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مزمّلِ (١)
كأن ذرا رأس المجيمر غُدوةً ... من السيل والغثاء فلكةُ مغزلِ (٢)
وألقى بصحراء الغبيط بعاعَهُ ... نزول اليماني ذي العياب المحملِ (٣)
كأنّ مكاكيّ الجواء غديّة ... صبحن سُلافًا من رحيقٍ مُفلفلِ (٤)
كأن السباع فيه غرقى عشيّة ... بأرجائه القصوى أنابيش عُنصلِ (٥)

ويصف عنترة في معلقته الروضة والمطر الذى نزل عليها في معرض وصف ثغر حبيبته ، وما ينبعث منه من طيب الرائحة ، وذلك في قوله :

أو روضةً أُنُفًا تضمّن نبتَها ... غيثٌ قليل الدِّمنِ ليس بِمَعْلَمِ (٦)
جادتْ عليها كلُّ عينٍ ثرّةٍ ... فتركن كل قرارة كالدرهمِ (٧)
سحًّا وتسكابًا فكلّ عشيّةٍ ... يجرى عليها الماء لم يتصرّمِ (٨)

---

(١) ثبير جبل بمكة . عرانين جمع عرنين، وهو من كل شيء أوله . البجاد كساء مخطط من أكسية الأعراب .

(٢) الغثاء مايحمله السيل . فلكة المغزل الخشبة المستديرة التى تكون على رأس المغزل

(٣) بعاعه ثقله وحمله

(٤) المكاكى جمع مكاء بالمد والتشديد ضرب من الطير . صبحن سلافا سقين السلاف في وقت الصبح

(٥) الأنابيش أصول النبات لأنها ينبش عنها والواحدة أنبوشة . العنصل البصل البرى

(٦) الروضة الأنف التى لم يرعها أحد . تضمن نبتها غيث أى ضمن إنبات نبتها . الدمن السرجين والبعر أى أن هذه الروضة في مكان حر الطين ، وقيل المراد أن المطر قليل اللبث لم يدمن عليها فهو أطيب لرائحتها . ليس بمعلم أى ليس بمعروف فيقصد ، وإنما هو فى فياف من الأرض .

(٧) العين : المطر لا ينقطع خمسة أيام أو ستة . الثرة : الكثيرة . القرارة : مستقر الماء فى الوادي .

(٨) السح : صب المطر . التسكاب : السكب . لم يتصرم : لم ينقطع .

وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ غرِداً كفعل الشّارب المترنمِ
هزجاً يحكُّ ذراعَه بذراعِـه قدحَ المكبِّ على الزنادِ الأجْذَمِ (١)

أما وصف الخمر ووصف مجالس شربها فقد سبق الكلام فيه عند كلامنا على المجتمع العربى كما صورته المعلقات ، وتجد نصوصه هناك (٢) .

ومن أوصاف مظاهر الطبيعة فى البادية ماورد فى معلقة امرئ القيس من قوله من وصف الليل ووحشته ، والشكوى مما يحسّ من ثقله وتطاوله :

وليلٍ كموج البحر أرخَى سُدوله علىّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لمّا تمطّى بصُلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل (٣)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ (٤)
فيالك من ليل كأنّ نجومَه بكلِّ مُغار الفتل شُدَّتْ بيذبُلِ (٥)
كأن الثريّا علقَتْ فى مصامها بأمراسِ كتانٍ إلى صُمِّ جندلِ (٦)

وهكذا تزخر المعلقات بفن الوصف الذى تناول معظم ماوقعت عليه أعينهم من مظاهر الطبيعة ، وألوان مشاهدها . وفيما سقناه من الشواهد كفاية للدلالة على عنايتهم بهذا الفن ، واقتدارهم عليه .

* * *

(١) هزج : سريع الصوت متداركه . المكب على الشىء المقبل عليه بكليته . الأجذم المقطوع اليد وهو صفة المكب . الزناد حجر القداح .

(٢) انظر هذا الكتاب من صفحة ٢٦٨ إلى صفحة ٢٧٤ .

(٣) تمطى : امتد واستطال . الكلكل : الصدر .

(٤) الانجلاء : الانكشاف . الأمثل : الأفضل .

(٥) مغار الفتل : محكمه . يذبل : اسم جبل فى بلاد نجد .

(٦) مصامها : موضع وقوفها . الأمراس : الحبال . الجندل الحجارة .

(٢) باب النسيب :

وهنا تتوارد علينا كلمات تتقارب فى مفهومها، وتتشابك فى دلالتها. وهذه الكلمات الثلاث هى : النسيب ، والغزل ، والتشبيب .

وتلك الكلمات الثلاث عند أكثر علماء العربية ألفاظ مترادفة ، وكلها تدلّ على التعبير عن عاطفة الحب ووصف المحبوب . قال ابن رشيق : والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد(١) .

وعنده أن التغزل غير الغزل، لأن الغزل هو إلف النساء ، والتخلق بما يوافقهنّ فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ .

وقال قدامة بن جعفر : إن كثيراً من الناس يحتاج إلى أن يعلم أولا ما النسيب؟ ونحن نحده فنقول : إن النسيب ذكر الشاعر خلق النساء وأخلاقهن ، وتصرف أحوال الهوى به معهن . وقد يذهب على قوم أيضاً موضع الفرق ما بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتقده الإنسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهنّ من أجله . فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه . والغزل إنما هو التصابى والاستهتار بمودات النساء . ويقال فى الإنسان إنه « غزل » إذا كان متشكلا بالصورة التى تليق بالنساء ، وتجانس موافقاتهن حاجته إلى الوجه الذى يجذبهن إلى أن يملن إليه . والذى يميلهن إليه هو الشمائل الحلوة ، والمعاطف الظريفة ، والحركات اللطيفة ، والكلام المستعذب والمزاح المستغرب ، ويقال لمن يتعاطى هذا المذهب من الرجال والنساء «متشاجٍ» وإنما هو « متفاعل » من « الشجا » أى متشبه بمن قد شجاه الحب(٢) .

وخلاصة قول قدامة هذا أن « الغزل » معنى ، وأن « النسيب» هو العبارة عن هذا المعنى ، وأن الغزل مؤثر ، وأن النسيب هو الأثر ، أو هو صياغة أثر

---

(١) العمدة ٢/٩٤ .

(٢) نقد الشعر ٦٥ طبعة بريل بليدن ، بتحقيق المستشرق س . ا . بونيبا كر .

اللوعة التي يجدها العاشق المستهام في ألفاظ وعبارات[١] .

وعند بعض الباحثين أن « الغزل » هو الاشتهار بمودات النساء ، وتتبعهن والحديث إليهن ، والعبث بذلك في الكلام ، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة .

وأما « التشبيب » فهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام ، ومايضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ، ومساءلة الأطلال ، توخيا لتعليق القلوب ، وتقييد الأسماع ، قبل المفاجأة بغرضه من الكلام .

وأما « النسيب » فهو أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى ، وما يصفه من التجنّي ، وما يعرض له من ذكر محاسن النساء . وهو بلا شك مظهر الرقة وينبوع السلاسة في الشعر العربي ، إذ كان حديثا عن هذه الآلام العذبة ، ودموعاً تنحدر من أجفان الكلام[٢] .

وإذا رجعنا إلى المعاني اللغوية لهذه الكلمات الثلاث في معجم كالقاموس وجدنا :

(١) « مغازلة النساء » محادثتهن ، والاسم « الغَزَل » ، و « التغزُّل » التكلف له ، و « الغَزِل » المتغزِّل بهن[٣] .

(٢) و « التشبيب » النسيب بالنساء[٤] .

(٣) وذكر صاحب القاموس : نَسَبَ بالمرأة نسباً ونسيبا ونَسِيبَة : شبَّب بها في الشعر[٥] .

وهذه المعاني يلاحظ أن معنى « النسيب » فيها هو معنى « التشبيب » ،

---

(١) انظر كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبي) الطبعة الثانية ٣٤٤ .
(٢) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي للأستاذ محمد هاشم عطية ١٠٧ .
(٣) القاموس المحيط ٤/٢٤ .
(٤) القاموس المحيط ١/٨٥ .
(٥) القاموس المحيط ١/١٣١ .

وأن كل واحد منهما قد عرِّف بالآخر . وأن « الغزل » هو التحدث إلى النساء ، من غير اشتراط للتعبير عن ذلك فى صورة من الصور الأدبية .

ولذلك تكون محاولة التفريق بين النسيب والتشبيب، وتخصيص التشبيب بذكر المرأة فى مطالع القصائد تمهيداً للغرض المقصود ، وتنبيها للمسامع لتصغى إلى ما بعده ، محاولة غير مجدية ما دام الذين قد ذكروا هذين اللفظين ووصفوا بهما الشعر لم يحاولوا التفريق بينهما ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى لم يوجد فى الاستعمال اللغوى مايشعر بالفرق بينهما . وعلى هذا فلا مناص من اعتبار اللفظين من قبيل المترادف الذى يتعدد فيه اللفظ ويتحد المعنى (١) .

وكذلك استعمل النقاد كلمة « الغزل » فى المعانى التى استعملوا فيها كلمتى « النسيب » و « التشبيب » . ولا فائدة ترجى من محاولة التفريق أو التخصيص ما دام المعنى واحداً فى استعمالاتهم . وإن كان تخصيص كل لفظ بمعنى من المعانى من علامات نضج اللغة واتساعها ، ولكن الصعوبة تأتى من ناحية الاستعمال ، إلا إذا كان فى استطاعتنا العودة إلى ما كان ، وتعديله على الوجه الذى يحصل به التخصيص المراد .

حقّا ، لقد أصبح ذكر المرأة فى مطالع القصائد تقليداً جرى عليه الشعراء ، وفيهم من لم يعالج الحب ، ومن لم يتعلق قلبه بهوى وصبابة ، وكان جديراً أن يخصص هذا التقليد بلقب أو لفظ يصطلح عليه ، وليكن ذلك المصطلح لفظ « التشبيب » أو غيره . ولكن ما الحيلة وقد وجدنا المعنى اللغوى والاستعمال الأدبى لايساعداننا على تحقيق هذا الأمل ؟

---

(١) ذكر ابن رشيق (العمدة ٢/١٠٢) أن اشتقاق التشبيب يجوز أن يكون من الجلاء، يقال شب الخمار وجه الجارية، إذا جلاه، ووصف ما تحته من محاسنه، فكأن الشاعر قد أبرز هذه الجارية فى صفته إياها ، وجلاها للعيون ، ومنه الشب الذى تجتلى به وجوه الدنانير ويستخرج غشها .

وعلى كل حال فإن ذكر المرأة قد شغل مكانا بارزاً فى أكثر المعلقات ، فوصف شعراؤها هواهم ، وعبروا عن عواطفهم تجاه هذه المرأة ، كما وصفوا كثيراً من محاسنها التى كانت تأخذ بقلوبهم ، ووصفوا من طولها وعرضها ولونها وشعرها وعينيها وصدرها وطيبها وحديثها ما كانوا يشتهون ، كما وصفوا بحثهم عنها ، ودبيبهم إليها، فى تحفظ وعفة ، وفى غير تحفظ أو عفة أيضاً. وفى سبيل ذلك وصفوا ديارها ومقامها وظعنها ، و بكوا أطلالها ومن ذلك فى معلقة امرئ القيس:

أفاطم مهلاً بعض هـذا التـدلل ... وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأجملى

أغرك منى أن حبـك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعلِ

وأنك قسّمت الفؤاد فنصفهُ ... قتيلٌ ونصف بالحديد مكبّلِ

وإن تكُ قد ساءتك منى خليقةٌ ... فسُلّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ (١)

وما ذرفتْ عيناك إلا لتضربى ... بسهميك فى أعشار قلبٍ مقتّلِ (٢)

إلى أن يقول :

مُهفهَفَةٌ بيضاء غيرُ مُفاضَـةٍ ... ترائبها مصقولة كالسَّجنجلِ (٣)

كبِكر المقاناةِ البياض بصُفرةٍ ... غذاها نميرُ الماء غيرُ المحلَّلِ (٤)

تصدُّ وتبدِى عن أسيلٍ وتتّقى ... بناظرةٍ من وحش وجرةَ مُطْفِلِ (٥)

---

(١) الثياب ما يلبس على البدن ، والمراد هنا البدن نفسه . تنسل تبين وتتباعد .

(٢) ذرفت العين : سال دمعها ، والسهمان العينان شبههما بالسهمين الرقيب والمعلى من قداح الميسر . وللرقيب ثلاثة أسهم والمعلى عشرة ، وجزور الميسر يقسم عشرة أقسام من خرج له هذان السهمان فقد فاز بجميع أجزائه .

(٣) مهفهفة غير مثقلة لطيف خصرها ضامر بطنها. المفاضة : العظيمة البطن أو المضطربة فى طولها . الترائب جمع تريبة وهى محل القلادة من الصدر . السجنجل المرآة رومية معربة ، وأبو عبيدة يرويه بالسجنجل ويقول السجنجل الزعفران .

(٤) بكر المقاناة أراد به بيضة النعامة لأن بياضها يخالطه صفرة قليلة . والمقاناة الخلط .

(٥) الخد الأسيل الذى فى طوله امتداد . المطفل التى لها طفل .

وجيدٍ كجيد الرئم ليس بفاحشٍ إذا هي نصّته ولا بمعطّلِ (١)
وفرعٍ يزينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنو النخلة المتعثكلِ (٢)
غدائرُه مستشزراتٌ إلى العُلا تضلّ العقاصُ في مثنًّى ومُرْسَلِ (٣)
وكشحٍ لطيفٍ كالجديل مخصّرٍ وساقٍ كأنبوبِ السَّقِيِّ المُذلَّلِ (٤)
وتُضحِي فتيتُ المسكِ فوق فراشها نئومُ الضحا لم تنتطقْ عن تفضُّلِ
وتعطو برخصٍ غير شَثْنٍ كأنّه أساريعُ ظبيٍ أو مساويكُ إسْحِلِ (٥)
تُضِيء الظلامَ بالعشاء كأنّهـا منارةُ مُمْسَى راهبٍ متبتّلِ
إلى مثلِهـا يرنُو الحليمُ صبابةً إذا ما اسبكرّتْ بين دِرْعٍ ومِجْوَلِ (٦)
تسلّتْ عماياتُ الرجالِ عن الصِّبا وليس فؤادِي عن هواكِ بمُنْسَلِ
ألا رُبَّ خصمٍ فيك ألوى رددتُه نصيحٍ على تعذاله غير مؤتلِ (٧)

---

(١) النص الرفع . المعطل الذى لا حلى فيه .

(٢) الأثيث الكثير . القنو العذق ويقال لها الكباسة . المتعثكل الذى دخل بعضه فى بعض لكثرته .

(٣) مستشزرات مرتفعات . العقاص جمع عقيصة ، وهى الخصلة المجموعة من الشعر . المثنى الذى رد بعضه على بعض . المرسل الذى ترك على استرساله

(٤) الكشح جانب الخاصرة . الجديل خطام يتخذ من الجلد . المخصر الدقيق الوسط . الأنبوب ما بين العقدتين من القصب . السقى المسقى .

(٥) تعطو تتناول . الرخص الناعم . الشثن الغليظ الخشن . الأساريع دواب رملية . ظبى موضع . الإسحل شجرة دقيقة أغصانها فى استواء .

(٦) اسبكرت اعتدلت واستقامت . الدرع قميص المرأة . المجول ثوب للنساء ، أو للصغيرة منهن خاصة .

(٧) ألوى شديد الخصومة . النصيح الناصح . التعذال المبالغة فى العذل . غير مؤتل غير مقصر .

ومن أوصاف المرأة فى المعلقات قول طرفة :

وفى الحىِّ أحوى ينفضُ المردَ شادنٌ مُظاهِرُ سِمْطَىْ لُؤلُؤٍ وزبرجدِ [١]

خَذُولٌ تُرَاعِى ربربا بخميلة تناولُ أطراف البَرِير وترتدِى [٢]

وتبسمُ عن ألْمَى كأنّ منوِّرًا تخلّل حُرَّ الرمل دِعْصٌ له ندِ [٣]

سقته إياةُ الشمسِ إلا لِثَاتِه أُسِفَّ ولم تكدِمْ عليه بإثمدِ [٤]

ووجهٌ كأنّ الشمسَ حلَّتْ رداءها عليه نقىُّ اللونِ لم يتخـــدَّدِ [٥]

ومن أوصافها قول عمرو بن كلثوم فى معلقته فى تشبيه أعضائها ووصف الحنين إليها :

تُرِيكَ إذا دخلتَ على خَلاءٍ وقد أمنتْ عيونَ الـكاشحينا [٦]

ذراعَىْ عيطلٍ أدماء بِـكْرٍ هجانِ اللونِ لم تقرأ جنينا [٧]

وثديًا مثل حُقِّ العاجِ رخصًا حَصانًا من أكفِّ اللامسينا [٨]

---

(١) الأحوى الظبي فى ظهره حمرة تضرب إلى السواد . المرد ثمر الأراك . الشادن الغزال إذا تحرك واشتد واستغنى عن أمه . المظاهر الموالى بين شيئين . السمط الخيط الذى تنظم فيه الجواهر .

(٢) خذول ظبية خذلت صواحباتها فتخلفت عنهن وأقامت على ولدها . الربرب القطيع من الظباء وبقر الوحش . البرير ثمر الأراك إذا أدرك .

(٣) ألمى من اللمى وهو سمرة فى الشفة . المنور الأقحوان . الحر الخالص من كل شيء . الدعص الكثيب من الرمل . الندى الذى أصابه الندى .

(٤) إياة الشمس ضوؤها . اللثة اللحم الذى تنبت عليه الأسنان . أسف بأثمد أى ذر عليه . الكدم العض .

(٥) رداء الشمس ضوؤها . لم يتخدد لم يتشقق .

(٦) الـكاشح العدو لأنه يولى من عادى كشحه أى جانبه .

(٧) العيطل الطويلة من النوق . الأدماء البيضاء الخالصة البياض . البكر من النوق التى ولدت بطنا واحدا ، ويروى بفتح الباء وهو الشاب من الإبل . الهجان الأبيض . الجنين الحمل ما دام فى بطن أمه .

(٨) العاج عظم الفيل . رخصا طريا ناعما . حصانا عفيفة .

ومتنَىْ لَدْنَةٍ سَمَقَتْ وطالتْ ... روادفُها تنـــوء بما وَلِينا(١)

ومأ كمةً يضيقُ البـــابُ عنها ... وكشحاً قد جُننتُ به جنونا(٢)

وساريتى بلنطٍ أو رُخــــامٍ ... يرنُّ خَشَاشُ حليهما رنينا(٣)

فما وجدتْ كوَجْدى أمُّ سَقْبٍ ... أضلَّتْهُ فـــرجَّعتِ الحنينا(٤)

ولا شمطاء لم يترك شقاهـــا ... لها من تسعـــةٍ إلا جنينا(٥)

تذكرتُ الصِّبا واشتقتُ لمَّا ... رأيتُ حُمُولهَا أُصُلاً حُدينا(٦)

ومنها ما وصف به عنترة صاحبته عبلة فى أبيات متفرقة من معلقته :

دارٌ لآنسـةٍ غضيضٍ طرفُهـــا ... طوعِ العنـــاق لذيذة المتبسَّمِ

إذ تَستَبِيكَ بذى غروبٍ واضح ... عذبٍ مقبَّلُه لذيذ المطعمِ(٧)

وكأنما نَظرتْ بعيْنَى شادنٍ ... رَشَإٍ من الغزلانِ ليس بتوأمِ(٨)

وكأنَّ فارة تاجرٍ بقسيمةٍ ... سبقتْ عوارضُها إليك من الفمِ(٩)

تمْسِى وتصبح فوق ظهر حشيَّةٍ ... وأبيتُ فوقَ سَرَاةِ أدهمَ مُلْجَمِ

---

(١) لدنة لينة، وهو صفة موصوف محذوف أى قامة لدنة. سمقت طالت . تنوء تنهض فى تثاقل .

(٢) المأكمة رأس الورك .

(٣) السارية الأسطوانة . البلنط العاج

(٤) السقب الذكر من أولاد الناقة . أضلته فقدته .

(٥) الشمطاء العجوز ، والشمط بياض شعر الرأس .

(٦) الحمولة الإبل التى يحمل عليها . أصلا عشيا ، قيل إنه مفرد ، وقيل هو جمع أصيل . حدينا حدتها الحداة .

(٧) تستبيك تذهب بعقلك . ذو غروب أى ثغر ذو غروب . وهو جمع غرب ، وغرب كل شىء حده . واضح أبيض ، والوضح البياض .

(٨) الشادن ولد الظبى ، والرشأ الظبى إذا تحرك ومشى ، ليس بتوأم أى ولد مفردا فالعناية به أتم وأكمل .

(٩) الفارة وعاء المسك . التاجر هنا العطار . القسيمة سوق المسك ، أو العير التى تحمل المسك . العوارض الضواحك أراد بها الأسنان كلها .

(٣) باب الفخر

وهذا الغرض من أهم الأغراض التي برزت فى المعلقات ، إذ كان من طبيعة العربي التباهي بما أوتى من كثرة المال والعدد ، و بقدرته على البذل والإنفاق وحماية الأولياء ، والنيل من الأعداء ، كما كان من طبيعته الزهو برفعة الآباء والأجداد، وبما حصلوا من أسباب السيادة والمجد ، ليصل المجد الطارف المكتسب بالمجد التليد الموروث .

ومن الممكن أن يقسم ذلك الفخر قسمين :

القسم الأول : الفخر بالنفس :

و يبدو هذا فى اعتداد الشعراء بقوتهم وفتوتهم و كرمهم ونجدتهم ، وفى حديثهم عن الشجاعة التى خاضوا بها معامع القتال ، وانتصروا بها على أعدائهم فى صدق وصبر وثبات .

وقد فخر امرؤ القيس بما يلائم حياته اللاهية ، و بأنه استطاع أن يسبي من النساء من كانت قليلة الرغبة فى الرجال ، و بأنه يستطيع الدبيب إلى حيث يهوى من غير خشية أو إشفاق من الأحراس الحراص على مقتله إن هم رأوه فى مثل حالته من الاعتداء على الحرمات . وذلك من شأن أرباب الفراغ واللهو والخلاعة من طبقة المترفين الذين لايشغلهم شيء من جد القول والعمل ، وهو ماتمثله معلقته بأسرها ، فكلها لهو وصيد ، ووصف مستقص للهوه وصيده .

وفخر طرفة بأنه الفتى المرجوّ لكشف الغمّة إذا بحث القوم عن الذى يستطيع كشفها .

إذا القوم قالوا: مَنْ فتًى؟ خلت أنني عُنيت فلم أكسلْ ولم أتبلد

وبأنه لا يخفى عن طالب نجدة أو طالب عطاء ، فحيثما التمسته وجدته ، فى حلقة القوم حيث يجتمعون للشورى ، أو فى حوانيت الخمارين للهو والقصف.

ولست بحلال التـــلاع مخافةً ولـكن متى يسترفد القوم أرفد(١)
فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد(٢)

وبأن شهرته طبقت أحياء العرب ، فأصبح يعرفه الفقراء كما يعرفه السادة ، ويعرفه الصعاليك كما يعرفه المياسير ، أما الأولون فلإحسانه إليهم ، وأما الآخرون فلمنادمته لهم على الشراب :

رأيت بنى غبراء لا ينـكروننى ولا أهل هذاك الطراف الممدَّد(٣)

وبأنه إن دعى إلى الخطوب الجسام كان ممن يحمى فيها ويمنع ، وإن دهم الأعداء قومه فقاتلوهم بأقصى جهودهم دفعهم عنهم بأقصى جهده ؛ وهو يتغنى ببسالته فى قوله :

وإن أُدعَ للجلَّى أكنْ من حُماتها وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهدِ
وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسقهم بشرب حياض الموت قبل التهدُّدِ
أنا الرجل الضربُ الذى تعرفونه خشاشٌ كرأس الحيَّة المتوقد(٤)
فآليتُ لاينفكَّ كشحى بطانةً لعضبٍ رقيق الشفرتين مهند(٥)

---

(١) التلاع مجارى الماء من رءوس الجبال إلى الأودية. يسترفد القوم يطلبون رفده أى عطاءه.

(٢) الحوانيت بيوت الخمارين ، والحوانيت أيضا الخمارون .

(٣) الغبراء الأرض ، وبنو غبراء الفقراء المحاويج . الطراف قبة من جلد . الممدد الممدود بالأطناب .

(٤) الضرب الخفيف . الخشاش الرجل الماضى .

(٥) الـكشح : الجنب . العضب : السيف القاطع . شفرتا السيف : حداه . المهند : المنسوب إلى الهند .

إذا ابتدر القومُ السّلاح وجدتني منيعاً إذا بَلّتْ بقائمه يدى[1]

كما تغنى طرفة بكرمه ، وفخر بندماه وقينته ، وكره إذا نادى المضاف ، وطلبه المتعة فى يوم الدجن ؛ مما سبقت الإشارة إلى كثير منه .

وفخر لبيد بحزمه ، وقدرته على وصل من يواصله ، وقطع من يهجره :

أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصّال عقد حبائل جذّامُها

ترّاك أمكنة إذا لم أرضَها أو يعتلق بعض النفوس حِمامُها

ثم يفخر بمعاقرته الخمر ، وقدرته على شراء أندرها وأغلاها ، وأنه فى الغداة الباردة يدفع عن نفسه وندمائه بردها بالشرب والطرب[2] ، كما يفخر بمقامرته على الإبل من أجل الفقراء الذين لا يجدون من يكسب لهم[3] .

وأكثر ما فى معلقة عنترة فخر بنفسه ، وبما أبدى من ضروب البسالة فى ميادين الوغى ، وبشربه الخمر ، وإتلافه ماله فيها وفى العطاء فى حال سكره وفى حال صحوه :

أثنى علىّ بما علمت فإننى سهل مخالقتى إذا لم أظلمِ

فإذا ظُلمتُ فإن ظلمى باسلٌ مُرٌّ مذاقته كطعم العلقمِ

ولقد شربتُ من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلمِ

فإذا شربت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلمِ

وإذا صحوت فما أقصرى عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرُّمى

---

(١) ابتدروا السلاح عجلوا إليه وتبادروا . المنيع الذى لا يوصل إليه . بلت ظفرت وتمكنت . قائم السيف مقبضه .

(٢) الأبيات (٥٧ — ٦٢) من المعلقة ، وانظر صفحتى ٢٧٢ و ٢٧٣ من هذا الكتاب .

(٣) الأبيات (٧٣ — ٧٧) من المعلقة ، وانظر صفحة ٢٧٩ من هذا الكتاب .

وعنترة من فرسان العرب المعدودين ، وقد فخر بهذه الفروسية ، كما فخر بها امرؤ القيس ، غير أن فروسية عنترة كانت فى اقتحام الصفوف والكر على الأعداء ، على حين أن فروسية امرئ القيس كانت فى الصيد والقنص . ومن قول عنترة موازنا حال حبيبته عبلة بحاله :

تمسى وتصبح فوق ظهر حشية ... وأبيتُ فوق سَراة أدهم ملجمِ
وحشيّتى سرجٌ على عبل الشوى ... نهدٍ مَرَاكِلُهُ كُله نبيلِ المحزَمِ

إلى أن يقول :

هلاَّ سألتِ الخيل يا ابنة مالكٍ ... إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمى
إذ لا أزال على رحالة سابحٍ ... نَهْدٍ تعاوره الكماةُ مكلَّمِ
طوراً يجرّد للطّعان وتارة ... يأوى إلى حصد القسىّ عرمرمِ

ويفخر بغشيانه ميادين الوغى ، وعفته عن المغانم التى يكسبها ، إذ أنه لا يحارب من أجلها ، ولكنه يحارب شجاعة وذياداً عن الحمى والجماعة التى ينتسب إليها :

يخبرْك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنمِ
فأرى مغانم لو أشاء حويتُها ... فيصدّنى عنها الحيا وتكرّمى

القسم الثانى : الفخر بالجماعة :

وكما كان العربى حريصاً على إبداء مفاخره ، فإنه أكثر حرصاً على بعث مفاخر قومه ، والإشادة بها ، إذ كان تمجيد الفرد لنفسه تمجيداً للجماعة التى ينتسب إليها ، كما كان تمجيد الجماعة زيادة فى ميراث الشرف عند الأفراد ، ووصلاً للأمجاد بعضها ببعض ، طريفها وتليدها ، موروثها ومكتسبها . ولذلك كان

الفخر بالقبيلة من الأغراض البارزة فى شعر المعلقات ، حتى إن بعض شعراء المعلقات نسوا أنفسهم ، ولم يتحدثوا عن محمدة واحدة كسبوها ، أو مجد حصّلوه، ولـكنهم آثروا الحديث عن أسلافهم ، ورأوا مجد الجماعة فوق مجد الفرد ، وأن الأمجاد لايلدون إلاّ ما جداً .

ولا ينسى طرفة بعد أن فخر بنفسه كما فخر أن يؤكد فخره بنسبته إلى بيت معدود مقصود من بيوتات العرب ، و بأنه فى الذروة والسنام من بيوت قبيلته ، وذلك فى قوله :

وإنْ يلتق الحىُّ الجميع تلاقنى ... إلى ذروة البيت الرفيع المصمّد(١)

ومن فخر لبيد بقومه :

إنا إذا التقت المجامع لم يزلْ ... منّا لزاز عظيمةٍ جشّامُها(٢)

ومقسّم يعطى العشيرة حقّها ... ومغذمرٌ لحقوقها هضّامُها(٣)

فضلاً وذو كرم يُعين على الندى ... سمح كسوبُ رغائبٍ غنّامُها(٤)

من معشر سنّت لهمْ آباؤهمْ ... ولـكلّ قومٍ سنّةٌ وإمامُها

لايطبعون ولا يبور فعالهم ... إذ لايميل مع الهوى أحلامُها(٥)

---

(١) الحى القبيلة . الجميع المجتمع . ذروة كل شىء أعلاه . المصمد المقصود الذى يقصده الناس بحوائجهم .

(٢) لزاز عظيمة أى يلز بها ليذلها . جشامها من التجشم ، وهو تـكلف ما فيه عسر .

(٣) المغذمر ، قال الأصمعى : المغذمر الذى يضرب بعض حقوق الناس ببعض فيأخذ من هذا ويعطى هذا ، وقال أبو عبيدة : هو الذى لا يعصى ولا يرد . الهضام الذى ينقص قوما ويعطى قوما بتدبير ، وقد وثق به فى ذلك .

(٤) معناه يفعل ذلك رغبة فى الفضل ، وذو كرم مرفوع على معنى ومنا ذو كرم . السمح السهل الأخلاق . كسوب رغائب أى يغنمها من أعدائه ، أو يكسب الرغائب من المحامد.

(٥) لا يطبعون أى لا تدنس أعراضهم . لايبور فعالهم أى لا يهلك .

وإذا الأمانةُ قسّمتْ في معشرٍ · أوفَى بأوفرِ حظنـــا أقسامُها

فبنـــوا لنا بيتاً رفيعاً سَمكُهُ · فسماَ إليه كهلُها وغلامُها(١)

وهمُ السّعاةُ إذا العشيرةُ أُفظِعتْ · وهمُ فوارسُها وهمْ حُكّامُها(٢)

وهمُ ربيعٌ للمجاور فيهمُ · والمرملات إذا تطاول عامُها(٣)

وهمُ العشيرةُ أن يبطِّئَ حاسدٌ · أو أن يميل مع العدوِّ لئامُها(٤)

أما عمرو بن كلثوم فإن جلّ فخره إنما هو بقبيلته ، و بالآباء والأجداد الذين ينتسب إليهم والذين وصفهم بالكرم والشجاعة ، والقدرة على الثأر لأنفسهم ، والصبر في لقاء الأعداء ، والنصر الذي يحرزونه في كل لقاء ، وأكثر قصيدته مجال فسيح للاستشهاد ، ولكننا نكتفي هنا ببعض فخره الذي يتصل بوصف المعارك الحربية ، وما أبلى فيها قومه ، كقوله :

نطاعن ما تراخى الناس عنـــا · ونضربُ بالسّيوف إذا غُشينا

بسُمرٍ من قَنا الخطّيِّ لُدْنٍ · ذوابلَ أو ببِيضٍ يعتلِينا(٥)

كأنّ جماجم الأبطـــال فيها · وُسُوقٌ بالأماعز يرتمينا(٦)

نشقّ بها رءوسَ القوم شقا · ونخليها الرقاب فتختلينا(٧)

ورثنا المجد قد علمتْ معدٌّ · نطاعنُ دونه حتى يبينا

---

(١) فبنوا : يعنى الآباء . السمك : الارتفاع .

(٢) أفظعت حل بها أمر عظيم فظيع .

(٣) هم بمنزلة الربيع فى الخصب لمن جاورهم ، والمرملات اللاتى لا أزواج لهن ، واللواتى قد مات أزواجهن .

(٤) هم العشيرة التى لا يقدر حاسد أن يبطىء الناس عنهم بسوء قول منهم .

(٥) الخطى منسوب إلى الخط مرفأ بالبحرين ، لدن لينة ، ذو ابل فيها بعض يبس لم تجف كل الجفاف فتنشق إذا طعن بها .

(٦) الوسوق جمع وسق وهو الحمل ، الأماعز جمع أمعز ، وهو مكان غليظ ذو حصى .

(٧) نخليها الرقاب ، أى نجعلها كالخلا وهو الحشيش . تختلين تقطعن .

ونحنُ إذا عمادُ الحىّ خرّت ... على الأحفاض نمنع من يلينا(١)
نجذّ رءوسَهم فى غير برّ ... فما يدرونَ ماذا يتّقُونا
كأن سيوفنا فينا وفيهم ... مخاريق بأيدى لاعبينا(٢)
كأن ثيابنا منّا ومنهم ... خضِبْنَ بأرجُوانٍ أو طلينا(٣)
إذا ماعىّ بالإسناف حىٌّ ... من الهول المشبَّهِ أن يكونا(٤)
نصبْنا مثل رَهْوَةَ ذات حدٍّ ... محافظةً وكنا السّابقينا(٥)
بشبانٍ يرونَ القتل مجداً ... وشِيبٍ فى الحروب مجرّبينا
حُدَيّا الناسِ كلّهم جميعاً ... مقارعةً بنيهم عن بنينا(٦)
فأمّا يومَ خشيتنا عليهم ... فتصبُح خيلُنا عُصَباً ثُبينا(٧)
وأما يومَ لانخشى عليهم ... فنمعنُ غارةً متلبِّبينا(٨)
برأسٍ من بنى جُشَمَ بن بكرٍ ... ندقّ به السّهولةَ والحزونا(٩)

---

(١) الأحفاض جمع حفض وهو المتاع .
(٢) المخاريق جمع مخراق وهو ثوب يفتل ويلعب به . وانظر ما سبق فى صفحة ٢٩٢ .
(٣) خضبن صبغن . الأرجوان صبغ أحمر شديد الحمرة . والمراد بالثياب العذبات التى تربط بأطراف الرماح .
(٤) عى عجز . الإسناف الإقدام . الهول الرعب . المشبه أن يلتبس الأمر عليهم فلا يعلمون كيف يتوجهون له .
(٥) رهوة اسم جبل . ذات حد ذات قوة . شيب جمع أشيب .
(٦) حديا اسم من التحدى طلب المباراة . المقارعة المضاربة .
(٧) عصبا — جمع عصبة — جماعات . الثبون الجماعات من الناس أو الخيل غير متفرقة ، مفردها ثبة بضم الثاء .
(٨) أمعن فى الأمر أبعد فيه وأوغل . التلبب التحزم بالسلاح والاستعداد للأمر .
(٩) الرأس الحى لا يحتاج إلى معونة ، أو الرأس رئيس القوم وسيدهم . السهولة الأرض الحزون جمع حزن بفتح الحاء وسكون الزاى : الأرض الغليظة الوعرة ، والمراد الضعاف من الناس والأشداء منهم .

وينتقل عمرو بن كلثوم من هذا الفخر ببسالة قومه إلى الحديث عن آبائه وأجداده الذين ورثوا أمجادهم :

فهل حدِّثتَ فى جُشَمَ بن بكر ... بنقص فى خطوب الأوَّلينا
ورثنا مجد علقمة بن سَيْفٍ ... أباح لنا حصونَ المجد دينا[1]
ورثتُ مهلهلاً والخير منهم ... زهيراً نعم ذُخرُ الذاخرينا
وعتَّاباً وكلثوماً جميعاً ... بهم نلنا تراث الأكرمينا
وذا البُرَةِ الذى حدثت عنه ... به نُحمَى ونَحمى المُحجَرينا[2]
ومنَّا قبله الداعى كليبٌ ... فأىُّ المجد إلا قد ولينا

وهؤلاء رجال يعرفهم العرب بالنجدة والإسراع إلى القتال غير مبالين بأهوال الحروب ، حتى لقد وصفهم أبو عمرو الشيبانى ووصف قبيلة تغلب بن وائل بأنها كانت من أشد الناس فى الجاهلية . وقالوا : لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب الناس[3] ! وكان علقمة بن سيف هو الذى أنزل بنى تغلب الجزيرة ، وكان مهلهل صاحب حرب وائل التى تسمى حرب البسوس أربعين سنة ، وهو جد عمرو بن كلثوم من قبل أمه ، وكان زهير جدّه من قبل أبيه ، وكذلك عتاب ، وكعب بن زهير الذى لقبوه بذى البُرة ، لأنه كان على أنفه شعر خشن فشبه بالبرة التى تكون فى أنف البعير .

ويمثل ذلك الفخر الذى فخر عمرو بن كلثوم فخر الحارث بن حلزة لسان بنى بكر بن وائل ، الذى فخر بأن قومه لا يخشون صولة الملوك ، ولا يرهبون سعاية السعاة بقبيلته إليهم ، لأن لهم عزة ثابتة يعرفها العرب لهم ، وتحميهم من السعاة ومن بطش الملوك :

(١) أباح حصون المجد فتحها وجعلها مباحة لنا . الدين الغلبة والقهر .
(٢) المحجرون الذين قد ألجئوا إلى الضيق ، والبرة فى الأصل الحلقة التى تجعل فى أنف البعير .
(٣) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢١٥ .

أيها النـــاطق المرقِّش عنَّا عند عمرو وهل لذاك بقاء[١]

لا تخلنـــا على غراتك إنَّا قبل ماقد وشى بنا الأعداء[٢]

فبقينا على الشنـــاءة تنمي نا حصونٌ وعزة قعساء[٣]

قبل ما اليوم بيَّضت بعيون النـ ـاس فيها تغيُّظ وإباء[٤]

وكأنَّ المنونَ تَرْدِي بنا أرْ عَنَ جَوْناً ينجاب عنه العماء[٥]

مكفهراً على الحوادث لا تر توهُ للدهر مؤيدٌ صمَّاء[٦]

ويفخر بموقف قومه فى أيام الفتنة التى أغارت فيها بعض أحياء العرب على بعض ، حتى فزعت الأحياء ، وعمها الرعب ، وثبت قومه فى مواقف الشدة ، بل إنهم استطاعوا الإغارة على الأحياء المنيعة ، فظفروا بها وَسَبَوا نساءها :

هـــل علمتم أيام ينتهبُ النا س غواراً لكلِّ حيٍّ عُواء[٧]

إذ رفعنا الجمال من سعف البحـ ـرين سيراً حتى نهاها الحساء[٨]

ثمَّ ملنـــا على تميم فأحرمـ ـنا وفينا بناتُ مرٍّ إماء[٩]

---

(١) المرقش المزين القول بالباطل ليقبل منه الملك باطله .

(٢) و (٣) و (٤) سبق شرح معانى ألفاظها فى هامش (١) ص (٢٨٩) .

(٥) تردى ترمى ، الأرعن الجبل الذى له أنف يتقدمه ، الجون الأسود ، ينجاب عنه أى ينشق عنه ، العماء السحاب الرقيق .

(٦) المكفهر الغليظ المتراكب بعضه على بعض . ومنه اكفهر فلان إذا نظر بغيظ ، لاترتوه لا تنقصه ، المؤيد الشديد الأيد أى القوة ، ويعنى بالمؤيد الداهية ، والصماء التى لاتسمع يريد شدة الجبل ، وأن الحوادث لاتؤثر فيه .

(٧) الغوار مصدر غاور القوم غوارا ، إذا أغار بعضهم على بعض ، والعواء الصياح مما يحل بهم من الإغارة .

(٨) السعف أغصان النخلة ، ويعنى بالسعف النخل لأنه منه . رفعنا الجمال فى السير أى سرنا سيرا رفيعا — ويروى ركبنا الجمال — نهاها نهايتها .

(٩) أحرمنا دخلنا فى الأشهر الحرم ، وهى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وكانت العرب لا يستحلون فيها قتالا ، مر هو أبو تميم .

لايقيمُ العزيزُ بالبـلد السَّهـ ل ولا ينفعُ الذليلَ النَّجاء[1]
ليس ينجي مُوائلا من حِذَارٍ رأسُ طود وحرَّةٌ رَجْلاء[2]
فملكنا بذلك الناس حتى ملك المنذر بن ماء السَّماء

ولم يقف فخر الحارث بن حلزة عند الزهو ببسالة قومه وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم ومواليهم ، والإغارة على أعدائهم ، واستطاعتهم النهب والسبى ، والثبات فى أوقات الرعب والفزع ، بل تجاوز هذا الفخر إلى الزهو بما قدم قومه إلى الملوك الذين كانوا يستنجدون بهم ، فيجدون عندهم النجدة التى ترد أطماع الطامعين فى ملكهم ، كقوله فيما أسدوا إلى عمرو بن هند :

من لنا عنده من الخير آيا تٌ ثلاثٌ فى كلِّهن القضاء
آيةٌ شارقُ الشقيقة إذجا ءُوا جميعاً لكل حىٍّ لواء[3]
حول قيسٍ مستلئمين بكبش قرظىٍّ كأنه عبلاء[4]
وصَتيتٍ من العواتك لاتنـ هاهُ إلا مبيضةٌ رَعْلاء[5]
فردَدْناهمُ بطعن كما يخـ رجُ من خُرْبَةِ المزاد الماء[6]

---

(١) النجاء الهرب .

(٢) الموائل الذى يطلب موئلا يهرب إليه . الطود الجبل . الحرة كل موضع فيه حجارة سود . الرجلاء الصلبة الشديدة .

(٣) بنو الشقيقة قوم من بنى شيبان جاءوا يغيرون على إبل لعمرو بن هند ، وعليهم قيس ابن معد يكرب ، فردتهم بنو يشكر وقتلوا فيهم . شارق جاء من قبل المشرق .

(٤) المستلئم الذى لبس اللامة وهى الدرع ، قرظى منسوب إلى البلاد التى يكثر فيها القرظ وهى اليمن . العبلاء هنا الهضبة البيضاء .

(٥) الصتيت الجماعة . العواتك نساء من كندة من الملوك . المبيضة التى توضح بياض المعظم . الرعلاء الضربة المسترخية اللحم من الجانبين .

(٦) خربة المزاد فم المزادة الأسفل ، وهى العزلاء مصب الماء من القربة فى أسفلها .

وحملناهم على حزم ثهلا ... نَ شِلالاً ودُمِّىَ الأنساءُ (١)

وجبهناهم بطعنٍ كما تنـ ... ـهَزُ فى جَمَّةِ الطَّوِىِّ الدِّلاءُ (٢)

وفعلنا بهم كما علم اللـه ... وما إن للحائنين دماءُ (٣)

ثم حجراً أعنى ابن أمّ قطام ... وله فارسيّةٌ خضراءُ (٤)

أسدٌ فى اللقاء وَرْدٌ هَموسٌ ... وربيعٌ إنْ شمَّرَتْ غبراءُ (٥)

وفككنا غُلّ امرئِ القيس عنه ... بعد ماطال حبسُه والعناءُ

وأقدناه ربَّ غسّانَ بالمنـ ... ـذر كرها إذ لاتكالُ الدماءُ (٦)

وأتيناهمُ بتسعة أملا ... كٍ كرامٍ أسلابُهم أغلاءُ (٧)

ومعَ الجَوْنِ جَوْنِ آلِ بنى الأو ... س عَنُودٌ كأنها دفواءُ (٨)

ماجزعنا تحت العجاجة إذ ولّـ ... ـتْ بأقفائها وحَرُّ الصِّلاءُ (٩)

---

(١) الحزم والحزن ما غلظ من الأرض والجبال . ثهلان جبل . شلالا هرابا . الأنساء جمع نسا عرق فى الساق الأسفل .

(٢) الجبه أسوأ الرد . تنهز تحرك . جمة الطوى معظم الماء فيه ، والطوى البئر المطوية .

(٣) الحائنين الذين حان حينهم وجاء أجلهم ، وليس لهم دماء أى لا يطالب بها ، ويروى « ذماء » بالذال وهو بقية النفس .

(٤) له فارسية خضراء أى كتيبة سلاحها من عمل فارس ، والخضراء الكتيبة يكثر سلاحها فتكون كأنها خضراء .

(٥) الهموس المختال الذى يخفى وطأه حتى يأخذ فريسته . الغبراء السنة القليلة المطر .

(٦) أقدناه ثأرنا له . لا تكال الدماء من كثرتها ، أو لأنها ذهبت هدرا فليس فيها قود .

(٧) أى أتيناهم بتسعة ملوك غالية أسلابهم .

(٨) الجون ملك من ملوك كندة ، وهو ابن عم قيس بن معد يكرب ، وكان غزا بنى بكر فقاتلته بنو بكر وهزمته ، وأخذوا ابنه وجاءوا به إلى المنذر . العنود : الكتيبة المحكمة . الدفواء الكتيبة المنحنية يصف كثرتها .

(٩) العجاج الغبار الذى تثيره الخيل بسنابكها . بأقفائها بأعجازها . الصلاء النار .

وهكذا تفيض أكثر المعلقات بهذا اللون من الفخر بالشجاعة والإقدام ، ولا سيما معلقات طرفة وعنترة وعمرو والحارث .

(٤) باب الحكمة

وهو غرض من الأغراض التى يوحى بها طول التجارب ، وممارسة الأحداث ، والخلوص منها بنتيجة من النتائج يرضى عنها الناس ويقبلونها ، لأنهم يرون هذه التجارب فى أنفسهم وفى ذويهم وفيمن رأوا وعرفوا من الناس ، وفى أحداث الحياة وتقلباتها وتصرفها بالبشر .

وطول التجربة سبب من أسباب الحكمة التى تجرى على اللسان ، أو تصاغ فى قالب شعرى أو فى عبارة نثرية ، كما أن فطنة المرء ودقة إحساسه بما حوله ، وتأثره العقلى أو العاطفى من عوامل إرسال الأقوال الحكيمة التى تقع موقعها من قلوب البشر وعقولهم .

وعلى هذا فليس من الضرورى أن يكون أصحاب الحكمة من المسنين الذين مدت لهم الحياة فى حبال العمر ، ولا من الذين اصطبغوا بصبغة تلك الأحداث أو شاركوا فيها ، وإنما تكفى النفس الحساسة ، والبصيرة النافذة التى تستطيع أن تنفذ إلى أغوار النفوس وأسرار الحياة وأخلاق البشر ؛ وإن قصرت بأصحابها الأعمار .

وفى بعض المعلقات أمثال كثيرة لتلك الحكم التى وقعت موقعها من نفوس العرب فى الجاهلية ، ثم تراواها الناس وحفظوها ، واتخذوا منها أمثالا جرت على ألسنتهم ، وتنقلت فى العصور المختلفة ، وبذلك عاشت فى الزمن لأن كل إنسان يرى فيها طبيعة نفسه ، وكأن الشاعر إذ تحدث إنما كان يتحدث بلسانه ، لأنه كان يعبر عن شعوره ، وعن شعور كل إنسان .

وتظهر الحكمة أكثر ماتظهر فى معلقتى طرفة بن العبد وزهير بن أبى سلمى، أما الأول فلنبوغه المبكر ، وشدة حساسيته بما حوله ، وأما الآخر فلكثرة ما شهد من الأحداث ، وكثرة ما عرف من أخلاق الناس وعنادهم و بغيهم ، فقد شهد خيانات وحروبا ، كما شهد صلحاً ونقضاً ، ورأى دماء تسيل ولا يقادلها ، ورأى قصاصاً على الجرائم التافهة ، ورأى جوداً وتضحية و بذلا ، كما رأى شحًّا وجبناً وغدراً . واستطاع أن يستخلص من كل أولئك الحكمة البالغة ، وأن يصوغ المثل السائر الذى حفظته الأجيال وتغنت به إذا ما عرض لها مثل الأسباب التى أدت إلى صوغه فى عبارات محكمة رصينة .

ومن أبيات طرفة التى تتصل بها الغرض قوله :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى　　وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فإن كنتَ لاتسطيع دفع منيتى　　فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

وهى من حكم الحياة التى يؤمن بها أمثاله من أولئك الشبان الذين عكفوا على اللذات غير مبالين بالحياة ، ولا حريصين على مالٍ أوجاه ، لأنهم عرفوا أن مقامهم فى تلك الحياة قصير ، وأنه ليس لحىّ بقاء .

وقوله فى مصير الإنسان ، وأن الموت يسوِّى بين الناس جميعاً ، وأن قبر الكريم المسرف على نفسه لايقل عن قبر البخيل الشحيح الحريص على النفس والمال والمتاع :

أرى قبر نحامٍ بخيل بماله　　كقبر غوىٍّ فى البطالة مُفسدِ(١)

ترى جُثوتين من ترابٍ عليهما　　صفائحُ صُمٌّ من صفيح منضَّدِ(٢)

(١) النحام البخيل . الغوى الذى يتبع هواه .

(٢) الجثوة التراب المجموع . الصم الصلبة . المنضد الذى نضد بعضه على بعض .

أرى الموت يعتام الكرامَ ويصطفى عقيلةَ مال الفاحش المتشدِّدِ(١)
أرى العيش كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ وما تنقصِ الأيامُ والدهرُ ينفدِ
لعمرُكَ إنّ الموتَ ما أخطأ الفتى لكالطِّوَل المرخَى وثِنْياهُ باليد(٢)
متى مايشأ يوماً يقدْهُ لحتفهِ ومَن يكُ فى حبل المَنيَّة ينقدِ

ثم يقول :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقربَ اليومَ من غدِ
ستبدى لك الأيامُ ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّدِ
ويأتيك بالأخبار من لم تبعْ له بتاتاً ولم تضربْ له وقتَ موعدِ
لعمرُك ما الأيام إلا معارة فما اسطعت من معروفها فتزوَّدِ
عن المرء لاتسألْ وأبصِرْ قرينَه فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ مُقتدِ

ومن الحكمة المأثورة والمثل السائر قوله :

وظلمُ ذوى القربَى أشدُّ مَضاضةً على المرء من وَقعِ الحسامِ المهنَّدِ

ومن أبيات الحكمة فى معلقة زهير فى قصور الإنسان عن علم مافى غده ، وجهله بنهاية أجله ، واضطراره للمصانعة فى بعض أموره ، وأثر المعروف والبرّ فى النفوس ، وفى أخلاق أكثر الناس ، وفى أن الظلم طبيعة فيهم :

وأعلمُ مافى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم مافى غدٍ عَمِ
رأيتُ المنايا خبطَ عشواء من تصبْ تُمِتْه ومنْ تخطئْ يعمَّرْ فيهرَمِ

---

(١) يعتام يختار . العقيلة فى الأصل المرأة الكريمة النفيسة ، ثم استعمل فى الكريم من كل شىء من الذوات والمعانى .

(٢) الطول الحبل ؛ وثنياه ما ثنى منه ، ويقال : هما طرفاه لأنهما يثنيان . وقوله « ما أخطأ الفتى » أى فى إخطائه الفتى ، أى فى أن يطول عمره .

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ... يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويوطأْ بمَنْسِمِ (١)
ومن يجعل المعروفَ من دُون عرضهِ ... يفِرْهُ ومَنْ لايتَّقِ الشَّتمَ يُشْتَمِ
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضلهِ ... على قومه يُستغنَ عنه ويُذمَمِ
ومن يُوفِ لايذممْ ومن يُهْدَ قلبُه ... إلى مطمئنِّ البرِّ لا يَتَجَمْجَمِ (٢)
ومن هابَ أسبابَ المنايا ينَلْنَهُ ... وإن يَرْقَ أسبابَ السماء بِسلَّمِ
ومن يجعل المعروفَ فى غير أهله ... يكن حمدُه ذمًّا عليه ويندمِ
ومن يعصِ أطراف الزِّجاج فإنَّه ... يطيع العَوالى ركِّبتْ كلَّ لَهْذَمِ (٣)
ومن لم يَذُدْ عن حوضهِ بسلاحهِ ... يهدَّمْ ومنْ لايظلمِ الناسَ يُظلَمِ
ومن يغترِبْ يحسبْ عَدُوًّا صديقَه ... ومن لا يكرِّمْ نفسه لا يُكرَمِ
ومهما تكن عند امرىء من خليقةٍ ... وإن خالها تخفى على الناس تُعلَمِ
وكائن ترى من صامتٍ لك مُعجبٍ ... زيادتُه أو نقصُه فى التكلُّمِ
لسانُ الفتى نِصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلم يبقَ إلاَّ صُورَةُ اللحمِ والدَّمِ

وكانت هذه الأبيات المتتابعة فى الحكمة السائرة من أهم ما امتازت به تلك المعلقة ، كما كانت من أهم الأسباب فى شهرة صاحبها وذيوع صيته فى تاريخ الشعر العربى .

---

(١) المنسم للبعير بمنزلة الظفر للانسان .

(٢) لا يتجمجم لا يتردد .

(٣) الزجاج جمع زج ، وهو الحديدة التى تكون فى أسفل الرمح ؛ والعوالى جمع عالية وهى أعلى الرمح . واللهذم السنان الماضية النافذة ، وهذا تمثيل أى من لا يقبل الأمر الصغير يضطر إلى أن يقبل الأمر الكبير . وقال أبو عبيدة : معنى هذا أن من لا يقبل الصلح وهو الزج الذى لا يقاتل به فإنه يطيع الحرب وهو السنان الذى يقاتل به .

(٥) باب المديح :

وإذا استبعدنا الشعر الكثير الذى قيل فى ثناء الشاعر على آبائه وأجداده ، وتغنيه بأمجاد قبيلته مما يدخل فى باب الفخر على الوجه الذى سلف ، ألفينا الشعر الذى يحسب فى باب المديح من المعلقات قليلاً ؛ بل إننا على التحقيق لا نجده إلاّ فى معلقة واحدة هى معلقة زهير ، وذلك فى مديحه عظيمى غطفان الحارث ابن عوف وهرم بن سنان اللذين تحمّلا ديات القتلى فى أموالهما ليكفّا قبيلتى عبس وذبيان عن القتال ؛ ذلك للمديح الذى يقول فيه :

سَعى ساعيا غيظ بن مُرّةَ بعد ما　　　تبزّل ما بين العشيرةِ بالدمِ (١)

فأقسمتُ بالبيت الذى طاف حولهُ　　　رجالٌ بنوْه من قُريشٍ وجُرْهُمِ (٢)

يميناً لَنِعْمَ السيِّدانِ وُجِدْتما　　　على كلِّ حال من سَحِيل ومُبْرَمِ (٣)

تداركتما عبساً وذُبيان بعدما　　　تفانَوْا ودقّوا بينهم عطر مَنْشِمِ (٤)

وقد قلتُما إن نُدرِك السّلم واسعاً　　　بمال ومعروف من القول نَسْلَمِ

فأصبحتُما منها على خير مَوْطِنٍ　　　بعيدَيْن فيها من عقوق ومأثَمِ

---

(١) الساعيان الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، وقيل الحارث بن عوف وخارجة ابن سنان ، سعيا فى الديات ، ومعنى سعيا عملا عملا صالحا ، وغيظ بن مرة من ولد عبد الله ابن غطفان ، تبزل تشق ، وهذا تمثيل أى كان بينهم صلح فتشقق بالدم ، فسعى ساعيا غيظ ابن مرة فأصلحاه .

(٢) يعنى بالبيت الكعبة ، وجرهم كانوا ولاة البيت قبل قريش .

(٣) المبرم الأمر المحكم ، والسحيل غير المحكم ، وأصل السحيل والمبرم أن المبرم يفتل خيطين حتى يصيرا خيطا واحدا ، والسحيل خيط واحد لا يضم إليه آخر .

(٤) قالوا إن منشم امرأة عطارة فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها ، ثم خرجوا إلى الحرب فقتلوا جميعا ، فتشاءمت العرب بها ، وضربوا بعطرها المثل .

عظيمين فى عُليا معدٍّ هُديتما ومَنْ يستبح كنزاً من المجد يَعْظُمِ

تُعفّى الكلومُ بالمئينَ فأصبحتْ ينجِّمها من ليس فيها بمجرم [(١)]

ينجِّمها قومٌ لقوم غرامــــةً ولم يُهَرِيقوا بينهم ملءَ مِحْجَمِ [(٢)]

فأصبح يجرى فيهم من تلادكمْ مغانمُ شتّى منْ إفالٍ مُزَنَّمِ [(٣)]

والسبب فى قلة المديح فى المعلقات أنّ أصحابها كما رأينا كانوا من السّادة الأشراف، أومن الفتيان أولى الحمية والأنفة، وهؤلاء كانوا لا يقولون الشعر رغباً ولا رهباً، ولا يطلبون به عطاء ولا كسبا، والمديح إنما يكثر ويجود مع وجود الرغبة.

وكذلك لم يحتل الهجاء منزلته بين أغراض الشعر فى المعلقات، إلا ماجاء منه عرضاً فى مجال الفخر بأنفسهم وأقوامهم، والتعريض بأعدائهم وخصومهم.

٢ — ألفاظ المعلقات وأساليبها

قد يكون من العسير أن تنعت ألفاظ المعلقات كلها نعتا واحداً، يصدق عليها جميعاً، فإن الاختلاف ظاهر بين لغة المعلقات، بل إن المعلقة الواحدة تختلف ألفاظها بين الخشونة والرقة، و بين الجزالة والسلاسة، وكذلك تختلف فيما بينها من حيث شيوع الغريب والحوشى فى بعضها، أو فى مواضع منها، أو فى أجزاء من المعلقة الواحدة.

---

(١) تعفى أى تمحى الجراح بالمئين من الإبل تؤدى ويجعلونها نجوما.

(٢) لم يهريقوا لم يصيبوا، والمحجم آلة الحجامة.

(٣) التلاد المال الموروث، الإفال الفصلان الواحد أفيل والأنثى أفيلة. المزنم فحل معروف نسب إليه، والتزنيم علامة كانت تجعل على ضرب من الإبل كرام، وهو أن يشق طرف أذن البعير ويفتل.

ومرجع هذا الاختلاف هو تعدُّد الأغراض فى تلك القصائد . ولا شكّ أن اللغة الشعرية تختلف على حسب ما تؤدّيه من المعانى والأغراض . فالألفاظ التى تصلح للوصف تختلف عن الألفاظ الصالحة للفخر ، أو الصالحة للنسيب . ثم إن هذه اللغة تختلف من شاعر إلى شاعر على حسب طبيعة كل منهما ، وإمعانه فى الحياة المتبدّية ، أو قربه من الحياة المتحضرة ، ففى طبيعة بعض الناس خشونة وفى حياتهم شظف ، وهؤلاء لا تطاوعهم الألفاظ الرقيقة ، كما أن فى طبيعة بعضهم وفى حياتهم نعيماً وترفاً ، ولذلك رقّتْ ألفاظهم ، وعذبت لغتهم طوعاً من غير تكلف أو استكراه .

وإذا كنا قد قلنا بأن شعر المعلقات هو الصورة المثلى للشعر عندهم ، فمن الممكن القول بأن لغة الشعر فى المعلقات هى الصورة المثلى للتعبير الشعرى عندهم أو اللغة الأدبية كما كانوا يتصورونها ، وهى خلاصة اللغة التى كانوا يستعملونها فى التعبير عن مختلف حاجاتهم .

وهذه اللغة الأدبية تتمثل فيها خصائص اللغة العربية فى إبان نضجها وأوقات ازدهارها ، وهى اللغة التى نزل القرآن الكريم بالمهذّب منها ، الذى تلافى ما فيها من العيوب ، ليكون صالحاً لكل زمان ومكان ، وكذلك الحديث النبوى ، والشعر العربى الذى اختلفت لغته وصلته بالشعر الجاهلى على حسب القرب أو البعد من العصر الذى أنشد فيه ، أو القرب أو البعد عن الحياة البدوية ، فلغة ذى الرمة مثلا ، وهو من شعراء عصر بنى أميّة ، لا تبتعد عن لغة هذا الشعر الجاهلى الذى نجد صورته فى المعلقات ؛ وذلك لأن حياته لم تبعد كثيراً عن حياة العرب فى باديتهم الأولى

وفى ألفاظ المعلقات ما يصح أن ينعت بالغرابة أو الحوشية ، ولكنهما وصفان غير أصيلين فيها . والدليل على ذلك أننا لم نعثر على قول قديم ينقد هذا الشعر

بغرابته أوحوشيته فى البيئة التى قيل فيها هذا الشعر ، أو فى السنين القريبة من ذلك العصر . و إنما وجد هذا النقد فى العصور التالية التى لانت ألسنتها وتهذبت لغتها بفضل الحضارة ، وتأثير القرآن الكريم الذى عدّت ألفاظه وأساليبه نمطا رفيعاً للتعبير مع خلوه من تلك الألفاظ التى توصف بالحوشية ؛ وكان ذلك سبباً من أسباب إعجازه ، وسرّا من أسرار تفوقه على أساليب الفحول المذكورين بالسبق والإجادة .

و على هذا يمكن القول بأن الغرابة والحوشية وصفان اعتباريان ، لاوصفان أصيلان ، فإن تلك الألفاظ التى تنعت بأحد النعتين أو كليهما[١] إنما كانت بالنسبة إلى العصور المتأخرة ، أو العصور المتحضرة . وإنما يكون ذلك النقد فى محله لو أن الجاهليين الذين قيل فيهم هذا الشعر أحسّوا بشىء من الغرابة أو الحوشيّة ؛ واللغة كأن حىّ ينمو ويتغيّر ويتطوّر ، ويضيفُ وينفِى ، وكذلك يتغير الذوق اللغوى العام ، كما يتغير الذوق الفنى العام من بيئة إلى بيئة ومن زمان إلى زمان ؛ فليس حكم المحدثين على لفظ بالغرابة أو الحوشية بمقتضٍ هذا الحكم نفسه عند الأقدمين .

ومع ذلك فإن أكثر مافى ألفاظ المعلقات مما يصحّ أن يوصف بأحد هذين الوصفين يرجع إلى أنه كان أسماء لمسمّيات لم نعد نستعملها ، وأسماء لمواضع لم نعد نراها ، ولنبات وأجزاء لحيوان لم نعد نألفها ، ولم ندم ملازمتها كما كان أولئك الأقدمون يديمون صحبتها ، ولا يفارقونها فى ظعنهم أو إقامتهم .

---

(١) لم يفرق القدماء بين « الغريب » و « الوحشى » من الألفاظ بل ذكروهما مقترنين فى عيوب اللفظ ؛ وعندى أن الغريب ما خفى معناه ، لأنه ليس من لغة العصر التى يستعملها الأدباء، وليس من لغة أوساط الناس ، فإذا ورد لم يفهم معناه فى يسر وسهولة ، وقد يتسنى الفهم بسؤال عالم اللغة ، أو بالرجوع إلى معجم من معاجمها . أما الحوشى فإن استبشاعه ناشىء عمافيه من ثقل فى الحروف التى بنيت منها الكلمة، فإذا نطق نطق مستكرها ، ولذلك لم يتكرر فى كلام أصحاب اللغة ، وإنما نطقه البداة الجفاة منهم ، فإذا سمعه غيرهم كرهوه واستهجنوه ، وعلى هذا يكون عيب الغريب فى معناه ، وعيب الحوشى فى لفظه، وقد يجتمع العيبان فى اللفظ الواحد .

ونورد فيما يلى أسماء يعرفها عرب الجاهلية ومن بعدهم تمام المعرفة ، وقد يجهل أكثرها غيرهم لأنهم لاعهد لهم بها ، ومن ذلك :

(١) منها أسماء المواضع والمياه والجبال :

الأبلاء : ح ٤ — اسم بئر[1] .

الأندرين : ك ١ — قرية بينها و بين حلب مسيرة يوم للراكب .

البحرين : ح ٣٣ — اسم جامع لبلاد على ساحل البحرين بين البصرة وعُمان من جزيرة العرب ، وعُمان آخرها ، ومدينتها هجرَ ، و بينهما و بين البَصرة خمسة عشر يوماً ، و بينها و بين عمان مسيرة شهر .

البَدِىّ : ل ٧١ — واد لبنى عامر بنجد .

برقاء نطاع : ح ٥٣ — قرية من قرى اليمامة .

بعلبك : ك ٧ — مدينة بينها و بين دمشق ثلاثة أيام .

بيشة : ل ١٥ — اسم واد من أودية تهامة .

تَبالة : ل ٧٥ — بلدة باليمن كثيرة الفواكه والثمار .

توضح : س ٢ ، ل ١٤ — كثيب أبيض بين كثبان حمر بالدهناء قرب اليمامة ، واسم قرية من قرى اليمامة .

تيماء : س ٨١ — بلد فى أطراف الشام ، من أمهات القرى .

ثبير : س٨٢ — اسم جبل ، وهى أربعة أثبرة : ثبير غيناء ، وثبير الأعوج ، وثبير الأحدب ، وثبير حراء .

---

(١) رتبنا هذه الأسماء على حسب الحروف الهجائية مراعين الحرف الأول فى الترتيب ، ورمزنا للمعلقات التى ورد فيها الاسم بحرف يدل على كل معلقة ، احترازا من التكرار ، وكذلك أشرنا إلى كل بيت بذكر رقمه فى المعلقة ، وقد اخترنا لكل معلقة حرفا يدل عليها على النحو الآتى :

س = معلقة امرئ القيس . ط = معلقة طرفة . ز = معلقة زهير . ل = معلقة لبيد .
ك = معلقة عمرو بن كلثوم . ع = معلقة عنترة ح = معلقة الحارث بن حلزة .

الثَّلَبُوت : ل ٢٧ — ماء لبنى ذبيان ، أو واد ، أو أرض بين طيء وذبيان .

ثهلان : ح ٧٤ — جبل ضخم بالعالية ، وقيل فى بلاد بنى نمير .

ثهمد : ط ١ — جبل ، أو موضع فى ديار بنى عامر .

الجبلان : ل ١٨ — جبلا طيء ، وهما أجأ وسلمى .

جرثم : ز ٧ — ماء لبنى أسد بن القنان وترمس .

الجلهتان : ل ٦ — مكانان فى حمى ضَرِيَّة(١) .

الجواء : س ٨٥ ، ع ٤ و ٧ — موضع بالصَّمَّان ، واد فى ديار بنى عبس أو أسد.

الحجاز : ل ١٧ — فى الأصل جبل ممتد يحجز بين غور تهامة ونجد .

الحَزْن : ع ٧ — طريق بين المدينة وخيبر ، وهو من منازل بنى يربوع.

الحساء : ح ٣٣ — مياه لبنى فزارة بين الربذة ونخل، يقال لمكانها ذو حساء .

حومل : س ١ ط ٣٥ ـ موضع بين إمَّرة وأسود العين .

الحياران : ح ٣٨ — بلدان . وقيل موضع ، وحيار بنى القعقاع بينه و بين حلب يومان ، وهو صقع من برية قنسرين(٢) .

خَزَازَى : ك ٦٨ ، ح ٨ ـ وخَزَاز أيضاً ، جبل بإزاء حمى ضَرِيَّة ، وقيل جبل بِطِخْفَةَ(٣) فى طريق البصرة إلى مكة ، و ينسب إليه يوم للعرب .

الخَطّ : ك ٣٦ ـ أرض تنسب إليها الرماح ، وهو خط عُمان فى سيف البحرين ، والسيف كله الخط .

---

(١) ضرية صقع واسع بنجد ينسب إليه الحمى ، ينزل به حاج البصرة بين الجديلة وطخفة .

(٢) قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة ، كانت عامرة آهلة ، فلما غلب الروم على حلب فى سنة إحدى وخمسين وثلثمائة خاف أهل قنسرين وجلوا عنها وتفرقوا فى البلاد ، ولم يبق بها إلا خان تنزله القوافل [انظر مراصد الاطلاع ٣/١١٢٦] .

(٣) طخفة بكسر الطاء وفتحها موضع طريق البصرة إلى مكة ، وبه يوم للعرب .

الخلصاء : ح ٢ ـ بلد بالدهناء[١] ، وأرض بالبادية فيها عين ماء لعبادة بالحجاز.

دارة جلجل : س ١٠ ـ الدارة رمل مستدير قدر ميلين تحفه الجبال ، ودارة جلجل موضع بعينه فى ديار الضباب فيما يواجه ديار فزارة .

دجلة : ط ٢٩ ـ النهر العظيم الذى يشق بغداد .

الدُّحْرُضان : ع ٣٢ ـ ماءان ، يقال لأحدهما « دحرض » وللآخر « وشيع » فلما ثناهما غلب أحدهما على الآخر ، وهذان الماءان بين سعد وقشير ، قيل هما وراء الدهناء .

الدَّخول : س ١ ـ واد فى أودية العَلَية بأرض اليمامة ، وبئر غيرة كثيرة الماء .

دَد : ط ٣ ـ اسم واد.

الدراج : ز ١ ـ موضع بالعالية[٢] .

دمشق : ك ٧ ـ البلد المشهور ، قصبة الشام .

ذو طلوح : ك ٦٨ ـ اسم موضع للضباب فى مشا كلة حمى ضَرِية ، وقيل فى حَزْن بنى يربوع بين الكوفة وفيد .

ذو العشيرة : ع ٣١ ـ موضع بالصمان .

ذو المجاز : ح ٤١ ـ موضع سوق بعرفة ، كانت تقوم به فى الجاهلية ثمانية أيام .

الرِّجام : ل ١ ـ جبل طويل أحمر ، وهضبات حمر بلاد بنى عامر .

رخام : ل ١٨ ـ موضع فى جبال طيئ .

الرَّدَاع : ع ٣٦ ـ اسم ماء .

الرقمتان : ز ٢ ـ روضتان بناحية الصمان .

رياض القطا : ح ٤ ـ رياض بعينها ، يكثر فيها استنقاع الماء ودوامة ، فتعشب فتألفها الطير .

---

(١) الدهناء : الوادى الذى فى بلاد بنى تميم ببادية البصرة فى أرض بنى سعد يسمونه الدهناء ، يمر فى بلاد بنى أسد فيسمونه منعج ، ثم فى غطفان فيسمونه الرمة ، وهو بطن الرمة الذى بطريق مكة فى طريق فيد إلى المدينة ، وهو وادى الحاجر يمر فى بلاد طيء فيسمونه حائل ، ثم يمر فى بلاد كلب فيسمونه قراقر ، ثم يمر فى بلاد تغلب فيسمونه سوى ...

(٢) العالية كل ما كان من جهة نجد من المدينة قراها وعمائرها إلى تهامة العالية ، وما كان دون ذلك السافلة . وقيل عالية الحجاز أعلاها بلداً ، وأشرفها موضعاً ، وهى بلاد واسعة . وقيل العالية ما جاوز الرمة إلى مكة .

الريان : ل ـ ٢ جبل فى ديار طيئ ، وواد فى حمى ضرية فى أرض كلاب ، وجبل فى بلاد بنى عامر .

الستار : س ٨٧ ـ جبل بأجأ ، وناحية بالبحرين ذات قرى كثيرة لبنى امرئ القيس ، وجبل فى ضرية .

سقط اللوى : س ١ ـ موضع بين إمرة وأسود العين ، وأسود العين جبل ، وهو من منازل بنى كلاب .

السوبان : ز ١٠ ، ١٥ ـ واد ، وأرض ، وجبل . الشآم : ط ٣١ .

الشامات : ك ٢٨ ـ على ثلاثة فراسخ من ناحية الجبل ، والجبل كورة بحمص .

شخصان : ح ٧ — اسم أكة لها شعبتان .

شَدَن : ع ٢٦ ـ موضع باليمن تنسب إليه الإبل الشدنية .

الشُّرْبُب : ح ٤ ـ واد فى ديار بنى سليم . الشعبتان : ح ٤ ـ أكمة لها قرنان نائتان .

شماء : ح ٢ — هضبة فى حمى ضرية . الشيم : س ٧٨ — جبل بنجد .

الصاقب : ح ٢٨ ـ جبل ضخم ، تلقاء ملحة .

صحراء الغبيط : س ٨٤ ـ هى الحَزْن ، وهى أرض بنى يربوع ، والغبيط أكمة يرتفع طرفاها ويطمئن وسطها . صعائد : ل ٤٥ ـ اسم موضع .

الصّفاح : ح ٣ ـ موضع بين حنين وأنصاب الحرم .

الصّمّان : ع ٧ ـ أرض غليظة دون الجبل لبنى حنظلة ، وجبل فى أرض تميم أحمر .

صوائق : ل ١٩ ـ جبل بالحجاز قرب مكة لهذيل .

ضارج : س ٧٧ ـ موضع باليمن .

ضرعد : ط ٨١ ـ جبل ، وقيل حرة فى بلاد غطفان ، وقيل ماء لبنى مرة وقيل أرض لبنى هذيل و بنى غاضرة .

طلخام : ل ١٩ ـ اسم موضع . ظبى : س ٤٣ ـ بلد قريب من ذى قار .

عاذب : ح ٣ ـ اسم واد أو جبل . عدولى : ط ٤ ـ قرية بالبحرين .

العذيب : س ٧٧ ـ ماء عن يمين القادسية لبنى تميم ، بينه و بين القادسية أربعة أميال ، العراق : ز ٣٣ . العقيق : ح ٧ ـ عقيق عارض باليمامة ، واد واسع .

العلاة : ح ٦٠ ـ مكان قريب من العوصاء .

العلياء : ح ٦ ـ هى العالية ، وهى الحجاز وما يليه من بلاد قيس .

عنيزتان : ع ١٢ ـ عنيزة موضع بين البصرة ومكة ، و بئر لبنى عامر بن كريز ، وواد من أودية اليمامة .

العوصاء : ح ٦٠ ـ قرية من العلاة أو العلياء ، وهى أقرب أرض أنزلها النعمان ميسون بعد أن قتل أباها .

الغَوْل : ل ١ ـ جبل ، وقيل ماء معروف للضباب بجوف طخفة به نخل .

الغيلم : ع ١٢ ـ اسم موضع . فتاق : ح ٣ ـ اسم موضع

فردة : ل ١٨ ـ ماء بالثلبوت لبنى نعامة ، واسم جبل فى ديار طيء .

فيد . ل ١٧ ـ بليدة فى نصف طريق مكة من الكوفة ، وهى بقرب أجا أحد جبلى طيء . قاصرين : ك ٧ ـ بلد كان بقرب بالس على الفرات .

قطَن : س ٧٨ ـ جبل بنجد فى بلاد بنى أسد .

القُفَّان : ط ٥ ـ مثنى قفّ ، وهو ما ارتفع من الأرض وغلظ ، وهو علم لواد من أودية المدينة .

القنان : س ٨٠ ، ز ٨ ـ جبل لبنى أسد . كتيفة : س ٧٩ ـ من مياه عمرو بن كلاب .

مأسل : س ٧ ـ اسم موضع . المتثلم : ز ١ ، ع ٧ ـ موضع فى أول أرض الصمّان .

المثلَّم : ز ٤٢ ـ موضع بين اللوى وجهرم . المجيمر : س ٨٣ ـ جبل لبنى فزارة .

محجَّر : ل ١٨ ـ موضع فى ديار طيء ، وجبل فى ديار بنى يربوع ، وفى ديار بنى كلاب ، وفى بلاد عذرة ، وفى ديار نمير .

المحيَّاة : ح ٣ ـ هضبة أسفل من أبان الأسود ، لبنى أسد .

المقراة : س ٢ ـ قرية من نواحى اليمامة .

ملحة : ح ٢٨ ـ اسم موضع تلقاء جبل الصاقب .

منى : ل ١ ـ جبل مما حول ضرية .

نجد : ك ٣١ ـ الأرض العريضة التى أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام .

وادى الرس : ز ١١ ـ ديار لطائفة ثمود ، وقيل قرية باليمامة يقال لها فالج .

وجرة : س ٢٧ ، ل ١٤ ـ من طريق مكة من البصرة ، بينها و بين البصرة أربعون ميلا ليس بينهما منزل ، فهى مربى للوحش .

وحاف القهر : ل ١٩ ـ القهر أسافل الحجاز مما يلى نجداً من قبل الطائف ، والوحاف جمع وحفاء، وأصله أرض فيها حجارة سود ، وليس بحرّة .

الوفاء : ح ٣ ـ أرض . يذبل : س ٥١ ـ جبل مشهور بنجد .

اليمامة : ك ٢٢ ـ بلد كبير فيه قرى وحصون وعيون ونخل . اليمن : ط ٣١ .

(٢) ومن أسماء الشجر والنبات :

الأثل : ل ٥١ ـ نوع من الطرفاء ، الواحدة أثلة .

الإسحل : س ٤٣ ـ شجرة دقيقة أغصانها فى استواء ، تشبه بها الأصابع دقة واستواء . الأقحوان : س ١٨ ـ البابونج .

الأنبوب : س ٤١ ـ البردى ، قال ابن الأنبارى : البردى الذى ينبت وسط النخل ، وهو نبت يعمل منه الحصر .

الأيهقان : ل ٦ ـ جرجير البرّ ، الواحدة أيهقانة .

البرير : ط ٧ ـ ثمر الأراك إذا أدرك .

الثمام : ل ١١ ـ نبت ضعيف له خوص ، أو شبيه بالخوص ، تحشى به خصاص البيوت ، واحدة ثمامه .

الحص : ك ٢ الزعفران . الحناء : س ٦٧ .

الحنظل : س ٤ ، ٦٦ . الخروع : ط ٦١ .

الخمخم : ع ١٤ ـ آخر ما ييبس من النبات ، واحدة خمخمة ، وروى بحاءين غير معجمتين ، ومعناهما واحد . الخميلة : ط ٧ ـ الروضة المعشبة .

الدرين : ك ٦٩ ـ الحشيش اليابس . السرحة : ع ٦٥ ـ الشجرة الطويلة .

السعف : ح ٣٣ ـ أغصان النخلة ، واحدتها سعفة .

السفا : ل ٣٠ ـ شوك شجر البهمى ، والبهمى من أحرار البقول رطباً ويابساً ، تنبت ويخرج لها شوك مثل شوك السنبل ، فإذا عظمت البهمى كانت كلأ يرعى حتى يصيبه المطر من عام مقبل ، فينبت من تحته حبه الذى سقط من سنبله .

السّقىّ : س ٤١ ـ النخل المسقى .

السَّمُرة : س ٥ ـ شجرة عظيمة لها شوك . الضال : ط ٢١ ـ شجر السدر البرّى .

العُشَر : ط ٦١ ـ شجر فيه حُرّاق لم يقتدح الناس فى أحسن منه ، ويحشى فى المخاد لينه .

العرفج : ل ٣٢ ـ نبت . العظلم : ع ٦٤ ـ نبت يختضب به .

العلقم : ع ٤١ ـ الحنظل ، والنبقة المرة .

العندم : ع ٤٧ ـ شجر عظام ، ورقه كورق اللوز ، وساقه أحمر .

العنصل : س ٨٦ ـ البصل البرى ، ويعرف بالأسقال وببصل الفار ، ويعمل منه خل عنصلان شديد الحموضة .

العهن : ز ١٣ ـ القطن مصبوغاً وغير مصبوغ .

الفلفل : س ٣ ـ حب شجر هندى .

الفنا : ز ١٣ ـ شجر له حب أحمر ، وهو الذى يقال له عنب الثعلب .

القتاد : ك ٢٩ ـ شجر له شوك لا ييبس إذا هاج ، من ذلك قولهم « دون ما يروم خرط القتاد »

القرظ : ح ٧١ ـ شجر عظام لها سوق غلاظ ، واحدته قرظة .

القرنفل : س ٨ ، ١٧ ـ زهر طيب الرائحة .

القلاّم : ل ٣٤ ـ نبت يكون على الأنهار ، وقيل هو القصب .

الـكتان : س ٥٢ . الـكلأ : ز ٤١ ـ العشب .

الـكنهبل : س ٧٩ ـ شجر عظام ذات شوك . المرد: ط ٦ ـ ثمر الأراك .

المنوَّر : ط ٨ ـ الأقحوان النابت فى الأرض السهلة .

النخلة : س ٨١ . اليراع : ل ٣٥ ـ القصب .

(٣) ومن أسماء الحيوان والوحش والطير ونعوته :

الأحقب . ل ٢٥ ـ حمار الوحش .

الأحوى : ط ٦ ـ الظبي فى ظهره حمرة تضرب للسواد .

الأدهم : ع ٢٤ ، ٧٩ ـ فرس عنترة ، والأدهم الأسود .

الأرآم : س ٣ ، ز ٣ ، ل ١٤ ، ٢٧ ـ جمع رئم ، وهو الظبي الخالص البياض .

الأربد : ط ١٤ ـ ذكر النعام الذى لونه كلون التراب .

الأزعر : ط ١٣ ـ ذكر النعام الذى لا شعر له .

الأساريع : س ٤٣ ـ جمع أسروع ، وهى دواب تـكون فى الرمل ظهورها ملس . الأسد : ز ٣٨ ، ح ٧٨ .

الأطلاء : ز ٣ ، ل ٧ ـ أولاد الظبية .

الأظـآر : ط ٥١ ـ جمع ظئر العاطفة على غير ولدها المرضعة له .

الأعلم : ط ٣٧ ، ع ٤٦ ـ الجمل ، وكل جمل أعلم ، لأن مشفره الأعلى مشقوق .

الإفال : ز ٢٥ ـ الفصلان ، واحدها أفيل للمذكر وأفيلة للأنثى .

الأكلف : ط ١٦ ـ من الجمال ما كانت حمرته شديدة يشوبها سواد ليس بخالص .

البرك : ط ٨٩ ، ٩٣ ـ الإبل الـكثيرة . البعير : س ١٥ ، ط ٥٣ .

بكر المقاناة : س ٣٦ ـ بيضة النعامة .

البلية : ل ٧٦ ، ح ، ١٤ ـ الناقة التى يشد رأسها إلى يديها ، وتجعل عند قبر صاحبها

حتى تموت ، فإذا ماتت حفروا لها ودفنوها ، وربما أحرقوها بالنار يزعمون أنه يحشر معها .

البهام : ل ٧ — جمع بهم وجمع بهمة ؛ وهى أولاد الضأن والمعز والبقر .

التتفل : س ٦٤ — ولد الثعلب . الثور : س ٧١ — الذكر من بقر الوحش .

الجداية : ع ٦٩ — من الظباء بمنزلة الجدى من الغنم ، ما أتت عليه خمسة أشهر أو ستة . الجرد : ك ٧٩ — من الخيل القصيرة الشعر .

الجمال : ح ٣٣ . الجياد : ك ٨٧ .

الحزقة : ع ٢٩ — الفرقة من الإبل . الحمامة : ل ٦٩ .

الحوار : ط ٩٤ — ولد الناقة . الحية : ط ٨٤ . الخفيدد : ط ٣٩ — ذكر النعام .

الخيل : ك ٢٧ ، ٤٩ ، ع ٤٨ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ح ٢٠ ، ٥٧ ، ٦٨ .

الدجاج : ل ٦٢ الذباب : ع ٢٢ .

الذئب : س ٥٤ — والذئاب : ع ٥٧ .

الرُّبَع : ط ٥١ — الفصيل نتج فى الربيع ، وهو أول النتاج ، فإن نتج فى آخره فهو هبع . الربيض : ح ٥١ — جماعة الغنم .

الرشأ : ع ١٧ ، ٦٩ — الظبى إذا تحرك ومشى .

الرئال : ح ١٠ — فراخ النعام ، واحدها رأل .

الرئم : س ٣٨ — الظبى الخالص البياض .

الزفوف : ح ١٠ — الناقة السريعة الخفيفة ، والزفيف عدو النعام إذا أسرع .

السباع : س ٨٦ ، ع ٩١ . السرحان : س ٦٤ — الذئب .

السفنجة : ط ١٣ — النعامة . السقب : ك ١٩ — الذكر من أولاد الناقة .

السقفاء : ح ١٠ — النعامة فى رجلها انحناء .

السِّيد : ط ٥٩ — الذئب . الشادن : ط ٦ ، ع ١٧ ، ولد الظبى .

الشاة : ط ٣٥ ، ع ٦٦ ، ٦٨ — كناية عن المرأة .

الشول : ط ١٥ ـ جمع شائلة ، وهى من النوق التى قلّ لبنها ، وارتفع ضرعها .

الشيظم : ع ٨٤ ـ الفتى الطويل الجسم . من الإبل والخيل والناس

الصوار : ل ٣٦ ـ القطيع من بقر الوحش . الطير : س ٥٧ .

الظبى : س ٦٤ ـ والظباء : ل ٦ ، ١٤ .

العصم : س ٨٠ ـ جمع أعصم ، وهو مافى ذراعيه من الوعول والظباء ، والوعول التيوس الجبلية .

العَير : س ٥٤ ، ح ١٨ ـ الحمار العَيْطَل : ك ١٤ ـ الطويلة من النوق .

العين : ز ٣ ، ل ٧ ـ البقر الوحشية ، واحدتها عيناء ، سميت بذلك لسعة عيونها .

الغُراب : ع ١٥ . الغزلان : ع ١٧ ، ٦٩ .

الفحول : ل ٢٥ ـ جمع فحل ، وهو الذكر من كل حيوان .

الفرقد : ط ٣٣ ـ ولد البقرة الوحشية .

الفنيق : ع ٣٨ ـ الفحل الذى لا يركب ولا يحمل عليه .

قلص النعام : ع ٢٩ ـ أولاد النعام ، واحدتها قلوص .

القهد : ل ٣٨ ـ ضرب من الضأن تصغر آذانهن وتعلوهن حمرة .

الكلاب : ك ٢٩ . الكهاة : ط ٩٠ ـ الناقة الضخمة السمينة .

المضرحى : ط ١٧ ـ النسر العتيق يميل لونه إلى البياض ، أو الصقر الطويل الجناح

المطية : س ١١ . والمطى : س ٥ ، ط ٢

المكاكى : س ٨٥ ـ جمع مكّاء ، ضرب من الطير .

المهر : ع ٨٨ . الناقة : ع ٣ النسر : ع ٩١ . النعامة : س ٦٤ . والنعام : ل ٦٧ .

النعجة : س ٧١ ـ والنعاج : س ٦٨ ، ل ١٤ الأنثى من بقر الوحش .

الهقلة : ح ١٠ ـ النعامة ، والذكر هقل . الوحش : س ٣٧ .

الوحشية : ل ٣٦ . الهموس : ح ٧٨ ـ الأسد ، وسمّى هموساً لأنه يهمس همساً ، أى يمشى مشياً بخفة فلا يسمع صوت وطئه . الورد : ح ٧٨ الأسد .

(٤) ومن أعلام الرجال والنساء :

الأبناء : ح ٤٩ . ابن أم قطام : ح ٧٧ هو حجر .

ابنا بغيض : ع ٨٧ عبس وذبيان . ابنا ربيعة : ع ٧٥ .

ابنا ضمضم : ع ٨٩ هرم وحصين ابنا ضمضم المريّان ، قتلهما ورد بن حابس العبسي ، وكان عنترة قد قتل أباهما من قبل فكانا يتوعدانه .

ابن المخزم : ز ٤٣ — وفى رواية ابن الحزم بالحاء المهملة . ابن نهيك : ز ٤٢

ابنة مخرم : ع ٩ . ابنة معبد : ط ٩٥ — ابنة أخى طرفة بن العبد .

ابن هند : ح ٥٩ — هو عمرو بن هند .

أبو هند : ك ٢٣ — عمرو بن المنذر الأكبر ، وهو أبو المنذر أيضاً .

ابن يامن : ط ٤ — ملاح من أهل هجر ، أو تاجر ، ويروى « أو من سفين ابن نبتل » ابنا بغيض : ع ٨٧ ـ عبس وذبيان .

الأحلاف : ز ٢٦ — أسد وغطفان وطيء ، لأن خزاعة لما أجلت بنى أجلت بنى أسد عن الحرم خرجت فحالفت بنى طيء ثم غطفان .

أحمر عاد : ز ٣٢ — قدار عاقر الناقة ، قال الأصمعى : أخطأ زهير فى هذا لأن عاقر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود فغلط فجعله من عاد ، وقال المبرد هذا ليس بغلط ، لأن ثمود يقال لها عاد الأخيرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى ، والدليل على هذا قوله تعالى « وأنه أهلك عادا الأولى » .

الأراقم : ح ١٦ — قبيلة من بنى تغلب ، سموا « الأراقم » لأن عيونهم شبهت بعيون الحيات ، والأراقم واحدها « أرقم » فكانوا معروفين بهذا .

إرم : ح ٦٨ — والدعاء الأولى أو الأخيرة .

أسماء : ح ١ — صاحبة الحارث بن حلزة .

أم أوفى : ز ١ — امرأة زهير بن أبى سلمى .

طسم : ح ٤٩ ـ طسم وجديس قبيلتان من قبائل عرب الجنوب .

العباد : ح ٤٧ ـ قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية ، ونزلوا الحيرة .

عبس : ز ١٩ ـ قبيلة من قبائل العرب ، وعبس وذبيان هما ابنا بغيض .

عبلة : ع ٤ ، ٧ صاحبة عنترة . عتاب : ك ٦٣ ـ جد عمرو بن كلثوم .

علقمة بن سيف : ك ٦١ ـ رجل من سادات تغلب . عمرو : ع ٧٠ .

عمرو : ح ٢١ ، ٦٥ ، ٦٦ ـ هو عمرو بن هند ملك الحيرة .

عمرو بن أم أناس : ح ٨٤ ـ هو عمرو بن حجر الكندى ، وجده هو عمرو بن هند .

عمرو بن هند : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ . من ملوك المناذرة بالحيرة . وهند هى بنت عمرو بن حجر آكل المرار . عنيزة : س ١٤

العواتك : ح ٧٢ ـ نساء من كندة من الملوك .

غسان : ح ٨٠ ـ فى الأصل اسم ماء نزل عليه بنو مازن من الأزد و بنو جفنة ، فسموا به . الفلاق : ٥٧ رجل من بنى يربوع بنى حنظلة من تميم .

غيظ بن مرة : ز ١٦ ـ من ولد عبد الله بن غطفان . فاطمة : س ٢٢

قرط بن أعبد : ط ١٧ ـ رجل من قوم طرفة . قريش : ز ١٨ .

قضاعة : ك ٣١ ، ح ٤٨ ـ قبيلة من قبائل العرب قيس : ح ٥٠ ـ قوم من تغلب .

قيس : ح ١٧ ـ هو قيس بن معد يكرب .

قيس بن خالد : ط ٨٢ ـ من بنى شيبان .

كلثوم : ك ٦٣ ـ هو كلثوم بن مالك بن عتاب ، وهو أبو عمرو بن كلثوم .

كليب : ك ٦٥ ـ كليب بن ربيعة من سادات تغلب ، الذى أثار مقتله حرب البسوس . كندة : ح ٤٤ ـ قبيلة من قبائل العرب .

مالك : ط ٧٠ ـ ابن عم طرفة .

المالكية : ط ٣ ـ منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة .

محارب : ح ٤٥ ـ قبيلة من قبائل العرب . المرية : ل ١٧ ـ المنسوبة إلى قبيلة مرة .

معبد : ط ٧٣ ـ أخو طرفة . معد : ز ـ ٢٢ ، ك ٤٠ ، ٩٣

مرّة : ع ٧٥ . المنذر : ح ٥٩ ، ٨٠ ، هو المنذر بن ماء السماء .

المنذر بن ماء السماء : ح ٣٧ .

منشم : ز ١٩ ـ امرأة عطارة ، تحالف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها ، ثم خرجوا إلى الحرب فقتلوا جميعاً ، فتشاءمت العرب بها .

المهلهل : ك ٦٢ ـ صاحب حرب وائل التى تسمى حرب « البسوس » وهو أخو كليب ، وجدّ عمرو بن كلثوم من قبل أمه .

ميسون : ح ٦٠ ـ بنت ملك من ملوك غسان ، قتل النعمان أباها .

نوار : ل ١٦ ، ٥٥ ـ صاحبة لبيد . نوفل : ز ٤٣ .

هند : ح ٦ ـ صاحبة الحارث بن حلزه . وهب : ز ٤٣ .

(٥) ومن الصفات والكنايات :

الأتلع : ط ٢٩ ـ العنق الطويل . الأرعن : ح ٢٥ ـ الجبل .

الإرمى : ح ٦٨ ـ المنسوب إلى إرم جد عاد وابن سام بن نوح .

الأروع : ط ٣٦ ـ الفؤاد الذكى الذى يتوقد فطنة .

الأزهر : ع ٤٣ ـ الإبريق الأبيض من فضة أو رصاص .

الأسودان : ح ٧١ ـ التمر والماء ، وإنما قيل لهما أسودان وأحدهما أبيض لأن العرب تغلب أحد الاسمين على الآخر .

الأسيل : س ٣٧ ـ الخد الأسيل الذى فى طوله امتداد .

الأصفر المضبوح : ط ١٠٣ ـ القدح الذى وضع على النار ، فغيرت منه ، وأثرت فيه .

الألمى : ط ٨ ـ الثغر الموصوف باللمى ، وهو سمرة فى الشفة .

أم رئال : ح ١٠ ـ النعامة ، والرئال فراخ النعام ، واحدها رأل .

أم سقب : ك ١٩ ـ الناقة ، والسقب الذكر من أولادها .

الأمون : ط ١٢ ـ الناقة المأمون عثارها .

الأنقاء : ل ٤٢ ـ جمع نقا ، وهو الرمل الذى ارتفع طولا ، أوهو الكثيب الذى لم يخالطه غيره .

البكر : ع ٢٠ ـ السحابة التى لم تمطر بعد ، فهى أكثر ماء ، وفى رواية « جادت عليها كل بكر حرة » .

البهكنة : ط ٦٠ ـ المرأة الغضة الناعمة الشابة . البيت : ز ١٧ ـ الكعبة .

البيض : ك ٣٦ ـ السيوف . بيضة الخدر : س ٢٧ ـ المرأة .

الثياب : ع ٥٨ ـ كناية عن القلب « فشككت بالرمح الأصم ثيابه » .

الجرداء : ل ٦٦ ـ النخلة التى انجرد كربها وليفها .

الجزور : ل ٧٣ ـ الناقة التى جزرت أى نحرت .

الجسرة : ع ٣٨ ـ الناقة الضخمة القوية .

الجلى : ط ٧٥ ـ الخطة العظيمة التى يجل وقعها ويعظم خطرها .

الجمالية : ط ١٣ ـ الناقة تشبه الجمل فى قوة أعضائها ، ووثاقة خلقها .

الجنوح : ط ٢٦ ـ الناقة التى تعتمد على أحد شقيها .

الحالق : ل ٤٦ ـ الضرع الملآن .

حامى الحقيقة : ع ٦٠ ـ الرجل الذى يحمى ما عليه أن يحميه .

الحزاورة : ك ٩٢ ـ جمع حزوّر وهو الغلام الشديد .

الحصد : ل ٢٩ ـ الرأى المحكم . الحلوبة : ع ١٥ ـ الناقة المحلوبة .

الحليل : ع ٤٦ ـ الزوج .

الخذول : ط ٧ ـ الظبية خذلت صواحباتها ، فتخلفت عنهن .

الخضراء : ح ٧٧ ـ الكتيبة يكثر فيها السلاح ، فتكون كأنها خضراء .

الخطارة : ع ٢٧ ـ الناقة تخطر بذنبها تحركه وترفعه ، تضرب به حاذيها ، والحاذان حافتا الإليتين .

الخنساء : ل ٣٧ — البقرة الوحشية التى تأخر أنفها فى وجهها وقصر .

الدالج : ط ٢٢ — الذى يأخذ الدلو ويمشى بها من رأس البئر إلى الحوض ، حتى يفرغها فيه .

دريز : س ٦٣ — حصان سريع المشى ،كأنه يدر الجرى درا .

الدفاق : ط ٢٦ — الناقة التى تتدفق فى سيرها .

الدفواء : ح ٨٢ — الكتيبة المنحنية على ما تحتها ، يعنى أنها منعطفة على ملكها تقاتل عنه وتذب دونه ، والأدفى من القرون المنحنى .

الدلاص : ك ٧٦ — الدرع المحكمة . الدواجن : ل ٤٩ — الكلاب المعودة على الصيد

الدوارع : ك ٨٠ — الخيل التى عليها الدروع ، ودروع الخيل ما يجعل عليها من الكساء .

الديمة : ل ٤٠ — المطر الذى يدوم .

ذو البرة : ك ٦٤ — رجل من تغلب ، كان على أنفه شعر يلتوى كأنه البرة ، وهى الحلقة .

ذو التمائم : س ١٩ — الصبى تعلق فى عنقه خرزات تمنع عنه العين .

ذو خصل ط ١٦ — : الذنب .

ذو غروب : ع ١٦ — الثغر ، وغروب الأسنان حدها .

ذومرة : ل ٢٩ — الرأى القوى . ذو هبوة : ل ٦٤ — الجبل ذو الغبار .

الرّبذ : ع ٦١ — الرجل السريع الضرب بالقداح .

رحيبة الفرعين : ع ٥٧ — الدلو الواسعة .

رخص : س ٤٣ — الأنامل الغضة الطرية .

الرذية : ل ٧٦ — المرأة التى قد أرذاها أهلها أى ألقوها لعجزهم عن إطعامها وعجزها عن السعى والكسب لنفسها .

الرواعد : ل ٤ — السحائب جمع راعدة ، والرعد صوتها ، يصفقها الريح بعضها فى بعض فيحصل من تصادمها واحتكاكها هذا الصوت الذى يسمع منها .

الزفوف : ح ١٠ — الناقة السريعة الخفيفة ، والزفيف عدو النعام إذا أسرع .

الزهراء : ح ٥٥ ـ الناقة البيضاء .

الزيافة : ع ٢٧ و ٣٨ ـ الناقة تتبختر فى مشيتها .

السابح : ع ٤٩ ـ الحصان السريع . السابغة : ك ٧٦ ، ع ٦٠ ـ الدرع الطويلة .

السارية : ل ٥ ـ السحابة تسرى ليلا . السّبط : ل ٣١ ـ الغبار الممتد .

السقفاء : ح ١٠ ـ النعامة ، فى رجلها انحناء . السمر : ك ٣٦ ـ الرماح .

السمهرية : ل ٥٠ ـ الرماح الطوال ، يقال إنها منسوبة إلى «سمهر» اسم رجل كان يقوم الرماح .

الشادن : ط ٦ ـ الغزال إذا تحرك فاشتد ، واستغنى عن أمه .

الشامة : ح ٥٥ ـ الناقة السوداء . الشاة : ع ٦٦ و ٦٨ ـ كناية عن المرأة .

الشثن : س ٤٣ ـ الكف الغليظ الخشن .

الشدنية : ع ٢٦ ـ الناقة نسبة إلى « شدن » موضع باليمن .

الشقائق : ل ٣٧ ـ جمع شقيقة ، وهى أرض غليظة بين رملتين .

صادقتا سمع : ط ٣٤ ـ الأذنان . الصافية : ل ٦٠ ـ الخمر التى لاقذى فيها .

الصبوح : ل ٦٠ ـ الخمر تشرب أول النهار .

صدق الكعوب : ع ٥٦ ـ القناة الصلبة ، والكعب ما بين كل أنبوبتين .

الصفواء : س ٥٩ ـ الحجر الصلد . الصم : ل ١٠ ـ الديار لا تجيب السائل .

الصهباء : ل ٢٤ ـ السحابة التى فى لونها صهبة أى حمرة .

ضليع : س ٦٥ ـ الحصان التام الخلق الغليظ الألواح الكثير العصب .

طليح أسفار : ل ٢٢ ـ الناقة ، والطليح هو الذى أجهده السير وأهزله .

الطوىّ : ح ٧٥ ـ البئر المطوية . الظعائن : ز ٧ ـ النساء فى هوادجهن .

العاقر : ل ٨٤ ـ المرأة التى لا تلد . العبلاء : ح ٧١ ـ الهضبة البيضاء .

العتاق : ط ١٤ ـ الإبل الكرام . العشوزنة : ك ٥٨ ـ القناة الصلبة الشديدة .

العصم : س ٨٠ ـ الوعول المعتصمة بأعالى الجبال .

العندل : ط ٢٦ ـ الناقة الضخمة الرأس . العنود : ح ٨٢ ـ الكتيبة المحكمة .

العنيف : س ٦٢ ـ الراكب الذى ليس له رفق بركوب الخيل .

العوارض : ع ١٨ ـ منابت الأضراس ، واحدها عارض ، وأراد الأسنان كلها .

العوجاء : ط ١١ ـ الناقة الضامر .

العين : ل ٧ ـ البقر الوحش ، جمع عيناء ، وهى الواسعة العين .

العين : ع ٢٠ ـ المطر لا يقلع خمسة أو ستة أيام . الغادى : ل ٥ ـ السحاب ينشأ غدوة .

الغانية : ع ٤٦ ـ المرأة ذات الزوج المستغنية بزوجها ، ثم قيل للشابة غانية سواء أكانت ذات زوج أم لم تكن .

الغُبْس : ل ٣٨ ـ الذئاب التى لونها كلون الرماد ، وهو بياض فيه كدرة .

الغضف : ل ٤٩ ـ الكلاب المسترخية الآذان .

غلب : ل ٧١ ـ جمع أغلب ، وهو الفحل الغليظ الرقبة .

الغوى : ط ٦٤ ـ الرجل الضال المتنكب عن طريق الصواب .

الفاحش : ط ٦٦ ـ الرجل البخيل . الفارسية : ح ٧٧ ـ السلاح من عمل فارس .

الفراخ : ع ٧٧ ـ جمع فرخ ، وفرخ الرأس الدماغ .

قاصمة الظهر : ح ٥٦ ـ المصيبة التى تكسر الظهر لشدتها .

القراضبة : ح ٦١ ـ الصعاليك .

قريب بين المنسمين : ع ٢٨ ـ ظليم قريب بين المنسمين ، ومنسماه ظفراه المقدمان فى خفة . القرينة : ك ٦٦ ـ الناقة تقرن إلى غيرها .

القناة : ك ٥٧ ـ عود الرمح .

القهد : ل ٣٨ ـ ولد البقرة الأبيض ، أو هو الأبيض الذى يخالط بياضه صفرة أو حمرة .

قيد الأوابد . س ٥٧ ـ الحصان السريع الذى يمنع الوحوش من الإفلات .

القينى : ز ١٥ ـ الرحل المنسوب إلى بلقين ، وهم حى من اليمن تنسب إليهم الرحال .

الكافر : ل ٦٥ ـ الليل . الكبش : ح ٧١ ـ الرجل العظيم النبيل .

كثيرة غر باؤها : ل ٧٠ ــ : يقصد بها قبة النعمان بن المنذر .

الكديد : س ٦١ ــ الأرض المكدودة بحوافر الخيل .

كميت : س ٥٩ ــ الحصان فى لونه حمرة مشوبة بسواد .

الكهاة : ط ٩٠ ــ الناقة الضخمة السمينة .

الكواسب : ل ٣٨ ــ الذئاب التى تكسب الصيد .

اللاحب : ط ١٢ ــ الطريق لا حزونة فيه .

لزاز عظيمة : ٧٨ ــ الرجل الذى يلزم الأمر العسير حتى يذلله .

اللوامع : ل ٥٣ ــ الآل يراه الإنسان فى الضحا كأنه يرتفع وينحط .

المتبسم : ع ٥٤ ــ الثغر. المتردم : ع ١ ــ الثوب المرقع .

المتنزل : س ٥٩ ــ المطر . المتوحد ط ٩٨ ــ الرجل المنفرد الذى لا أصحاب له .

المثقف : ع ٥٦ ــ الرمح المصلح المقوم . المثقل : س ٦٢ ــ الراكب الثقيل .

المحنب : ط ٥٩ ــ الفرس الذى فى يده انحناء .

المحفوف : ل ١٣ ــ الهودج المغطى .

المحفوفة : ل ٣٥ ــ العين حفت بالقصب نابتا فيها ، وأصله أنه ينبت فى أحفتها أى جوانبها . المحمل : ح ٤٧ ــ البعير .

المحول : س ١٩ ــ الذى أتى عليه حول .

المخول : س ٦٩ ــ الصبي الكثير الأخوال .

مدبر : س ٥٨ ــ الحصان . المدجج : ع ٥٥ ــ الفارس الذى يتوارى بسلاحه

المدرية : ل ٥٠ ــ البقرة ذات القرون . مدّ النهار : ع ٦٤ ــ أوله .

المرابيع : ل ٤ ــ الأمطار تكون فى أول فصل الربيع .

المرتقب : ل ٦٤ ــ الموضع الذى يرقب فيه .

المرقال ط ١١ ــ الناقة تسرع فى سيرها .

المركل : س ٦١ الذى كد بحوافر الدواب ، من الركل ، وهو الضرب .

المرّية : ل ١٧ ـ المرأة منسوبة إلى قبيلة مرة .

المسبوعة : ل ٣٦ ـ البقرة التى أكل السبع ولدها .

المستكنة : ز ٣٥ ـ الخطة التى يكنها الإنسان فى صدره ، ويخفيها عن غيره .

المسحّج : ل ٢٦ ـ الحمار المعضض الذى عضضته الحمير .

المسجورة : ل ٣٤ ـ العين المملوءة ، وقيل إنها من الأضداد . قال أبو زيد :
المسجور يكون المملوء ، ويكون الذى ليس فيه شىء .

المسح : س ٦١ ـ الذى كأنه يصب الجرى .

المشعلة : ل ٣١ ـ النار التى أشعلت .

المشمولة : ل ٣٢ ـ النار التى أصابتها ريح الشمال فهى تلتهب .

المشوف : ع ٤٢ ـ الدينار المجلوّ مصرع الغابة : ل ٣٥ ـ القصب المائل .

المطفل : س ٣٧ ـ ذات الطفل . المطفل : ل ٧٤ ـ المرأة ذات الطفل .

المعفر : ل ٣٨ ـ ولد البقرة تريد فطامه فتمنعه من اللبن ، فإذا خافت عليه النقصان
رجعت فأرضعته ، ثم قطعت عنه ، حتى يأنس بذلك .

المعلم : ع ٤٢ ـ الدينار الذى فيه كتابة . المعم : س٦٩ ـ الصبى الكثير الأعمام

المغالق : ل ٧٣ ـ القداح التى تغلق الرهن أى تجعله مغلقا لا يمكن فكاكه .

المغذمر : ل ٧٩ ـ الرجل يرمى الكلام بعضه على بعض يستخف به ، لا يصلحه،
ولا يتأنق فيه .

المفايل : ط ٥ ـ الفتى لاعب الفيال أو صانعه ، وهى لعبة لهم كانوا يكومون التراب
أو الرمل ثم يخبئون فيه خبيئا ، ثم يشق المفايل بيده الكومة قسمين،
فيقول : فى أى الجانبين خبأت ؟ فإن أصاب غلب ، وإلا قيل له :
فال رأيك ! .

المفدم : ع ٤٣ ـ الإبريق الذى عليه الفدام ، وهو المصفاة .

مفر : س ٥٨ ـ الحصان . مقبل : س ٥٨ الحصان .

المقبّل : ع ١٦ ـ الثغر .

المقرمد : ع ٣٥ ـ السنام الذى لزم بعضه بعضا كأنه مبنى بالآجر .

مكر : س ٥٨ ـ الحصان . الملبد : ط ١٦ ـ الجمل يضرب بذنبه من الهياج .

الملمع : ل ٢٥ ـ الأتان أشرقت أطباؤها باللبن واسودت حلمتاها .

المنجرد : س ٥٧ ـ الحصان قصير الشعر .

المنيفة : ل ٦٦ ـ النخلة المنيفة الطويلة المشرفة .

مولى الأسرة : ط ١٥ ـ المكان الذى يفضل غيره ، وقد أصابه الولى وهو المطر الثانى من أمطار السنة ، لأنه يلى الوسمى ، وهو المطر الأول .

المولى : ط ٧٨ ، ٧٩ ـ ابن العم . الناجيات : ط ١٤ ـ الإبل السراع .

الناظرة : س ٣٧ ـ العين . النحام : ط ٦٤ ـ الرجل البخيل .

النقائذ : ك ٧٩ ـ الخيل التى استنقذت من قوم آخرين .

النهد : ع ٤٩ ـ الحصان الغليظ . الهاديات : س٦٧ ـ المتقدمات من الوحش

هادية الصوار : ل ٣٦ ـ البقرة التى تتقدم قطيع البقر .

الهيام : ل ٤٢ ـ الرمل اللين ، الذى ينهال ولا يتماسك .

الهيكل : س ٥٧ ـ الحصان العظيم الجرم .

الواكف : ل ٤٠ ـ المطر يكف من السحابة .

الوبيل : ط ٩٠ ـ الوبيل العصا ، وقيل هى خشبة القصارين ، وكل ثقيل وبيل .

الوجناء : ط ١٣ ـ الناقة العظيمة الوجنات ، لفضل قوة فيها .

الوحشية : ل ٣٦ ـ البقرة الوحشية . اليلندد : ط ٩٠ ـ الشديد الخصومة .

(٦) وصف أجزاء الجسم فى الإنسان والحيوان :

الإبهام : ل ٦٠ . الأتلع : ط ٢٩ ـ العنق الطويل .

الأزلام : ل ٤٤ ـ فى الأصل قداح الميسر ، وقد أطلقها لبيد على القوائم .

اللثة ، اللثات : ط ٩ . اللحم : س ١٢ ، ٧٢ ، ز ٦٢ . اللسان : ز ٦٢ .

المأكمة : ك ١٧ ـ رأس الورك . المتبسّم : ع ٥ . المتن : س ٥٩ .

المتنان : س ٦٦ ، المتون ك ٧٨ ، ٨٦ . المحال : ط ٢٠ ـ فقار الظهر .

المخلخل : س ٣٤ ـ موضع الخلخال من الساق . المرفقان : ط ٢٢ .

المشفر : ط ٣١ . المعصم : ع ٥٩ ، ز ٢ . المقبّل : ع ١٦ .

المنسم : ز ٥١ والمنسمان : ع ٢٨ ـ الظفران المتقدمان فى الخف . الناب ، الأنياب : ز ٥١ .

الناظرة : س ٣٧ . النحر : س ٩ ، ٦٧ ، ل ٦٨ ، ع ٨٠ ، ٨٨ .

النسا ، الأنساء : ح ٧٤ ـ عرق فى الساق الأسفل .

النواجذ : ع ٦٢ ـ الأسنان الضواحك . وهى التى تبدو عند الضحك ، والأكثر الأشهر أنها أقصى الأسنان .

النواشر : ز ٢ ـ عصب الذراع من باطنها وظاهرها . الوجه : ١٠ ، ل ٤٣ .

الوحشى : ع ٣٣ ـ الجانب الوحشى هو الجانب الأيمن من البهائم .

الوظيف : ما بين الرسغ إلى الركبة .

اليد : ط ١ ، ٢٤ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ز ١١ ، ل ٦١ ، ٦٥ واليدان : س ٧٥ ، ط ٢٥ ، ع ٣٤ ، ٤٧ ، ٦١ ـ الأيدى ك ٢٢ ، ٤٣ ، ح ٥٣ .

* * *

وإذا نظرنا فى هذه المجموعة من الألفاظ ألفينا الغريب منها هو تلك الألفاظ التى لم تعد مألوفة فى الاستعمال ، لأنها أسماء مواضع لا عهد لنا بها ، أو أعلام تغيّر أكثرها ، أو نبات أو حيوان لم نعد نراه فى بيئاتنا ، أو أسماء رمال وتلال اختلفت أطوالها وأبعادها ، ولم نعد نعيش فيها ، وكذلك وجدنا فى هذه الألفاظ أسماء لأجزاء من الخيل والإبل التى كان العرب يلازمونها فى عيشهم وحلهم وترحالهم ، وكانت تلك الملازمة هى السر فى معرفتها على جهة الاستقصاء والتفصيل ، على حين أن ذوى الثقافة اللغوية والأدباء لم يعد لهم ذلك الإلف بالحيوان الذى يدعو إلى المعرفة

الكاملة الشاملة ، وهذا هو السر فيما يبدو من غرابة تلك الألفاظ التى لم تكن على هذا النحو من الغرابة عند الجاهليين ، أو عند الذين عاشوا فى مثل حياتهم البادية .

أما الذين سكنوا فى القرى والحواضر ، وزاولوا الحرف والصناعات المختلفة ، فقد نأوا عن استعمال تلك الألفاظ التى لم يعودوا يجدونها فى حياتهم ، ولذلك جهلوا دلالاتها ، وصعب عليهم الوقوف على معناها ؛ واضطروا إلى الكشف عنها فى معاجم اللغة ، أو سؤال العارفين بها .

وعلى ذلك يمكن القول بأن ألفاظ المعلقات فيها غرابة ، ولكن بالنسبة إلى المتأخرين . وكذلك يمكن القول بأن فى كثير من ألفاظها جفاء وخشونة يبعدها عن أذواق أهل العصور المتأخرة . والسبب فى ذلك الجفاء وتلك الخشونة هو جفاء حياة الجاهليين وخشونة عيشهم ، وقسوة الطبيعة فى بيئاتهم ؛ ولذلك رأينا فى تلك الألفاظ ما تركب من حروف قوية ، كحروف الإطباق والقلقلة وكحروف الجهر وبعض أحرف الحلق ، مما كان له أثر فى وصف تلك الألفاظ بالجزالة والقوة التى قد ينفر منها ذوق الذين تحضرت لغتهم ، وجنحت إلى الرقة والسلاسة والعذوبة .

ولكن الحكم بأن جميع ألفاظ المعلقات على هذا الوصف لا يخلو من التوسع ، فإنّ فى تلك الألفاظ ما يمكن أن يوصف بالعذوبة والرقة أيضاً ، وذلك الاختلاف راجع كما أسلفنا إلى اختلاف الأغراض التى عالجتها المعلقات ، واختلاف حظّ أصحابها من التحضّر أو التبدِّى .

أما الأساليب فإنها هى أساليب العربية الصحيحة التى احتذاها المعبّرون عن عواطفهم وانفعالاتهم وأمانيهم من الذين جاءوا من بعدهم ، إذا أرادوا التعبير الأدبى عن أى معنى من المعانى التى تعرض لهم ، وليس من السهل الحكم على تلك الأساليب بمخالفة أصول التعبير ، لأن الذين وضعوا هذه الأصول إنما استقوها من هذا الشعر وأمثاله مما أثر من كلام الجاهليين ، واتخذوا من أساليبه مقاييس قاسوا بها أساليب المتأخرين ، وحكموا عليها بمقتضى هذه المقاييس بالصحة أو بالخطأ .

وكان الكلام الفصيح عندهم ، هو الكلام الجارى على كلام العرب القدماء الموصوفين بالفصاحة أو بالبلاغة ، وفى مقدمتهم أصحاب المعلقات .

ويغلب على أساليب المعلقات الإيجاز وحذف الفصول .

ومن خصائصها مخاطبة الرسوم ، ومساءلة الأطلال والدمن ، وخطاب الحيوان ، والتحدث عن مشاعره ، وقد خاطب امرؤ القيس الليل (٤٨ — ٥٠) وحيا زهير الرَّبع فى قوله :

فلما عرفتُ الدار قلتُ لرَبْعها ألا انعمْ صباحاً أيها الرَّبعُ واسلمِ

ووقف لبيد يسأل الأطلال ، وهو يعرف أنه لن يظفر منها بجواب :

فوقفتُ أسألها كيف سؤالُنا صُمًّا خوالدَ ما يبين كلامُها

وتحدث عنترة إلى الرسوم ، حتى اختلط عليها أمرها :

أعياكَ رسمُ الدار لم يتكلّم حتى تكلّم كالأصمّ الأعجمِ

ولقد حبستُ بها طويلاً ناقتى أشكو إلى سُفْعٍ رواكدَ جُثَّمِ

حتى حيَّاها ، وتمنى جوابها :

يا دار عبلةَ بالجواء تكلّمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

وصوّر محاولة حصانه الشكوى إليه من هول الموقعة، ومما ناله من الجراح :

فازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلىَّ بعَبرةٍ وتحمحم

لوكان يدرى ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو علم الكلامَ مكلّمى

ولم يكتف بذلك حتى طلب إلى حبيبته أن تسأل الخيل ، لتخبرها عن شجاعته وحسن بلائه فى الحروب :

هلاَّ سألتِ الخيل يا ابنةَ مالكٍ إنْ كنتِ جاهلةً بما لم تعلمى

أما المحسنات البديعية وضروب الصناعة فقد ألمّ بها أصحاب المعلقات ، وفطنوا إليها من غير توقيف ، وذلك لأنهم أحسُّوا بفطرتهم الفنية بأن الأدب فن ،

والفن مجال التأنق ، وكانت أداتهم فى هذا الفن الشعرى هى الألفاظ والأساليب ولا شك أن الشعر فى تخير ألفاظه ، وتنسيقها ، ومراعاة موسيقى الألفاظ ، وموسيقى القافية ، كان خير مظهر للصناعة الأدبية ، والتأنق الفنى فى التعبير .

ولذلك كان حسب الشعر مافيه من نظام القصيدة ووحدة الوزن والقافية ليكون مظهراً للفنية فى صناعة الشعر ، ولكن بعض الشعراء اهتدوا إلى ضروب أخرى من الصناعة ، واستعملوها فى قصد واعتدال ، لايلحظ فيه أثر التعمل أو التكلف فى طلب الصنعة ؛ ومع ذلك فإن تلك الصنعة تبدو فى فنون قليلة من فنون البديع التى أحصاها المتأخرون ، ووضعوا لها الألقاب والمصطلحات ، وغالى كثير من أدبائهم فى استعمالها ، حتى ظهر على أعمالهم الأدبية مسحة التكلف ذلك التكلف الذى زهّد الناس فى أدبهم ، بل زهدهم فى البديع نفسه الذى أصبح معناه فى أذهان كثير من الناس طلاء على غير بناء ، و إخفاء لمعالم القبح فى الأفكار، وستر الضعف فى المعانى .

ومن الفنون البديعية التى وقعت فى المعلقات : التصريع ، والترصيع ، والتجنيس ، والمطابقة . وسنعرض للفنين الأولين فى أثناء تعرضنا للأوزان والقوافى .

ومن « التجنيس » الذى وقع فى المعلقات على قلة قول طرفة :

وإنْ أدعَ للجلّى أكنْ من حُماتها وإن يأتك الأعداء بالجهد أجْهَدِ

وقوله :

بلا حدثٍ أحدثْتُه وكمحْدِثٍ هجائى وقذفى بالشكاة ومُطْرَدى

وقول زهير :

ووركْن فى السوبانِ يعلون متنه عليهنّ دَلُّ النـــاعم المتنعّمِ

وقول لبيد :

محفوفةٌ وسْطَ اليراعُ يظلُّهـــا منه مصرّع غابة وقيامُهـــا

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلتْ وهادية الصوار قوامُها

وقوله :

وإذا الأمانة قسمت فى معشر أوْفَى بأوفر حظِّنا قسّامُها

وقول عنترة :

علقتها عَرَضاً وأقتلُ قومها زعما لعمرُ أبيك ليس بمَزْعَمِ

ومماورد فيها من «المطابقة» ، وهى الجمع بين الأضداد ، قول امرىء القيس :

مكرٍّ مفرٍّ مُقبل مُدبر معاً كجلمود صخر حطّه السيل من علِ

وقول :

ورحنا يكاد الطَّرف يقصر دُونه متى ما ترقّ العينُ فيه تسفَّلِ

وقوله :

على قطَنٍ بالشيم أيمنُ صوبهِ وأيسرُهُ على السِّتار فيذبُلِ

وقوله طرفة :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاق طريفى ومتلدى

وقوله :

لعمرُكَ ما أمْرى علىَّ بغمَّةٍ نهارى ولا لَيلِى علىَّ بسرْمَدِ

وقوله :

أرى الموتَ أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقربَ اليومَ من غدِ

وقول زهير :

جعلْنَ القنَانَ عن يمينٍ وحَزْنَهُ وكم بالقَنَانِ من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ

وقوله :

يميناً لَنِعْمَ السَّيدان وجدتُما على كلِّ حالٍ من سحيل ومبرمِ

وقوله :

يؤخَّرْ فيوضعْ فى كتاب فيدَّخرْ ليوم الحساب أو يعجَّل فيُنْقَمِ

وقوله :

ومن لم يُذُدْ عن حوضه بسلاحه يهدَّمْ ومنْ لا يَظْلِمِ الناس يُظلَمِ

وقوله :

وكائن ترى من صامتٍ لكَ مُعجبٍ زيادتُه أو نقصُه فى التكلُّمِ

وقول لبيد :

دِمَنٌ تجرَّم بعد عهد أنيسها حِجَجٌ خلوْنَ حلالُها وحرامُها

وقوله :

فاقطع لُبانة من تعرّض وصلُهُ ولَشَرُّ واصل خلّةٍ صرّامُها

وقوله :

محفُوفةٌ وسط اليراع يظلها منه مُصَرَّع غابةٍ وقيامُها

ومنها قول عمرو بن كلثوم :

وإنَّ غداً وإن اليومَ رهنٌ وبَعد غدٍ بما لا تعلمينـــــا

وقوله :

بأنّا نوردُ الراياتِ بيضـــا ونُصْدِرُهنَّ حُمراً قد روينا

فقد طابق فيه بين « الإيراد » و « الإصدار » . وفى هذا البيت أيضاً ما يسميه البديعيون « التدبيج » الذى يلحقونه بالطباق ، ويعرفونه بأنه الجمع بين الألوان فى معنى من المدح أو غيره بقصد التورية أو الكناية . والجمع هنا بين البياض والحمرة يراد به الكناية عن شجاعتهم ، وأنهم لا يقيمون على ضيم .

ومما ورد فى معلقته من « المطابقة » أيضاً قوله :

بشبان يَرَوْنَ القتل مجداً   وشيبٍ فى الحروب مجرّبينا

وقوله :

برأسٍ من بنى جُشَمَ بن بكر   ندقُّ بِهِ السُّهولةَ والحزونا

وقوله :

وكنا الأيْمَنِينَ إذا التقينا   وكان الأيْسَرِينَ بنو أبينا

وقوله :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً   ويشربُ غيرُنا كدراً وطينا

وقول عنترة :

تُمْسِى وتصبحُ فوقَ ظهرِ حشيةٍ   وأبيت فوق سَرَاةِ أدهمَ مُلْجَمِ

وقوله فى ابنى ضمضم :

الشاتمىْ عِرضى ولم أشتُمْهمـــا   والنَّاذِرَيْنِ إذا لم القهما دمى

وقول الحارث بن حلّزة :

إنْ نبشْتُمْ ما بينَ مِلْحَةَ فالصَّا   قبِ فيه الأمواتُ والأحياء

وقوله :

لا يقيمُ العزيزُ بالبلد السَّهْـ   ـلِ ولا ينفعُ الذليلَ النَّجاء

وتفيض المعلقات بذلك الفنّ الذى يسميه البلاغيون « التناسب » أو « مراعاة النظير » إذ كان الأدب بعامة والشعر بخاصة مظهراً للتناسب والمطابقة بأوسع ما تشتمل عليه هاتان الكلمتان من المعانى .

كما أن فى كثير من أعجاز الأبيات وأواخرها كثيرا من ذلك الفن الذى يسمونه « التذييل » من أمثال قول عنترة * ليس الكريم على القنا بمحرّم * وقول زهير * ومهما يُكتَمِ اللهُ يَعْلَمِ * وقول لبيد * إن المنايا لا تَطيشُ سهامها *

وقد استعمل القدماء هذا البديع بقصد واعتدال ، وإلى هذا أشار عبد الله ابن المعتز فى مقدمة كتاب « البديع » الذى يقول فيه بعد أن نسب تسمية هذه

الفنون بالبديع إلى المحدثين : ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس، ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفنّ ، ولكنه كثر في أشعارهم ، فعرف في زمانهم ، حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ، ودل عليه .. وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل[1] .

٣ — أوزان المعلقات وقوافيها

أما الأوزان فقد اهتدى إليها أولئك الشعراء بوحي من فطرتهم ، ونظموا في تلك الأبحر الشعرية بآذانهم للموسيقية المرهفة التي كانت تصحح أخطاءهم فكانوا يضبطونها تلقائيًّا ، إذا انحرفوا عن مواقع النغم ، أو وقعوا في شذوذه الذي تنكره أذواقهم وأسماعهم ، كما كان لطول التجربة وكثرة المعاناة أثرهما في هذا الضبط والتصحيح ، من غير معلمين يوقفونهم على مواضع الخطأ والصواب .

ولا شك أن أولئك الشعراء بطبيعتهم كانوا أكثر الناس إحساساً بموسيقى الشعر وتأثراً بها ، وليس من الطبيعي أن يلقنوا أصول هذه الصناعة من عامة الناس أو من علمائهم ، لأن التقنين العلمي ووضع القواعد التي تنظم هذه الصناعة لم يكن لهما وجود في تلك البيئة البدائية ، وإنما وضعت تلك القوانين ونظمت القواعد فيما بعد في عصور الحضارة ، باستقراء تلك الأبيات والقصائد التي وضع الشعراء فيها بأنفسهم تقاليد هذا الفن وأصوله .

ولم يكن أصحاب المعلقات هم الذين اخترعوا هذه الأوزان التي نراها في قصائدهم ، وإنما كانت تلك الأوزان وغيرها من تقاليد الشعر ثمرة للتجارب الكثيرة التي عبَرَ بها فن الشعر عند الموهوبين من أبناء الأمة العربية في عصور

---

(١) كتاب البديع لابن المعتز : ص ١٦ — طبعة الحلبي ١٩٤٥ م .

موغلة فى القدم قبل نشأة أصحاب المعلقات . وليس هذا المجال مجال البحث فى أولية الشعر وتطوره من الحداء إلى الرجز إلى المقطعات ، وانتهائه إلى تلك القصائد الطويلة المحكمة . وقد سبق أن قررنا أن الشعر الذى نقرؤه فى المعلقات كان الصورة المثلى للفن الشعرى كما تصوره العرب ، أو بعبارة أخرى كان هذا الشعر هو التجربة الأخيرة لهذا الفن بعد أن بانت معالمه بعد المرور بتجارب كثيرة على أيدى عدد كبير من الشعراء ، منهم من عرفه التاريخ ، وكثير منهم طوى ذكرهم الزمن .

وإذا طبقنا المعارف العروضية التى نظمها المحدثون على أوزان الشعر فى المعلقات ، ألفينا تلك الأوزان قد توزعت بين أربعة من بحور الشعر ، هى : الطويل ، والكامل ، والوافر ، والخفيف :

فما جاء منها من بحر الطويل :

(١) معلقة امرىء القيس . (٢) معلقة طرفة . (٣) معلقة زهير .

وما جاء منها من بحر الكامل :

(١) معلقة لبيد . (٢) معلقة عنترة .

وما جاء منها من وزن الوافر : معلقة عمرو بن كلثوم .

وما جاء منها من بحر الخفيف : معلقة الحارث بن حلزة .

وقد التزم كل شاعر من شعراء المعلقات الوزن الذى تخيره فى كل بيت من أبيات قصيدته ، ولم يخرج على ذلك الوزن فى أى بيت من أبياتها ؛ أى أن الوحدة الموسيقية قد روعيت تمام المراعاة فى سائر أجزاء كل قصيدة ، مع الطول الملحوظ فى كل تلك القصائد ، ومع تعدد الأغراض فى كل قصيدة منها .

ومن مبالغاتهم فى مراعاة الوزن لجوؤهم إلى ملاحظة التوازن بين أجزاء بعض الأبيات ، وهذا فن من فنون البديع سماه قدامة « الترصيع » تشبيهاً له بترصيع الجوهر فى الحلى ، وأساسه أن يكون فى المنثور ، وقد مثل له قدامة فيه

بقول بعضهم « حتى عاد تمر يضُك تصريحاً ، وصار تمر يضُك تصحيحاً » وعرَّفه بأن الناثر « يتوخى فى كل جزأين متواليين أن يكون لهما جزآن متقابلان يوافقانهما فى الوزن ، و يتفقان فى مقاطع السجع[1] .

وهو فى المنظوم « أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبيه به ، أو من جنس واحد فى التصريف[2] » . ومما جاء من هذا الفن فى المعلقات قول امرىء القيس فى وصف فرسه :

مكرٍّ مِفرٍّ مُقبلٍ مُدْبرٍ معاً   كجلمود صخرٍ حطَّهُ السيلُ مِنْ عَلِ

وقوله فى وصف ثغر حبيبته :

بثغرٍ كمثل الأقحوان منوَّرٍ   نقيٍّ الثنايا أشنبٍ غير أثعلِ[3]

وقوله فى وصف أصابع يدها :

وتعطو برخصٍ غير شثنٍ كأنه   أساريع ظبيٍ أو مساويكُ إسحِلِ

وقوله فى وصف بقر الوحش :

فأدبرنَ كالجزع المفصَّلِ بينَهُ   بجيدٍ مُعِمٍّ فى العشيرة مُخْوِلِ

وقول طرفة فى وصف ناقته :

جُماليَّةٍ وَجْناء تَرْدِي كأنهـا   سَفَنَّجَةٌ تبرِى لأزعرَ أرْبَدِ

وقوله فى الهجاء :

بطىء عن الجُلَّى سريعٍ إلى الخَنَا   ذَلُولٍ بأجماع الرجال مُلَهَّدِ

وقوله لبيد فى الفخر بأمانة قومه :

وإذا الأمانةُ قُسِّمتْ فى معشرٍ   أوْفَى بأوْفَرِ حظِّنا قسَّامها

---

(١) جواهر الألفاظ ٣ — مطبعة السعادة : القاهرة ١٩٣٢ م

(٢) انظر نقد الشعر ١٤ — مطبعة بريل : ليدن ١٩٥٦ م .

(٣) الشنب محركة — كما فى القاموس — ماء ورقة وعذوبة فى الأسنان ، أو نقط بيض فيها ، أو حدة الأنياب . والثعل على وزن قفل وجبل السن الزائدة خلف الأسنان ، أو دخول سن تحت أخرى فى اختلاف من المنبت .

وقول عنترة فى وصف أطلال حبيبته :

حُيِّيتَ من طَلَلٍ تقادم عهدُهُ　　أقْوَى وأقْفَرَ بعد أمِّ الهَيْثَمِ

وقوله :

ولقد نزلْتِ فلا تَظنِّى غَيْرَهُ　　مِنِّى بمنزلة الحَبِّ المُكْرَمِ

وكقوله فى وصف الناقة :

خطّارَةٌ غِبَّ السُّرَى مَوّارَةٌ　　تَطِسُ الإكامَ بوَخْدِ خفٍّ ميثَمِ

وقول الحارث بن حلزة :

إن نبشتم ما بين ملحةَ فالصّا　　قبِ فيه الأمواتُ والأحياء

وقوله :

لا يقيمُ العزيزُ بالبلد السَّهْـ　　ـلِ ولا ينفعُ الذليلَ النجاء

قال قدامة « إن هذا الفن يوجد فى أشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم، وفى أشعار المحدثين المحسنين منهم » .

وكان حسب الشعر ما وضع فى حده من اللفظ والوزن والقافية والمعنى ، وكان حسب الشاعر على هذا الحد ألفاظه المختارة، ووزنه المتسق ، ومعناه المبتكر، وقافيته المستوية .

أما الترصيع فإنه مبالغة فى التنسيق و التجميل والتأنق . وهو يحسن إذا اتفق له موضع فى البيت يليق به ، فإنه ليس فى كل موضع يحسن ، ولا على كل حال يصلح ، ولا هو أيضاً إذا تواتر واتصل فى الأبيات كلها بمحمود ، فإن ذلك إذا كان دلّ على تعمد ، وأبان عن تكلف ، والشاعر المجيد هو من لا تلحظ فى شعره تعمل الصنعة أو تكلف الصياغة[١] .

أما القوافى التى قامت عليها أواخر الأبيات فى كل معلقة من المعلقات ، والتى عرفها العلماء بأنها الحروف من آخر البيت إلى أول متحرك ساكن ،

---

(١) انظر كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبى) ٢٢١ — الطبعة الثانية ١٩٥٨ .

أو هى عبارة عن الساكنين اللذين فى آخر البيت مع ما بينهما من الحروف المتحركة ومع المتحرك الذى قبل الساكن الأول ، فقد انتظمت فى المعلقات ، ولم يخرج على مقاييسها التى وضعها العروضيون وعلماء القوافى فيما بعد إلا القليل الذى يكاد لا يذكر ، وهى حروف معدودة جانب فيها بعض الشعراء ما عرف من الوحدة المطلوبة فى تلك القوافى . فحرف الروىّ وهو الحرف الذى بنيت عليه القصيدة ونسبت إليه واحد لم يتغير فى كل قصيدة . وقد التزم امرؤ القيس حرف اللام ، وطرفة حرف الدال ، والتزم زهير ولبيد وعنترة حرف الميم ، والتزم عمرو بن كلثوم حرف النون ، كما التزم الحارث حرف الهمزة ، ولم يخرج واحد منهم عن حرف الروى الذى اختاره لمعلقته .

وكان هذا الالتزام هو الذى جعل القافية تدخل فى مفهوم الشعر وحدَه عند العرب ، واعتبارها عنصراً من عناصر الشعر الأصيلة فيه ، حتى غالى بعض شعرائهم فيما بعد ، فألزم نفسه بما لا يلزم من عدد حروفها .

ودعاهم الحرص على وحدة الموسيقى الحرص على حركة الروىّ ، وعدُّوا الخروج عليها عيبا من عيوب القافية ، عابوا به الشعراء ، وسموا هذا العيب « الإقواء » . نقل ابن قتيبة عن أبى عمرو بن العلاء أن « الإقواء » هو اختلاف الإعراب فى القوافى ، وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة ، كقول النابغة :

قالت بنو عامر : خالُوا بنى أسدٍ ... يا بُؤْسَ للجهلِ ضرّاراً لأقوامِ (١)

تبدو كواكبُه والشمسُ طالعةٌ ... لا النورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

وكان يقال إن النابغة الذبيانى و بشر بن أبى خازم كانا يقويان (٢)

(١) خالوا بنى أسد : تاركوهم ، يقال : خالاه إذا تاركه .

(٢) الشعر والشعراء ١/٤٢ . ونقل ابن قتيبة أن بعض الناس يسمى هذا العيب (الإكفاء) ويزعم أن الإقواء نقصان حرف من فاصلة البيت ، كقول حجل بن نضلة ، وكان أسر بنت عمرو بن كلثوم ، وركب بها المفاوز ، واسمها النوار : =

وليس فى المعلقات من هذا العيب من عيوب القافية إلا بيت واحد ، هو قول الحارث بن حلِّزة :

فملكْنا بذلك الناسَ حتَّى   مَلَكَ المنذرُ بنُ ماء السَّماء

وهذا يؤكد ما قلناه من أن المعلقات كانت نهاية التجارب فى صياغة هذا الفن الشعرى ، فإن بيتاً واحداً وقع فيه هذا العيب قليل يكاد لا يذكر ، مع أن قدامة بن جعفر ينصّ — بعد أن عرّف الإقواء على النحو السابق — على أن الإقواء فى شعر الأعراب كثير جداً ، وفيمن دون الفحول من الشعراء ... ثم يقول : وقد ارتكب بعض فحول الشعراء الإقواء فى مواضع[1]. وقال صاحب القاموس: يقال : أقوى الشعرَ خالف قوافيه برفع بيت وجر آخر ، وقلت قصيدة لهم بلا إقواء[2].

وكذلك التزم أصحاب المعلقات « الوصل » وهو حرف اللين الناشىء من من إشباع حركة الروى كالياء الناشئة من إشباع الكسرة فى معلقة امرىء القيس ومعلقة طرفة ومعلقة زهير ومعلقة عنترة ، والواو الناشئة من إشباع الضمة فى معلقة الحارث ، والألف الناشئة من إشباع الفتحة فى أكثر قافية عمرو بن كلثوم ؛ ومن « الوصل » أيضاً الهاء التى تلى حرف الروى، سواء أكانت ساكنة أو متحركة ، كما فى معلقة لبيد :

عفت الديار محلُّها فمقامُها   بمنىً تأبّد غوْلُها فرِجَامها

فإن هذه المعلقة رويها الميم والهاء وصل ، قد التزم لبيد الروىّ وهاء الوصل والألف الناشئة عن حركة هاء الوصل التى يسميها العلماء « الخروج » والألف

=

حنت نوار ولات هنا حنت   وبدا الذى كانت نوار أجنت
لما رأت ماء السلا مشروبا   والفرث يعصر فى الإناء أرنت

سمى إقواء، لأنه نقص من عروضه قوة — وكان البيت يستوى بأن يقول « مقشربا » .
يقال أقوى الحبل ، إذا جعل بعض قواه أغلظ من بعض .

(١) نقد الشعر ١٠٩ .   (٢) القاموس المحيط ٤/٣٨١ .

التى قبل حرف الروى ، التى يسميها العلماء « الرِّدْف » . كل ذلك قد التزمه لبيد، ولم يخرج عليه فى قافية أى بيت من تلك القصيدة الطويلة.

وقد وقع عمرو بن كلثوم فى عيب من عيوب القافية ، ذلك العيب الذى يسمونه « السِّناد » وهو اختلاف مايراعى قبل الروىّ من الحروف والحركات، وذلك فى قوله فى وصف الدرع :

إذا وُضعتْ عن الأبطال يوماً　　　رأيتَ لها جُلُودَ القوم جُونَا

كأنَّ متونَهُنَّ متونُ غُدْرٍ　　　تصفِّقُها الرياحُ إذا جَرَيْنَا

وتحملُنا غَداةَ الرَّوع جُرْدٌ　　　عُرِفْنَ لنَا نقائذَ وافْتُلينَا

ففى قوله « جَرَيْنَا » سناد ، يسمى « سناد الحَذْو » وهو عيب من عيوب القافية ، لأن حركة الراء الفتحة ، وحركة ما يماثلها الضمة فيما قبلها « جُونا » والكسرة فيما بعدها « افتُلِينا » . والفتحة مع الضمة متباعدتان ، والفتحة مع الكسرة متباعدتان أيضاً ، أما الضمة مع الكسرة فإنهما متقاربتان ، ولذلك لم يعدوا اجتماعهما عيبا .

ومن عيوب الإعراب بسبب الوزن ما ذكره ابن قتيبة[1] من أن لبيداً فى قوله :

تَرَّاكُ أمكنة إذا لم أرضَها　　　أو يعتلقْ بعضَ النفوس حمامُها

قد اضطر إلى أن يسكن ما كان ينبغى له أن يحركه ، وذلك فى قوله « يعتلقْ» لأنه يريد : أتركُ المكان الذى لا أرضاه إلى أن أموت ، ولا أزال أفعل ذلك ، و « أو » هاهنا بمنزلة « حتى » .

ومن محاسن القوافى مايسمى « التصريع » وهو أن يكون مقطع المصراع الأول فى البيت الأول مثل قافيته ، وهذا الفن قد التزمه جميع أصحاب المعلقات، ولذلك قال قدامة إن الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين كانوا يتوخون التصريع ، ولا يكادون يعدلون عنه ، وربما صرّعوا أبياتا أخر من

(١) الشعر والشعراء ١/٤٥ .

القصيدة بعد البيت الأول . وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره ، وأكثر من كان يستعمل ذلك امرؤ القيس لمحله من الشعر[1] فمن ذلك قوله :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزلِ   بسقط اللوى بين الدَّخول فحوملِ

ثم أتى بعد ذلك بأبيات فقال :

أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلُّلِ   وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأجملى

ثم أتى بأبيات بعد هذا البيت فقال :

ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلِ   بصُبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ

ومن ذلك مافعل عمرو بن كلثوم الذى ابتدأ معلقته بقوله :

ألا هبِّى بصحنك فاصبحينا   ولا تبقى خمور الأندرينا

ثم أتى بعد ذلك بأبيات فقال :

قفى قبل التفرّق ياظعينا   نخبِّرْك اليقين وتخبرينا

ثم أتى بأبيات كثيرة بعد هذا البيت ، حتى قال :

إذا لم نحمهنّ فلا بقينا   لشىء بعدهنّ ولا حَيينا

وكذلك فعل عنترة ، فوالى بين بيتين مصرعين فى أول المعلقة ، وذلك فى قوله :

هل غادر الشعراء من متردَّمِ   أم هلْ عرفتَ الدار بعد توهُّمِ

أعياك رسمُ الدار لم يتكلَّمِ   حتى تكلَّم كالأصمِّ الأعجمِ

ثم أتى ببيت غير مصرّع ، وأتبعه بقوله :

يادار عبلةَ بالجواء تكلمى   وعِمى صباحاً دارَ عبلةَ واسلمى

وهذا التصريع يعد من أمارات إجادة الشاعر وتعلقه بفنه ، وأن موسيقى اللفظ تلازمه ، ويدل على أن الشاعر قد حدّد القافية التى سيبنى عليها قصيدته . ومن جهة السامع فإن التصريع إعداد لأذنه ، وتمهيد لحسّه لمعرفته هذه القافية

(١) نقد الشعر ١٩ .

وتقبلها . والترصيع فى المنظوم نظير التسجيع فى كل كلام منثور ، فكما أن الكلام المسجّع تدل فاصلة الفقرة الأولى على فاصلة تاليتها ، فكذلك يكون عجز النصف الأول من البيت الأول مؤذنا بقافيته ، ومتى عرف التصريع عرفت القافية . والشاعر المجيد هو من يعدّ أذنك لتقبل لفظه ، ليعد عاطفتك للتأثر بمعانيه . وإنما يذهب الشعراء المطبوعون المجيدون إلى ذلك — كما يرى قدامة — لأن بنية الشعر إنما هى التسجيع والتقفية ، فكلما كان الشعر أكثر اشتمالا عليه كان أدخل له فى باب الشعر ، وأخرج له عن مذهب النثر .

وبعض النقاد لا يرى هذا التصريع مختاراً إذا تكرر فى القصيدة ، ويرى أن التصريع وغيره من محاسن الكلام والشعر إنما يحسن منها ما قلّ وجرى مجرى اللمعة واللمحة ، وأما إذا تواتر وتكرر ، فليس ذلك عندهم مختاراً . ويمثلون لذلك بالخال يحسن فى بعض الوجوه ، ولو كان فى الوجه عدة خيلان لكان قبيحا ، ويكون فى بعض النقوش يسير من سواد أو حمرة ، أوغيرهما من الألوان، فيحسن المزاج والنقش بذلك القدر من اللون ، فإن زاد لم يكن حسناً ، وتستحسن غرة الفرس وهى قدر مخصوص ، فإن كان كله أبيض ، أو زاد ذلك القدر من البياض لم يحسن(١) .

وأحسن ابن رشيق التعليل للتصريع وتكريره بعد البيت الأول ، فقال إن سبب التصريع مبادرة الشاعر القافية ، ليعلم فى أول وهلة أنه آخذ فى كلام موزون غير منثور ، ولذلك وقع فى أول الشعر ، وربما صرع الشاعر فى غير الابتداء وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة ، أو من وصف شىء إلى وصف شىء آخر ، فيأتى حينئذ بالترصيع إخباراً بذلك ، وتنبيهاً عليه(٢) .

٤ — معانى المعلقات وأخيلتها

من أهم ما تمتاز به معانى الشعر فى المعلقات أنها معان فطرية ألفها الشعراء

---

(١) انظر سر الفصاحة ١٨٠ .

(٢) انظر كتاب العمدة ١/١١٥ .

من واقع حياتهم وما زاولوه بأيديهم ، ورأوه بعيونهم ، وسمعوه بآذانهم ، من آثار الطبيعة الحيّة ، وآثارها الجامدة أيضاً . وقد تفاعلت شاعر يتهم بكل مظاهر تلك الحياة ، كما تفاعلت بالأحداث التي وقعت فيها ، وتكونت منها تجارب وعواطف وانفعالات ؛ عبّروا عنها في تلك القصائد الطويلة .

ومن أهم خصائص هذا الشعر الصدق والصراحة في التعبير عن تلك الأحاسيس والعواطف والانفعالات ، ولم يحاول شاعر من الشعراء أن يخفي شيئاً من مشاعره أو عواطفه أو انفعالاته ، بل عرضها كل واحد منهم عرضاً صريحاً صادقاً . وكان ذلك الصدق أثراً من آثار الحرية التي كان يتمتع بها الجاهلي في تلك الحياة الحرة الطليقة التي لا تعترف بالسدود ولا تعرف القيود .

ونلمح أثر ذلك الصدق في كثير من أبيات معلقة امرىء القيس التي عبّر فيها عن شيء من تجاربه الماجنة ، في غير تعفف ولا استحياء ، ووصف فيها بعض مغامراته ، ودبيبه إلى العبث في خفية عن الرقباء .

ونلمحه أيضاً في كثير من أبيات معلقة طرفة التي وصف فيها إسرافه على نفسه في انتهاب المتع ولذاذات العيش في غير حذر من المستقبل ، أو إشفاق من العذل والتأنيب .

ومن آثار الصدق والصراحة أيضاً ذلك الزهو الذي تجاوز حدود الفخر في معلقة عمرو بن كلثوم على ملك من ملوك الحيرة ، والتعريض بذلك الملك ، وإظهار التمرد على سلطانه وسلطان أتباعه .

ومن آثاره أيضاً ما كان من الحارث بن حلزة الذي ذكر لقومه كثيراً من الأيادي على ذلك الملك وآبائه ، حين ردوا عنهم طمع الطامعين في ملكهم ، وأعانوهم على النيل من أعدائهم .

وتلك روح البداوة التي هامت بالصراحة ، وتعشقت الحرية في العمل وفي القول والتفكير ، في غير مبالاة بمن لا يرضيهم هذا القول ، أو ذلك العمل ،

ولا يمثل الواجب والأخلاق التى قد تحدّ من هذه الحرية ، والعقول التى قد تنكرها ، والأذواق التى قد تنفر منها .

وتلك هى الفطرة التى تنفر من التجمّل ، وتنأى عن التكلف فى استرضاء البيئة والمجتمع .

ومن أوصاف هذه المعانى أنها معان بسيطة ، لأنها عالجت حياة بسيطة ساذجة فى طبيعتها ، وفى طبيعة الأحياء الذين لم يعرفوا الغلو فى شىء من طعامهم أو شرابهم أو أسلوب حياتهم ، وذلك ما يميزها عن حياة الحضارة التى تتعدد مسالكها ، وتتعقد شعابها ، وتزداد فيها حاجات النفس والعقل ، فلا يعود الفرد يكتفى بالقليل من حاجات العيش الذى يقيم صلبه ويبقى على حياته ، وإنما يجدّ فى تسخير الطبيعة وتذليل عقباتها ، والإمعان فى التفكير الذى يوصله إلى إشباع رغائبه من مطالب الحياة التى لا تنقضى ، ثم ينطبع كل ذلك فى عقله ، ويتسلط على تفكيره ، ويؤثر فى كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ولذلك اتسم أدب الحضارة بالتعقيد ، والميل إلى الإغراب والمبالغات المسرفة التى خلا منها أكثر أدب القدماء .

ولذلك كان شعر المعلقات مرآة انعكست فيها مظاهر الحياة الجاهلية ، وظهرت فيها هضابها وجبالها ووديانها وعيونها ، وصور سمائها ونجومها ، وسحبها وأمطارها ، وأنواع نباتها وصنوف حيوانها ، وحياة الحروب التى خاضوها بخيلها وسيوفها ورماحها ودمائها . ولم يخرج ذلك الشعر عن تلك المقاصد التى قصدوا إليها ، والمشاهد التى وقعت عيونهم عليها ، كما أعرب عن عواطفهم وانفعالاتهم ، وعبّر عن شعور اللذة والألم ، والرضا والسخط ، والحب والبغض . ولذلك كانت الواقعية أظهر خصائص هذا الشعر الذى عبر عن الحقيقة أصدق تعبير .

وقد خلا شعر المعلقات من المبالغات الممقوتة والدعاوى الباطلة ، ولم يصف إلا ما رآه ، ولم يتفاعل إلا بما عرفه ، ولم يؤلف صور الخيال إلا من مجموع

ما رأى وعرف ، مع البعد عن الغلو والإسراف الذى تلحظه فى أشعار المتأخرين الذين عاشوا فى عصور الحضارة .

كما يمتاز شعر المعلقات بأنه قريب التناول ، بعيد عن النزعات الفلسفية ، وعن التعمق فى فهم أسرار الكون والكائنات ،والبحث فى أسرار الطبيعة وما وراء الطبيعة ، اللهم إلا أفكاراً عارضة عن الموت والبعث والجزاء مما سمعوه عن أهل الديانات ،أو كان نتيجة لإدراكهم نهاية الحياة مما رأوا بأنفسهم عن مصير الحياة فى أسلافهم ؛ ولا يحسب شىء من ذلك من آثار الفلسفة ، أو التعمق فى محاولة فهم ظواهر الحياة ، والبحث عن أسرارها .

والناظر فى معانى المعلقات وأخيلتها يجدها معانى مادية وأخيلة قريبة مما يعرفه أصحابها فى تلك البيئة الجاهلية ، فامرؤ القيس يشبه نفسه وقد دمعت عيناه بناقف الحنظل الذى يشقه ليستخرج حبه (٤) ورائحة المسك التى تنبعث من من أردان أم الحويرث وجارتها أم الرباب تشبه رائحة نسيم الصبا وقد مرت على القرنفل واكتسبت منه طيبا (٨) وشبه شحم راحلته التى عقرها للعذارى بأطراف الإبريسم الأبيض (١٢) ويشبه ما تفعل عينا فاطمة بقلبه إذ تملك عليه كل جهاته بمن يفوز بأجزاء الجزور ، وتلك صورة من صور الحياة عندهم ، والسهمان هما الرقيب والمعلّى من قداح الميسر[1] فالرقيب ثلاثة أسهم والمعلّى سبعة أسهم ، وجزور الميسر يقسّم عشرة أقسام ، فمن خرج له هذان السهمان فقد فاز بجميع أجزاء الجزور (٢٦) .

أما حبيبته فقد شبهها ببيضة الخدر (٢٧) و ببيضة النعامة (٣٦) وترائبها

---

(١) القداح الرابحة عندهم سبعة . هى : الفذ ، والتوءم ، والرقيب ، والحلس ، والنافس . والمسبل ، والمعلى . وللفذ واحد ، وكل قدح مما يليه يزيد واحدا على ما قبله ، فللمعلى سبعة ؛ ومجموع أنصبة القداح الرابحة ثمانية وعشرون نصيبا . أما القداح الغارمة فهى : المنيح ، والسفيح ، والوغد .

المصقولة بالسجنجل (٣٥) وناظرتها بناظرة وحش وجرة (٣٧) وجيدها بجيد الرئم (٣٨) وشعرها بكباسة النخلة (٣٩) وساقها بأنبوب السقى (٤١) وجانب خاصرتها بخطام البعير (٤١) وأناملها الفضة بالأساريع وأصابعها بأغصان الإسحل (٤٣). وشبه الليل بموج البحر (٤٨) وبالجمل ذى الصلب والعجز والكلكل (٤٩)

حتى ما رآه فى السماء ونجومها شبهه بما يراه على الأرض، فالثريا كالوشاح الذى يفصل بين خرزه، لتفاوت قليل بين كواكبها، فكأنها خرزات الوشاح فصل بينها شيء آخر (٢٩) والنجوم لا تزايل مواضعها كأنها شدت بيذبل بكل مغار الفتل (٥١) والثريا كأنها علقت فى مواضعها بأمراس كتان وصلت بحجر ثابت (٥٢).

كما شبه الوادى الواسع بجوف العير (٥٤) وحصانه بجلمود صخر أنزله السيل من عل (٥٨) ولبده يزل عن ظهره كما يزل المطر فوق الصخر الأملس (٥٩) وصوت جريه كصوت غليان المرجل (٦٠) وهو يدر بالجرى كخذروف الوليد (٦٣) وخاصرتاه كخاصرتى الظبى، وساقاه كساقى النعامة، وعدوه كعدو الذئب وعدو ولد الثعلب (٦٤) وكأن جانبى صلبه إذا اعتمد على رجليه الحجر الذى يدق عليه الطيب للعروس، أو الحجر الذى يكسر به الحنظل (٦٦) كما شبه دماء الوحش على عنق هذا الفرس بما بقى من الحناء على الشعر الأشيب (٦٧) ونعاج بقر الوحش بالعذارى يطفن حول الصنم (٦٨) وشبههن فى نفورهن بالجزع المفصل (٦٨).

وشبه البرق فى تحركه ولمعانه بلمع اليدين، وفى تألقه بمصباح راهب أميلت فتيلته بصب الزيت عليها (٧٥، ٧٦) وشبه جبل ثبير فى أوائل المطر بكبير قوم تزمل بكساء مخطط (٨٢) وأعلى رأس المجيمر صبيحة ذلك المطر مما جلبه السيل إليه وأداره بجوانبه بالخشبة التى تطيف بالمغزل وتحيط به (٨٣) وحمله الذى ألقاه

بصحراء الغبيط بما ينشر التاجر اليمانى مما فى عيابه من الثياب ليعرضها على من يريد شراءها (٨٤) ومكا كى الجواء وقد أصابها المطر بشارب الصبوح (٨٥) والأسود وقد غرقت فى سيول ذلك المطر بأصول البصل البرّى .

هذا ما اشتملت عليه معلقة امرىء القيس وحدها من فن التشبيه ، وإنه لكثير ؛ وإن هذه التشبيهات مع كثرتها لم تخرج عن دائرة التشبيهات المادية القريبة .

وأكثر ما فى معلقة طرفة على هذا النحو من المعانى والأخيلة المادية ، فقد شبه ما بقى من أطلال خولة بما بقى من الوشم فى ظاهر اليد (١) وشبه مراكبها بالسفن العظام (٣) وشبهها بالغزال الأحوى الطويل العنق (٦) وثغرها الذى تضرب حمرة شفتيه إلى سواد بأقحوان نبت فى كثيب من الرمل لم يخالطه تراب (٨) وهو فى بريقه كأن الشمس كسته ضياءها (٩) ووجهها المشرق كأن الشمس أعارته ثوبا نقيا (١٠) .

وحين أخذ فى وصف الناقة ، عبر عن عظمة جسمها وضخامته،فشبه عظامها بألواح التابوت، وشبه الطريق الذى تسلكه بالكساء المخطط ،لأن فيه من آثار أقدام الإنسان وحوافر الدواب وأخفاف الإبل المتتابعة ما هو كالخطوط التى فى الثوب المخطط (١٢) وشبهها بالجمل فى قوة أعضائها ووثاقة خلقها ، وبالنعامة التى عرضت لظليم فى سرعتها (١٣) ومنبت ذنبها فى البياض بجناحى نسر أبيض (١٧) وشبه ضرعها البالى بالقربة الخلق (١٨) وفخذيها فى السمن ببابى قصر عظيم (١٩) وأضلاعها المتصلة بفقارها بالقسى (٢٠) وإبطيها فى السعة ببيتين من بيوت الثور الوحشى ، وأضلاعها بالقسي المعطوفة تحت صلب محكم (٢١) ومرفقيها البعيدين عن جنبيها بسقّاء قوىّ حمل بكل يد دلوا ومشى بهما وقد باعدهما عن جنبيه فارتفع بذلك مرفقاه عن جنبيه (٢٢) وشبهها فى

ضخامة جسمها وحسن خلقها وتراصف أعضائها بقنطرة رجل رومى بالغ فى صنعها وتقوية بنائها (٢٣) وشبه آثار النسع فى جلدها بآثار طرق مورد على صخرة ملساء فى أرض صلبة (٢٧) وعنقها الطويل بسكان السفينة (٢٩) ورأسها فى صلابته بالسندان (٣٠) وخدها فى نعومته بقرطاس الشآمى ، وشفتها بجلد مدبوغ (٣١) وعينيها بالمرآتين اللامعتين فى كهفين وقد أحيطتا بعظمين كأنهما حجر القلت (٣٢) وبعينى البقرة الوحشية التى أريعت (٣٣) وشبه أذنيها بأذنى الشاة (٣٥) وقلبها الذكى بحجر المرداة (٣٦) وإسراعها فى السير بإسراع ذكر النعام (٣٩) وشبهها فى التبختر فى مشيتها بالجارية ترخى أذيالها وتتبختر أمام سيدها (٤٤) .

أما نداماه فقد شبههم بالنجوم (٤٨) وشبه صوت القينة بصوت النوق تبكى أولادهن (٥١) وشبه نفسه حين تحامته العشيرة بالبعير الأجرب (٥٣) وشبه حصانه بذئب الغضا المتورد (٥٩) ورجلى المرأة ويديها بالشجر والخروع (٦١) والموت بصاحب الدابة يرخى لها رسنها لترعى وطرفه بيده فهو قابضها لا محالة (٦٨) وشبه اليأس بالموت (٧٢) وشبه نفسه فى الخفة والمضاء برأس الحية (٨٤).

وفى معلقة زهير : تشبيه ديار أم أوفى بالرقمتين بما يبقى على ظاهر اليد من الوشم (٢) وما يفرش من الثياب بالدم فى الحمرة (٩) وإصابة المقصود باليد التى لا تخطىء الفم (١١) وفتات العهن بحب الفنا فى تفرقه (١٣) والحرب تستأصل المحاربين بالرحى تعرك ثفالها (٣١) وشبه حصين بن ضمضم بالأسد ، والسلاح بالأظفار ، واستعارهما لهما (٣٨) .

وفى هذه المعلقة كثير من صور التمثيل ، كتمثيله المنايا تميت من تصيبه ، ويطول عمر من تخطئه حتى يهرم ، بالناقة العشواء تسير بالليل على غير هدى (٥٠) وتمثيله من كانوا فى صلاح من أمرهم ، ثم صاروا إلى حرب تستعمل فيها السلاح وتسفك الدماء بقوم رعوا خيلهم زمنا ، فلما ظمئت أوردوها مياها كثيرة (٤٠)

وتمثيله من لا يجامل الناس ويداريهم فى أكثر أموره معهم فيصيبونه بما يكره بمن يضغ بالضرس ويوطأ بالمنسم (٥١) والذى يبعد فى الفرار من المنية بمن يحاول أن يرقى أسباب السماء بسلم (٥٥).

وفى معلقة لبيد شبه الرسوم الباقية بالكتابة الباقية على الأحجار (٢) والطلول التى غسلت الأمطار ما كان متراكا عليها من التراب بالكتب التى غابت فيها الكتابة، لبعد عهدها بالكاتب، والسيول بالأقلام تجدد كتابة تلك الكتب (٨) وبالواشمة عمدت إلى وشم ضعف أثره على اليد فرجعته وأعادته بذر النئور على داراته كأنه جديد (٩) وجماعات النساء على هوادجهن ببقرات وحش فى حسن عيونهن، وبظباء وجرة عاطفات على أولادهن (١٤) والرحال فى ضخامتها بأثلات منعطفات وادى بيشة وأحجاره الضخمة (١٥) وشبه الناقة فى خفتها بالسحابة (٢٤) والغبار بدخان النار (٣١، ٣٤) والبقرة الوحشية كلما تحركت بالليل أشرق لونها بالدرة انقطع سلكها (٤٣) والقرن بالرمح (٥٠) واستعار الرقص للارتفاع والانخفاض (٥٣) واستعار لريح الشمال يداً (٦١) وشبه الفرس منتصبة بالنخلة المشرفة (٦٦) والمرأة البائسة بالناقة التى شدت على قبر صاحبها (٧٦) وشبه قومه للناس بالربيع الذى يحيى ميت الأرض (٨٧).

وتفيض معلقة عمرو بن كلثوم بأمثال هذه التشبيهات، فقد شبه الماء الذى تمزج به الخمر بالورس (٢) لأنها إذا مزجت بالماء اكتست ثوب صفرة. وشبه ذراعى المرأة بذراع ناقة بيضاء لم تلد بعد (١٤) يريد أنها سمينة وأن بشرتها خالصة البياض. كما شبه ثديها بحق العاج بياضاً واستدارة (١٥) ولما كان حق العاج يابساً خاف أن يسبق إلى الوهم أن ثديها الذى شبه به يكون كذلك، فنفاه بقوله « رخصاً » أى غضا ناعماً طريا، ثم قال إن هذا الثدى لم تمسه يد لامس، وأن صاحبته عفيفة. وشبه ساقيها بساريتين من عاج أو رخام إذا تحركا سمع لحليهما رنين (١٨) وشبه وجده بها بوجد ناقة أضلت حوارها فرجعت

الحنين (١٩) ويوجد العجوز لم يترك لها الدهر أحدا من أولادها التسعة (٢٠) ومثل اليمامة وقد بعدت عنهم ، وحال دونها السراب ، فتراءت لهم مرتفعة بالسيوف المسلولة من أغمادها ، وقد خيلها السراب كذلك (٢٢) وفخر بأنهم إذا حاربوا قوما طحنوهم كما تطحن الرحى الحنطة (٣٠) وجعل قرى أعدائهم الحرب الطاحنة (٣٣) وشبه رءوس أولئك الأعداء إذا سقطت عن أجسادهم بأحمال إبل سقطت فى أرض ذات حجارة (٣٧) وسيوفهم بالمخاريق فى أيدى صبيانهم ، لأنهم مهرة حذقوا حملها والضرب بها (٤٣) وثيابهم لكثرة ما وقع عليها من الدماء كأنها خضبت بالأرجوان (٤٤) وشبه الدروع فى تدريجها وحسن نسجها بطرائق الماء إذا هبت عليه الريح (٧٨) والنسوة إذا مشين غير عجلات وتمايلن مرحاً بالمخمورين يتمايلون (٨٦) واليد فى سرعتها فى الضرب بالقلين التى يلعب بها الصبيان . وكذلك تفيض معلقة عنترة بكثير من التشبيهات كما شبه ناقته أو أطلال حبيبته بالقصر (٦) وشبه الإبل الحلوبة فى سوادها وكثرتها بخوافى الغراب الأسود (١٥) وريح حبيبته بريح فارة المسك (١٨) و بريح الروضة الأنف (١٩) وتغريد الطيور فى الروضة بترنم الشارب المترنم (٢٢) والذباب إذا سن إحدى ذراعيه بالأخرى برجل أجذم قعد يقدح نارا بذراعيه (٢٣) وشبه نفسه على ظهر الناقة بمن يكسر الإكام بخف ظليم صلب (٢٨) والنعام تستجيب لذلك الظليم بجماعات الإبل تجتمع إذا أهاب بها الراعى (٢٩) وهذا الظليم كأنه مركب جعل خيمة فالنعام يحاذينه ليتظللن به (٣٠) وشبهه فى صغر رأسه بالعبد الأسود (٣١) وشبه قوائم الناقة بدعائم الخيام (٣٥) وبالناقة من الحدة والنشاط ما كأن هراً تحت إبطها ينهشها (٣٣) وشبه عرقها الذى يسيل من رأسها بالدبس والقطران جعل فى قمقم وأشعلت تحته النار (٣٧) وظلمه غير المستساغ بالعلقم فى مرارته (٤١) ورشاش الطعنة النافذة بالعندم فى الحمرة (٤٧) ورأس القتيل و بنانه وقد جللتهما الدماء كأنما خضبا بالعظلم (٦٤) وهو

فى طول قامته كالسرحة العظيمة (٦٥) .وشبه جيد حبيبته بجيد الجداية (٦٩) وشبه الرماح بالحبال التى ترسل فى البئر (٧٩) .

وشبه الحارث النار التى أوقدتها هند فبينت ديارها بالضياء الذى يغمر السكون ويبدد الظلمات (٦) كما شبه ناقته السريعة بالنعامة طويلة الساقين ذات الأولاد (١٠) وشبه الغبار الدقيق التى تثيره بقوائمها بما يشاهد فى شعاع الشمس بالدخان إذا نظرت إليه من كوة (١٢) ومثل المنية ترميهم بمصائبها بمن يرى جبلا فلا يضيره ولا يؤثر فيه (٢٥) وشبه من يصبر على احتمال الأذى ن يغمض عينه على القذى (٣٠) ومن يحمل جريرة غيره بالجمل تعلق أحمال غيره على ظهره (٤٧) ومن يؤخذ بذنب غيره بالظباء تؤخذ بذنب الشاة (٥١) والصعاليك بالأنقاء[1] لحقارتهم (٦١) والدماء التى تنزف من الجراح بالماء الذى يسيل من المزادة (٧٢) كما شبه تحرك الرماح فى أجسامهم بالدلاء تحرك فى البئر لتمتلىء (٧٤) والكتيبة المجتمعة على قائدها بالقرون المنحنية على رأس الحيوان (٨٢) .

ذلك أكثر مافى المعلقات من التشبيهات ، وهى تعطى صورة واضحة لمعانيها ، ونستطيع من استقراء هذه الصور وما يماثلها أن نرى :

(١) أنها تشبيهات قريبة ، لاتحتاج إلى تعمق فى فهمها ؛ وأنها تمتاز بالبساطة والسهولة .

(٢) وأن معانيها معان مادية مما تقع عليه الحواس .

(٣) وأن منتزع هذه المعانى هى البيئة التى عاشوا فيها ، بما فيها من سماء ونجوم ، وسحاب ومطر ، ونبات وحيوان ، وسائر مايجدون فى حياتهم البدوية .

وبذلك استطاع هذا الشعر أن يسد كثيراً من الثغرات التى يجدها الباحث فى تاريخ الأمة العربية قبل الإسلام ، حين لايجد مايساعده على تحقيق غرضه من

---

(١) الأنقاء جمع لقى ، وهو الشىء المطروح الذى لا يكترث به لحقارته .

الآثار الشاخصة ، أو النقوش البارزة ، أو الكتابة الباقية التى صورت حياة غيرهم من الأمم ، واعتمد عليها المؤرخون ، واتخذوها مصدراً للمعلومات التى استطاعوا الاهتداء إليها . ولذلك نهض هذا الشعر بكثير من الحقائق عن الأمة العربية التى لم يستطع أن ينهض بها غيره من مصادر التاريخ .

ولا يوصف أكثر تلك المعانى بالسرقة ، فقد كان أصحاب المعلقات من الأئمة الذين فجروا عيون الشعر ، واستخرجوا معانيه ، واتبعهم فيها الذين جاءوا من بعدهم من الشعراء . قال أبو عبيدة . يقول من فضل امرأ القيس . إنه أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى فى الدمن ، ووصف مافيها . . وهو أول من شبه الخيل بالعصا واللقوة[1] والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف . وقال أبو عبيدة: إن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد ، يعنى فى قوله فى وصف الفرس « قيد الأوابد » فتبعه الناس على ذلك . . وأول من قال « فعادى عداء » فاتبعه الناس . وكذلك وجدنا مثل هذه الكلمات فى وصف أولئك الفحول .

والإشارة إلى أولئك الفحول وابتكارهم لمعانى المعلقات تقتضينا الإشارة إلى ماتوارد عليه امرؤ القيس وطرفة بن العبد ، فى قول الأول :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجمل

وقول الآخر :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجلد

فقد اتفقا فى البيتين على هذا النحو ، ولم يغير طرفة إلا لفظ القافية الذى جعله طرفة « تجلد » موضع « تجمل » فى بيت امرئ القيس .

وهذا لون من السرقات ، سماه النقاد « وقوع الحافر على الحافر » وأجمعوا

---

(١) اللقوة العقاب الأنثى ، أو الخفيفة السريعة .

على رفضه والتهوين من شأن قائله ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا أبو عمرو بن العلاء الذى يقول فى هذين البيتين « عقول رجال توافت على ألسنتها » .

ولا نستطيع أن نقر هذا التوافى أو التوافق أو الالتقاء عند كثيرين من الآخذين ، إذا كنا عارفين على وجه التحقيق أن المأخوذ منهم سابقون فى الوجود والحياة على الذين شابهت أقوالهم أو أعمالهم الأدبية أو بعضها أعمال أولئك السابقين . والتوافق على هذا النحو بين المتعاصرين أكبر الظن أن مرجعه سوء حفظ أولئك الرواة، الذين يختلط عليهم الأمر فينقلون من شاعر إلى شاعر ، إذا وجدوا تقاربا فى الاتجاه أو فى الموضوع ، أو فى الفكرة المعبر عنها . ومرجع ذلك فى الحقيقة إلى الغفلة والنسيان ، وكثرة مايسمعون وكثرة مايرون لشعراء مختلفين؛ وأغلب الظن أن راوى القصيدتين واحد ، وربما يشفع له فى ذلك الخلط أن القصيدتين من بحر واحد هو « بحر الطويل » وقد قدم كلا الشاعرين قصيدته بحديث عن الأطلال والديار ، فأطلال امرئ القيس بسقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة ، وأطلال خولة ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد، وكما ناسب الاستيقاف عند تلك الربوع الخاوية بعد ذكرها عند امرئ القيس ، ناسب ذلك عند طرفة أيضاً .

إنها ظنون فى عقل الراوى وفى خلد الناقل يسرت له الرواية ، كما يسرت له أيضاً استبدال حرفين فقط فى لفظ القافية بحرفين ينسجمان مع القافية . إن التفكير المنطقى لا يمنع جواز ذلك النسيان والغفلة من الراوى .

كما لا يمنع أن يكون الوهم من طرفة نفسه ، فمن المحتمل أن يكون قد سمع بيت امرئ القيس ووعاه فى عقله الباطن ، ثم نسيه ونسى صاحبه ، فلما صاغ قصيدته وضع هذا البيت فى ذلك الموضع معتقداً أنه بيته ، وما هو بيته ، ولكنه الوهم ووحدة الغرض ، وسياق الحديث ، هو الذى دعاه إلى ذلك الزعم ، وليس لذلك كبير خطر ، فإن ذلك المعنى أصبح من المعانى السائدة التى لاكتها ألسنة

الشعراء الجاهليين بل فحولهم ، وبين أيدينا قصيدة طرفة بأسرها ، وهى تفيض بآيات الشاعرية الناضجة،وفيها من المعانى المبتكرة مالا يعجز صاحبهاعن الإتيان بمعنى امرئ القيس فى غير لفظه، وفى غير معرضه وكسوته إن أراد .

أما أن يكون اللفظهو اللفظ ، والترتيب هو الترتيب ، من غير اختلاف فى كلمة أو حرف سوى حرف القافية ، فذلك ما ننكر التوارد فيه و الاتفاق عليه، إذ أننا نرى جواز التوارد فىالفكرة والمعنى والعاطفة،ولا نراه فىالصورةوالأسلوب ولا ننكره فى لفظة أو لفظتين : إذا كانتا خاصتين بالمعنى أولا يعبر عنه إلا بهما أو بأمثالها .ومثل ذلك الذى قلناه فى امرئ القيس وفىطرفة يمكن أن يلتمس عذرا فى أمثال تلك النصوص .

أما « موقع الحافر على الحافر » كما يقولون ، أو « عقول الرجال تتوافىعلى ألسنتها » فلسنا نراه يقع على هذه الصورة الكاملة التى جمعت الفكرة وصورتها، لأنه ينشأ عن التسليم بهذا المبدأ أن المعنى واللفظ مقترنان فى الذهن ، وأنهما كذلك فى جميع الأذهان ، وقد يكون ذلك فى لفظ واحد: اسم ذات، أو اسم معنى، ولكنه لايكون كذلك فى العبارة عن المعانى المركبة أو جملة من العواطف أو الانفعالات المتنقلة ، أو الحياة العقلية التى يسرى تيارها متتابعا(١) .

وقد ذكر أن طرفة أخذ بيته فى وصف ناقته :

أَمُونٍ كألواح الإرَانِ نَسَأْتُها   على لاحبٍ كأنّه ظهرُ بُرْجُدِ

من قول امرئ القيس فى غير المعلقة :

وعَنْس كألواح الإرَانِ نَسَأْتها   على لاحبٍ كالبُرْدِ ذى الحبراتِ(٢)

ومعنى البيتين واحد ، والاختلاف بين ألفاظهما قليل .

* * *

(١) انظر الفصل الخامس من كتابنا (السرقات الأدبية)صفحة ١٠٢ وما بعدها .

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨١/١ — والعنس الناقة القوية شبهت بالصخرة الصماء اصلابتها ، والإران خشب صلب يشد بعضه الى بعض ، نسأتها زجرتها، وسقتها بالمنسأة وهى العصا ، واللاحب الطريق الواضح ، البرد ذو الحبرات من ثياب اليمن الموشاة . .

والناظر فى معانى المعلقات يجدها فى كثير من الأحيان غير مرتبة الترتيب المنطقى الذى ينشده المتأخرون، وكثيراً ما يجد الشاعر قد ترك المعنى الذى كان آخذاً فيه ، وانتقل إلى معنى آخر استطراداً ، ثم يعود إلى ما كان فيه . ولذلك كان من الممكن مجاراة القائلين بأن من اليسير على الناظر فى هذا الشعر أن يقدم بيتا ويؤخر آخر عن موضعه ، ولا يجد ما يحول بينه وبين ما يريد شىء قد يضيع المعنى أو يفسده ، إن هو قدّم أو أخّر بيتاً أو عدداً من الأبيات . والسبب فى ذلك هو تعلق الأذهان بالجزئيات ، وعدم التفكير فى الربط بين الأفكار والمعانى ، ووصل كل جزء منها بما يتممه. على أننا فى الواقع نجد شيئاً من ذلك أو قريباً منه فى وصف بعض صنوف الحيوان التى عرض بعض أصحاب المعلقات لوصفها ، كما فى وصف الفرس لامرىء القيس ، ووصف الناقة فى معلقة طرفة، وفى معلقة لبيد أيضاً ، وذلك لعنايتهم الفائقة بالحيوان، وهذين الحيوانين بالذات ، لطول ملازمتهم لهما ، وعظم نفعهما لهم فى الظعن والإقامة والصيد والحروب . ولكنا مع ما نجد من الاستقصاء فى وصف الحيوان لانجد ما يفسد المعانى بتقديم بعض الأبيات على بعض .

وقد أصبح بدء القصائد بذكر الرسوم تقليداً من تقاليد الشعر الجاهلى ، وجرى عليه أصحاب المعلقات، ولم يشذ عن هذا التقاليد إلا عمرو بن كلثوم الذى بدأ معلقته بذكر الخمر ، وقد علل لذلك ابن قتيبة فى كتاب الشعر والشعراء بأن « مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِّمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الرّبع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ، ليُميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريبٌ من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً

منه بسبب ، وضار بما فيه بسهم » .

إذن فطبيعة الحياة نفسها هي التي جعلت هذا الغرض في مقدمة ما عالج الشعراء من الأغراض كما كانت سائر الأغراض أيضاً مما أوحت به الطبيعة التي عاش فيها أولئك الشعراء وأخلصوا لها ، واستقوا معانيهم منها، واشتقوا أخيلتهم مما يرونه في جنباتها الواسعة . وكذلك كان الانتقال من غرض إلى غرض موافقاً لطبيعتهم ، وملائماً لنظرتهم القريبة العاجلة التي لا تصبر على التأمل والفحص عن تلك المشاهد أو الخواطر غالباً . وكان من الطبيعي ألا ننشد في هذه القصائد « وحدة الموضوع » التي ينشدها الدارسون والنقاد في هذه الأيام فيما يعرض عليهم من الأعمال الأدبية ، لأن لكل عصر طبيعته ، ولكل جماعة ذوقها العام الذي ينبع من تلك الطبيعة . ومن خصائص الذين يعيشون في عصور الحضارة الدقة في البحث والاستقصاء ، ومحاولة عدم الخروج عن جادة الموضوع ، سواء أكان ذلك في مجال البحث العلمي أم كان في الأعمال الفنية ، ثم إن تقدم العلوم وتنظيم مناهج البحث فيها من أهم ما يدعو إلى طلب الوحدة في الموضوع ، وحصر الذهن في دائرة لا تتعداها ، حتى يكون الإتقان العلمي أو الإتقان الفني ، وحتى لا يجد المطلع نقصاً يعيب به صاحب العمل ، وذلك لأن الموهوبين في النواحي العلمية أو الفنية يحاولون دائماً أن يظهروا بالانفراد ، وأن توصف أعمالهم بالكمال حتى لا يجد المعقب معه ثغرة ينفذ منها إلى الغض من العمل ، أو النيل من صاحبه، والسعة من أهم الأسباب التي تعوق عن تحصيل الكمال المنشود .

ولم يكن الأقدمون يحسون بهذه الأفكار التي يحس بها الذين عاشوا في عصور الحضارة ، لأن تلك المعاني كانت بكراً ، فحاولوا أن يحصلوا منها ما يستطيعون ؛ من غير محاولة للاستقصاء أو التدقيق ، ولذلك قيل إن معاني الشعر عند الأقدمين كانت غير نهائية ، وهي عند المحدثين نهائية ، ومعنى ذلك أن كل غرض من الأغراض التي عالجها القدماء يمكن أن يعالجه المتأخرون ، لأن عرض الأقدمين كان أشبه بالإشارة والإجمال ، أما عرض المتأخرين فإنه عرض يميل إلى التفصيل والتدقيق والاستقصاء .

الخاتمة

وبعد هذه الجولة فى تلك الآثار الخالدة فى التاريخ الأدبى للأمة العربية أرجو أن أكون قد وفقت إلى تحقيق ما صبوت إليه من الدراسة الموضوعية لفن المعلقات الذى تناولته من أكثر جهاته ، ومهّدت السبيل لخدمة النص الأدبى والاعتماد عليه فى محاولة التعرف على أولئك الذين أنشئوه ، والبيئة التى عاشوا فيها ، والظواهر الطبيعية والاجتماعية التى بانت معالمها فى الأعمال الأدبية .

ولست أزعم أننى أتيت على كل ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع الذى جعلت آفاقه تتسع أمامى كلما تقدمت فى البحث ، وأوغلت فيه ؛ وكانت محاولتى دائما أن أثنى عنان القلم الذى كان يحاول أن يلم بكل صغيرة وكبيرة تتصل بهذا الموضوع ، ولم أشعر فى أية مرحلة من مراحل البحث بما قد يشعر به الذين يكتبون فى الموضوع الواحد من الضيق بقيوده ، والتزامهم بحدوده .

وأعتقد أن هذه الدراسة تفتح كثيراً من أبواب الدراسات أمام المختصين فى فنون المعرفة المختلفة ، فإن علماء التاريخ يستطيعون تحقيق كثير من الأعلام ، وتمحيص الوقائع والأحداث التى يجدون فى ثنايا المعلقات إشارات إليها ، بما يجدون فى مصادر التاريخ الأخرى . ويستطيع علماء الجغرافية أن يستعينوا بها فى وصف طبيعة الجزيرة العربية ، وتحديد مواقع المنازل والجبال والهضاب والوديان ، ورسم خرائط تفصيلية تعين مواقعها ، وتشير إلى ما بقى منها وما اندثر . وكذلك يجد علماء النبات والحيوان مجالا لدراسة ما عرضت له المعلقات من صنوفهما .

وعلماء اللغة يستطيعون بحصر الألفاظ التى استعملها أصحاب المعلقات دراسة كثير من الظواهر اللغوية فيها ، ومعرفة الألفاظ العربية والدخيلة ، كما يستطيعون تتبع هذه الألفاظ ، والبحث عن حياتها فى الزمن ، وما أبقاه الاستعمال ، وما أماته الإهمال ، واحتفاظ كل لفظ بمعناه ، أو ما أصابه من تصرف العصور فى ذلك المعنى ، أو إبعاد

له عن دلالته بالتوسع أو المجاز ، أو إشراك معنى غيره معه فى الدلالة عليه ، و بقاء اللفظ جامداً ، أو اشتقاق ألفاظ أخرى منه .

ذلك بعض ما تثيره هذه الدراسة من الأفكار والدراسات التى ذكرت منها مايتسع له نطاق هذا البحث .

والحمد لله على ماهدى إليه ، وأعان عليه ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، نعم المولى ونعم النصير ؟

بدوي أحمد طبانة

استدراك

وقعت بعض الأخطاء المطبعية القليلة نشير إلى بعضها فيما يأتى :

فى السطر الثانى من الصفحة ٦ كلمة إذا ، وصوابها إذ .

وفى السطر السادس من الصفحة ٢٦ كلمة بهذه ، وصوابها بهذا .

وفى السطر الأول من الصفحة ٤٤ كلمة كان ، وصوابها إذا كان .

وفى السطر التاسع من الصفحة ١٢٨ كلمة المعم ، وصوابها المعمّد .

وفى السطر التاسع من الصفحة ١٣٠ كلمه غولا ، وصوابها وغلا .

وفى السطر الحادى عشر من الصفحة ١٥٩ كلمة طرفة ، وصوابها لبيد .

وفى السطر الثامن عشر من الصفحة ١٩٦ كلمة الجون ، وصوابها الجونجون .

وفى السطر الثامن عشر من الصفحة ١٩٦ كلمة عنون ، وصوابها عنود .

الفهرس

الموضوع الصفحة

الفصل الرابع

الفن الشعرى فى المعلقات (٢٩٥ — ٤٠٠)

للمؤلف

الكتب المطبوعة

(١) معروف الرصافى :

دراسة أدبية لشاعر العراق ،وبيئته السياسية والاجتماعية.

(٢) أدب المرأة العراقية :

دراسة فى الأدب النسوى،وتعريف بشواعر العراق .

(٣) أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية :

منابع بلاغته ، ومنهجه ، ومقاييسه ، وأثره فى البلاغة والنقد .

(٤) دراسات فى نقد الأدب العربى :

بحث فى حياة النقد ،وآثار النقاد،ومناهجهم، من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

(٥) قدامة بن جعفر والنقد الأدبى :

تحقيق لحياته وآثاره ،ودراسة لمنهج جديد فى النقد الأدبى .

(٦) السرقات الأدبية :

بحث فى ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها .

(٧) البيان العربى :

دراسة تاريخية فنية فى أصول البلاغة العربية .

(٨) مقدمة فى التصوف الإسلامى :

ودراسة تحليلية لشخصية الغزالى وفلسفته فى الإحياء .

(٩) معلقات العرب :

دراسة نقدية تاريخية فى عيون الشعر الجاهلى .

مطبعة الرسالة
٣ شارع حموده المقاول - عابدين